(٤٠) سُورَةُ غَافِرٍ مَكِيَّة
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَثَمَانُونَ

سورة غافر من السور المكية التي تهتم بقضايا العقيدة ، وتُعْنى ببناء صرح الإيمان ، شأنَ سائر السور المكية التي تعالج قضية التوحيد ، وقضية البعث ، وقضية الوحي والرسالة ، ولكنَّ هذه القضايا الأساسية لم تكن موضوعَ السورة البارز ، إنما كان موضوعُها المعركة بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، وبين الإصلاح في الأرض والعلوّ والطغيان ، ولهذا جاء جوُّ السورة مشحوناً بطابعَ العنف والشدَّة ، وكأنه جوُّ معركةٍ رَهيبة يكون فيها الطعنُ والنزال ثم تُسفر عن مصارع الطغاة فإذا بهم حُطام وركام .

تبتدىء السورة الكريمة بإثبات صدقِ القرآن ، ومع وضوحه وسطوعه فقد جادل فيه المجادلون ، وكابر فيه المكابرون ، شأن الطغاة في كل زمان ومكان ﴿حۤم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافِرِ الذنبِ وقابلِ التوبِ شديدِ العقاب ، ذي الطَّوْل ، لا إله إلا هو إليه المصير . ما يجادل في آيات اللهِ إلا الذين كفروا فلا يغرُرْك تقلُّبهم في البلاد﴾ وتعرض السورة مصارع الغابرين ، وقد أخذهم الله أخذَ عزيز مقتدر ، فلم يُفلت منهم أحد ﴿كذبتْ قبلَهم قومُ نوح والأحزابُ من بعدهم وهمَّتْ كلُّ أُمةٍ برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليُدحضوا به الحقَّ فأخذتُهم فكيف كان عقاب ؟ وكذلك حقت كلمةُ ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ وفي ثنايا هذا الجوِّ الرهيب ، يأتي مشهد

حملة العرش في دعائهم الخاشع المنيب ﴿الذين يحملون العرش ومن حولَه يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعتَ كل شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جناتِ عدنٍ التي وعدتهم ، ومن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . وقِهم السيئاتِ ومن تقِ السيئاتِ يومئذٍ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم﴾ . وتتحدث السورة الكريمة عن مشاهد الآخرة وأهوالها ، فإذا الناس بارزون أمام الملِكِ الديان ، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد لشدة الفزع تنخلع ، وإذا العباد واقفون للحساب يغمرهم رهبةٌ وخشوع ، ويخيّم عليهم الجلالُ والصمتُ ﴿لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحدِ القهار . اليوم تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب . وأنذرهم يوم الآزفةِ إذِ القلوبُ لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع﴾ ويأتي الحديث عن قصة فرعون الطاغية مع موسى وهارون ، تمثّل موقف الطغيان من دعوة الحق ، ففرعون يريد بكبريائه وجبروته أن يقضي على موسى ودعوته خشيةً من انتشار دينه بين الأقوام ﴿وقال فرعونُ ذروني أقتلْ موسى ولْيدْعُ ربه ، إني أخاف أن يُبدّلَ دينكم ، أو أن يظهر في الأرضِ الفساد﴾ وهذا هو منطق الطغيان في كل زمانٍ ومكان ، وأما موسى فيلتجىء إلى الحِصن الحصين والركن الركين ، ويلوذ بجناب الله ليدفع عنه شرَّ الطاغية المتجبر ﴿وقال موسى إني عُذتُ بربي وربكم من كل متكبرٍ لا يؤمن بيوم الحساب﴾ ويبرز في ثنايا هذه القصة حلقةٌ جديدة لم تُعْرض في قصة موسى من قبل ، وهي ظهورُ رجلٍ مؤمنٍ من آل فرعون يُخفي إيمانه ، يصدع بكلمة الحقِّ في تلطُّفٍ وحَذَر ، ثم في صراحةٍ ووضوح

﴿وقال رجلٌ من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلاً أن يقول ربيَ اللهُ ؟ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبُه وإن يك صادقاً يصبكم بعضُ الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذاب ؟﴾ ومرةً أخرى يذكّرهم ذلك المؤمن عذابَ الله وانتقامَه ، فما يكون من فرعونَ إلا الاستبدادُ بالرأي والتجبُر والطغيان ﴿قال فِرعونُ ما أُريكم إلاّ ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ ويكرِّر المؤمنُ النصيحةَ ويحذِّر قومَه عذاب الله وبطشه ، ويكشف لهم عن حقيقة الحياة الدنيا الزائلة ﴿وقال الذي آمن يا قومِ اتبعونِ أهدكم سبيلَ الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار﴾ ثم يكرر الموعظة والنصيحة مرة أخرى ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ، تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جَرَم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري الى الله ، إن الله بصير بالعباد﴾ . وتنتهي القصة بهلاك فرعون الطاغية مع أنصاره وأعوانه ، وبنجاة المؤمن من ذلك الكرب الشديد الذي كاد يقع عليه ﴿فوقاه الله سيئاتِ ما مكروا وحاقَ بآلِ فرعونَ سوءُ العذاب . النارُ يُعْرضون عليها غدواً وعشياً ، ويوم تقومُ الساعةُ أَدْخلوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب﴾ .

وينتقل السياق إلى الحديث عن المجرمين ، وهم بين أطباقِ جهنم يتلَظَّوْن سعيرها ، وقد ثار بينهم الخِصام والجدال على أشدّه ، فالضعفاء يُلْقون باللائمةِ على الكُبَراء الذين كانوا سبباً في إضلالهم ، يسبونهم ويلعنونهم ، وأولئك يتبرءون منهم ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تَبَعاً ، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً

من النار؟ قال الذين استكبروا إنّا كلٌّ فيها ، إن الله قد حكم بين العباد﴾ ثم يَعْرِض السياقُ مشهدهم في النار أذلاءَ ضارعين ، يدعون خزنة جهنم فلا يُستجاب لهم ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخففْ عنا يوماً من العذاب . قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا بلى ، قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ ثم تعرض السورةُ الكريمة إلى بعض الآيات الكونية الدالة إلى عظمة هذا الكون ، والشاهدة بوجدانيةِ الخالقِ المُبدع ، الذي يشركون به ويكفرون بآياته ودلائل قدرته ، وتضرب مثلاً للمؤمن والكافر بالأعمى والبصير ، فكما لا يتساوي البصير الذي يرى بعينيه آثار عظمة الله ، مع الأعمى الذي لا يرى ما حوله ولا يُبصر معالِمَ الطريق ، فكذلك لا يستوي المؤمن العاقل مع الكافر الغافل ﴿لخلقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خلق الناس ، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون . وما يستوي الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ، قليلاً ما تتذكرون . إن الساعة لآتيةٌ لا ريبَ فيها ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ ويختم السورةُ الكريمة ببيان مصارع المكذبين ، والطغاةِ المتجبرين ، ومشهدِ بأس الله يأخذهم بغتةً فيستغيثون ويفزعون ، ولكنْ هيهات أن تنفع التوبة والندام ، فقد كانوا مغترين بما عندهم من العلم والقوة ، وها هم اليوم يعلنون الاستسلام ﴿أفلم يسيروا في الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشدَّ قوةً وآثاراً في الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا باللهِ وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾

سورة غافر

[٧٩٧] أخرج ابن أبي حاتم عن السدي عن أبي مالك في قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾(١) قال: نزلت في الحارث بن قيس السهمي.

[٧٩٨] وأخرج عن أبي العالية قال: جاءت اليهود إلى رسول الله [ﷺ] فذكروا الدجال فقالوا: يكون منا في آخر الزمان فعظموا أمره وقالوا يصنع كذا فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾(٢) فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾(٣) قال من خلق الدجال.

[٧٩٩] وأخرج عن كعب الأحبار في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾(٤) قال: هم اليهود نزلت فيما ينتظرونه من أمر الدجال.

[٨٠٠] وأخرج جويبر عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قالا: يا محمد ارجع عما تقول وعليك بدين آبائك وأجدادك فأنزل الله: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(٥) الآية.

* * *

---

[٧٩٧] (١) سورة غافر: الآية (٤).

[٧٩٨] (٢) سورة غافر: الآية (٥٦).

(٣) سورة غافر: الآية (٥٧).

[٧٩٩] (٤) سورة غافر: الآية (٥٦).

[٨٠٠] (٥) سورة غافر: الآية (٦٦).

سورة غافر

ثمانون وخمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي (حِم) بكسر الحاء، والباقون بفتح الحاء، ونافع في بعض الروايات وابن عامر بين الفتح والكسر وهو أن لا يفتحها فتحًا شديدًا، قال صاحب (الكشاف): قرىء بفتح الميم وتسكينها، ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين وإيثار أخف الحركات نحو: أين وكيف، أو النصب بإضمار اقرأ، ومَنْع الصرف إما للتأنيث والتعريف، من حيث إنها اسم للسورة وللتعريف، وإنها على زنة أعجمي نحو قابيل وهابيل، وأما السكون فلأنا بينا أن الأسماء المجردة تُذكر موقوفة الأواخر.

المسألة الثانية: الكلام المستقصى في هذه الفواتح مذكور في أول سورة البقرة، والأقرب هاهنا أن يقال: (حم) اسم للسورة، فقوله: ﴿حمٓ﴾ مبتدأ، وقوله ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبر والتقدير أن هذه السورة المسماة بحم تنزيل الكتاب، فقوله ﴿تَنزِيلُ﴾ مصدر، لكن المراد منه المنزل.

وأما قوله ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ فاعلم أنه لما ذكر أن ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وجب بيان أن المُنزِّل من هو؟ فقال: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ثم بيّن أن الله تعالى موصوف بصفات الجلال وسمات العظمة ليصير ذلك حاملًا على التشمير عن ساق الجد عند الاستماع وزجره عن التهاون والتواني فيه، فبَيَّن أن المنزل هو ﴿ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

واعلم أن الناس اختلفوا في أن العلم بالله ما هو؟ فقال جمع عظيم: إنه العلم بكونه قادرًا

وبعده العالم بكونه عالمًا، إذا عرفت هذا فنقول: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ له تفسيران: أحدهما: الغالب فيكون معناه القادر الذي لا يساويه أحد في القدرة. والثاني: الذي لا مثل له، ولا يجوز أن يكون المراد بالعزيز هنا القادر؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ﴾ يدل على كونه قادرًا، فوجب حمل ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ على المعنى الثاني وهو الذي لا يوجد له مثل، وما كان كذلك وجب أن لا يكون جسمًا، والذي لا يكون جسمًا يكون منزّهًا عن الشهوة والنفرة، والذي يكون كذلك يكون منزّهًا عن الحاجة. وأما ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ فهو مبالغة في العلم، والمبالغة التامة إنما تتحقق عند كونه تعالى عالمًا بكل المعلومات، فقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ يرجع معناه إلى أن هذا الكتاب تنزيل من القادر المطلق، الغني المطلق، العالم المطلق، ومن كان كذلك كان عالمًا بوجوه المصالح والمفاسد، وكان عالمًا بكونه غنيًا عن جر المصالح ودفع المفاسد، ومن كان كذلك كان رحيمًا جوادًا، وكانت أفعاله حكمة وصوابًا منزّهة عن القبيح والباطل، فكأنه سبحانه إنما ذكر عقيب قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ هذه الأسماء الثلاثة لكونها دالة على أن أفعاله سبحانه حكمة وصواب، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون هذا التنزيل حقًّا وصوابًا، وقيل: الفائدة في ذكر ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أمران: أحدهما: أنه بقدرته وعلمه أنزل القرآن على هذا الحد الذي يتضمن المصالح والإعجاز، ولولا كونه عزيزًا عليمًا لما صح ذلك. والثاني: أنه تكفل بحفظه وبعموم التكليف فيه وظهوره إلى حين انقطاع التكليف، وذلك لا يتم إلا بكونه عزيزًا لا يُغلب وبكونه عليمًا لا يخفى عليه شيء. ثم وصف نفسه بما يجمع الوعد والوعيد والترهيب والترغيب فقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

فهذه ستة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ قال الجبائي: معناه أنه غافر الذنب إذا استحق غفرانه إما بتوبة أو طاعة أعظم منه. ومراده منه أن فاعل المعصية إما أن يقال: إنه كان قد أتى قبل ذلك بطاعة كان ثوابها أعظم من عقاب هذه المعصية، أو ما كان الأمر كذلك، فإن كان الأول كانت هذه المعصية صغيرة فيحبط عقابها، وإن كان الثاني كانت هذه المعصية كبيرة فلا يزول عقابها إلا بالتوبة، ومذهب أصحابنا أن الله تعالى قد يعفو عن الكبيرة بعد التوبة، وهذه الآية تدل على ذلك وبيانه من وجوه: الأول: أن غفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة من الأمور الواجبة على العبد، وجميع الأنبياء والأولياء والصالحين من أوساط الناس مشتركون في فعل الواجبات، فلو حملنا كونه تعالى غافر الذنب على هذا المعنى لم يبق بينه وبين أقل الناس من زمرة المطيعين فرق في المعنى الموجب لهذا المدح، وذلك باطل، فثبت أنه يجب أن يكون المراد منه كونه غافر الكبائر قبل التوبة وهو المطلوب. الثاني: أن الغفران عبارة عن الستر، ومعنى الستر إنما يُعقل في الشيء الذي يكون باقيًا موجودًا فيُستر، والصغيرة تحبط بسبب كثرة ثواب فاعلها، فمعنى الغفر فيها غير معقول، ولا يمكن حمل قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ على الكبيرة

بعد التوبة؛ لأن معنى كونه قابلاً للتوب ليس إلا ذلك، فلو كان المراد غافر الذنب هذا المعنى لزم التكرار وإنه باطل، فثبت أن كونه غافر الذنب يفيد كونه غافرًا للذنوب الكبائر قبل التوبة.

الثالث: أن قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ مذكور في معرض المدح العظيم، فوجب حمله على ما يفيد أعظم أنواع المدح، وذلك هو كونه غافرًا للكبائر قبل التوبة، وهو المطلوب.

الصفة الثانية: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ وفيه بحثان:

الأول: في لفظ (التوب) قولان: الأول: أنه مصدر، وهو قول أبي عبيدة. والثاني: أنه جماعة التوبة، وهو قول الأخفش، قال المبرد: يجوز أن يكون مصدرًا، يقال: تاب يتوب توبًا وتوبة، مثل قال يقول قولاً وقولة، ويجوز أن يكون جمعًا لتوبة فيكون توبة وتوب، مثل ثمرة وثمر، إلا أن المصدر أقرب لأن على هذا التقدير يكون تأويله أنه يقبل هذا الفعل.

الثاني: مذهب أصحابنا أن قبول التوبة من المذنب يقع على سبيل التفضل، وليس بواجب على الله، وقالت المعتزلة: إنه واجب على الله. واحتج أصحابنا بأنه تعالى ذكر كونه قابلاً للتوب على سبيل المدح والثناء، ولو كان ذلك من الواجبات لم يبق فيه من معنى المدح إلا القليل، وهو القدر الذي يحصل لجميع الصالحين عند أداء الواجبات والاحتراز عن المحظورات.

الصفة الثالثة: قوله: **﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ وفيه مباحث:**

البحث الأول: في هذه الآية سؤال وهو أن قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ يصلح أن يكون نعتًا للنكرة ولا يصلح أن يكون نعتًا للمعرفة، تقول: مررت برجل شديد البطش. ولا تقول: مررت بعبد الله شديد البطش. وقوله: (الله) اسم علم فيكون معرفة فكيف يجوز وصفه بكونه شديد العقاب مع أنه لا يصلح إلا أن يُجعل وصفًا للنكرة؟ قالوا: وهذا بخلاف قولنا: غافر الذنب وقابل التوب؛ لأنه ليس المراد منهما حدوث هذين الفعلين وأنه يغفر الذنب ويقبل التوبة الآن أو غدًا، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه، فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش، وأما ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فمشكل لأنه في تقدير (شديدٌ عقابه) فيكون نكرة فلا يصح جعله صفة للمعرفة. وهذا تقرير السؤال. وأجيب عنه بوجوه: الأول: أن هذه الصفة وإن كانت نكرة إلا أنها لما ذُكرت مع سائر الصفات التي هي معارف حسُن ذكرها كما في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤-١٦] والثاني: قال الزجاج: إن خفض ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ على البدل؛ لأنّ جعل النكرة بدلاً من المعرفة وبالعكس أمر جائز. واعترضوا عليه بأن جعله وحده بدلاً من الصفات فيه نَبْوة ظاهرة. الثالث: أنه لا نزاع في أن قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ يحسن جعلهما صفة، وإنما كان كذلك لأنهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار، فكذلك قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ يفيد معنى الدوام والاستمرار، لأن صفات الله تعالى منزّهة عن الحدوث والتجدد، فكونه ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ معناه كونه بحيث يشتد عقابه، وهذا المعنى حاصل أبدًا، وغير موصوف

بأنه حصل بعد أن لم يكن كذلك. فهذا ما قيل في هذا الباب.

البحث الثاني: هذه الآية مُشعرة بترجيح جانب الرحمة والفضل؛ لأنه تعالى لما أراد أن يصف نفسه بأنه شديد العقاب ذكر قبله أمرين كل واحد منهما يقتضي زوال العقاب، وهو كونه غافر الذنب وقابل التوب، وذكر بعده ما يدل على حصول الرحمة العظيمة، وهو قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾، فكونه شديد العقاب لما كان مسبوقًا بتينك الصفتين وملحوقًا بهذه الصفة، دل ذلك على أن جانب الرحمة والكرم أرجح.

البحث الثالث: لقائل أن يقول: ذكَر الواو في قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ ولم يذكرها في قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ فما الفرق؟ قلنا: إنه لو لم يذكر الواو في قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ لاحتمل أن يقع في خاطر إنسان أنه لا معنى لكونه غافر الذنب إلا كونه قابل التوب، أما لما ذكر الواو زال هذا الاحتمال؛ لأن عطف الشيء على نفسه محال، أما كونه شديد العقاب فمعلوم أنه مغاير لكونه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ فاستغنى به عن ذكر الواو.

الصفة الرابعة: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي ذي التفضل، يقال: طال علينا طَوْلاً أي تفضَّل علينا تفضلاً، ومن كلامهم (طُلْ عليَّ بفضلك)، ومنه قوله تعالى: ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [الزمر: ٨٦] ومضى تفسيره عند قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: ٢٥] واعلم أنه لم يصف نفسه بكونه ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لا بد وأن يكون المراد بكونه تعالى آتيًا بالعقاب الشديد الذي لا يقبح منه إتيانه به، بل لا يجوز وصفه تعالى بكونه آتيًا لفعل القبيح، وإذا ثبت هذا فنقول: ذكر بعده كونه ذا الطول وهو كونه ذا الفضل، فيجب أن يكون معناه كونه ذا الفضل بسبب أن يترك العقاب الذي له أن يفعله؛ لأنه ذكر كونه ذا الطول ولم يبين أنه ذو الطول فيماذا؟ فوجب صرفه إلى كونه ذا الطول في الأمر الذي سبق ذكره، وهو فعل العقاب الحسن دفعًا للإجمال، وهذا يدل على أنه تعالى قد يترك العقاب الذي حسن منه تعالى فعله، وذلك يدل على أن العفو عن أصحاب الكبائر جائز، وهو المطلوب.

الصفة الخامسة: التوحيد المطلق وهو قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ والمعنى أنه وصف نفسه بصفات الرحمة والفضل، فلو كان معه إله آخر يشاركه ويساويه في صفة الرحمة والفضل، لما كانت الحاجة إلى عبوديته شديدة، أما إذا كان واحدًا وليس له شريك ولا شبيه، كانت الحاجة إلى الإقرار بعبوديته شديدة، فكان الترغيب والترهيب الكاملان يحصلان بسبب هذا التوحيد.

الصفة السادسة: قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهذه الصفة أيضًا مما يقوي الرغبة في الإقرار بعبوديته؛ لأنه بتقدير أن يكون موصوفًا بصفات الفضل والكرم وكان واحدًا لا شريك له، إلا أن القول بالحشر والنشر إن كان باطلاً لم يكن الخوف الشديد حاصلاً من عصيانه، أما لما كان القول بالحشر والقيامة حاصلاً، كان الخوف أشد والحذر أكمل؛ فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الصفات. واحتج أهل التشبيه بلفظة (إلى)، وقالوا: إنها تفيد انتهاء الغاية. والجواب عنه مذكور في مواضع كثيرة من هذا الكتاب.

واعلم أنه تعالى لما قرر أن القرآن كتاب أنزله ليهتدى به في الدين، ذكَر أحوال من يجادل لغرض إبطاله وإخفاء أمره فقال: ﴿مَا يُجَادِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن الجدال نوعان: جدال في تقرير الحق، وجدال في تقرير الباطل: أما الجدال في تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل: ١٢٥] وقال حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾[هود: ٣٢] وأما الجدال في تقرير الباطل فهو مذموم، وهو المراد بهذه الآية حيث قال: ﴿مَا يُجَادِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف: ٥٨] وقال: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ وقال ﷺ: «**إِنَّ جِدَالاً فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ**»(١) فقوله: (إن جدالاً) على لفظ التنكير يدل على التمييز بين جدال وجدال، واعلم أن لفظ الجدال في الشيء مُشعر بالجدال الباطل، ولفظ الجدال عن الشيء مُشعر بالجدال لأجل تقريره والذب عنه، قال ﷺ: «**إِنَّ جِدَالاً فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ**» وقال: «**لاَ تُمَارُوا فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّ الْمِرَاءَ فِيهِ كُفْرٌ**»(٢).

المسألة الثانية: الجدال في آيات الله هو أن يقال مرة: إنه سحر ومرة: إنه شعر ومرة: إنه قول الكهنة ومرة: أساطير الأولين ومرة: إنما يُعلمه بشر، وأشباه هذا مما كانوا يقولونه من الشبهات الباطلة، فذكَر تعالى أنه لا يفعل هذا إلا الذين كفروا وأعرضوا عن الحق.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي لا ينبغي أن تغتر بأني أمهلهم وأتركهم سالمين في أبدانهم وأموالهم يتقلبون في البلاد - أي يتصرفون للتجارات وطلب المعاش - فإني وإن أمهلتهم فإني سآخذهم وأنتقم منهم كما فعلت بأشكالهم من الأمم الماضية، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن ولهم الأموال الكثيرة يتجرون فيها ويربحون. ثم كشف عن هذا المعنى فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فذكَر من أولئك المكذبين قوم نوح والأحزاب من بعدهم، أي الأمم المستمرة على الكفر كقوم عاد وثمود وغيرهم، كما قال في سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (السنة)، باب: (النهي عن الجدال في القرآن) (٤/ ١٩٧٢)، حديث رقم (٤٦٠٣)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٨٦/ ٣٠٠/ ٤٢٤/ ٤٧٥)، جميعًا من طريق أبي سلمة... به.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في (الأوسط) (٤/ ١٩٧)، حديث رقم (٣٩٦١) من طريق فليح بن سليمان عن سالم أبي النضر عن سليمان بن يسار عن عبد الله بن عمرو... فذكره. ورواه في (الكبير) (٥/ ١٥٢)، حديث رقم (٤٩١٦) من طريق ابن أبي فديك عن ابن وهب عن عبد الله بن عبد الرحمن عن زيد بن ثابت... به، ورواه القاسم بن سلام في (فضائل القرآن) (٢/ ١٩٤)، حديث رقم (٦٣٢) من طريق الليث عن يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم التيمي عن بسر بن سعيد عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص أن عمرو بن العاص... فذكره. وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ٣٩٠)، وقال: عن زيد بن ثابت، رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثقون، وأورده الألباني في (الصحيحة) (١٥٢٢) وقال: صحيح.

ﱡﭐﱊﱠ [١٢، ١٣] وقوله: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ أي وعزمت كل أمة من هؤلاء الأحزاب أن يأخذوا رسولهم ليقتلوه ويعذبوه ويحبسوه ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي هؤلاء جادلوا رسلهم بالباطل، أي بإيراد الشبهات ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ أي أن يزيلوا بسبب إيراد تلك الشبهات الحق والصدق ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي فأنزلتُ بهم من الهلاك ما هَمُّوا بإنزاله بالرسل، وأرادوا أن يأخذوهم فأخذتهم أنا، فكيف كان عقابي إياهم، أليس كان مهلكًا مستأصلاً مهيبًا في الذكر والسماع، فأنا أفعل بقومك كما فعلت بهؤلاء إن أصروا على الكفر والجدال في آيات الله. ثم كشف عن هذا المعنى فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي ومثل الذي حق على أولئك الأمم السالفة من العقاب، حقت كلمتي أيضًا على هؤلاء الذين كفروا من قومك، فهم على شرف نزول العقاب بهم. قال صاحب (الكشاف): ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في محل الرفع بدل من قوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار، ومعناه كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة. أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل. واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن قضاء الله بالسعادة والشقاوة لازم لا يمكن تغييره، فقالوا: إنه تعالى أخبر أنه حقت كلمة العذاب عليهم، وذلك يدل على أنهم لا قدرة لهم على الإيمان؛ لأنهم لو تمكنوا منه لتمكنوا من إبطال هذه الكلمة الحقة، ولتمكنوا من إبطال علم الله وحكمته، ضرورة أن المتمكن من الشيء يجب كونه متمكنًا من كل ما هو من لوازمه، ولأنهم لو آمنوا لوجب عليهم أن يؤمنوا بهذه الآية، فحينئذٍ كانوا قد آمنوا بأنهم لا يؤمنون أبدًا، وذلك تكليف ما لا يطاق. وقرأ نافع وابن عامر (حقت كلمات ربك) على الجمع، والباقون على الواحد.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن الكفار يبالغون في إظهار العداوة مع المؤمنين، بيّن أن أشرف طبقات المخلوقات هم الملائكة الذين هم حملة العرش والحافون حول العرش يبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين، كأنه تعالى يقول: إن كان هؤلاء الأراذل يبالغون في العداوة،

فلا تبال بهم ولا تلتفت إليهم ولا تُقم لهم وزنًا؛ فإن حَمَلة العرش معك، والحافون من حول العرش معك ينصرونك.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى حكى عن نوعين من فرق الملائكة هذه الحكاية:

القسم الأول: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ وقد حكى تعالى أن الذين يحملون العرش يوم القيامة ثمانية، فيمكن أن يقال: الذين يحملون في هذا الوقت هم أولئك الثمانية الذين يحملونه يوم القيامة، ولا شك أن حملة العرش أشراف الملائكة وأكابرهم، روى صاحب (الكشاف) أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وعن النبي ﷺ: «**لاَ تَتَفَكَّرُوا فِي عِظَمِ رَبِّكُمْ، وَلَكِنْ تَفَكَّرُوا فِيمَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؛ فَإِنَّ خَلْقًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يُقَالُ لَهُ إِسْرَافِيلُ زَاوِيَةٌ من زوايا الْعَرْشِ عَلَى كَاهِلِهِ، وَقَدَمَاهُ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى، وَقَدْ مَرَقَ رَأْسُهُ مِن سَبْعِ سَمَواتٍ، وَإِنَّهُ لَيَتَضَاءَلُ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ الْوَضْعُ**»[1] قيل: إنه طائر صغير، وروي أن الله تعالى أمَر جميع الملائكة أن يغدو ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة، وقيل: خَلَق الله العرش من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام، وقيل: حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا ويسبح بما لا يسبح به الآخر. هذه الآثار نقلتها من (الكشاف).

وأما القسم الثاني من الملائكة الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآية: فقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ والأظهر أن المراد منهم ما ذكره في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الزمر: ٧٥] وأقول: العقل يدل على أن حملة العرش والحافين حول العرش يجب أن يكونوا أفضل الملائكة؛ وذلك لأن نسبة الأرواح إلى الأرواح كنسبة الأجساد إلى الأجساد، فلما كان العرش أشرف الموجودات الجسمانية كانت الأرواح المتعلقة بتدبير العرش يجب أن تكون أفضل من الأرواح المدبرة للأجساد، وأيضًا يشبه أن يكون هناك أرواح حاملة لجسم العرش ثم يتولد عن تلك الأرواح القاهرة المستعلية لجسم العرش أرواح أُخر من جنسها، وهي متعلقة بأطراف العرش، وإليهم الإشارة بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الزمر: ٧٥] وبالجملة فقد ظهر بالبراهين اليقينية وبالمكاشفات الصادقة أنه لا نسبة لعالم الأجساد إلى عالم

---

(١) **إسناده ضعيف**: رواه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٩٧) (رقم: (٢٨٨)، (٣/ ٩٤٩) (رقم: ٤٧٧) وأبو نعيم في (الحلية) (٦/ ٦٥) من طريق محمد بن مصفى، حدثنا يحيى بن سعيد، عن إسماعيل بن عياش، عن الأحوص بن حكيم عن شهر بن حوشب عن ابن عباس. وفي إسناده يحيى بن سعيد العطار وهو ضعيف، والأحوص بن حكيم ضعيف الحفظ.

الأرواح، فكل ما شاهدته بعين البصر في اختلاف مراتب عالم الأجساد، فيجب أن تشاهده بعين بصيرتك في اختلاف مراتب عالم الأرواح.

المسألة الثانية: دلت هذه الآية على أنه سبحانه منزّه عن أن يكون في العرش؛ وذلك لأنه تعالى قال في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧] ولا شك أن حامل العرش يكون حاملاً لكل من في العرش، فلو كان إله العالم في العرش لكان هؤلاء الملائكة حاملين لإله العالم، فحينئذٍ يكونون حافظين لإله العالم والحافظ القادر أَوْلى بالإلهية والمحمول المحفوظ أَوْلى بالعبودية، فحينئذٍ ينقلب الإله عبدًا والعبد إلهًا، وذلك فاسد، فدل هذا على أن إله العرش والأجسام متعالٍ عن العرش والأجسام.

واعلم أنه تعالى حكى عن حملة العرش، وعن الحافين بالعرش ثلاثة أشياء:

النوع الأول: قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ ونظيره قوله حكاية عن الملائكة: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الزمر: ٧٥] فالتسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي، والتحميد الاعتراف بأنه هو المنعم على الإطلاق، فالتسبيح إشارة إلى الجلال، والتحميد إشارة إلى الإكرام، فقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ قريب من قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

النوع الثاني مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة: هو قوله تعالى: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ فإن قيل: فأي فائدة في قوله: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ فإن الاشتغال بالتسبيح والتحميد لا يمكن إلا وقد سبق الإيمان بالله؟ قلنا: الفائدة فيه ما ذكره صاحب (الكشاف)، وقد أحسن فيه جدًّا فقال: إن المقصود منه التنبيه على أن الله تعالى لو كان حاضرًا بالعرش لكان حملة العرش والحافون حول العرش يشاهدونه ويعاينونه، ولما كان إيمانهم بوجود الله موجبًا للمدح والثناء لأن الإقرار بوجود شيء حاضر مشاهد معاين لا يوجب المدح والثناء، ألا ترى أن الإقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لا يوجب المدح والثناء، فلما ذكر الله تعالى إيمانهم بالله على سبيل الثناء والمدح والتعظيم، عُلم أنهم آمنوا به بدليل أنهم ما شاهدوه حاضرًا جالسًا هناك. ورحم الله صاحب (الكشاف) فلو لم يُحصل في كتابه إلا هذه النكتة لكفاه فخرًا وشرفًا.

النوع الثالث مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة: قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ اعلم أنه ثبت أن كمال السعادة مربوط بأمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، ويجب أن يكون التعظيم لأمر الله مقدمًا على الشفقة على خلق الله، فقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ مُشعر بالتعظيم لأمر الله، وقوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ مُشعر بالشفقة على خلق الله.

ثم في الآية مسائل:

المسألة الأولى: احتج كثير من العلماء بهذه الآية في إثبات أن المَلَك أفضل من البشر، قالوا: لأن هذه الآية تدل على أن الملائكة لما فرغوا من ذكر الله بالثناء والتقديس، اشتغلوا

بالاستغفار لغيرهم وهم المؤمنون، وهذا يدل على أنهم مستغنون عن الاستغفار لأنفسهم؛ إذ لو كانوا محتاجين إليه لقدموا الاستغفار لأنفسهم على الاستغفار لغيرهم؛ بدليل قوله ﷺ: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ» (١) وأيضًا قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] فأمَر محمدًا أن يذكر أولاً الاستغفار لنفسه ثم بعده يذكر الاستغفار لغيره، وحكى عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨] وهذا يدل على أن كل من كان محتاجًا إلى الاستغفار، فإنه يقدم الاستغفار لنفسه على الاستغفار لغيره، فالملائكة لو كانوا محتاجين إلى الاستغفار لكان اشتغالهم بالاستغفار لأنفسهم مقدمًا على اشتغالهم بالاستغفار لغيرهم، ولما لم يذكر الله تعالى عنهم استغفارهم لأنفسهم علمنا أن ذلك إنما كان لأنهم ما كانوا محتاجين إلى الاستغفار، وأما الأنبياء عليهم السلام فقد كانوا محتاجين إلى استغفار بدليل قوله تعالى لمحمد عليه السلام: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ وإذا ثبت هذا فقد ظهر أن المَلَك أفضل من البشر، والله أعلم.

المسألة الثانية: احتج الكعبي بهذه الآية على أن تأثير الشفاعة في حصول زيادة الثواب للمؤمنين لا في إسقاط العقاب عن المذنبين. قال: وذلك لأن الملائكة قالوا: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ قال: وليس المراد فاغفر للذين تابوا من الكفر، سواء كان مصرًّا على الفسق أو لم يكن كذلك؛ لأن مَن هذا حاله لا يوصف بكونه متبعًا سبيل ربه ولا يطلق ذلك فيه، وأيضًا إن الملائكة يقولون: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ وهذا لا يليق بالفاسقين؛ لأن خصومنا لا يقطعون على أن الله تعالى وعدهم الجنة وإنما يجوزون ذلك، فثبت أن شفاعة الملائكة لا يتناول إلا أهل الطاعة، فوجب أن تكون شفاعة الأنبياء كذلك، ضرورة أنه لا قائل بالفرق.

والجواب أن نقول: هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين، فنبين هذا ثم نجيب عما ذكره الكعبي: أما بيان دلالة هذه الآية على ما قلناه فمن وجوه: الأول: قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ والاستغفار طلب المغفرة، والمغفرة لا تُذكر إلا في إسقاط العقاب. أما طلب النفع الزائد فإنه لا يسمى استغفارًا. الثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا يدل على أنهم يستغفرون لكل أهل الإيمان، فإذا دللنا على أن صاحب الكبيرة مؤمن وجب دخوله تحت هذه الشفاعة. الثالث: قوله تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ طلب المغفرة للذين تابوا، ولا يجوز أن يكون المراد إسقاط عقوبة الكبيرة بعد التوبة؛ لأن ذلك واجب على الله عند الخصم، وما كان فعله واجبًا كان طلبه بالدعاء قبيحًا، ولا يجوز أيضًا أن يكون المراد إسقاط عقوبة الصغائر؛ لأن ذلك أيضًا واجب فلا يحسن طلبه بالدعاء، ولا يجوز أن يكون المراد طلب

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الزكاة)، باب: (الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة) (٢/ ٤١/ ٦٩٢). قال: حدثنا قتيبة . . . به، والنسائي في كتاب (الزكاة)، باب: (أي الصدقة أفضل؟) (٣/ ٢٣)، حديث رقم (٢٥٤٥). قال: حدثنا الليث . . . به.

زيادة منفعة على الثواب؛ لأن ذلك لا يسمى مغفرة، فثبت أنه لا يمكن حمل قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ إلا على إسقاط عقاب الكبيرة قبل التوبة، وإذا ثبت هذا في حق الملائكة فكذلك في حق الأنبياء لانعقاد الإجماع على أنه لا فرق. أما الذي يتمسك به الكعبي وهو أنهم طلبوا المغفرة للذين تابوا، فنقول: يجب أن يكون المراد منه الذين تابوا عن الكفر واتبعوا سبيل الإيمان، وقوله: إن التائب عن الكفر المصر على الفسق لا يسمى تائبًا ولا متبعًا سبيل الله.
قلنا: لا نسلِّم قوله، بل يقال: إنه تائب عن الكفر وتابع سبيل الله في الدين والشريعة، وإذا ثبت أنه تائب عن الكفر ثبت أنه تائب، ألا ترى أنه يكفي في صدق وصفه بكونه ضاربًا وضاحكًا صدور الضرب والضحك عنه مرة واحدة، ولا يتوقف ذلك على صدور كل أنواع الضرب والضحك عنه؟ فكذا هاهنا.

المسألة الثالثة: قال أهل التحقيق: إن هذه الشفاعة الصادرة عن الملائكة في حق البشر - تجري مجرى اعتذار عن زلة سبقت، وذلك لأنهم قالوا في أول تخليق البشر: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فلما سبق منهم هذا الكلام تداركوا في آخر الأمر بأن قالوا: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وهذا كالتنبيه على أن من آذى غيره، فالأَوْلى أن يجبر ذلك الإيذاء بإيصال نفع إليه.

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الملائكة أنهم يستغفرون للذين تابوا، بيّن كيفية ذلك الاستغفار، فحكى عنهم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن الدعاء في أكثر الأمر مذكور بلفظ: ﴿رَبَّنَا﴾ ويدل عليه أن الملائكة عند الدعاء قالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ بدليل هذه الآية، وقال آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] وقال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ [هود: ٤٧] وقال أيضًا: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ [نوح: ٥] وقال أيضًا: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨] وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقال: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] وقال: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال عن يوسف: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [يوسف: ١٠١] وقال عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال في قصة الوكز: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القصص: ١٦، ١٧] وحكى تعالى عن داود: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] وعن سليمان أنه قال: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ [ص: ٣٥] وعن زكريا أنه ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣] وعن عيسى عليه السلام أنه قال: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤] وعن محمد ﷺ أن الله تعالى قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وحكى عن المؤمنين أنهم

قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]وأعادوا هذه اللفظة خمس مرات، وحكى أيضًا عنهم أنهم قالوا: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]إلى آخر السورة.

فثبت بما ذكرنا أن من أرضى الدعاء أن ينادي العبد ربه بقوله: (يا رب) وتمام الإشكال فيه أن يقال: لفظ (الله) أعظم من لفظ (الرب)، فلمَ صار لفظ الرب مختصًا بوقت الدعاء؟ والجواب: كأن العبد يقول: كنتُ في كتم العدم المحض والنفي الصرف، فأخرجتني إلى الوجود وربيتني، فاجعل تربيتك لي شفيعًا إليك في أن لا تخليني طرفة عين عن تربيتك وإحسانك وفضلك.

المسألة الثانية: السُّنة في الدعاء أن يبدأ فيه بالثناء على الله تعالى، ثم يذكر الدعاء عقيبه، والدليل عليه هذه الآية، فإن الملائكة لما عزموا على الدعاء والاستغفار للمؤمنين بدءوا بالثناء فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وأيضًا أن الخليل عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء ذكر الثناء أولاً فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢] فكل هذا ثناء على الله تعالى، ثم بعده ذكر الدعاء فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣].

واعلم أن العقل يدل أيضًا على رعاية هذا الترتيب، وذلك ذكر الله بالثناء والتعظيم بالنسبة إلى جوهر الروح كالإكسير الأعظم بالنسبة إلى النحاس، فكما أن ذرة من الإكسير إذا وقعت على عالم من النحاس انقلب الكل ذهبًا إبريزًا (١) فكذلك إذا وقعت ذرة من إكسير معرفة جلال الله تعالى على جوهر الروح النطقية، انقلب من نحوسة النحاسة إلى صفاء القدس وبقاء عالم الطهارة، فثبت أن عند إشراق نور معرفة الله تعالى في جواهر الروح، يصير الروح أقوى صفاء وأكمل إشراقًا، ومتى صار كذلك كانت قوته أقوى وتأثيره أكمل، فكان حصول الشيء المطلوب بالدعاء أقرب وأكمل، وهذا هو السبب في تقديم الثناء على الله على الدعاء.

المسألة الثالثة: اعلم أن الملائكة وصفوا الله تعالى بثلاثة أنواع من الصفات: الربوبية والرحمة والعلم: أما الربوبية فهي إشارة إلى الإيجاد والإبداع، وفيه لطيفة أخرى وهي أن قولهم ﴿رَبَّنَا﴾ إشارة إلى التربية، والتربية عبارة عن إبقاء الشيء على أكمل أحواله وأحسن صفاته، وهذا يدل على أن هذه الممكنات كما أنها محتاجة حال حدوثها إلى إحداث الحق سبحانه

---

(١) رحم الله الفخر فيظهر من كلامه هذا أنه كان مشغولاً بصنعة الكيمياء التي فتنت عقول أكثر الناس، ووقع بسببها مصائب كثيرة للمسلمين فشُغلوا بها عن المطالب الحقيقية وعن العليات مع أن التجارب والأحداث دلت على أنها خدعة ووهم باطل وأنها لا حقيقة لها، وأحسن ما رُد به على من يقول بالصنعة ما رأيته للصفدي في شرح اللامية: إن الذهب من عمل الطبيعة، كما أن ما يعمله الإنسان من المصنوعات لا يمكن للطبيعة أن تعمله. اهـ.

فسبحان من تفرد بالعزة والخلق والإيجاد، أكتب هذا عسى أن يهدي الله مسلمًا تشغل نفسه بهذا الفن الزائف والوهم الباطل، وأقول: إن الكيمياء الحقيقية هي الاشتغال بالعلم والتجارة والصناعة، فهي سبب نماء المال الذي هو أفضل الكيمياء.

وتعالى وإيجاده، فكذلك إنها محتاجة حال بقائها إلى إبقاء الله. وأما الرحمة فهي إشارة إلى أن جانب الخير والرحمة والإحسان راجح على جانب الضر، وأنه تعالى إنما خلق الخلق للرحمة والخير، لا للإضرار والشر، فإن قيل: قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فيه سؤال، لأن العلم وسع كل شيء، أما الرحمة فما وصلت إلى كل شيء؛ لأن المضرور حال وقوعه في الضر لا يكون ذلك الضرر رحمة، وهذا السؤال أيضًا مذكور في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف: ١٥٦] قلنا: كل موجود فقد نال من رحمة الله تعالى نصيبًا، وذلك لأن الموجود إما واجب وإما ممكن: أما الواجب فليس إلا الله سبحانه وتعالى، وأما الممكن فوجوده من الله تعالى وبإيجاده، وذلك رحمة، فثبت أنه لا موجود غير الله إلا وقد وصل إليه نصيب ونصاب من رحمة الله؛ فلهذا قال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وفي الآية دقيقة أخرى، وهي أن الملائكة قدموا ذكر الرحمة على ذكر العلم فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وذلك لأن مطلوبهم إيصال الرحمة وأن يتجاوز عما علمه منهم من أنواع الذنوب، فالمطلوب بالذات هو الرحمة، والمطلوب بالعَرَض أن يتجاوز عما علمه منهم، والمطلوب بالذات مقدم على المطلوب بالعَرَض، ألا ترى أنه لما كان إبقاء الصحة مطلوبًا بالذات وإزالة المرض مطلوبًا بالعَرَض، لا جرم لما ذكروا حد الطب قدموا فيه حفظ الصحة على إزالة المرض، فقالوا: الطب علم يُتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصلح ويزول عن الصحة لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زائلة، فكذا هاهنا المطلوب بالذات هو الرحمة، وأما التجاوز عما علمه منهم من أنواع الذنوب فهو مطلوب بالعَرَض؛ لأجل أن حصول الرحمة على سبيل الكمال لا يحصل إلا بالتجاوز عن الذنوب؛ فلهذا السبب وقع ذكر الرحمة سابقًا على ذكر العلم.

المسألة الرابعة: دلت هذه الآية على أن المقصود بالقصة الأولى في الخلق والتكوين إنما هو الرحمة والفضل والجود والكرم، ودلت الدلائل اليقينية على أن كل ما دخل في الوجود من أنواع الخير والشر والسعادة والشقاوة، فبقضاء الله وقدره، والجمع بين هذين الأصلين في غاية الصعوبة، فعند هذا قالت الحكماء: الخير مراد مَرضي، والشر مراد مكروه، والخير مقضي به بالذات، والشر مقضي به بالعَرَض، وفيه غور عظيم.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ يدل على كونه سبحانه عالمًا بجميع المعلومات التي لا نهاية لها من الكليات والجزئيات، وأيضًا فلولا ذلك لم يكن في الدعاء والتضرع فائدة؛ لأنه إذا جاز أن يخرج عن علمه بعض الأشياء، فعلى هذا التقدير لا يعرف هذا الداعي أن الله سبحانه يعلمه ويعلم دعاءه، وعلى هذا التقدير لا يبقى في الدعاء فائدة ألبتة.

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم كيفية ثنائهم على الله تعالى، حكى عنهم كيفية دعائهم، وهو أنهم قالوا: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ واعلم أن الملائكة طلبوا بالدعاء

من الله تعالى أشياء كثيرة للمؤمنين: فالمطلوب الأول الغفران، وقد سبق تفسيره في قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ فإن قيل: لا معنى للغفران إلا إسقاط العذاب، وعلى هذا التقدير فلا فرق بين قوله: فاغفر لهم، وبين قوله: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ قلنا: دلالة لفظ المغفرة على إسقاط عذاب الجحيم دلالة حاصلة على الرمز والإشارة، فلما ذكروا هذا الدعاء على سبيل الرمز والإشارة أردفوه بذكره على سبيل التصريح لأجل التأكيد والمبالغة، واعلم أنهم لما طلبوا من الله إزالة العذاب عنهم أردفوه بأن طلبوا من الله إيصال الثواب إليهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ فإن قيل: أنتم زعمتم أن هذه الشفاعة إنما حصلت للمذنبين، وهذه الآية تُبطل ذلك لأنه تعالى ما وعد المذنبين بأن يدخلهم في جنات عدن، قلنا: لا نسلِّم أنه ما وعدهم بذلك؛ لأنا بينا أن الدلائل الكثيرة في القرآن دلّت على أنه تعالى لا يخلد أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله في النار، وإذا أخرجهم من النار وجب أن يدخلهم الجنة، فكان هذا وعدًا من الله تعالى لهم بأن يدخلهم في جنات عدن، إما من غير دخول النار وإما بعد أن يدخلهم النار.

قال تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ يعني وأدخِل معهم في الجنة هؤلاء الطوائف الثلاث، وهم الصالحون من الآباء والأزواج والذريات، وذلك لأن الرجل إذا حضر معه في موضع عيشه وسروره أهله وعشيرته كان ابتهاجه أكمل، قال الفرّاء والزجاج: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ نصب من مكانين، فإن شئت رددته على الضمير في قوله: ﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾ وإن شئت في ﴿وَعَدتَّهُمۡ﴾ والمراد من قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ أهل الإيمان. ثم قالوا: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وإنما ذكروا في دعائهم هذين الوصفين لأنه لو لم يكن عزيزًا بل كان بحيث يُغلب ويُمنع لما صح وقوع المطلوب منه، ولو لم يكن حكيمًا لما حصل هذا المطلوب على وفق الحكمة والمصلحة. ثم قالوا بعد ذلك: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال بعضهم: المراد وقهم عذاب السيئات، فإن قيل: فعلى هذا التقدير لا فرق بين قوله: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وبين ما تقدم من قوله: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وحينئذٍ يلزم التكرار الخالي عن الفائدة وإنه لا يجوز. قلنا: بل التفاوت حاصل من وجهين: الأول: أن يكون قوله: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ دعاء مذكورًا للأصول وقوله: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ دعاءً مذكورًا للفروع. الثاني: أن يكون قوله ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ مقصورًا على إزالة الجحيم وقوله ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يتناول عذاب الجحيم وعذاب موقف القيامة وعذاب الحساب والسؤال.

والقول الثاني في تفسير ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: هو أن الملائكة طلبوا إزالة عذاب النار بقولهم: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وطلبوا إيصال ثواب الجنة إليهم بقولهم: ﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ ثم طلبوا بعد ذلك أن يصونهم الله تعالى في الدنيا عن العقائد الفاسدة والأعمال الفاسدة، وهو المراد بقولهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ثم قالوا: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ يعني ومن تق السيئات في الدنيا فقد رحمته في يوم القيامة، ثم قالوا: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعيمًا لا ينقطع، وبأعمال حقيرة مُلكًا لا تصل العقول إلى كنه جلالته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما عاد إلى شرح أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤] بَيَّن أنهم في القيامة يعترفون بذنوبهم واستحقاقهم العذاب الذي ينزل بهم ويسألون الرجوع إلى الدنيا ليتلافوا ما فرط منهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في الآية حذف وفيها أيضًا تقديم وتأخير: أما الحذف فتقديره: لمقت الله إياكم. وأما التقديم والتأخير فهو أن التقدير أن يقال: لمقت الله لكم حال ما تُدعون إلى الإيمان فتكفرون - أكبر من مقتكم أنفسكم. **وفي تفسير مقتهم أنفسهم وجوه:**

الأول: أنهم إذا شاهدوا القيامة والجنة والنار، مقتوا أنفسهم على إصرارهم على التكذيب بهذه الأشياء في الدنيا.

الثاني: أن الأتباع يشتد مقتهم للرؤساء الذين دعوهم إلى الكفر في الدنيا، والرؤساء أيضًا يشتد مقتهم للأتباع، فعَبَّر عن مقت بعضهم بعضًا بأنهم مقتوا أنفسهم، كما أنه تعالى قال: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] والمراد قتل بعضهم بعضًا.

الثالث: قال محمد بن كعب: إذا خطبهم إبليس وهم في النار بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] ففي هذه الحالة مقتوا أنفسهم.

واعلم أنه لا نزاع أن مقتهم أنفسهم إنما يحصل في يوم القيامة، أما مقت الله لهم ففيه وجهان: الأول: أنه حاصل في الآخرة، والمعنى لمقت الله لكم في هذا الوقت أشد من مقتكم أنفسكم في هذا الوقت. والثاني: - وعليه الأكثرون - أن التقدير: لمقت الله لكم في الدنيا إذ تُدعون إلى الإيمان فتكفرون - أكبر من مقتكم أنفسكم الآن. وفي تفسير الألفاظ المذكورة في الآية أوجه: الأول: أن الذين ينادونهم ويذكرون لهم هذا الكلام هم خزنة جهنم. الثاني: المقت أشد البغض وذلك في حق الله تعالى محال، فالمراد منه أبلغ الإنكار والزجر. الثالث: قال الفراء: ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ معناه إنهم ينادون إن مقت الله أكبر، يقال: ناديت إن زيدًا قائم وإن زيدًا لقائم. الرابع: قوله ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ فيه حذف والتقدير: لمقت الله لكم إذ تُدعون إلى الإيمان فتأتون بالكفر - أكبر من مقتكم الآن أنفسكم.

ثم إنه تعالى بيّن أن الكفار إذا خوطبوا بهذا الخطاب ﴿قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ إلى آخر الآية، والمعنى أنهم لما عرفوا أن الذي كانوا عليه في الدنيا كان فاسدًا باطلاً، تمنوا الرجوع إلى الدنيا لكي يشتغلوا عند الرجوع إليها بالأعمال الصالحة. **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: احتج أكثر العلماء بهذه الآية في إثبات عذاب القبر، وتقرير الدليل أنهم أثبتوا لأنفسهم موتتين حيث قالوا ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ فأحد الموتتين مشاهد في الدنيا، فلا بد من إثبات حياة أخرى في القبر حتى يصير الموت الذي يحصل عقيبها موتًا ثانيًا، وذلك يدل على حصول حياة في القبر، فإن قيل: قال كثير من المفسرين: الموتة الأولى إشارة إلى الحالة الحاصلة عند كون الإنسان نطفة وعلقة، والموتة الثانية إشارة إلى ما حصل في الدنيا، فلمَ لا يجوز أن يكون الأمر كذلك، والذي يدل على أن الأمر ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] والمراد من قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ الحالة الحاصلة عند كونه نطفة وعلقة، وتحقيق الكلام أن الإماتة تُستعمل بمعنيين: أحدهما: إيجاد الشيء ميتًا. والثاني: تصيير الشيء ميتًا بعد أن كان حيًّا كقولك (وسَّع الخياط ثوبي)، يحتمل أنه خاطه واسعًا ويحتمل أنه صيره واسعًا بعد أن كان ضيقًا، فلمَ لا يجوز في هذه الآية أن يكون المراد بالإماتة خلقها ميتة، ولا يكون المراد تصييرها ميتة بعد أن كانت حية؟

السؤال الثاني: أن هذا كلام الكفار فلا يكون حجة.

السؤال الثالث: أن هذه الآية تدل على المنع من حصول الحياة في القبر، وبيانه أنه لو كان الأمر كذلك لكان قد حصلت الحياة ثلاث مرات: أولها: في الدنيا، وثانيها: في القبر، وثالثها: في القيامة، والمذكور في الآية ليس إلا حياتين فقط، فتكون إحداهما الحياة في الدنيا والحياة الثانية في القيامة، والموت الحاصل بينهما هو الموت المشاهد في الدنيا.

السؤال الرابع: أنه إن دلت هذه الآية على حصول الحياة في القبر فهاهنا ما يدل على عدمه، وذلك بالمنقول والمعقول: أما المنقول فمن وجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] فلم يذكر في هذه الآية إلا الحذر عن الآخرة، ولو حصلت الحياة في القبر لكان الحذر عنها حاصلاً، ولو كان الأمر كذلك لذكره، ولما لم يذكره علمنا أنه غير حاصل. الثاني: أنه تعالى حكى في سورة الصافات عن المؤمنين المحققين أنهم يقولون بعد دخولهم في الجنة: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ [الصافات: ٥٨، ٥٩] ولا شك أن كلام أهل الجنة حق وصدق، ولو حصلت لهم حياة في القبر لكانوا قد ماتوا موتتين، وذلك على خلاف قوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ قالوا: والاستدلال بهذه الآية أقوى من الاستدلال بالآية التي ذكرتموها؛ لأن الآية التي تمسكنا بها حكاية قول المؤمنين الذين دخلوا الجنة، والآية التي تمسكتم بها حكاية قول الكافرين الذين دخلوا النار.

وأما المعقول فمن وجوه: الأول: وهو أن الذي افترسته السباع وأكلته لو أعيد حيًّا، لكان إما أن

يعاد حيًّا بمجموعه أو بآحاد أجزائه، والأول باطل لأن الحس يدل على أنه لم يحصل له مجموع، والثاني باطل لأنه لما أكلته السباع، فلو جُعلت تلك الأجزاء أحياء لحصلت أحياء في معدة السباع وفي أمعائها، وذلك في غاية الاستبعاد. الثاني: أن الذي مات لو تركناه ظاهرًا بحيث يراه كل واحد فإنهم يرونه باقيًا على موته، فلو جوزنا مع هذه الحالة أنه يقال: إنه صار حيًّا، لكان هذا تشكيكًا في المحسوسات، وإنه دخول في السفسطة. (والجواب): قوله: لِمَ لا يجوز أن تكون الموتة الأولى هي الموتة التي كانت حاصلة حال ما كان نطفة وعلقة؟ فنقول: هذا لا يجوز، وبيانه أن المذكور في الآية أن الله أماتهم ولفظ الإماتة مشروط بسبق حصول الحياة؛ إذ لو كان الموت حاصلاً قبل هذه الحالة امتنع كون هذا إماتة، وإلا لزم تحصيل الحاصل وهو محال، وهذا بخلاف قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨] لأن المذكور في هذه الآية أنهم كانوا أمواتًا وليس فيها أن الله أماتهم بخلاف الآية التي نحن في تفسيرها؛ لأنها تدل على أن الله تعالى أماتهم مرتين، وقد بينا أن لفظ الإماتة لا يصدق إلا عند سبق الحياة، فظهر الفرق.

أما قوله: إن هذا كلام الكفار فلا يكون حجة. قلنا: لما ذكروا ذلك لم يكذبهم الله تعالى إذ لو كانوا كاذبين لأظهر الله تكذيبهم، ألا ترى أنهم لما كذبوا في قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] كَذَّبهم الله في ذلك فقال: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا﴾ [الأنعام: ٢٤]. وأما قوله: ظاهر الآية يمنع من إثبات حياة في القبر؛ إذ لو حصلت هذه الحياة لكان عدد الحياة ثلاث مرات لا مرتين. فنقول: (الجواب) عنه من وجوه:

الأول: هو أن مقصودهم تعديد أوقات البلاء والمحنة وهي أربعة: الموتة الأولى، والحياة في القبر، والموتة الثانية، والحياة في القيامة، فهذه الأربعة أوقات البلاء والمحنة، فأما الحياة في الدنيا فليست من أقسام أوقات البلاء والمحنة فلهذا السبب لم يذكروها.

الثاني: لعلهم ذكروا الحياتين: وهي الحياة في الدنيا، والحياة في القيامة، أما الحياة في القبر فأهملوا ذكرها لقلة وجودها وقِصر مدتها.

الثالث: لعلهم لما صاروا أحياء في القبور لم يموتوا، بل بقوا أحياء إما في السعادة وإما في الشقاوة، واتصل بها حياة القيامة فكانوا من جملة من أرادهم الله بالاستثناء في قوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

الرابع: لو لم تثبت الحياة في القبر لزم أن لا يحصل الموت إلا مرة واحدة فكان إثبات الموت مرتين كذبًا وهو على خلاف لفظ القرآن، أما لو أثبتنا الحياة في القبر لزمنا إثبات الحياة ثلاث مرات والمذكور في القرآن مرتين، أما المرة الثالثة فليس في اللفظ ما يدل على ثبوتها أو عدمها، فثبت أن نفي حياة القبر يقتضي ترك ما دل اللفظ عليه، فأما إثبات حياة القبر فإنه يقتضي إثبات شيء زائد على ما دل عليه اللفظ، مع أن اللفظ لا إشعار فيه بثبوته ولا بعدمه، فكان هذا

أَوْلى، وأما ما ذكروه في المعارضة الأولى. فنقول: قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الزمر: ٩] تدخل فيه الحياة الآخرة سواء كانت في القبر أو في القيامة، وأما المعارضة الثانية فجوابها أنا نرجح قولنا بالأحاديث الصحيحة الواردة في عذاب القبر.

وأما الوجهان العقليان فمدفوعان؛ لأنا إذا قلنا: إن الإنسان ليس عبارة عن هذا الهيكل بل هو عبارة عن جسم نوراني سار في هذا البدن. كانت الإشكالات التي ذكرتموها غير واردة في هذا الباب، والله أعلم.

المسألة الثانية: اعلم أنا لما أثبتنا حياة القبر فيكون الحاصل في حق بعضهم أربعة أنواع من الحياة وثلاثة أنواع من الموت، والدليل عليه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] فهؤلاء أربعة مراتب في الحياة، حياتان في الدنيا، وحياة في القبر، وحياة رابعة في القيامة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ نعت لمصدر محذوف والتقدير: إماتتين اثنتين. ثم حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فإن قيل: الفاء في قوله: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا﴾ تقتضي أن تكون الإماتة مرتين والإحياء مرتين سببًا لهذا الاعتراف فبينوا هذه السببية. قلنا: لأنهم كانوا منكرين للبعث فلما شاهدوا الإحياء بعد الإماتة مرتين لم يبق لهم عذر في الإقرار بالبعث، فلا جرم وقع هذا الإقرار كالمسبب عن ذلك الإحياء وتلك الإماتة. ثم قال: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي هل إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء من سبيل، أم اليأس وقع فلا خروج ولا سبيل إليه؟ وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط، واعلم أن الجواب الصريح عنه أن يقال: لا أو نعم، وهو تعالى لم يفعل ذلك بل ذكر كلامًا يدل على أنه لا سبيل لهم إلى الخروج فقال: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ أي ذلكم الذي أنتم فيه - وهو أن لا سبيل لكم إلى الخروج قط - إنما وقع بسبب كفركم بتوحيد الله تعالى، وإيمانكم بالإشراك به ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدي، وقوله: ﴿ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ دلالة على الكبرياء والعظمة، وعلى أن عقابه لا يكون إلا كذلك. والمشبهة استدلوا بقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِىِّ﴾ على العلو الأعلى في الجهة، وبقوله ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ على كبر الجثة والذات، وكل ذلك باطل، لأنا دللنا على أن الجسمية والمكان محالان في حق الله تعالى، فوجب أن يكون المراد من ﴿ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ العلو والكبرياء بحسب القدرة والإلهية.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما يوجب التهديد الشديد في حق المشركين، أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته؛ ليصير ذلك دليلاً على أنه لا يجوز جعل هذه الأحجار المنحوتة والخُشُب

المصورة شركاء لله تعالى في المعبودية، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ واعلم أن أهم المهمات رعاية مصالح الأديان ومصالح الأبدان، فهو سبحانه وتعالى راعى مصالح أديان العباد بإظهار البينات والآيات، وراعى مصالح أبدانهم بإنزال الرزق من السماء، فموقع الآيات من الأديان كموقع الأرزاق من الأبدان، فالآيات لحياة الأديان، والأرزاق لحياة الأبدان، وعند حصولهما يحصل الإنعام على أقوى الاعتبارات وأكمل الجهات.

ثم قال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ والمعنى أن الوقوف على دلائل توحيد الله تعالى كالأمر المركوز في العقل، إلا أن القول بالشرك والاشتغال بعبادة غير الله يصير كالمانع من تجلي تلك الأنوار، فإذا أعرض العبد عنها وأناب إلى الله تعالى، زال الغطاء والوطاء فظهر الفوز التام، ولما قرر هذا المعنى صرح بالمطلوب وهو الإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على الله تعالى فقال: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك، ومن الالتفات إلى غير الله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ قرأ ابن كثير ينزل خفيفة والباقون بالتشديد.

قوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر من صفات كبريائه وإكرامه كونه مُظهرًا للآيات مُنزلاً للأرزاق، ذكر في هذه الآية ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة وهو قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ قال صاحب (الكشاف): ثلاثة أخبار لقوله ﴿هُوَ﴾ مرتبة على قوله: ﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾ [غافر: ١٣] أو أخبار مبتدأ محذوف، وهي مختلفة تعريفًا وتنكيرًا، قرئ (رفيع الدرجات) بالنصب على المدح. وأقول: لا بد من تفسير هذه الصفات الثلاثة:

الصفة الأولى: قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ﴾ واعلم أن الرفيع يحتمل أن يكون المراد منه الرافع، وأن يكون المراد منه المرتفع: أما إذا حملناه على الأول ففيه وجوه: الوجه الأول: أنه تعالى يرفع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة. والثاني: رافع درجات الخلق في العلوم والأخلاق الفاضلة، فهو سبحانه عَيَّن لكل أحد من الملائكة درجة معينة، كما قال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] وعَيَّن لكل واحد من العلماء درجة معينة فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١١] وعَيَّن لكل جسم درجة معينة، فجعل بعضها سفلية عنصرية، وبعضها فلكية كوكبية، وبعضها من جواهر العرش والكرسي، فجعل لبعضها درجة أعلى من درجة الثاني، وأيضًا جعل لكل واحد مرتبة معينة في الخلق والرزق والأجل، فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وجعل لكل أحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة، وفي الآخرة آثار لظهور تلك السعادة والشقاء، فإذا حملنا الرفيع على الرفع كان معناه ما ذكرناه. وأما إذا حملناه على المرتفع فهو سبحانه أرفع الموجودات في جميع صفات الكمال والجلال، أما في الأصل الوجود فهو أرفع الموجودات؛ لأنه واجب الوجود لذاته وما سواه ممكن ومحتاج إليه، وأما في دوام الوجود فهو أرفع الموجودات؛ لأنه واجب الوجود لذاته وهو الأزلي والأبدي والسرمدي، الذي هو أول لكل ما سواه، وليس له أول وآخر لكل ما سواه، وليس له آخر، أما في العلم فلأنه هو العالم بجميع الذوات والصفات والكليات والجزئيات، كما قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] وأما في القدرة فهو أعلى القادرين وأرفعهم؛ لأنه في وجوده وجميع كمالات وجوده غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فإنه محتاج في وجوده وفي جميع كمالات وجوده إليه، وأما في الوحدانية فهو الواحد الذي يمتنع أن يحصل له ضد وند وشريك ونظير. وأقول: الحق سبحانه له صفتان: أحدهما: استغناؤه في وجوده وفي جميع صفات وجوده عن كل ما سواه. الثاني: افتقار كل ما سواه إليه في وجوده وفي صفات وجوده. فالرفيع إن فسرناه بالمرتفع، كان معناه أنه أرفع الموجودات وأعلاها في جميع صفات الجلال والإكرام، وإن فسرناه بالرافع، كان معناه أن كل درجة وفضيلة ورحمة ومنقبة حصلت لشيء سواه، فإنما حصلت بإيجاده وتكوينه وفضله ورحمته.

الصفة الثانية: قوله ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ ومعناه أنه مالك العرش ومدبره وخالقه، واحتج بعض الأغمار من المشبهة بقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ وحملوه على أن المراد بالدرجات: السموات، وبقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أنه موجود في العرش فوق سبع سموات. وقد أعظموا الفرية على الله تعالى، فإنا بينا بالدلائل القاهرة العقلية أن كونه تعالى جسمًا وفي جهة محال، وأيضًا فظاهر اللفظ لا يدل على ما قالوه؛ لأن قوله ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ لا يفيد إلا إضافته إلى العرش ويكفي في إضافته إليه بكونه مالكًا له ومُخرجًا له من العدم إلى الوجود، فأي ضرورة تدعونا إلى الذهاب إلى القول الباطل والمذهب الفاسد؟ والفائدة في تخصيص العرش بالذكر هو أنه أعظم الأجسام، والمقصود بيان كمال إلهيته ونفاذ قدرته، فكل ما كان محل التصرف والتدبير أعظم، كانت دلالته على كمال القدرة أقوى.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: اختلفوا في المراد بهذا الروح، والصحيح أن المراد هو الوحي، وقد أطنبنا في بيان أنه لـمَ سمي الوحي بالروح في أول سورة النحل في تفسير قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢] وقال أيضًا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وحاصل الكلام فيه أن حياة

الأرواح بالمعارف الإلهية والجلايا القدسية، فإذا كان الوحي سببًا لحصول هذه الأرواح سمي بالروح، فإن الروح سبب لحصول الحياة، والوحي سبب لحصول هذه الحياة الروحانية.

واعلم أن هذه الآية مشتملة على أسرار عجيبة من علوم المكاشفات، وذلك لأن كمال كبرياء الله تعالى لا تصل إليه العقول والأفهام، فالطريق الكامل في تعريفه بقدر الطاقة البشرية أن يُذكر ذلك الكلام على الوجه الكلي العقلي، ثم يذكر عقيبه شيء من المحسوسات المؤكدة لذلك المعنى العقلي ليصير الحصر بهذا الطريق معاضدًا للعقل، فههنا أيضًا كذلك، فقوله ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ إما أن يكون بمعنى كونه رافعًا للدرجات، وهو إشارة إلى تأثير قدرة الله تعالى في إيجاد الممكنات على احتلاف درجاتها وتباين منازلها وصفاتها، أو إلى كونه تعالى مرتفعًا في صفات الجلال ونعوت العزة عن كل الموجودات، فهذا الكلام عقلي برهاني، ثم إنه سبحانه بَيَّن هذا الكلام الكلي بمزيد تقرير، وذلك لأن ما سوى الله تعالى إما جسمانيات وإما روحانيات: فبَيَّن في هذه الآية أن كلا القسمين مسخر تحت تسخير الحق سبحانه وتعالى، أما الجسمانيات فأعظمها العرش، فقوله ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ يدل على استيلائه على كلية عالم الأجسام، ولما كان العرش من جنس المحسوسات كان هذا المحسوس مؤكدًا لذلك المعقول، أعني قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ وأما الروحانيات فكلها مسخرة للحق سبحانه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾.

واعلم أن أشرف الأحوال الظاهرة في روحانيات هذا العالم ظهور آثار الوحي، والوحي إنما يتم بأركان أربعة: فأولها: المرسِل وهو الله سبحانه وتعالى؛ فلهذا أضاف إلقاء الوحي إلى نفسه فقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ والركن الثاني: الإرسال والوحي وهو الذي سماه بالروح. والركن الثالث: أن وصول الوحي من الله تعالى إلى الأنبياء لا يمكن أن يكون إلا بواسطة الملائكة، وهو المشار إليه في هذه الآية بقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ فالركن الروحاني يسمى أمرًا، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]والركن الرابع: الأنبياء الذين يلقي الله الوحي إليهم وهو المشار إليه بقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ والركن الخامس: تعيين الغرض والمقصود الأصلي من إلقاء هذا الوحي إليهم، وذلك هو أن الأنبياء عليهم السلام يصرفون الخلق من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، ويحملونهم على الإعراض عن هذه الجسمانيات والإقبال على الروحانيات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ فهذا ترتيب عجيب يدل على هذه الإشارات العالية من علوم المكاشفات الإلهية.

وبقي هاهنا أن نبين أنه ما السبب في تسمية يوم القيامة بيوم التلاق؟ وكم الصفات التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة ليوم التلاق؟

أما السبب في تسمية يوم القيامة بيوم التلاق ففيه وجوه:

الأول: أن الأرواح كانت متباينة عن الأجساد، فإذا جاء يوم القيامة صارت الأرواح ملاقية للأجساد، فكان ذلك اليوم يوم التلاق. الثاني: أن الخلائق يتلاقون فيه فيقف بعضهم على حال

البعض. الثالث: أن أهل السماء ينزلون على أهل الأرض فيلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]الرابع: أن كل أحد يصل إلى جزاء عمله في ذلك اليوم، فكان ذلك من باب التلاق، وهو مأخوذ من قولهم فلان لقي عمله. الخامس: يمكن أن يكون ذلك مأخوذًا من قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]ومن قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]السادس: يوم يلتقي فيه العابدون والمعبودون. السابع: يوم يلتقي فيه آدم عليه السلام وآخر ولده. الثامن: قال ميمون بن مهران: يوم يلتقي فيه الظالم والمظلوم، فربما ظلم الرجل رجلاً وانفصل عنه، ولو أراد أن يجده لم يقدر عليه ولم يعرفه، ففي يوم القيامة يحضران ويلقى بعضهم بعضًا. قرأ ابن كثير (التلاقي والتنادي) بإثبات الياء في الوصل والوقف، و(هادي وواقي) بالياء في الوقف وبالتنوين في الوصل.

وأما بيان أن الله تعالى كم عدد من الصفات ووصف بها يوم القيامة في هذه الآية، فنقول:

الصفة الأولى: كونه يوم التلاق، وقد ذكرنا تفسيره.

الصفة الثانية: قوله: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ وفي تفسير هذا البروز وجوه: الأول: أنهم برزوا عن بواطن القبور. الثاني: بارزون، أي ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء؛ لأن الأرض بارزة قاع صفصف، وليس عليهم أيضًا ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث: «يُحْشَرُونَ عُرَاةً حُفَاةً غُرْلاً»[1] الثالث: أن يُجعل كونهم بارزين كناية عن ظهور أعمالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]الرابع: أن هذه النفوس الناطقة البشرية كأنها في الدنيا انغمست في ظلمات أعمال الأبدان، فإذا جاء يوم القيامة أعرضت عن الاشتغال بتدبير الجسمانيات وتوجهت بالكلية إلى عالم القيامة ومجمع الروحانيات، فكأنها برزت بعد أن كانت كامنة في الجسمانيات مستترة بها.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ والمراد يوم لا يخفى على الله منهم شيء، والمقصود منه الوعيد فإنه تعالى بيّن أنهم إذا برزوا من قبورهم واجتمعوا وتلاقوا، فإن الله تعالى يعلم ما فعله كل واحد منهم، فيجازي كلاً بحسبه إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، فهم وإن لم يعلموا تفصيل ما فعلوه، فالله تعالى عالم بذلك، ونظيره قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]وقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]وقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۞ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠]وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]فإن قيل: الله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء في جميع الأيام، فما معنى تقييد هذا المعنى بذلك اليوم؟ قلنا: إنهم كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم، فهم في

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الرقاق)، باب: (الحشر) (١١/ ٣٨٥)، حديث رقم (٦٥٢٥) من طريق عمرو بن دينار... به، ومسلم في كتاب (الجنة)، باب: (فناء الدنيا وبيان الحشر) (٤/ ٥٧/ ٢١٩٤) من طريق عمرو بن دينار... به، كلاهما (عمرو، المغيرة) عن سعيد بن جبير... به.

ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما يتوهمونه في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢] وقال: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨] وهو معنى قوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ والتقدير: يوم ينادى فيه: لمن الملك اليوم؟ وهذا النداء في أي الأوقات يحصل؟

فيه قولان:

الأول: قال المفسرون: إذا هلك كل من في السموات ومن في الأرض فيقول الرب تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟ يعني يوم القيامة، فلا يجيبه أحد فهو تعالى يجيب نفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قال أهل الأصول: هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه: الأول: أنه تعالى بيّن أن هذا النداء إنما يحصل يوم التلاق ويوم البروز ويوم تجزى كل نفس بما كسبت، والناس في ذلك الوقت أحياء، فبطل قولهم: إن الله تعالى إنما ينادي بهذا النداء حين هلك كل من في السموات والأرض. والثاني: أن الكلام لا بد فيه من فائدة؛ لأن الكلام إما أن يُذكر حال حضور الغير، أو حال ما لا يحضر الغير، والأول باطل هاهنا لأن القوم قالوا إنه تعالى إنما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل، والثاني أيضًا باطل لأن الرجل إنما يحسن تكلمه حال كونه وحده إما لأنه يحفظ به شيئًا كالذي يكرر على الدرس وذلك على الله محال، أو لأجل أنه يحصل سرور بما يقوله وذلك أيضًا على الله محال، أو لأجل أن يُعبد الله بذلك الذكر، وذلك أيضًا على الله محال، فثبت أن قول من يقول: إن الله تعالى يذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل لا أصل له.

والقول الثاني: أن في يوم التلاق إذا حضر الأولون والآخرون وبرزوا لله نادى منادٍ: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فيقول كل الحاضرين في محفل القيامة: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فالمؤمنون يقولون تلذذًا بهذا الكلام، حيث نالوا بهذا الذكر المنزلة الرفيعة، والكفار يقولونه على الصَّغار والذلة على وجه التحسر والندامة على أن فاتهم هذا الذكر في الدنيا. وقال القائلون بهذا القول: إن صح القول الأول عن ابن عباس وغيره لم يمتنع أن يكون المراد أن هذا النداء يُذكر بعد فناء البشر إلا أنه حضر هناك ملائكة يسمعون ذلك النداء، وأقول أيضًا على هذا القول: لا يبعد أن يكون السائل والمجيب هو الله تعالى، ولا يبعد أيضًا أن يكون السائل جمعًا من الملائكة والمجيب جمعًا آخرين، الكل ممكن وليس على التعيين دليل. فإن قيل: وما الفائدة في تخصيص هذا اليوم بهذا النداء؟

فنقول: الناس كانوا مغرورين في الدنيا بالأسباب الظاهرة، وكان الشيخ الإمام الوالد عمر رضي الله عنه يقول: لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب، وفي يوم القيامة زالت الأسباب، وانعزلت الأرباب، ولم يبق ألبتة غير حكم مسبب الأسباب؛ فلهذا اختص النداء بيوم القيامة، واعلم أنه وإن كان ظاهر اللفظ يدل على اختصاص ذلك النداء بذلك اليوم إلا أن قوله: ﴿لِلَّهِ

﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ يفيد أن هذا النداء حاصل من جهة المعنى أبدًا، وذلك لأن قولنا: (الله) اسم لواجب الوجود لذاته، وواجب الوجود لذاته واحد وكل ما سواه ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، ومعنى الإيجاد هو ترجيح جانب الوجود على جانب العدم، وذلك الترجيح هو قهر للجانب المرجوح، فثبت أن الإله القهار واحد أبدًا، ونداء (لمن الملك اليوم) إنما ظهر من كونه واحدًا قهارًا، فإذا كان كونه قهارًا باقيًا من الأزل إلى الأبد، لا جرم كان نداء ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ باقيًا في جانب المعنى من الأزل إلى الأبد.

الصفة الخامسة من صفات ذلك اليوم: قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

واعلم أنه سبحانه لما شرح صفات القهر في ذلك اليوم أردفه ببيان صفات العدل والفضل في ذلك اليوم فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذا الكلام اشتمل على أمور ثلاثة: أولها: إثبات الكسب للإنسان. والثاني: أن كسبه يوجب الجزاء. والثالث: أن ذلك الجزاء إنما يستوفى في ذلك اليوم، فهذه الكلمة على اختصارها مشتملة على هذه الأصول الثلاثة في هذا الكتاب، وهي أصول عظيمة الموقع في الدين، وقد سبق تقرير هذه الأصول مرارًا، ولا بأس بذكر بعض النكت في تقرير هذه الأصول: أما الأول: فهو إثبات الكسب للإنسان وهو عبارة عن كون أعضائه سليمة صالحة للفعل والترك، فما دام يبقى على هذا الاستواء امتنع صدور الفعل والترك عنه، فإذا انضاف إليه الداعي إلى الفعل أو الداعي إلى الترك وجب صدور ذلك الفعل أو الترك عنه. وأما الثاني: وهو بيان ترتب الجزاء عليه، فاعلم أن الأفعال على قسمين: منها ما يكون الداعي إليه طلب الخيرات الجسمانية الحاصلة في عالم الدنيا، ومنها ما يكون الداعي إليه طلب الخيرات الروحانية التي لا يظهر كمالها إلا في عالم الآخرة، وقد ثبت بالتجربة أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات الراسخة، فمن غلب عليه القسم الأول استحكمت رحمته رغبته في الدنيا وفي الجسمانيات، فعند الموت يحصل الفراق بينه وبين مطلوبه على أعظم الوجوه ويعظم عليه البلاء، ومن غلب عليه القسم الثاني فعند الموت يفارق المبغوض ويتصل بالمحبوب فتعظم الآلاء والنعماء، فهذا هو معنى الكسب، ومعنى كون ذلك الكسب موجبًا للجزاء، فظهر بهذا أن كمال الجزاء لا يحصل إلا في يوم القيامة، فهذا قانون كلي عقلي، والشريعة الحقة أتت بما يقوي هذا القانون الكلي في تفاصيل الأعمال والأقوال، والله أعلم.

المسألة الثانية: هذه الآية أصل عظيم في أصول الفقه، وذلك لأنا نقول: لو كان شيء من أنواع الضرر مشروعًا لكان إما أن يكون مشروعًا لكونه جزاء على شيء من الجنايات أو لا لكونه جزاء، والقسمان باطلان، فبطل القول بكونه مشروعًا، أما بيان أنه لا يجوز أن يكون مشروعًا ليكون جزاء على شيء من الأعمال، فلأن هذا النص يقتضي تأخير الأجزية إلى يوم القيامة،

فإثباته في الدنيا يكون على خلاف هذا النص، وأما بيان أنه لا يجوز أن يكون مشروعًا للجزاء لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ولقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] ولقوله ﷺ: «لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ فِي الإِسْلاَمِ»(١) عدلنا عن هذه العمومات فيما إذا كانت المضار أجزية، وفيما ورد نص في الإذن فيه كذبح الحيوانات، فوجب أن يبقى على أصل الحرمة فيما عداه، فثبت بما ذكرنا أن الأصل في المضار والآلام التحريم، فإن وجدنا نصًّا خاصًّا يدل على الشرعية قضينا به تقديمًا للخاص على العام، وإلا فهو باقٍ على أصل التحريم، وهذا أصل كلي منتفع به في الشريعة، والله أعلم.

الصفة السادسة من صفات ذلك اليوم: قوله: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ والمقصود أنه لما قال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أردفه بما يدل على أنه لا يقع في ذلك اليوم نوع من أنواع الظلم، قال المحققون: وقوع الظلم في الجزاء يقع على أربعة أقسام: أحدها: أن يستحق الرجل ثوابًا فيُمنع منه. وثانيها: أن يعطي بعض حقه ولكنه لا يوصل إليه حقه بالتمام. وثالثها: أن يعذب من لا يستحق. العذاب ورابعها: أن يكون الرجل مستحقًّا للعذاب فيعذب ويزداد على قدر حقه. فقوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ يفيد نفي هذه الأقسام الأربعة، قال القاضي: هذه الآية قوية في إبطال قول المجبرة لأن على قولهم لا ظلم غالبًا وشاهدًا إلا من الله، ولأنه تعالى إذا خلق فيه الكفر ثم عذبه عليه، فهذا هو عين الظلم. والجواب عنه معلوم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وذِكر هذا الكلام في هذا الموضع لائق جدًّا؛ لأنه تعالى لما بيّن أنه لا ظلم، بَيَّن أنه سريع الحساب، وذلك يدل على أنه يصل إليهم ما يستحقونه في الحال، والله أعلم.

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (٢/ ٧٨٤)، حديث رقم (٢٣٤٠) من طريق موسى بن عقبة، حدثنا إسحاق بن يحيى بن الوليد عن عبادة بن الصامت... به، ورواه أحمد في (مسنده) (١/ ٢٥٥)، حديث رقم (٢٣٠٧) من طريق أبي الأسود عن عكرمة عن ابن عباس... به، وأيضًا في (١/ ٣١٣)، حديث رقم (٢٨٦٧) من طريق معمر عن جابر عن عكرمة عن ابن عباس... به، ورواه الطبراني في (الأوسط) (١/ ٩٠)، حديث رقم (٢٦٨) من طريق سعيد بن أبي أيوب عن أبي سهل عن القاسم بن محمد عن عائشة... به، ورواه أيضًا في (٤/ ١٢٥)، حديث رقم (٣٧٧٧) من طريق محمد بن ثور عن معمر عن جابر عن عكرمة عن ابن عباس... به، ورواه أيضًا في (٢/ ٢٣٨) حديث رقم (٥١٩٣) من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن يحيى بن حبان، عن عمه واسع بن حبان، عن جابر بن عبد الله... به، ورواه أيضًا في (الكبير) (٢/ ٨٦)، حديث رقم (١٣٨٧) من طريق يعقوب بن حميد بن كاسب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم مولى قرينة عن صفوان بن سليم عن ثعلبة بن أبي مالك... به، ورواه البيهقي في (معرفة السنن والآثار) (١٠/ ٢٢٢)، حديث رقم (٢٨٦٣) من طريق الشافعي قال: إن مالكًا أخبره عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال... فذكره. ورواه في (السنن الكبرى) (٦/ ٦٩) من طريق عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري... فذكره. ورواه أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٤/ ٢٨٧)، حديث رقم (١٣٠٠) من طريق يعقوب بن كاسب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، عن صفوان بن سليم، عن ثعلبة بن مالك أن النبي ﷺ... فذكره.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية وصف يوم القيامة بأنواع أخرى من الصفات الهائلة المهيبة.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير يوم الآزفة وجوهًا: الأول: أن يوم الآزفة هو يوم القيامة، والآزفة فاعلة من أزف الأمر، إذا دنا وحضر؛ لقوله في صفة يوم القيامة: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وقال شاعر:

أَفِدَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا ... لَمَّا تَزُلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنْ قَدِ[(١)]

والمقصود منه التنبيه على أن يوم القيامة قريب، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] قال الزجاج: إنما قيل لها آزفة لأنها قريبة وإن استبعد الناس مداها، وما هو كائن فهو قريب.

واعلم أن الآزفة نعت لمحذوف مؤنث على تقدير يوم القيامة الآزفة أو يوم المجازاة الآزفة. قال القفال: وأسماء القيامة تجري على التأنيث كالطامة والحاقة ونحوها، كأنها يرجع معناها إلى الداهية.

والقول الثاني: أن المراد بيوم الآزفة وقت الآزفة وهي مسارعتهم إلى دخول النار، فإن عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف.

والقول الثالث: قال أبو مسلم: يوم الآزفة يوم المنية وحضور الأجل، والذي يدل عليه أنه تعالى وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق، و ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ ثم قال بعده: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ فوجب أن يكون هذا اليوم غير ذلك اليوم، وأيضًا هذه الصفة مخصوصة في سائر الآيات بيوم الموت، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤] وقال: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ [القيامة: ٢٦] وأيضًا فوصْف يوم الموت بالقرب أَوْلى من وصف يوم القيامة بالقرب،

---

(١) هذا البيت للشاعر النابغة الذبياني، وقد سبق ترجمته.

وأيضًا الصفات المذكورة بعد قوله الآزفة لائقة بيوم حضور الموت لأن الرجل عند معاينة ملائكة العذاب يعظم خوفه، فكأن قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف، ويبقوا كاظمين ساكتين عن ذكر ما في قلوبهم من شدة الخوف، ولا يكون لهم حميم ولا شفيع يدفع ما بهم من أنواع الخوف والقلق.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن المراد من قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ كناية عن شدة الخوف أو هو محمول على ظاهره: قيل: المراد وصف ذلك اليوم بشدة الخوف والفزع، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠] وقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۞ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤] وقيل: بل هو محمول على ظاهره، قال الحسن: القلوب انتزعت من الصدور بسبب شدة الخوف، وبلغت القلوب الحناجر فلا تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروحوا، ولكنها مقبوضة كالسجال كما قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧] وقوله: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي مكروبين، والكاظم: الساكت حال امتلائه غمًّا وغيظًا. فإن قيل: بِمَ انتصب ﴿كَٰظِمِينَ﴾؟ قلنا: هو حال أصحاب القلوب على المعنى لأن المراد إذ قلوبهم لدى الحناجر حال كونهم كاظمين، ويجوز أيضًا أن يكون حال عن القلوب، وأن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر، وإنما جمع الكاظمة جمع السلامة لأنه وَصَفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء كما قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقال: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] ويعضده قراءة من قرأ (كاظمون) وبالجملة فالمقصود من الآية تقرير أمرين: أحدهما: الخوف الشديد وهو المراد من قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾، والثاني: العجز عن الكلام وهو المراد من قوله ﴿كَٰظِمِينَ﴾ فإن الملهوف إذا قدر على الكلام حصلت له خفقة وسكون، أما إذا لم يقدر على الكلام وبث الشكوى عظم قلقه وقوي خوفه.

المسألة الثالثة: احتج أكثر المعتزلة في نفي الشفاعة عن المذنبين بقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ قالوا: نفى حصول شفيع لهم يطاع، فوجب أن لا يحصل لهم هذا الشفيع. أجاب أصحابنا عنه من وجوه: الأول: أنه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع، وهذا لا يدل على نفي الشفيع، ألا ترى أنك إذا قلت (ما عندي كتاب يباع) فهذا يقتضي نفي كتاب يباع ولا يقتضي نفي الكتاب، وقالت العرب:

وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ(١)

ولفظ الطاعة يقتضي حصول المرتبة، فهذا يدل على أنه ليس لهم يوم القيامة شفيع

---

(١) هذا عجز ببيت من قصيدة للشاعر ابن أحمر الباهلي، والبيت كاملاً هكذا:

لا تُفْزِعُ الأرنبَ أهْوَالُهَا وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ

وقد سبق ترجمته.

يطيعه الله، لأنه ليس في الوجود أحد أعلى حالاً من الله تعالى حتى يقال: إن الله يطيعه الوجه الثاني في الجواب: أن المراد من الظالمين هاهنا الكفار، والدليل عليه أن هذه الآية وردت في زجر الكفار الذين يجادلون في آيات الله، فوجب أن يكون مختصًا بهم، وعندنا أنه لا شفاعة في حق الكفار. والثالث: أن لفظ الظالمين إما أن يفيد الاستغراق، وإما أن لا يفيد: فإن أفاد الاستغراق كان المراد من الظالمين مجموعهم وجملتهم، ويدخل في مجموع هذا الكلام الكفار، وعندنا أنه ليس لهذا المجموع شفيع لأن بعض هذا المجموع هم الكفار، وليس لهم شفيع، فحينئذٍ لا يكون لهذا المجموع شفيع، وإن لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض من كان موصوفًا بهذه الصفة، وعندنا أن بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع وهم الكفار. أجاب المستدلون عن السؤال الأول فقالوا: يجب حمل كلام الله تعالى على محمل مفيد، وكل أحد يعلم أنه ليس في الوجود شيء يطيعه الله لأن المطيع أدون حالاً من المطاع، وليس في الوجود شيء أعلى مرتبة من الله تعالى حتى يقال: إن الله يطيعه، وإذا كان هذا المعنى معلومًا بالضرورة كان حمل الآية عليه إخراجًا لها عن الفائدة، فوجب حمل الطاعة على الإجابة، والذي يدل على ورود لفظ الطاعة بمعنى الإجابة قول الشاعر:

رُبَّ مَنْ أَنْضَجْتُ غَيْظًا صَدْرَهُ قَدْ تَمَنَّى لِي مَوْتًا لَمْ يُطَعْ(١)

أما السؤال الثاني: فقد أجابوا عنه بأن لفظ الظالمين صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم، أقصى ما في الباب أن هذه الآية وردت لذم الكفار؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

أما السؤال الثالث: فجوابه أن قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يفيد أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع يطاع. فهذا تمام كلام القوم في تقرير ذلك الاستدلال.

أجاب أصحابنا عن السؤال الأول فقالوا: إن القوم كانوا يقولون في الأصنام: إنها شفعاؤنا عند الله. وكانوا يقولون: إنها تشفع لنا عند الله من غير حاجة فيه إلى إذن الله. ولهذا السبب رد الله تعالى عليهم ذلك بقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فهذا يدل على أن القوم اعتقدوا أنه يجب على الله إجابة الأصنام في تلك الشفاعة، وهذا نوع طاعة، فالله تعالى نفى تلك الطاعة بقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾. وأجابوا عن الكلام الثاني بأن قالوا: الأصل في حرف التعريف أن ينصرف إلى المعهود السابق، فإذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع وكان هناك معهود سابق، انصرف إليه، وقد حصل في هذه الآية معهود سابق

(١) هذا البيت للشاعر سويد البشكري، وفيه (غيظًا قلبه)... وهو: سويد بن أبي كاهل (غطيف أو شبيب) بن حارثة بن حسل الذبياني الكناني اليشكري، ؟- ٦٠/ ؟- ٦٧٩م، شاعر من مخضرمي الجاهلية والإسلام، عدّه ابن سلام في طبقة عنترة، كان يسكن بادية العراق، وسُجن بالكوفة لمهاجاته أحد بني يشكر، فعمل بنو عبس وذبيان على إخراجه لمديحه، فأُطلق بعد أن حلف على أن لا يعود إلى المهاجاة.

وهم الكفار الذين يجادلون في آيات الله، فوجب أن ينصرف إليه. وأجابوا عن الكلام الثالث بأن قالوا: قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ يحتمل عموم السلب، ويحتمل سلب العموم: أما الأول: فعلى تقدير أن يكون المعنى أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع، وأما الثاني: فعلى تقدير أن يكون المعنى أن مجموع الظالمين ليس لهم حميم ولا شفيع، ولا يلزم من نفي الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من آحاد ذلك المجموع، والذي يؤكد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] فقوله: (إن الذين كفروا لا يؤمنون)، إن حملناه على أن كل واحد منهم محكوم عليه بأنه لا يؤمن لزم وقوع الخلف في كلام الله؛ لأن كثيرًا ممن كفر فقد آمن بعد ذلك، أما لو حملناه على أن مجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أو لم يؤمن، صدق وتخلص عن الخلف، فلا جرم حملنا هذه الآية على سلب العموم ولم نحملها على عموم السلب، فكذا قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ﴾ يجب حمله على سلب العموم لا على عموم السلب، وحينئذٍ استدلال المعتزلة بهذه الآية، فهذا غاية الكلام في هذا الباب.

المسألة الرابعة: في بيان نظم الآية فنقول: إنه تعالى ذكر في هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف: فأولها: أنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة، أي يوم القرب من عذابه لمن ابتلي بالذنب العظيم؛ لأنه إذا قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف، حتى قيل: إن تلك الغموم والهموم أعظم في الإيحاش من عين تلك العقوبة. والثاني: قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ والمعنى أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة والتصق بها، وصار مانعًا من دخول النفس. والثالث: قوله: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ والمعنى أنه لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف، وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب. الرابع: قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فبيّن أنه ليس لهم قريب ينفعهم، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته. والخامس: قوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ والمعنى أنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدًا جدًّا، قال صاحب (الكشاف): الخائنة صفة النظرة أو مصدر بمعنى الخائنة، كالعافية المعافاة، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب، والمراد بقوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ مضمرات القلوب، والحاصل أن الأفعال قسمان: أفعال الجوارح وأفعال القلوب، أما أفعال الجوارح فأخفاها خائنة الأعين، والله أعلم بها، فكيف الحال في سائر الأعمال؟ وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ فدل هذا على كونه تعالى عالمًا بجميع أفعالهم. السادس: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا أيضًا يوجب عظم الخوف؛ لأن الحاكم إذا كان عالمًا بجميع الأحوال، وثبت أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل، كان خوف المذنب منه في الغاية

القصوى. السابع: أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام، وقد بيّن الله تعالى أنه لا فائدة فيها ألبتة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۚ﴾ الثامن: قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام، ولا يسمع منهم ثناءهم على الله، ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله. فهذه الأحوال الثمانية إذا اجتمعت في حق المذنب الذي عظم ذنبه كان بالغًا في التخويف إلى الحد الذي لا تُعقل الزيادة عليه. ثم إنه تعالى لما بالغ في تخويف الكفار بعذاب الآخرة، أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ والمعنى أن العاقل من اعتبر بغيره، فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار، وأقوى آثارًا في الأرض منهم، والمراد حصونهم وقصورهم وعساكرهم، فلما كَذَّبوا رسلهم أهلكهم الله بضروب الهلاك معجلاً، حتى إن هؤلاء الحاضرين من الكفار يشاهدون تلك الآثار، فحذرهم الله تعالى من مثل ذلك بهذا القول، وبَيَّن بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ أنه لما نزل العذاب بهم عند أخذه تعالى لهم، لم يجدوا من يعينهم ويخلصهم، ثم بَيَّن أن ذلك نزل بهم لأجل أنهم كفروا وكَذَّبوا الرسل، فحذر قوم الرسول من مثله، وختم الكلام بـ﴿إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ مبالغة في التحذير والتخويف، والله أعلم.

وقرأ ابن عامر وحده: (كانوا هم أشد منكم) بالكاف، والباقون بالهاء، أما وجه قراءة ابن عامر فهو انصراف من الغيبة إلى الخطاب، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ والوجه في حسن هذا الخطاب أنه في شأن أهل مكة، فجعل الخطاب على لفظ المخاطب الحاضر لحضورهم، وهذه الآية في المعنى كقوله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾[الأنعام: ٦] وأما قراءة الباقين على لفظ الغيبة فلأجل موافقة ما قبله من ألفاظ الغيبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾

واعلم أنه تعالى لما سلَّى رسوله بذكر الكفار الذين كذبوا الأنبياء قبله وبمشاهدة آثارهم، سلاَّه أيضًا بذكر موسى عليه السلام، وأنه مع قوة معجزاته بعثه إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه وكابروه، وقالوا: هو ساحر كذاب.

واعلم أن موسى عليه السلام لما جاءهم بتلك المعجزات الباهرة وبالنبوّة وهي المراد بقوله ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ حكى الله تعالى عنهم ما صدر عنهم من الجهالات: فالأول: أنهم وصفوه بكونه ساحرًا كاذبًا، وهذا في غاية البعد؛ لأن تلك المعجزات كانت قد بلغت في القوة والظهور إلى حيث يشهد كل ذي عقل سليم بأنه ليس من السحر ألبتة. الثاني: أنهم قالوا: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ والصحيح أن هذا القتل غير القتل الذي وقع في وقت ولادة موسى عليه السلام؛ لأن في ذلك الوقت أخبره المنجمون بولادة عدو له يظهر عليه، فأمر بقتل الأولاد في ذلك الوقت، وأما في هذا الوقت فموسى عليه السلام قد جاءه وأظهر المعجزات الظاهرة، فعند هذا أمَر بقتل أبناء الذين آمنوا معه لئلا ينشئوا على دين موسى فيقوى بهم، وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات؛ فلهذا السبب أمَر بقتل الأبناء. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ ومعناه أن جميع ما يسعون فيه من مكايدة موسى ومكايدة من آمن معه - يبطل؛ لأن ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها. النوع الثالث من قبائح أفعال أولئك الكفار مع موسى عليه السلام: ما حكاه الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وهذا الكلام كالدلالة على أنهم كانوا يمنعونه من قتله.

وفيه احتمالان:

والاحتمال الأول: أنهم منعوه من قتله لوجوه: الأول: لعله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقًا، فيأتي بوجوه الحيل في منع فرعون من قتله. الثاني: قال الحسن: إن أصحابه قالوا له: لا تقتله فإنما هو ساحر ضعيف ولا يمكنه أن يغلب سحرتك، وإن قتلته أدخلت الشبهة على الناس وقالوا: إنه كان محقًّا وعجزوا عن جوابه فقتلوه. الثالث: لعلّهم كانوا يحتالون في منعه من قتله؛ لأجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب أولئك الأقوام، فإن من شأن الأمراء أن يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجي حتى يصيروا آمنين من شر ذلك الملك.

والاحتمال الثاني: أن أحدًا ما منع فرعون من قتل موسى وأنه كان يريد أن يقتله، إلا أنه كان خائفًا من أنه لو حاول قتله لظهرت معجزات قاهرة تمنعه عن قتله فيفتضح، إلا أنه لوقاحته قال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وغرضه منه أنه إنما امتنع عن قتله رعايةً لقلوب أصحابه، وغرضه منه إخفاء خوفه.

أما قوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ فإنما ذكره على سبيل الاستهزاء، يعني أني أقتله فليقل لربه حتى يخلصه مني.

وأما قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: فتح ابن كثير الياء من قوله ﴿ذَرُونِىٓ﴾ وفتح نافع وابن كثير وأبو عمرو الياء من ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ وأيضًا قرأ نافع وابن عمرو: (وأن يُظهر) بالواو وبحذف أو، يعني أنه يجمع بين

تبديل الدين وبين إظهار المفاسد، والذين قرأوا بصيغة (أو) فمعناه أنه لا بد من وقوع أحد الأمرين. وقرئ (يُظهر) بضم الياء وكسر الهاء والفساد بالنصب على التعدية، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بلفظ (أو يَظهر) بفتح الياء والهاء والفساد بالرفع، أما وجه القراءة الأولى فهو أنه أسند الفعل إلى موسى في قوله: ﴿يُبَدِّلَ﴾ فكذلك في (يُظهر) ليكون الكلام على نسق واحد، وأما وجه القراءة الثانية فهو أنه إذا بدل الدين فقد ظهر الفساد الحاصل بسبب ذلك التبديل.

المسألة الثانية: المقصود من هذا الكلام بيان السبب الموجب لقتله وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا: أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذي كانوا عليه، فلما كان موسى ساعيًا في إفساده كان في اعتقادهم أنه ساعٍ في إفساد الدين الحق. وأما فساد الدنيا فهو أنه لا بد وأن يجتمع عليه قوم ويصير ذلك سببًا لوقوع الخصومات وإثارة الفتن، ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم، لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذا الكلام حكى بعده ما ذكره موسى عليه السلام فحكى عنه أنه قال: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائي عذت بإدغام الذال في التاء، والباقون بالإظهار.

المسألة الثانية: المعنى أنه لم يأتِ في دفع شره إلا بأن استعاذ بالله، واعتمد على فضل الله، لا جرم صانه الله عن كل بلية وأوصله إلى كل أمنية.

واعلم أن هذه الكلمات التي ذكرها موسى عليه السلام - تشتمل على فوائد:

الفائدة الأولى: أن لفظة ﴿إِنِّي﴾ تدل على التأكيد، فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر في دفع الشرور والآفات عن النفس - الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى.

الفائدة الثانية: أنه قال: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ فكما أن عند القراءة يقول المسلم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن، فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم: (أعوذ بالله) فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ والمعنى كأن العبد يقول: إن الله سبحانه هو الذي رباني وإلى درجات الخير رقاني، ومن الآفات وقاني، وأعطاني نعمًا لا حد لها ولا حصر، فلما كان المولى ليس إلا الله، وجب أن لا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى.

الفائدة الرابعة: أن قوله ﴿وَرَبِّكُم﴾ فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به في الاستعاذة بالله، والمعنى فيه أن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوي ذلك التأثير جدًّا، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلوات في الجماعات.

الفائدة الخامسة: أنه لم يذكر فرعون في هذا الدعاء؛ لأنه كان قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه، فترك التعيين رعاية لذلك الحق.

الفائدة السادسة: أن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنه لا فائدة في الدعاء على فرعون بعينه، بل الأَوْلى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفًا بتلك الصفة، حتى يدخل فيه كل من كان عدوًّا، سواء كان مُظهرًا لتلك العداوة أو كان مُخفيًا لها.

الفائدة السابعة: أن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران: أحدهما: كون الإنسان متكبرًا قاسي القلب. والثاني: كونه منكرًا للبعث والقيامة، وذلك لأن المتكبر القاسي قد يحمله طبعه على إيذاء الناس إلا أنه إذا كان مقرًّا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعًا له من الجري على موجب تكبره، فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيذاء، والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلًا، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلًا فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء.

الفائدة الثامنة: أن فرعون لما قال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال على سبيل الاستهزاء: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ فقال موسى: إن الذي ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين والحق المنير، وأنا أدعو ربي وأطلب منه أن يدفع شرَّك عني، وسترى أن ربي كيف يقهرك، وكيف يسلطني عليك.

واعلم أن من أحاط عقله بهذه الفوائد، علم أنه لا طريق أصلح ولا أصوب في دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم إلا الاستعاذة بالله والرجوع إلى حفظ الله، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله، بيّن أنه تعالى قيض إنسانًا أجنبيًا غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه، وبالغ في تسكين تلك الفتنة، واجتهد في إزالة ذلك الشر.

يقول مصنف هذا الكتاب رحمه الله: ولقد جربت في أحوال نفسي أنه كلما قصدني شرير

بشَرٌّ ولم أتعرض له وأكتفي بتفويض ذلك الأمر إلى الله، فإنه سبحانه يقيض أقوامًا لا أعرفهم ألبتة يبالغون في دفع ذلك الشر.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في ذلك الرجل الذي كان من آل فرعون: فقيل: إنه كان ابن عم له، وكان جاريًا مجرى ولي العهد ومجرى صاحب الشرطة. وقيل: كان قبطيًّا من آل فرعون وما كان من أقاربه. وقيل: إنه كان من بني إسرائيل، والقول الأول أقرب لأن لفظ الآل يقع على القرابة والعشيرة، قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤] وعن رسول الله أنه قال: «الصِّدِّيقُونَ ثَلَاثَةٌ: حَبِيبُ النَّجَّارُ مُؤْمِنُ آلِ يَاسِينَ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِي قَالَ: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وَالثَّالِثُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ»[1] وعن جعفر بن محمد أنه قال: كان أبو بكر خيرًا من مؤمن آل فرعون لأنه كان يكتم إيمانه، وقال أبو بكر جهارًا: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فكان ذلك سرًّا وهذا كان جهارًا.

المسألة الثانية: لفظ (مِن) في قوله: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ يجوز أن يكون متعلقًا بقوله: ﴿مُّؤۡمِنٞ﴾ أي كان ذلك المؤمن شخصًا من آل فرعون، ويجوز أن يكون متعلقًا بقوله: ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ والتقدير رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون، وقيل: إن هذا الاحتمال غير جائز لأنه يقال: كتمت من فلان كذا، إنما يقال كتمته كذا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢].

المسألة الثالثة: (رجل مؤمن) الأكثرون قرأوا بضم الجيم وقرئ (رجِل) بكسر الجيم كما يقال عضِد في عضُد.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، وقد ذكر في هذا الكلام ما يدل على حسن ذلك الاستنكار، وذلك لأنه ما زاد على أن قال: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وجاء بالبينات، وذلك لا يوجب القتل ألبتة، وقوله: ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ يحتمل وجهين: الأول: أن قوله: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ إشارة إلى الدلائل الدالة على التوحيد، وهو قوله في سورة طه ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقوله في سورة الشعراء ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] إلى آخر الآيات، ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية في أن الإقدام على قتله غير جائز

---

(١) موضوع: أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (١/ ٣٦٥)، حديث رقم (٣٢٣)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٤٢/ ٣١٣)، كلاهما من طريق الحسن بن عبد الرحمن، حدثنا عمرو بن جميع، عن ابن أبي ليلى عن أخيه عيسى، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ . . . فذكره. وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، صدوق سيئ الحفظ جدًا، وفيه أيضًا عمرو بن جميع، قال ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل) (٦/ ٢٢٤) عن يحيى بن معين قال: عمرو بن جميع المدني روى عن الأعمش والليث كان كذابًا. وعند الذهبي في (الضعفاء) (٢/ ٤٨٢) قال: قال ابن عدي: يُتهم بوضع الحديث، وأورده الألباني في (الضعيفة) (٣٥٥) وقال: موضوع.

وهي حجة مذكورة على طريقة التقسيم، فقال: إن كان هذا الرجل كاذبًا كان وبال كذبه عائدًا عليه فاتركوه، وإن كان صادقًا يصبكم بعض الذي يعدكم، فثبت أن على كلا التقديرين كان الأَوْلى إبقاؤه حيًّا.

فإن قيل: السؤال على هذا الدليل من وجهين:

الأول: أن قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ معناه أن ضرر كذبه مقصور عليه ولا يتعداه، وهذا الكلام فاسد لوجوه: أحدها: أنا لا نُسلِّم أن بتقدير كونه كاذبًا كان ضرر كذبه مقصورًا عليه؛ لأنه يدعو الناس إلى ذلك الدين الباطل، فيغتر به جماعة منهم، ويقعون في المذهب الباطل والاعتقاد الفاسد، ثم يقع بينهم وبين غيرهم الخصومات الكثيرة، فثبت أن بتقدير كونه كاذبًا لم يمكن ضرر كذبه مقصورًا عليه، بل كان متعديًا إلى الكل، ولهذا السبب العلماء أجمعوا على أن الزنديق الذي يدعو الناس إلى زندقته يجب قتله وثانيها: أنه إن كان الكلام حجة له، فلا كذاب إلا ويمكنه أن يتمسك بهذه الطريقة، فوجب تمكن جميع الزنادقة والمبطلين من تقرير أديانهم الباطلة. وثالثها: أن الكفار الذين أنكروا نبوّة موسى عليه السلام وجب أن لا يجوز الإنكار عليهم؛ لأنه يقال: إن كان ذلك المنكر كاذبًا في ذلك الإنكار فعليه كذبه، وإن يك صادقًا انتفعتم بصدقه، فثبت أن هذا الطريق يوجب تصويب ضده، وما أفضى ثبوته إلى عدمه كان باطلاً.

السؤال الثاني: أنه كان من الواجب أن يقال: (وإن يك صادقًا يصبكم كل الذي يعدكم) لأن الذي يصيب في بعض ما يَعِد دون البعض هم أصحاب الكهانة والنجوم، أما الرسول الصادق الذي لا يتكلم إلا بالوحي فإنه يجب أن يكون صادقًا في كل ما يقول، فكان قوله: ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ غير لائق بهذا المقام. والجواب عن الأسئلة الثلاثة بحرف واحد: وهو أن تقدير الكلام أن يقال: إنه لا حاجة بكم في دفع شره إلى قتله، بل يكفيكم أن تمنعوه عن إظهار هذه المقالة ثم تتركوا قتله، فإن كان كاذبًا فحينئذٍ لا يعود ضرره إلا إليه، وإن يك صادقًا انتفعتم به، والحاصل أن المقصود من ذكر ذلك التقسيم بيان أنه لا حاجة إلى قتله، بل يكفيكم أن تُعْرضوا عنه وأن تمنعوه عن إظهار دينه، فبهذا الطريق (تكون) الأسئلة الثلاثة مدفوعة.

وأما السؤال الثاني: - وهو قوله: (كان الأَوْلى أن يقال: يصبكم كل الذي يعدكم) - فالجواب عنه من وجوه: الأول: أن مدار هذا الاستدلال على إظهار الإنصاف وترك اللجاج؛ لأن المقصود منه إن كان كاذبًا كان ضرر كذبه مقصورًا عليه، وإن كان صادقًا فلا أقل من أن يصل إليكم بعض ما يعدكم، وإن كان المقصود من هذا الكلام ما ذكر صح، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]، والوجه الثاني: أنه عليه السلام كان يتوعدهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة، فإذا وصل إليهم في الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الذي يعدهم به. الوجه الثالث: حُكي عن أبي عبيدة أنه قال: ورود لفظ البعض بمعنى الكل جائز. واحتج بقول لبيد:

فرعون وعلى دينه، إلا أنه زعم أن المصلحة تقتضي ترك قتل موسى؛ لأنه لم يصدر عنه إلا الدعوة إلى الله والإتيان بالمعجزات القاهرة وهذا لا يوجب القتل، والإقدام على قتله يوجب الوقوع في ألسنة الناس بأقبح الكلمات، بل الأَوْلى أن يُؤخَّر قتله وأن يُمنع من إظهار دينه؛ لأن على هذا التقدير إن كان كاذبًا كان وبال كذبه عائدًا إليه، وإن كان صادقًا حصل الانتفاع به من بعض الوجوه، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[غافر: ٢٨] يعني أنه إن صدق فيما يدعيه من إثبات الإله القادر الحكيم فهو لا يهدي المسرف الكذاب، فأوهم فرعونَ أنه أراد بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أنه يريد موسى وهو إنما كان يقصد به فرعون؛ لأن المسرف الكذاب هو فرعون والقول الثاني: أن مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه أولاً، فلما قال فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أزال الكتمان وأظهر كونه على دين موسى، وشافه فرعون بالحق.

واعلم أنه تعالى حكى عن هذا المؤمن أنواعًا من الكلمات ذكرها لفرعون: الأول: قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ والتقدير مثل أيام الأحزاب، إلا أنه لما أضاف اليوم إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود، فحينئذٍ ظهر أن كل حزب كان له يوم معين في البلاء، فاقتصر من الجمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس، ثم فسّر قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ بقوله: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ ودأب هؤلاء دونهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي، فيكون ذلك دائبًا ودائمًا لا يفترون عنه، ولا بد من حذف مضاف، يريد مثل جزاء دأبهم، والحاصل أنه خوَّفهم بهلاك معجل في الدنيا، ثم خوفهم أيضًا بهلاك الآخرة، وهو قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ والمقصود منه التنبيه على عذاب الآخرة.

والنوع الثاني من كلمات ذلك المؤمن: قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ يعني أن تدمير أولئك الأحزاب كان عدلاً؛ لأنهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للأنبياء، فتلك الجملة قائمة ههنا، فوجب حصول الحكم ههنا، قالت المعتزلة: (وما الله يريد ظلمًا للعباد) يدل على أنه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضًا، ويدل على أنه لا يريد ظلم أحد من العباد، فلو خَلَق الكفر فيهم ثم عذبهم على ذلك الكفر لكان ظالمًا، وإذا ثبت أنه لا يريد الظلم ألبتة ثبت أنه غير خالق لأفعال العباد؛ لأنه لو خلقها لأرادها، وثبت أيضًا أنه قادر على الظلم، إذ لو لم يقدر عليه لما حصل المدح بترك الظلم. وهذا الاستدلال قد ذكرناه مرارًا في هذا الكتاب مع الجواب، فلا فائدة في الإعادة.

النوع الثالث من كلمات هذا المؤمن: قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: التنادي تفاعُل من النداء، يقال: تنادى القوم، أي نادى بعضهم بعضًا، والأصل الياء وحذف الياء حسن في الفواصل، وذكرنا ذلك في ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[غافر: ١٥] وأجمع المفسرون على أن ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم القيامة، وفي سبب تسمية ذلك اليوم بذلك الاسم وجوه:

تَـرَاكَ أَمْـكِـنَـةٌ إِذَا لَـمْ أَرْضَـهَـا أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا[1]

والجمهور على أن هذا القول خطأ، قالوا: وأراد لبيد ببعض النفوس نفسه، والله أعلم.

ثم حكى الله تعالى عن هذا المؤمن حكاية ثالثة في أنه لا يجوز إيذاء موسى عليه السلام فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وتقرير هذا الدليل أن يقال: إن الله تعالى هدى موسى إلى الإتيان بهذه المعجزات الباهرة، ومَن هداه الله إلى الإتيان بالمعجزات لا يكون مسرفًا كذابًا، فهذا يدل على أن موسى عليه السلام ليس من الكاذبين، فكان قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ إشارة إلى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض، ويحتمل أيضًا أن يكون المراد أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى، كذاب في إقدامه على ادعاء الإلهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته، بل يُبطله ويهدم أمره.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

اعلم أن مؤمن آل فرعون لما أقام أنواع الدلائل على أنه لا يجوز الإقدام على قتل موسى، خوَّفهم في ذلك بعذاب الله فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني قد علوتم الناس وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه؛ فإنه لا قِبل لكم به، وإنما قال: ﴿يَنصُرُنَا﴾ و ﴿جَآءَنَا﴾ لأنه كان يُظهر من نفسه أنه منهم وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه، ولما قال ذلك المؤمن هذا الكلام ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي لا أشير إليكم برأي سوى ما ذكرته أنه يجب قتله حسمًا لمادة الفتنة ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ والصلاح. ثم حكى تعالى أن ذلك المؤمن رد هذا الكلام على فرعون فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

واعلم أنه تعالى حكى عن ذلك المؤمن أنه كان يكتم إيمانه، والذي يكتم كيف يمكنه أن يذكر هذه الكلمات مع فرعون؟! ولهذا السبب حصل هاهنا قولان: الأول: أن فرعون لما قال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦] لم يصرح ذلك المؤمن بأنه على دين موسى، بل أوهم أنه مع

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الكامل للشاعر لبيد بن ربيعة العامري، وتقدمت ترجمته.

الأول: أن أهل النار ينادون أهل الجنة، وأهل الجنة ينادون أهل النار، كما ذكر الله عنهم في سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾[الاعراف: ٥٠]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الاعراف: ٤٤]، الثاني: قال الزجاج: لا يبعد أن يكون السبب فيه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾[الإسراء: ٧١]، الثالث: أنه ينادي بعض الظالمين بعضًا بالويل والبثور فيقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾[الأنبياء: ١٤]، الرابع: ينادون إلى المحشر، أي يُدعون. الخامس: ينادي المؤمن ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾[الحاقة: ١٩] والكافر ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾[الحاقة: ٢٥]، السادس: ينادى باللعنة على الظالمين. السابع: يجاء بالموت على صورة كبش أملح، ثم يُذبح، وينادى: يا أهل القيامة لا موت! فيزداد أهل الجنة فرحًا على فرحهم، وأهل النار حزنًا على حزنهم. الثامن: قال أبو علي الفارسي: التنادي مشتق من التنادّ، من قولهم: (ندّ فلان) إذا هرب، وهو قراءة ابن عباس وفسرها، فقال: يندون كما تند الإبل. ويدل على صحة هذه القراءة قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾[عبس: ٣٤] الآية. وقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ لأنهم إذا سمعوا زفير النار يندون هاربين، فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفًا، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه.

المسألة الثانية: انتصب قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ لوجهين: أحدهما: الظرف للخوف، كأنه خاف عليهم في ذلك اليوم، لما يلحقهم من العذاب إن لم يؤمنوا. والآخر: أن يكون التقدير: إني أخاف عليكم عذاب يوم التناد، وإذا كان كذلك كان انتصاب يوم انتصاب المفعول به لا انتصاب الظرف؛ لأن إعرابه إعراب المضاف المحذوف. ثم قال: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ وهو بدل من قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ عن قتادة: منصرفين عن موقف يوم الحساب إلى النار. وعن مجاهد: فارين عن النار غير معجزين. ثم أكد التهديد فقال: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ ثم نبه على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم فقال: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾

واعلم أن مؤمن آل فرعون لما قال: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾[غافر: ٣٣] ذكر لهذا مثلاً، وهو أن يوسف لما جاءهم بالبينات الباهرة فأصروا على الشك والشبهة، ولم ينتفعوا بتلك الدلائل، وهذا يدل على أن من أضله الله فما له من هادٍ.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قيل: إن يوسف هذا هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام، ونقل صاحب (الكشاف) أنه يوسف بن أفراييم بن يوسف بن يعقوب، أقام فيهم نيفًا وعشرين سنة، وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف، بقي حيًا إلى زمانه وقيل: فرعون آخر، والمقصود من الكل شيء واحد وهو أن يوسف جاء قومه بالبينات، وفي المراد بها قولان:

الأول: أن المراد بالبينات قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

والثاني: المراد بها المعجزات. وهذا أَوْلى. ثم إنهم بقوا في نبوته شاكِّين مرتابين، ولم ينتفعوا ألبتة بتلك البينات، فلما مات قالوا إنه ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ وإنما حكموا بهذا الحكم على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان، بل إنما ذكروا ذلك ليكون ذلك أساسًا لهم في تكذيب الأنبياء الذين يأتون بعد ذلك وليس في قولهم: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ لأجل تصديق رسالة يوسف، وكيف وقد شكُّوا فيها وكفروا بها؟! وإنما هو تكذيب لرسالة من هو بعده مضمومًا إلى تكذيب رسالته.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي مثل هذا الضلال يضل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه. قال الكعبي: هذه الآية حجة لأهل القدر لأنه تعالى بَيَّن كفرهم، ثم بَيَّن أنه تعالى إنما أضلهم لكونهم مسرفين مرتابين، فثبت أن العبد ما لم يضل عن الدين، فإن الله تعالى لا يضله.

ثم بيّن تعالى ما لأجله بقوا في ذلك الشك والإسراف فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي بغير حجة، بل إما بناء على التقليد المجرد، وإما بناء على شبهات خسيسة ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ والمقت هو أن يبلغ المرء في القول مبلغًا عظيمًا، فيمقته الله ويبغضه ويُظهر خزيه وتعسه. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في ذمه لهم بأنهم يجادلون بغير سلطان دلالة على أن الجدال بالحجة حسن وحق، وفيه إبطال للتقليد.

المسألة الثانية: قال القاضي: مقت الله إياهم يدل على أن فعلهم ليس بخلق الله؛ لأن كونه فاعلًا للفعل وماقتًا له محال.

المسألة الثالثة: الآية تدل على أنه يجوز وصف الله تعالى بأنه قد يمقت بعض عباده، إلا أن ذلك صفة واجبة التأويل في حق الله كالغضب والحياء والتعجب، والله أعلم. ثم بيّن أن هذا المقت كما حصل عند الله فكذلك قد حصل عند الذين آمنوا.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر وأبو عمرون وقتيبة عن الكسائي: (قلبٍ) منونًا ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ صفة للقلب، والباقون بغير تنوين على إضافة القلب إلى المتكبر، قال أبو عبيد: الاختيار الإضافة

لوجوه: الأول: أن عبد الله قرأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ وهو شاهد لهذه القراءة. الثاني: أن وصف الإنسان بالتكبر والجبروت أَوْلى من وصف القلب بهما. وأما الذين قرأوا بالتنوين فقالوا: إن الكبر قد أضيف إلى القلب في قوله: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾[غافر: ٥٦] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[البقرة: ٢٨٣] وأيضًا فيمكن أن يكون ذلك على حذف المضاف، أي على كل ذي قلب متكبر، وأيضًا قال قوم: الإنسان الحقيقي هو القلب. وهذا البحث طويل وقد ذكرناه في تفسير قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] قالوا: ومن أضاف فلا بد له من تقدير حذف، والتقدير يطبع الله على قلب كل متكبر.

المسألة الثانية: الكلام في الطبع والرين والقسوة والغشاوة قد سبق في هذا الكتاب بالاستقصاء، وأصحابنا يقولون: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ يدل على أن الكل من الله. والمعتزلة يقولون: إن قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ يدل على أن هذا الطبع إنما حصل من الله لأنه كان في نفسه متكبرًا جبارًا. وعند هذا تصير الآية حجة لكل واحد من هذين الفريقين من وجه، وعليه من وجه آخر، والقول الذي يخرج عليه الوجهان ما ذهبنا إليه وهو أنه تعالى يخلق دواعي الكبر والرياسة في القلب، فتصير تلك الدواعي مانعة من حصول ما يدعون إلى الطاعة والانقياد لأمر الله، فيكون القول بالقضاء والقدر حيًّا ويكون تعليل الصد عن الدين بكونه متجبرًا متكبرًا باقيًا، فثبت أن هذا المذهب الذي اخترناه في القضاء والقدر هو الذي ينطبق لفظ القرآن من أوله إلى آخره عليه.

المسألة الثالثة: لا بد من بيان الفرق بين المتكبر والجبار، قال مقاتل: ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ عن قبول التوحيد ﴿جَبَّارٍ﴾ في غير حق. وأقول: كمال السعادة في أمرين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، فعلى قول مقاتل التكبر كالمضاد للتعظيم لأمر الله، والجبروت كالمضاد للشفقة على خلق الله، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۝﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف فرعون بكونه متكبرًا جبارًا بَيَّن أنه بلغ في البلادة والحماقة إلى أن قصد الصعود إلى السموات.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: احتج الجمع الكثير من المشبهة بهذه الآية في إثبات أن الله في السموات، وقرروا ذلك من وجوه: الأول: أن فرعون كان من المنكرين لوجود الله، وكل ما يذكره في

صفات الله تعالى فذلك إنما يذكره لأجل أنه سمع أن موسى يصف الله بذلك، فهو أيضًا يذكره كما سمعه، فلولا أنه سمع موسى يصف الله بأنه موجود في السماء، وإلا لما طلبه في السماء. الوجه الثاني: أنه قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، ولم يبين أنه كاذب فيماذا، والمذكور السابق متعين لصرف الكلام إليه فكأن التقدير: فأطلع إلى الإله الذي يزعم موسى أنه موجود في السماء. ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ أي وإني لأظن موسى كاذبًا في إدعائه أن الإله موجود في السماء، وذلك يدل على أن دين موسى هو أن الإله موجود في السماء. الوجه الثالث: العلم بأنه لو وُجد إله لكان موجودًا في السماء عِلم بديهي متقرر في كل العقول، ولذلك فإن الصبيان إذا تضرعوا إلى الله رفعوا وجوههم وأيديهم إلى السماء، وإن فرعون مع نهاية كفره لما طلب الإله فقد طلبه في السماء، وهذا يدل على أن العلم بأن الإله موجود في السماء عِلم متقرر في عقل الصِّديق والزنديق، والملحد والموحد، والعالم والجاهل.

فهذا جملة استدلالات المشبهة بهذه الآية، والجواب: أن هؤلاء الجهال يكفيهم في كمال الخزي والضلال أن جعلوا قول فرعون اللعين حجة لهم على صحة دينهم، وأما موسى عليه السلام فإنه لم يزد في تعريف إله العالم على ذكر صفة الخلاقية فقال في سورة طه: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقال في سورة الشعراء: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء: ٢٨] فظهر أن تعريف ذات الله بكونه في السماء دين فرعون، وتعريفه بالخلاقية والموجودية دين موسى، فمن قال بالأول كان على دين فرعون، ومن قال بالثاني كان على دين موسى.

ثم نقول: لا نُسلِّم أن كل ما يقوله فرعون في صفات الله تعالى فذلك قد سمعه من موسى عليه السلام، بل لعله كان على دين المشبهة، فكان يعتقد أن الإله لو كان موجودًا لكان حاصلاً في السماء، فهو إنما ذكر هذا الاعتقاد من قِبل نفسه لا لأجل أنه قد سمعه من موسى عليه السلام.

وأما قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ فنقول: لعله لما سمع موسى عليه السلام قال: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ظن أنه عنى به أنه رب السموات، كما يقال للواحد منا: (إنه رب الدار) بمعنى كونه ساكنًا فيه، فلما غلب على ظنه ذلك حكى عنه، وهذا ليس بمستبعد، فإن فرعون كان بلغ في الجهل والحماقة إلى حيث لا يبعد نسبة هذا الخيال إليه، فإن استبعد الخصم نسبة هذا الخيال إليه كان ذلك لائقًا بهم؛ لأنهم لما كانوا على دين فرعون وجب عليهم تعظيمه.

وأما قوله: إن فطرة فرعون شهدت بأن الإله لو كان موجودًا لكان في السماء. قلنا: نحن لا ننكر أن فطرة أكثر الناس تخيل إليهم صحة ذلك لا سيما من بلغ في الحماقة إلى درجة فرعون، فثبت أن هذا الكلام ساقط.

المسألة الثانية: اختلف الناس في أن فرعون هل قصد بناء الصرح ليصعد منه إلى السماء أم

لا؟ أما الظاهريون من المفسرين فقد قطعوا بذلك، وذكروا حكاية طويلة في كيفية بناء ذلك الصرح، والذي عندي أنه بعيد، والدليل عليه أن يقال: إن فرعون لا يخلو إما أن يقال: إنه كان من المجانين أو كان من العقلاء: فإن قلنا: إنه كان من المجانين لم يجز من الله تعالى إرسال الرسول إليه؛ لأن العقل شرط في التكليف، ولم يجز من الله أن يذكر حكاية كلام مجنون في القرآن، وأما إن قلنا: إنه كان من العقلاء فنقول: إن كل عاقل يعلم ببديهة عقله أنه يتعذر في قدرة البشر وضع بناء يكون أرفع من الجبل العالي، ويعلم أيضًا ببديهة عقله أنه لا يتفاوت في البصر حال السماء بين أن ينظر إليه من أسفل الجبال وبين أن ينظر إليه من أعلى الجبال، وإذا كان هذا العلمان بديهيين امتنع أن يقصد العاقل وضع بناء يصعد منه إلى السماء، وإذا كان فساد هذا معلومًا بالضرورة امتنع إسناده إلى فرعون.

والذي عندي في تفسير هذه الآية: أن فرعون كان من الدهرية، وغرضه من ذكر هذا الكلام إيراد شبهة في نفي الصانع، وتقريره أنه قال: إنا لا نرى شيئًا نحكم عليه بأنه إله العالم، فلم يجز إثبات هذا الإله، أما إنه لا نراه فلأنه لو كان موجودًا لكان في السماء ونحن لا سبيل لنا إلى صعود السموات فكيف يمكننا أن نراه؟ ثم إنه لأجل المبالغة في بيان أنه لا يمكنه صعود السموات ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ﴾ والمقصود أنه لما عرف كل أحد أن هذا الطريق ممتنع كان الوصول إلى معرفة وجود الله بطريق الحس ممتنعًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥] وليس المراد منه أن محمدًا ﷺ طلب نفقًا في الأرض أو وضع سلمًا إلى السماء، بل المعنى أنه لما عرف أن هذا المعنى ممتنع فقد عرف أنه لا سبيل لك إلى تحصيل ذلك المقصود، فكذا ههنا غرض فرعون من قوله: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ يعني أن الاطلاع على إله موسى لما كان لا سبيل إليه إلا بهذا الطريق وكان هذا الطريق ممتنعًا، فحينئذٍ يظهر منه أنه لا سبيل إلى معرفة الإله الذي يثبته موسى. فنقول: هذا ما حصلته في هذا الباب.

واعلم أن هذه الشبهة فاسدة لأن طرق العلم ثلاثة: الحس والخبر والنظر، ولا يلزم من انتفاء طريق واحد وهو الحس انتفاء المطلوب، وذلك لأن موسى عليه السلام كان قد بيّن لفرعون أن الطريق في معرفة الله تعالى إنما هو الحجة والدليل، كما قال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨] إلا أن فرعون لخبثه ومكره تغافل عن ذلك الدليل، وألقى إلى الجهال أنه لما كان لا طريق إلا الإحساس بهذا الإله وجب نفيه، فهذا ما عندي في هذا الباب وبالله التوفيق والعصمة.

المسألة الثالثة: ذهب قوم إلى أنه تعالى خلق جواهر الأفلاك وحركاتها، بحيث تكون هي الأسباب لحدوث الحوادث في هذا العالم الأسفل.

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ ومعلوم أنها ليست أسبابًا إلا

لحوادث هذا العالم. قالوا: ويؤكد هذا بقوله تعالى في سورة ص: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾[ص: ١٠].

أما المفسرون فقد ذكروا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ أن المراد بأسباب السموات طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها، وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب كالرشاء ونحوه.

المسألة الرابعة: قالت اليهود: أطبق الباحثون عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجودًا ألبتة في زمان موسى وفرعون، وإنما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر، فالقول بأن هامان كان موجودًا في زمان فرعون خطأ في التاريخ، وليس لقائل أن يقول: إن وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الاسم في زمانه. قالوا: لأن هذا الشخص المسمى بهامان الذي كان موجودًا في زمان فرعون ما كان شخصًا خسيسًا في حضرة فرعون بل كان كالوزير له، ومثل هذا الشخص لا يكون مجهول الوصف والحلية، فلو كان موجودًا لعُرف حاله، وحيث أطبق الباحثون عن أحوال فرعون وموسى أن الشخص المسمى بهامان ما كان موجودًا في زمان فرعون وإنما جاء بعده بأدوار، عُلم أن غلط وقع في التواريخ. قالوا: ونظير هذا أنا نعرف في دين الإسلام أن أبا حنيفة إنما جاء بعد محمد ﷺ فلو أن قائلاً ادعى أن أبا حنيفة كان موجودًا في زمان محمد عليه السلام، وزعم أنه شخص آخر سوى الأول وهو يسمى بأبي حنيفة، فإن أصحاب التواريخ يقطعون بخطئه، فكذا هاهنا. والجواب: أن تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الأحوال والأدوار، فلم يبق على كلام أهل التواريخ اعتماد في هذا الباب، فكان الأخذ بقول الله تعالى أَوْلَى، بخلاف حال رسولنا مع أبي حنيفة فإن هذه التواريخ قريبة غير مضطربة بل هي مضبوطة، فظهر الفرق بين البابين. فهذا جملة ما يتعلق بالمباحث المعنوية في هذه الآية، وبقي ما يتعلق بالمباحث اللفظية:

قيل: الصرح: البناء الظاهر لا يخفى على الناظر وإن بَعُد، اشتقوه من صرح الشيء، إذا ظهر و﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾: طرقها، فإن قيل: ما فائدة هذا التكرير. ولو قيل: لعلي أبلغ الأسباب السموات، كان كافيًا؟ أجاب صاحب (الكشاف) عنه فقال: إذا أُبهم الشيء ثم أُوضح كان تفخيمًا لشأنه، فلما أراد تفخيم أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها. وقوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ قرأ حفص عن عاصم ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بفتح العين، والباقون بالرفع، قال المبرد: من رفع فقد عطفه على قوله: ﴿أَبْلُغُ﴾ والتقدير (لعلي أبلغ الأسباب ثم أطلع) إلا أن حرف (ثم) أشد تراخيًا من الفاء، ومَن نَصَب جعله جوابًا، والمعنى لعلي أبلغ الأسباب فمتى بلغتها أطلع. والمعنى مختلف، لأن الأول: (لعلي أطلع) والثاني: (لعلي أبلغ وأنا ضامر أني متى بلغت فلا بد وأن أطلع).

واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذه القصة قال بعدها: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿وَصُدَّ﴾ بضم الصاد، قال أبو عبيدة: وبه يُقرأ؛ لأن ما قبله فعل مبني للمفعول به فجُعل ما عطف عليه مثله، والباقون (وصَدَّ) بفتح الصاد على أنه مَنَع الناس عن الإيمان، قالوا: ومِن صَدِّه قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ [الأعراف: ١٢٤] ويؤيد هذه القراءة قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٦٧] وقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥].

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ﴾ لا بد له من المزين، فقالت المعتزلة: إنه الشيطان. فقيل لهم: إن كان المزين لفرعون هو الشيطان، فالمزين للشيطان إن كان شيطانًا آخر لزم إثبات التسلسل في الشياطين أو الدور وهو محال، ولما بطل ذلك وجب انتهاء الأسباب والمسببات في درجات الحاجات إلى واجب الوجود، وأيضًا فقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ يدل على أن الشيء إن لم يكن في اعتقاد الفاعل موصوفًا بأنه خير وزينة وحسن فإنه لا يقدم عليه، إلا أن ذلك الاعتقاد إن كان صوابًا فهو العلم، وإن كان خطأً فهو الجهل، ففاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الإنسان؛ لأن العاقل لا يقصد تحصيل الجهل لنفسه، ولأنه إنما يقصد تحصيل الجهل لنفسه إذا عرف كونه جهلاً، ومتى عرف كونه جهلاً امتنع بقاؤه جاهلاً، فثبت أن فاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الإنسان، ولا يجوز أن يكون فاعله هو الشيطان؛ لأن البحث الأول بعينه عائد فيه، فلم يبق إلا أن يكون فاعله هو الله تعالى، والله أعلم. ويقوي ما قلناه أن صاحب (الكشاف) نقل أنه قرئ (وَزَيَّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ) على البناء للفاعل والفعل لله عزّ وجلّ، ويدل عليه قوله: ﴿إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ والتباب: الهلاك والخسران، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] وقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ
سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي
أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا
لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ

لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾

اعلم أن هذا من بقية كلام الذي آمن من آل فرعون، وقد كان يدعوهم إلى الإيمان بموسى والتمسك بطريقته. واعلم أنه نادى في قومه ثلاث مرات: في المرة الأولى دعاهم إلى قبول ذلك الدين على سبيل الإجمال، وفي المرتين الباقيتين على سبيل التفصيل.

أما الإجمال: فهو قوله: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وليس المراد بقوله: ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ طريقة التقليد؛ لأنه قال بعده: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ والهدى هو الدلالة، ومَن بَيَّن الأدلة للغير يوصف بأنه هداه، وسبيل الرشاد هو سبيل الثواب والخير وما يؤدي إليه؛ لأن الرشاد نقيض الغي، وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي.

وأما التفصيل: فهو أنه بَيَّن حقارة حال الدنيا وكمال حال الآخرة: أما حقارة الدنيا فهي قوله: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ﴾ والمعنى أنه يُستمتع بهذه الحياة الدنيا في أيام قليلة، ثم تنقطع وتزول، وأما الآخرة فهي دار القرار والبقاء والدوام، وحاصل الكلام أن الآخرة باقية دائمة والدنيا منقضية منقرضة، والدائم خير من المنقضي، وقال بعض العارفين: لو كانت الدنيا ذهبًا فانيًا، والآخرة خزفًا باقيًا، لكانت الآخرة خيرًا من الدنيا، فكيف والدنيا خزف فانٍ، والآخرة ذهب باقٍ؟

واعلم أن الآخرة كما أن النعيم فيها دائم فكذلك العذاب فيها دائم، وإن الترغيب في النعيم الدائم والترهيب عن العذاب الدائم من أقوى وجوه الترغيب والترهيب، ثم بَيَّن كيف تحصل المجازاة في الآخرة، وأشار فيه إلى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ والمراد بالمثل ما يقابلها في الاستحقاق، فإن قيل: كيف يصح هذا الكلام، مع أن كفر ساعة يوجب عقاب الأبد؟ قلنا: إن الكافر يعتقد في كفره كونه طاعة وإيمانًا فلهذا السبب يكون الكافر على عزم أن يبقى مصرًّا على ذلك الاعتقاد أبدًا، فلا جرم كان عقابه مؤبدًا، بخلاف الفاسق فإنه يعتقد فيه كونه خيانة ومعصية، فيكون على عزم أن لا يبقى مصرًّا عليه، فلا جرم قلنا: إن عقاب الفاسق منقطع. أما الذي يقوله المعتزلة من أن عقابه مؤبد فهو باطل؛ لأن مدة تلك المعصية منقطعة والعزم على الإتيان بها أيضًا ليس دائمًا بل منقطعًا، فمقابلته بعقاب دائم يكون على خلاف قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾. واعلم أن هذه الآية أصل كبير في علوم الشريعة فيما يتعلق بأحكام الجنايات، فإنها تقتضي أن يكون المثل مشروعًا، وأن يكون الزائد على المثل غير مشروع، ثم نقول: ليس في الآية بيان أن تلك المماثلة معتبرة في أي الأمور، فلو حملناه على رعاية المماثلة في شيء معين، مع أن ذلك

المعين غير مذكور في الآية صارت الآية مجملة، ولو حملناه على رعاية المماثلة في جميع الأمور صارت الآية عامًّا مخصوصًا، وقد ثبت في أصول الفقه أن التعارض إذا وقع بين الإجمال وبين التخصيص كان دفع الإجمال أَوْلى، فوجب أن تُحمل هذه الآية على رعاية المماثلة من كل الوجوه إلا في مواضع التخصيص، وإذا ثبت هذا فالأحكام الكثيرة في باب الجنايات على النفوس، وعلى الأعضاء، وعلى الأموال - يمكن تفريعها على هذه الآية.

ثم نقول: إنه تعالى لما بيّن أن جزاء السيئة مقصور على المثل بَيَّن أن جزاء الحسنة غير مقصور على المثل بل هو خارج عن الحساب فقال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ واحتج أصحابنا بهذه الآية فقالوا: قوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ نكرة في معرض الشرط في جانب الإثبات، فجرى مجرى أن يقال: مَن ذكَر كلمة أو مَن خطا خطوة فله كذا؛ فإنه يدخل فيه كل من أتى بتلك الكلمة أو بتلك الخطوة مرة واحدة، فكذلك ههنا وجب أن يقال: كل من عمل صالحًا واحدًا من الصالحات فإنه يدخل الجنة ويُرزق فيها بغير حساب، والآتي بالإيمان والمواظب على التوحيد والتقديس مدة ثمانين سنة قد أتى بأعظم الصالحات وبأحسن الطاعات، فوجب أن يدخل الجنة، والخصم يقول: إنه يبقى مخلدًا في النار أبد الآباد، فكان ذلك على خلاف هذا النص الصريح. قالت المعتزلة: إنه تعالى شرط فيه كونه مؤمنًا وصاحب الكبيرة عندنا ليس بمؤمن، فلا يدخل في هذا الوعد. والجواب: أنا بينا في أول سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]أن صاحب الكبيرة مؤمن فسقط هذا الكلام. واختلفوا في تفسير قوله: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: فمنهم من قال: لما كان لا نهاية لذلك الثواب قيل بغير حساب. وقال الآخرون: لأنه تعالى يعطيهم ثواب أعمالهم ويضم إلى ذلك الثواب من أقسام التفضل ما يخرج عن الحساب، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ واقع في مقابلة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ يعني أن جزاء السيئة له حساب وتقدير؛ لئلا يزيد على الاستحقاق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب، بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة، وأقول: هذا يدل على أن جانب الرحمة والفضل راجح على جانب القهر والعقاب، فإذا عارضنا عمومات الوعد بعمومات الوعيد، وجب أن يكون الترجيح بجانب عمومات الوعد وذلك يهدم قواعد المعتزلة. ثم استأنف ذلك المؤمن ونادى في المرة الثالثة وقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يعني أنا أدعوكم إلى الإيمان الذي يوجب النجاة، وتدعونني إلى الكفر الذي يوجب النار، فإن قيل: لم كرر نداء قومه، ولِمَ جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟ قلنا: أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ من سِنة الغفلة، وإظهار أن له بهذا المهم مزيد اهتمام، وعلى أولئك الأقوام فرط شفقة، وأما المجيء بالواو العاطفة فلأن الثاني يقرب من أن يكون عين الأول؛ لأن الثاني بيان للأول والبيان عين المبين، وأما الثالث فلأنه كلام مباين للأول والثاني فحسن إيراد الواو العاطفة فيه. ولما ذكر هذا

المؤمن أنه يدعوهم إلى النجاة وهم يدعونه إلى النار، فسّر ذلك بأنهم يدعونه إلى الكفر بالله وإلى الشرك به، أما الكفر بالله فلأن الأكثرين من قوم فرعون كانوا ينكرون وجود الإله، ومنهم من كان يقر بوجود الله إلا أنه كان يثبت عبادة الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ المراد بنفي العلم نفي المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله، وما ليس بإله كيف يُعقل جعله شريكًا للإله؟ ولما بيّن أنهم يدعونه إلى الكفر والشرك بيّن أنه يدعوهم إلى الإيمان بالعزيز الغفار فقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ إشارة إلى كونه كامل القدرة، وفيه تنبيه على أن الإله هو الذي يكون كامل القدرة، وأما فرعون فهو في غاية العجز فكيف يكون إلهًا؟! وأما الأصنام فإنها أحجار منحوتة فكيف يُعقل القول بكونها آلهة وقوله ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ إشارة إلى أنه لا يجب أن يكونوا آيسين من رحمة الله بسبب إصرارهم على الكفر مدة مديدة، فإن إله العالم وإن كان عزيزًا لا يُغلب قادرًا لا يُغالَب، لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة بإيمان ساعة واحدة، ثم قال ذلك المؤمن: ﴿لَا جَرَمَ﴾ والكلام في تفسير (لا جرم) مرّ في سورة هود في قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢] وقد أعاده صاحب (الكشاف) هاهنا فقال: ﴿لَا جَرَمَ﴾ مساقه على مذهب البصريين أن يُجعل (لا) ردًّا لما دعاه إليه قومه و ﴿جَرَمَ﴾ فعل بمعنى حق و ﴿أَنَّمَا﴾ مع ما في حيزه فاعله، أي حق ووجب بطلان دعوته أو بمعنى كسب من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢] أي كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته بمعنى أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته، ويجوز أن يقال: إن ﴿لَا جَرَمَ﴾ نظيره (لا بد) فعل من الجرم وهو القطع كما أن بد فعل من التبديد وهو التفريق، وكما أن معنى (لا بد) أنك تفعل كذا أنه لا بد لك من فعله، فكذلك ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [النحل: ٦٢] أي لا قطع لذلك بمعنى أنهم أبدًا يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم، ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام، أي لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقًّا، وروي عن بعض العرب (لا جُرْم أنه يفعل) بضم الجيم وسكون الراء بزنة (بد)، وفَعَل وفُعل: أخوان كرَشَد ورُشْد وكعَدَم وعُدْم، هذا كله ألفاظ صاحب (الكشاف).

ثم قال: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ والمراد أن الأوثان التي تدعونني إلى عبادتها ليس لها دعوة في الدنيا ولا في الآخرة.

وفي تفسير هذه الدعوة احتمالان:

الأول: أن المعنى ما تدعونني إلى عبادته ليس له دعوة إلى نفسه؛ لأنه جمادات والجمادات لا تدعو أحدًا إلى عبادة نفسها. وقوله: ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني أنه تعالى إذا قلبها حيوانًا في الآخرة فإنها تتبرأ من هؤلاء العابدين.

والاحتمال الثاني: أن يكون قوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ معناه ليس له استجابة دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، فسميت استجابة الدعوة بالدعوة إطلاقًا لاسم أحد المتضايفين

على الآخر، كقوله ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]ثم قال: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فبيَّن أن هذه الأصنام لا فائدة فيها ألبتة، ومع ذلك فإن مردنا إلى الله، العالم بكل المعلومات، القادر على كل الممكنات، الغني عن كل الحاجات، الذي لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد، فأي عاقل يُجوز له عقله أن يشتغل بعبادة تلك الأشياء الباطلة، وأن يُعْرض عن عبادة هذا الإله الذي لا بد وأن يكون مرده إليه؟!

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ قال قتادة يعني المشركين. وقال مجاهد: السفاكين للدماء. والصحيح أنهم أسرفوا في معصية الله بالكمية والكيفية: أما الكمية فالدوام، وأما الكيفية فبالعود والإصرار. ولما بالغ مؤمن آل فرعون في هذه البيانات ختم كلامه بخاتمة لطيفة فقال: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ وهذا كلام مبهم يوجب التخويف، ويحتمل أن يكون المراد أن هذا الذكر يحصل في الدنيا وهو وقت الموت، وأن يكون في القيامة وقت مشاهدة الأهوال، وبالجملة فهو تحذير شديد.

ثم قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ وهذا كلام مَن هُدد بأمر يخافه، فكأنهم خوفوه بالقتل وهو أيضًا خوفهم بقوله: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ ثم عوَّل في دفع تخويفهم وكيدهم ومكرهم على فضل الله تعالى فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ وهو إنما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام، فإن فرعون لما خوَّفه بالقتل رجع موسى في دفع ذلك الشر إلى الله حيث قال: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]فتح نافع وأبو عمرو الياء من ﴿أَمۡرِيٓ﴾ والباقون بالإسكان.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي عالم بأحوالهم وبمقادير حاجاتهم. وتمسَّك أصحابنا بقوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ على أن الكل من الله، وقالوا: إن المعتزلة الذين قالوا: (إن الخير والشر يحصل بقدرتهم) قد فوضوا أمر أنفسهم إليهم وما فوضوها إلى الله، والمعتزلة تمسكوا بهذه الآية فقالوا: إن قوله ﴿وَأُفَوِّضُ﴾ اعتراف بكونه فاعلاً مستقلاً بالفعل. والمباحث المذكورة في قوله: (أعوذ بالله) عائدة بتمامها في هذا الموضع. وههنا آخر كلام مؤمن آل فرعون، والله الهادي.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ٤٨ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي

ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن ذلك الرجل لم يقصر في تقرير الدين الحق وفي الذب عنه، فالله تعالى رد عنه كيد الكافرين وقَصْد القاصدين، وقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ يدل على أنه لما صرّح بتقرير الحق فقد قصدوه بنوع من أنواع السوء، قال مقاتل: لما ذكر هذه الكلمات قصدوا قتله، فهرب منهم إلى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه. وقيل: المراد بقوله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ أنهم قصدوا إدخاله في الكفر وصَرْفه عن الإسلام، فوقاه الله عن ذلك. إلا أن الأول أَوْلى لأن قوله بعد ذلك: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ لا يليق إلا بالوجه الأول، وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي أحاط بهم ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي غُرقوا في البحر، وقيل: بل المراد منه النار المذكورة في قوله ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ قال الزجاج: ﴿ٱلنَّارُ﴾ بدل من قوله ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: وجائز أيضًا أن تكون مرتفعة على إضمار تفسير ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ كأن قائلاً قال: ما سوء العذاب؟ فقيل: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾.

قرأ حمزة (حاق) بكسر الحاء وكذلك في كل القرآن، والباقون بالفتح. أما قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على إثبات عذاب القبر قالوا: الآية تقتضي عرض النار عليهم غدوًّا وعشيًّا، وليس المراد منه يوم القيامة لأنه قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وليس المراد منه أيضًا الدنيا لأن عرض النار عليهم غدوًّا وعشيًّا ما كان حاصلاً في الدنيا، فثبت أن هذا العرض إنما حصل بعد الموت وقبل يوم القيامة، وذلك يدل على إثبات عذاب القبر في حق هؤلاء، وإذا ثبت في حقهم ثبت في حق غيرهم لأنه لا قائل بالفرق. فإن قيل: لـمَ لا يجوز أن يكون المراد من عرض النار عليهم غدوًّا وعشيًّا عرض النصائح عليهم في الدنيا؟ لأن أهل الدين إذا ذكروا لهم الترغيب والترهيب وخوفوهم بعذاب الله، فقد عرضوا عليهم النار، ثم نقول: في الآية ما يمنع من حمله على عذاب القبر وبيانه من وجهين: الأول: أن ذلك العذاب يجب أن يكون دائمًا غير منقطع، وقوله: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ يقتضي أن لا يحصل ذلك العذاب إلا في هذين الوقتين، فثبت أن هذا لا يمكن حمله على عذاب القبر. الثاني: أن الغدوة والعشية إنما يحصلان في الدنيا، أما في القبر فلا وجود لهما، فثبت بهذين الوجهين أنه لا يمكن حمل هذه الآية على عذاب القبر. والجواب عن السؤال الأول: أن في الدنيا عرض عليهم كلمات تذكرهم أمر النار، لا أنه يعرض عليهم نفس النار، فعلى قولهم يصير معنى الآية الكلمات المذكرة لأمر النار كانت تُعرض عليهم،

وذلك يفضي إلى ترك ظاهر اللفظ والعدول إلى المجاز. أما قوله: الآية تدل على حصول هذا العذاب في هذين الوقتين وذلك لا يجوز. قلنا: لمَ لا يجوز أن يكتفي في القبر بإيصال العذاب إليه في هذين الوقتين، ثم عند قيام القيامة يلقى في النار فيدوم عذابه بعد ذلك؟! وأيضًا لا يمتنع يأن يكون ذكر الغدوة والعشية كناية عن الدوام كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] أما قوله: إنه ليس في القبر والقيامة غدوة وعشية. قلنا: لمَ لا يجوز أن يقال: إن عند حصول هذين الوقتين لأهل الدنيا يعرض عليهم العذاب؟ والله أعلم.

المسألة الثانية: قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم (أدخِلوا آل فرعون) أي يقال لخزنة جهنم: أدخِلوهم في أشد العذاب، والباقون (ادخلوا) على معنى أنه يقال لهؤلاء الكفار: ادخلوا أشد العذاب، والقراءة الأولى اختيار أبي عبيدة، واحتج عليها بقوله تعالى: ﴿يُعْرَضُونَ﴾ فهذا يُفعل بهم فكذلك ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ وأما وجه القراءة الثانية فقوله: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢]، وهاهنا آخر الكلام في قصة مؤمن آل فرعون.

واعلم أن الكلام في تلك القصة لما انجر إلى شرح أحوال النار، لا جرم ذكر الله عقيبها قصة المناظرات التي تجري بين الرؤساء والأتباع من أهل النار فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ والمعنى: اذكر يا محمد لقومك إذ يتحاجون، أي يحاجج بعضهم بعضًا، ثم شرح خصومتهم، وذلك أن الضعفاء يقولون للرؤساء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في الدنيا، قال صاحب (الكشاف): تبعًا كخَدَم في جمع خادم، أو ذوي تبع أي أتباع، أو وصفًا بالمصدر ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي فهل تقْدرون على أن تدفعوا أيها الرؤساء عنا نصيبًا من العذاب؟ واعلم أن أولئك الأتباع يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء وإيلام قلوبهم؛ لأنهم هم الذين سعوا في إيقاع هؤلاء الأتباع في أنواع الضلالات، فعند هذا يقول الرؤساء: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ يعني أن كلنا واقعون في هذا العذاب، فلو قَدَرْتُ على إزالة العذاب عنك لدفعته عن نفسي، ثم يقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ يعني يوصل إلى كل أحد مقدار حقه من النعيم أو من العذاب، ثم عند هذا يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين، فيرجعون إلى خزنة جهنم ويقولون لهم: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فإن قيل: لم لم يقل: (وقال الذين في النار لخزنتها) بل قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾؟ قلنا: فيه وجهان: الأول: أن يكون المقصود من ذكر جهنم التهويل والتفظيع. والثاني: أن يكون جهنم اسمًا لموضع هو أبعد النار قعرًا، من قولهم (بئر جهنام) أي بعيدة القعر، وفيها أعظم أقسام الكفار عقوبة وخزنة ذلك الموضع تكون أعظم خزنة جهنم عند الله درجة، فإذا عرف الكفار أن الأمر كذلك استغاثوا بهم، فأولئك الملائكة يقولون لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والمقصود أن قبل إرسال الرسل كان للقوم أن يقولوا: إنه ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩] أما بعد مجيء الرسل فلم يبق

عذر ولا علة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وهذه الآية تدل على أن الواجب لا يتحقق إلا بعد مجيء الشرع، ثم إن أولئك الملائكة يقولون للكفار: ادعوا أنتم فإنا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين: أحدهما: كون المشفوع له مؤمنًا. والثاني: حصول الإذن في الشفاعة. ولم يوجد واحد من هذين الشرطين، فإقدامنا على هذه الشفاعة ممتنع، لكن ادعوا أنتم، وليس قولهم (فادعوا) لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الخيبة، فإن المَلَك المقرب إذا لم يُسمع دعاؤه فكيف يُسمع دعاء الكفار؟! ثم يصرحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ فإن قيل: إن الحاجة على الله محال، وإذا كان كذلك امتنع أن يقال: إنه تأذى من هؤلاء المجرمين بسبب جرمهم، وإذا كان التأذي محالاً عليه كانت شهوة الانتقام ممتنعة في حقه، إذا ثبت هذا فنقول: إيصال هذه المضار العظيمة إلى أولئك الكفار إضرار لا منفعة فيه إلى الله تعالى ولا لأحد من العبيد، فهو إضرار خالٍ عن جميع الجهات المنتفعة، فكيف يليق بالرحيم الكريم أن يبقى على ذلك الإيلام أبد الآباد ودهر الداهرين، من غير أن يرحم حاجتهم، ومن غير أن يسمع دعاءهم، ومن غير أن يلتفت إلى تضرعهم وانكسارهم، ولو أن أقسى الناس قلبًا فعل مثل هذا التعذيب ببعض عبيده. لدعاه كرمه ورحمته إلى العفو عنه مع أن هذا السيد في محل النفع والضرر والحاجة، فأكرم الأكرمين كيف يليق به هذا الإضرار؟! قلنا: أفعال الله لا تعلل و﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فلما جاء الحكم الحق به في الكتاب الحق وجب الإقرار به، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾

اعلم أن في كيفية النظم وجوهًا: الأول: أنه تعالى لما ذكر وقاية الله موسى صلوات الله عليه وذلك المؤمن من مكر فرعون، بَيّن في هذه الآية أنه ينصر رسله والذين آمنوا معه. والثاني: لما بَيّن من قبل ما يقع بين أهل النار من التخاصم وأنهم عند الفزع إلى خزنة جهنم يقولون: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٥٠] أتبع ذلك بذكر الرسل وأنه ينصرهم في الدنيا والآخرة. والثالث وهو الأقرب عندي: أن الكلام في أول السورة إنما وقع من قوله: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤] وامتد الكلام في الرد على أولئك المجادلين وعلى أن المُحقين أبدًا كانوا مشغولين بدفع كيد المبطلين، وكل ذلك إنما ذكره الله تعالى تسلية

للرسول ﷺ وتصبيرًا له على تحَمُّل أذى قومه. ولما بلغ الكلام في تقرير المطلوب إلى الغاية القصوى، وَعَد تعالى رسوله ﷺ بأن ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفي الآخرة فقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية، أما في الدنيا فهو المراد بقوله: ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾، وأما في الآخرة فهو المراد بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ فحاصل الكلام أنه تعالى وعد بأنه ينصر الأنبياء والرسل، وينصر الذين ينصرونهم نصرة يظهر أثرها في الدنيا وفي الآخرة.

واعلم أن نصرة الله المحقين تحصل بوجوه: أحدها: النصرة بالحجة، وقد سمى الله الحجة سلطانًا في غير موضع، وهذه النصرة عامة للمحقين أجمع، ونِعم ما سمى الله هذه النصرة سلطانًا لأن السلطنة في الدنيا قد تبطل، وقد تتبدل بالفقر والذلة والحاجة والفتور، أما السلطنة الحاصلة بالحجة فإنها تبقى أبد الآباد، ويمتنع تطرق الخلل والفتور إليها. وثانيها: أنهم منصورون بالمدح والتعظيم، فإن الظَّلَمة وإن قهروا شخصًا من المحقين إلا أنهم لا يقدرون على إسقاط مدحه عن ألسنة الناس. وثالثها: أنهم منصورون بسبب أن بواطنهم مملوءة من أنوار الحجة وقوة اليقين، فإنهم إنما ينظرون إلى الظَّلَمة والجهال كما تنظر ملائكة السموات إلى أخس الأشياء. ورابعها: أن المبطلين وإن كان يتفق لهم أن يحصل لهم استيلاء على المحقين، ففي الغالب أن ذلك لا يدوم بل يكشف للناس أن ذلك كان أمرًا وقع على خلاف الواجب ونقيض الحق. وخامسها: أن المُحق إن اتفق له أن وقع في نوع من أنواع المحذور، فذلك يكون سببًا لمزيد ثوابه وتعظيم درجاته. وسادسها: أن الظَّلَمة والمبطلين كما يموتون تموت آثارهم ولا يبقى لهم في الدنيا أثر ولا خبر، وأما المحقون فإن آثارهم باقية على وجه الدهر، والناس بهم يقتدون في أعمال البر والخير ولمحنهم يتركون. فهذا كله أنواع نصرة الله للمحقين في الدنيا وسابعها: أنه تعالى قد ينتقم للأنبياء والأولياء بعد موتهم، كما نصر يحيى بن زكريا فإنه لما قُتل، قُتل به سبعون ألفًا. وأما نصرته تعالى إياهم في الآخرة فذلك بإعلاء درجاتهم في مراتب الثواب وكونهم مصاحبين لأنبياء الله، كما قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

واعلم أن في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ دقيقة معتبرة، وهي أن السلطان العظيم إذا خص بعض خواصه بالإكرام العظيم والتشريف الكامل عند حضور الجمع العظيم من أهل المشرق والمغرب، كان ذلك ألذ وأبهج، فقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ المقصود منه هذه الدقيقة. واختلفوا في المراد بالأشهاد: والظاهر أن المراد كل من يشهد بأعمال العباد يوم القيامة من ملك ونبي ومؤمن: أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون بما شاهدوا، وأما الأنبياء فقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] قال المبرد: يجوز أن يكون واحد الأشهاد شاهدًا، كأطيار وطائر

وأصحاب وصاحب، ويجوز أن يكون واحد الأشهاد شهيدًا، كأشراف وشريف وأيتام ويتيم.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (لا تنفع) بالتاء لتأنيث المعذرة، والباقون بالياء كأنه أريد الاعتذار.

واعلم أن المقصود أيضًا من هذا شرح تعظيم ثواب أهل الثواب، وذلك لأنه تعالى بيّن أنه ينصرهم في يوم يجتمع فيه الأولون والآخرون، فحالهم في علو الدرجات في ذلك اليوم ما ذكرناه، وأما حال أعدائهم فهو أنه حصلت لهم أمور ثلاثة: أحدها: أنه لا ينفعهم شيء من المعاذير ألبتة. وثانيها: أن لهم اللعنة، وهذا يفيد الحصر، يعني اللعنة مقصورة عليهم وهي الإهانة والإذلال. وثالثها: سوء الدار، وهو العقاب الشديد. فهذا اليوم إذا كان الأعداء واقعين في هذه المراتب الثلاثة من الوحشة والبلية، ثم إنه خص الأنبياء والأولياء بأنواع التشريفات الواقعة في الجمع الأعظم؛ فهنا يظهر أن سرور المؤمن كم يكون، وأن غموم الكافرين إلى أين تبلغ؟ فإن قيل: قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يدل على أنهم يذكرون الأعذار إلا أن تلك الأعذار لا تنفعهم، فكيف الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] قلنا: قوله: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لا يدل على أنهم ذكروا الأعذار، بل ليس فيه إلا أنه ليس عندهم عذر مقبول نافع، وهذا القدر لا يدل على أنهم ذكروه أم لا. وأيضًا فيقال: يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون في وقت ولا يعتذرون في وقت آخر. ولما بَيَّن الله تعالى أنه ينصر الأنبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة، ذكر نوعًا من أنواع تلك النصرة في الدنيا فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ويجوز أن يكون المراد من الهدى ما آتاه الله من العلوم الكثيرة النافعة في الدنيا والآخرة، ويجوز أن يكون المراد تلك الدلائل القاهرة التي أوردها على فرعون وأتباعه وكادهم بها، ويجوز أن يكون المراد هو النبوّة التي هي أعظم المناصب الإنسانية، ويجوز أن يكون المراد إنزال التوراة عليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يجوز أن يكون المراد منه أنه تعالى لما أنزل التوراة على موسى، بقي ذلك العلم فيهم وتوارثوه خلفًا عن سلف، ويجوز أن يكون المراد سائر الكتب التي أنزلها الله عليهم، وهي كتب أنبياء بني إسرائيل التوراة والزبور والإنجيل، والفرق بين الهدى والذكرى أن الهدى ما يكون دليلاً على الشيء، وليس من شرطه أن يذكر شيئًا آخر كان معلومًا ثم صار منسيًا، وأما الذكرى فهي التي تكون كذلك فكتب أنبياء الله مشتملة على هذين القسمين بعضها دلائل في أنفسها، وبعضها مذكرات لما ورد في الكتب الإلهية المتقدمة. ولما بيّن أن الله تعالى ينصر رسله وينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة وضرب المثال في ذلك بحال موسى خاطب بعد ذلك محمدًا ﷺ فقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فالله ناصرك كما نصرهم ومنجز وعده في حقك كما كان كذلك في حقهم، ثم أمره بأن يُقْبِل على طاعة الله النافعة في الدنيا والآخرة، فإن من كان لله كان الله له. واعلم أن مجامع

الطاعات محصورة في قسمين: التوبة عما لا ينبغي، والاشتغال بما ينبغي، والأول مقدم على الثاني بحسب الرتبة الذاتية، فوجب أن يكون مقدمًا عليه في الذكر، أما التوبة عما لا ينبغي فهو قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ والطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام يتمسكون به، ونحن نحمله على التوبة عن ترك الأَوْلى والأفضل، أو على ما كان قد صدر عنهم قبل النبوة، وقيل أيضًا: المقصود منه محض التعبد كما في قوله: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] فإن إيتاء ذلك الشيء واجب ثم إنه أمرنا بطلبه، وكقوله: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] من أنا نعلم أنه لا يحكم إلا بالحق، وقيل: إضافة المصدر إلى الفاعل والمفعول فقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ من باب إضافة المصدر إلى المفعول أي واستغفر لذنب أمتك في حقك. وأما الاشتغال بما ينبغي فهو قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ والتسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل ما لا يليق به، والعشي والإبكار: قيل صلاة العصر وصلاة الفجر، وقيل: الإبكار عبارة عن أول النهار إلى النصف، والعشي عبارة عن النصف إلى آخر النهار، فيدخل فيه كل الأوقات، وقيل: المراد طرفا النهار، كما قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤] وبالجملة فالمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله، وأن لا يفتر اللسان عنه، وأن لا يغفل القلب عنه، حتى يصير الإنسان بهذا السبب داخلاً في زمرة الملائكة، كما قال في وصفهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

اعلم أنا بينا أن الكلام في أول هذه السورة إنما ابتدئ ردًا على الذين يجادلون في آيات الله، واتصل البعض بالبعض وامتد على الترتيب الذي لخصناه والنسق الذي كشفنا عنه إلى هذا الموضع، ثم إنه تعالى نبّه في هذه الآية على الداعية التي تحمل أولئك الكفار على تلك المجادلة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ إنما يحملهم على هذا الجدال الباطل كِبر في صدرهم، فذلك الكِبر هو الذي يحملهم على هذا الجدال الباطل، وذلك الكبر هو أنهم لو سلموا نبوتك لزمهم أن يكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك؛ لأن النبوّة تحتها كل مُلك ورياسة، وفي صدورهم كبر لا يرضون أن يكونوا في خدمتك، فهذا هو الذي يحملهم على هذه المجادلات

الباطلة والمخاصمات الفاسدة. ثم قال تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ﴾ يعني أنهم يريدون أن يكونوا تحت يدك ولا يصلون إلى هذا المراد، بل لا بدّ وأن يصيروا تحت أمرك ونهيك، ثم قال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي فالتجئ إليه من كيد من يجادلك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بما يقولون أو تقول ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بما تعمل ويعملون، فهو يجعلك نافذ الحكم عليهم، ويصونك عن مكرهم وكيدهم.

واعلم أنه تعالى لما وصف جدالهم في آيات الله بأنه بغير سلطان ولا حجة، ذكر لهذا مثالاً، فقال ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ والقادر على الأكبر قادر على الأصغر لا محالة، وتقرير هذا الكلام أن الاستدلال بالشيء على غيره على ثلاثة أقسام: أحدها: أن يقال: لما قدر على الأضعف وجب أن يقدر على الأقوى. وهذا فاسد. وثانيها: أن يقال: لما قدر على الشيء قدر على مثله، فهذا استدلال حق لما ثبت في العقول أن حكم الشيء حكم مثله. وثالثها: أن يقال: لما قدر على الأقوى الأكمل فبأن يقدر على الأقل الأرذل كان أَوْلى. وهذا الاستدلال في غاية الصحة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل ألبتة، ثم إن هؤلاء القوم يُسَلمون أن خالق السموات والأرض هو الله سبحانه وتعالى، ويعلمون بالضرورة أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وكان من حقهم أن يقروا بأن القادر على خلق السموات والأرض يكون قادرًا على إعادة الإنسان الذي خلقه أولاً، فهذا برهان جلي في إفادة هذا المطلوب، ثم إن هذا البرهان على قوته صار بحيث لا يعرفه أكثر الناس، والمراد منهم الذين ينكرون الحشر والنشر، فظهر بهذا المثال أن هؤلاء الكفار يجادلون في آيات الله بغير سلطان ولا حجة، بل بمجرد الحسد والجهل والكبر والتعصب. ولما بيّن الله تعالى أن الجدال المقرون بالكبر والحسد والجهل كيف يكون، وأن الجدال المقرون بالحجة والبرهان كيف يكون، نبّه تعالى على الفرق بين البابين بذكر المثال فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ يعني وما يستوي المستدل والجاهل المقلد، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ فالمراد بالأول التفاوت بين العالم والجاهل، والمراد بالثاني التفاوت بين الآتي بالأعمال الصالحة وبين الآتي بالأعمال الفاسدة الباطلة، ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني أنهم وإن كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل، وأن العمل الصالح خير من العمل الفاسد، إلا أنه قليلاً ما تتذكرون في النوع المعين من الاعتقاد أنه علم أو جهل، والنوع المعين من العمل أنه عمل صالح أو فاسد، فإن الحسد يعمي قلوبهم، فيعتقدون في الجهل والتقليد أنه محض المعرفة، وفي الحسد والحقد والكبر أنه محض الطاعة، فهذا هو المراد من قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بالتاء على الخطاب، أي قل لهم قليلاً ما تتذكرون، والباقون بالياء على الغيبة.

ولما قرر الدليل الدال على إمكان وجود يوم القيامة، أردفه بأن أخبر عن وقوعها ودخولها في الوجود فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٦٣﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن القول بالقيامة حق وصدق، وكان من المعلوم بالضرورة أن الإنسان لا ينتفع في يوم القيامة إلا بطاعة الله تعالى، لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات، ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع، لا جرم أمَر الله تعالى به في هذه الآية فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ واختلف الناس في المراد بقوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ فقيل: إنه الأمر بالدعاء، وقيل: إنه الأمر بالعبادة، بدليل أنه قال بعده: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ ولولا أن الأمر بالدعاء أمر بمطلق العبادة لما بقي لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ معنى، وأيضًا الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن، كقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ [النساء: ١١٧] وأجيب عنه بأن الدعاء هو اعتراف بالعبودية والذلة والمسكنة، فكأنه قيل: إن تارك الدعاء إنما تركه لأجل أن يستكبر عن إظهار العبودية. وأجيب عن قوله: إن الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن، بأن ترك الظاهر لا يصار إليه إلا بدليل منفصل، فإن قيل: كيف قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقد يدعى كثيرًا فلا يستجاب؟ أجاب الكعبي عنه بأن قال: الدعاء إنما يصح على شرط، ومن دعا كذلك استجيب له، وذلك الشرط هو أن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة. ثم سأل نفسه فقال: فما هو أصلح يفعله بلا دعاء، فما الفائدة في الدعاء؟! وأجاب عنه من وجهين: الأول: أن فيه الفزع والانقطاع إلى الله. والثاني: أن هذا أيضًا وارد على الكل؛ لأنه إن علم أنه يفعله فلا بدّ وأن يفعله، فلا فائدة في الدعاء، وإن علم أنه لا يفعله فإنه ألبتة لا يفعله، فلا فائدة في الدعاء، وكل ما يقولونه هاهنا فهو جوابنا، هذا تمام ما ذكره، وعندي فيه وجه آخر: وهو أنه قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فكل من دعا الله وفي قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأقاربه وأصدقائه وجده واجتهاده، فهو في الحقيقة ما دعا الله إلا باللسان، أما بالقلب فإنه معول في تحصيل ذلك المطلوب على غير الله، فهذا الإنسان ما دعا ربه في وقت، أما إذا دعا في وقت لا يبقى في القلب التفات إلى غير الله، فالظاهر أنه تحصل الاستجابة، إذا عرفت هذا ففيه بشارة كاملة، وهي أن انقطاع القلب بالكلية عما سوى الله لا يحصل إلا عند القرب من الموت، فإن الإنسان قاطع في ذلك الوقت بأنه لا ينفعه شيء سوى فضل الله تعالى، فعلى القانون الذي ذكرناه وجب أن يكون الدعاء في ذلك الوقت مقبولاً عند الله، ونرجو من

فضل الله وإحسانه أن يوفقنا للدعاء المقرون بالإخلاص والتضرع في ذلك الوقت، واعلم أن الكلام المستقصى في الدعاء قد سبق ذكره في سورة البقرة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين، وهذا إحسان عظيم من الله تعالى، حيث ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء، فإن قيل: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال حكاية عن رب العزة أنه قال: «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**»(١) فهذا الخبر يقتضي أن ترك الدعاء أفضل، وهذه الآية تدل على أن ترك الدعاء يوجب الوعيد الشديد، فكيف الجمع بينهما؟ قلنا: لا شك أن العقل اذا كان مستغرقًا في الثناء كان ذلك أفضل من الدعاء؛ لأن الدعاء طلب للحظ والاستغراق في معرفة جلال الله أفضل من طلب الحظ، أما إذا لم يحصل ذلك الاستغراق كان الاشتغال بالدعاء أَوْلى؛ لأن الدعاء يشتمل على معرفة عزة الربوبية وذلة العبودية. ثم قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ واعلم أن تعلقه بما قبله من وجهين: الأول: كأنه تعالى قال: إني أنعمت عليك قبل طلبك لهذه النعم الجليلة العظيمة، ومَن أنعم قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالأشياء القليلة بعد السؤال؟! والثاني: أنه تعالى لما أمر بالدعاء، فكأنه قيل: الاشتغال بالدعاء لا بد وأن يكون مسبوقًا بحصول المعرفة، فما الدليل على وجود الإله القادر؟ وقد ذكر الله تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وقدرته وحكمته، واعلم أنا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته إما فلكية وإما عنصرية: أما الفلكيات فأقسام كثيرة أحدها: تعاقب الليل والنهار، و(لَمَّا) كان أكثر مصالح العالم مربوطًا بهما ذكرهما الله تعالى في هذا المقام، وبيّن أن الحكمة في خلق الليل حصول الراحة بسبب النوم والسكون، والحكمة في خلق النهار إبصار الأشياء ليحصل مكنة التصرف فيها على الوجه الأنفع، أما أن السكون في وقت النوم سبب للراحة فبيانه من وجهين: الأول: أن الحركات توجب الإعياء من حيث إن الحركة توجب السخونة والجفاف، وذلك يوجب التألم. والثاني: أن الإحساس بالأشياء إنما يمكن بإيصال الأرواح الجسمانية إلى ظاهر الحس، ثم إن تلك الأرواح تتحلل بسبب كثرة الحركات فتضعف الحواس والإحساسات، وإذا نام الإنسان عادت الأرواح الحساسة في باطن البدن وركزت وقويت وتخلصت عن الإعياء، وأيضًا الليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتداركان ما حصل في النهار من الحر والجفاف بسبب ما حدث من كثرة الحركات، فهذه هي المنافع المعلومة من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾. وأما قوله ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فاعلم أن الإنسان مدني بالطبع، ومعناه أنه ما لم يحصل مدينة تامة لم تنتظم مهمات الإنسان في مأكوله ومشروبه وملبسه ومنكحه، وتلك المهمات لا تحصل إلا بأعمال كثيرة، وتلك الأعمال تصرفات في أمور، وهذه التصرفات لا

---

(١) تقدم تخريجه.

تكمل إلا بالضوء والنور حتى يميز الإنسان بسبب ذلك النور بين ما يوافقه وبين ما لا يوافقه، فهذا هو الحكمة في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فإن قيل: كان الواجب بحسب رعاية النظم أن يقال: هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه، أو فجعل لكم الليل ساكنًا. ولكنه لم يقل كذلك بل قال في الليل لتسكنوا فيه، وقال في النهار مبصرًا، فما الفائدة فيه؟ وأيضًا فما الحكمة في تقديم ذكر الليل على ذكر النهار مع أن النهار أشرف من الليل؟ قلنا: أما الجواب عن الأول: فهو أن الليل والنوم في الحقيقة طبيعة عدمية فهو غير مقصود بالذات، أما اليقظة فأمور وجودية، وهي مقصودة بالذات، وقد بيّن الشيخ عبد القاهر النحوي في (دلائل الإعجاز) أن دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليهما، فهذا هو السبب في هذا الفرق، والله أعلم، وأما الجواب عن الثاني: فهو أن الظلمة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية، والعدم في المحدثات مقدم على الوجود؛ ولهذا السبب قال في أول سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام: ١] .

واعلم أنه تعالى لما ذكر ما في الليل والنهار من المصالح والحِكم البالغة قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ والمراد أن فضل الله على الخلق كثير جدًّا ولكنهم لا يشكرونه، واعلم أن ترك الشكر لوجوه: أحدها: أن يعتقد الرجل أن هذه النعم ليست من الله تعالى، مثل أن يعتقد أن هذه الأفلاك واجبة الوجود لذواتها وواجبة الدوران لذواتها، فحينئذٍ هذا الرجل لا يعتقد أن هذه النعم من الله. وثانيها: أن الرجل وإن اعتقد أن كل العالم حصل بتخليق الله وتكوينه إلا أن هذه النعم العظيمة - أعني نعمة تعاقب الليل والنهار لما دامت واستمرت - نسيها الإنسان، فإذا ابتلي الإنسان بفقدان شيء منها عرف قدرها، مثل أن يتفق لبعض الناس والعياذ بالله أن يحبسه بعض الظَّلَمة في آبار عميقة مظلمة مدة مديدة، فحينئذٍ يعرف ذلك الإنسان قدر نعمة الهواء الصافي وقدر نعمة الضوء، ورأيت بعض الملوك كان يعذب بعض خدمه بأن أمر أقوامًا حتى يمنعوه عن الاستناد إلى الجدار، وعن النوم، فعظم وقع هذا التعذيب. وثالثها: أن الرجل وإن كان عارفًا بمواقع هذه النعم إلا أنه يكون حريصًا على الدنيا محبًّا للمال والجاه، فإذا فاته المال الكثير والجاه العريض وقع في كفران هذه النعم العظيمة، ولما كان أكثر الخلق هالكين في أحد هذه الأودية الثلاثة التي ذكرناها، لا جرم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ: ١٣] وقول إبليس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[الأعراف: ١٧] . ولما بيّن الله تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الإله القادر الرحيم الحكيم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال صاحب (الكشاف): ذلكم المعلوم المميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد - هو الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو، أخبار مترادفة، أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخَلْق كل شيء وأنه لا ثاني له ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ والمراد فأنى تصرفون ولِمَ تعدلون

عن هذه الدلائل وتكذبون بها . ثم قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ يعني أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة لطلب الحق وخوف العاقبة ، أُفك كما أُفكوا .

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

اعلم أنا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته إما أن تكون من دلائل الآفاق ، أو من باب دلائل الأنفس : أما دلائل الآفاق فالمراد كل ما هو غير الإنسان من كل هذا العالم ، وهي أقسام كثيرة ، والمذكور منها في هذه الآية أقسام ، منها : أحوال الليل والنهار وقد سبق ذكره ، وثانيها : الأرض والسماء وهو المراد من قوله ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ قال ابن عباس في قوله ﴿ قَرَارًا﴾ : أي منزلاً في حال الحياة وبعد الموت ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ كالقبة المضروبة على الأرض ، وقيل : مسك الأرض بلا عمد حتى أمكن التصرف عليها ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي قائمًا ثابتًا وإلا لوقعت علينا . وأما دلائل الأنفس فالمراد منها دلالة أحوال بدن الإنسان ودلالة أحوال نفسه على وجود الصانع القادر الحكيم ، والمذكور منها في هذه الآية قسمان : أحدها : ما هو حاصل مشاهد حال كمال حاله . والثاني : ما كان حاصلاً في ابتداء خلقته وتكوينه .

أما القسم الأول: فأنواع كثيرة والمذكور ، منها في هذه الآية أنواع ثلاثة : أولها : حدوث صورته وهو المراد من قوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ﴾ وثانيها : حسن صورته وهو المراد من قوله : ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ ، وثالثها : أنه رزقه من الطيبات وهو المراد من قوله : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وقد أطنبنا في تفسير هذه الأشياء في هذا الكتاب مرارًا لا سيما في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. ولما ذكر الله تعالى هذه الدلائل الخمسة : اثنين من دلائل الآفاق وثلاثة من دلائل الأنفس قال : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وتفسير (تبارك) إما الدوام والثبات ، وإما كثرة الخيرات . ثم قال : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا يفيد الحصر

وأن لا حي إلا هو، فوجب أن يُحمل ذلك على الحي الذي يمتنع أن يموت امتناعًا ذاتيًا، وحينئذٍ لا حي إلا هو، فكأنه أجرى الشيء الذي يجوز زواله مجرى المعدوم.

واعلم أن الحي عبارة عن الدَّرَّاك الفَعَّال، والدراك إشارة إلى العلم التام، والفعال إشارة إلى القدرة الكاملة، ولما نبه على هاتين الصفتين من صفات الجلال نبه على الصفة الثالثة وهي: الوحدانية بقوله: (لا إله إلا هو)، ولما وصفه بهذه الصفات أمر العباد بشيئين: أحدها: بالدعاء والثاني: بالإخلاص فيه، فقال: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ ثم قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيجوز أن يكون المراد قول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ويجوز أن يكون المراد أنه لما كان موصوفًا بصفات الجلال والعزة، استحق لذاته أن يقال له: الحمد لله رب العالمين.

ولما بيّن صفات الجلال والعظمة قال: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فأورد ذلك على المشركين بألين قول ليصرفهم عن عبادة الأوثان، وبيّن أن وجه النهي في ذلك ما جاءه من البينات، وتلك البينات أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفًا بصفات الجلال والعظمة على ما تقدم ذكره، وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق إلا به، وأن جعل الأحجار المنحوتة والخُشُب المصورة شركاء له في المعبودية - مستنكر في بديهة العقل.

ولما بيّن أنه أمر بعبادة الله تعالى فقال: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وإنما ذكر هذه الأحكام في حق نفسه لأنهم كانوا يعتقدون فيه أنه في غاية العقل وكمال الجوهر، ومن المعلوم بالضرورة أن كل أحد فإنه لا يريد لنفسه إلا الأفضل الأكمل، فإذا ذكر أن مصلحته لا تتم إلا بالإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على طاعة الله، ظهر به أن هذا الطريق أكمل من كل ما سواه، ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾، واعلم أنا قد ذكرنا أن الدلائل على قسمين: دلائل الآفاق والأنفس، أما دلائل الآفاق فكثيرة والمذكور منها في هذه الآية أربعة: الليل والنهار والأرض والسماء، وأما دلائل الأنفس فقد ذكرنا أنها على قسمين: أحدها: الأحوال الحاضرة حال كمال الصحة وهي أقسام كثيرة، والمذكور ههنا منها ثلاثة أنواع: الصورة وحسن الصورة ورزق الطيبات.

وأما القسم الثاني: - وهو كيفية تكَوُّن هذا البدن من ابتداء كونه نطفة وجنينًا إلى آخر الشيخوخة والموت - فهو المذكور في هذه الآية فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ فقيل: المراد آدم، وعندي لا حاجة إليه لأن كل إنسان فهو مخلوق من المني ومن دم الطمث، والمني مخلوق من الدم فالإنسان مخلوق من الدم، والدم إنما يتولد من الأغذية، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، والحال في تكون ذلك الحيوان كالحال في تكون الإنسان، فالأغذية بأسرها منتهية إلى النباتية، والنبات إنما يكون من التراب والماء، فثبت أن كل إنسان فهو متكون من التراب، ثم إن ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة بعد كونه علقة مراتب كثيرة إلى أن ينفصل من بطن الأم، فالله تعالى ترك ذكرها ههنا لأجل أنه تعالى ذكرها في سائر الآيات.

واعلم أنه تعالى رَتَّب عمر الإنسان على ثلاث مراتب: أولها: كونه طفلاً، وثانيها: أن يبلغ أشده، وثالثها: الشيخوخة. وهذا ترتيب صحيح مطابق للعقل، وذلك لأن الإنسان في أول عمره يكون في التزايد والنشوء والنماء وهو المسمى بالطفولية. والمرتبة الثانية: أن يبلغ إلى كمال النشوء وإلى أشد السن من غير أن يكون قد حصل فيه نوع من أنواع الضعف، وهذه المرتبة هي المراد من قوله: ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ والمرتبة الثالثة: أن يتراجع ويظهر فيه أثر من آثار الضعف والنقص، وهذه المرتبة هي المراد من قوله: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ﴾ وإذا عرفت هذا التقسيم عرفت أن مراتب العمر بحسب هذا التقسيم لا تزيد على هذه الثلاثة، قال صاحب (الكشاف): قوله ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره: ثم يبقيكم لتبلغوا.

ثم قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ﴾ أي من قبل الشيخوخة، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطًا.

ثم قال: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ ومعناه يفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى وهو وقت الموت، وقيل: يوم القيامة.

ثم قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في هذه الأحوال العجيبة من أنواع العبر وأقسام الدلائل.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر انتقال الإنسان من كونه ترابًا إلى كونه نطفة ثم إلى كونه علقة ثم إلى كونه طفلاً ثم إلى بلوغ الأشد ثم إلى الشيخوخة، واستدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر قال بعده: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ يعني كما أن الانتقال من صفة إلى صفة أخرى من الصفات التي تقدم ذكرها يدل على الإله القادر، فكذلك الانتقال من الحياة إلى الموت وبالعكس يدل على الإله القادر.

وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فيه وجوه: الأول: معناه أنه لما نقل هذه الأجسام من بعض هذه الصفات إلى صفة أخرى، لم يتعب في ذلك التصرف ولم يحتج إلى آلة وأداة، فعبّر عن نفاذ قدرته في الكائنات والمحدثات من غير معارض ولا مدافع بما إذا قال: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ الوجه الثاني: أنه عبّر عن الإحياء والإماتة بقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فكأنه قيل: الانتقال من كونه ترابًا إلى كونه نطفة، ثم إلى كونه علقة انتقالات تحصل على التدرج قليلاً قليلاً، وأما صيرورة الحياة فهي إنما تحصل لتعليق جوهر الروح النطقية به، وذلك يحدث دفعة واحدة، فلهذا السبب وقع التعبير عنه بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ الوجه الثالث: أن من الناس من يقول: إن تكوُّن الإنسان إنما ينعقد من المني والدم في الرحم في مدة معينة، وبحسب انتقالاته من حالات إلى حالات، فكأنه قيل: إنه يمتنع أن يكون كل إنسان عن إنسان آخر؛ لأن التسلسل محال، ووقوع الحادث في الأزل محال، فلا بد من الاعتراف بإنسان هو أول الناس، فحينئذٍ

يكون حدوث ذلك الإنسان لا بواسطة المني والدم، بل بإيجاد الله تعالى ابتداء، فعبّر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى عاد إلى ذم الذين يجادلون في آيات الله فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ وهذا ذم لهم على أن جادلوا في آيات الله ودَفْعها والتكذيب بها، فعجب تعالى منهم بقوله: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ كما يقول الرجل لمن لا يبين: (أنى يُذهب بك؟!) تعجبًا من غفلته، ثم بيّن أنهم هم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي بالقرآن ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من سائر الكتب، فإن قيل: سوف للاستقبال، وإذ للماضي فقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ مثل قولك: سوف أصوم أمس. قلنا: المراد من قوله ﴿إِذِ﴾ هو إذا؛ لأن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعًا بها، عبر عنها بلفظ ما كان ووُجد، والمعنى على الاستقبال، هذا لفظ صاحب (الكشاف).

ثم إنه تعالى وصف كيفية عقابهم فقال: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ والمعنى: أنه يكون في أعناقهم الأغلال والسلاسل، ثم يُسحبون بتلك السلاسل في الحميم، أي في الماء المسخن بنار جهنم ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ والسجر في اللغة: الإيقاد في التنور، ومعناه أنهم في النار فهي محيطة بهم، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦، ٧] ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيقولون: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم. ثم قالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي تبيّن أنهم لو لم يكونوا شيئًا، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئًا، كما تقول: (حسبت أن فلانًا شيء، فإذا هو ليس بشيء) إذا جربته فلم تجد عنده خيرًا، ويجوز أيضًا أن يقال: إنهم كَذَبوا وأنكروا أنهم عبدوا غير الله، كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأنعام أنهم قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال القاضي: معناه أنه يضلهم

عن طريق الجنة، إذ لا يجوز أن يقال: يضلهم عن الحجة. إذ قد هداهم في الدنيا إليها، وقال صاحب (الكشاف): ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم، حتى أنهم لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يجد أحدهما الآخر، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ذلكم الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق، وهو الشرك وعبادة الأصنام ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة المقسومة لكم، قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ والمراد منه ما قال في الآية المتقدمة في صفة هؤلاء المجادلين: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [غافر: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم من أول السورة إلى هذا الموضع في تزييف طريقة المجادلين في آيات الله، أمَر في هذه الآية رسوله بأن يصبر على إيذائهم وإيحاشهم بتلك المجادلات، ثم قال: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وعنى به ما وعد به الرسول من نصرته، ومن إنزال العذاب على أعدائه، ثم قال: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ يعني أولئك الكفار من أنواع العذاب، مثل القتل يوم بدر، فذلك هو المطلوب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل إنزال العذاب عليهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ والمعنى أنه قال لمحمد ﷺ: أنت كالرسل من قبلك، وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الباقين، وليس فيهم أحد أعطاه الله آيات ومعجزات إلا وقد جادله قومه فيها، وكذّبوه فيها، وجرى عليهم من الهم ما يقارب ما جرى عليك فصبروا، وكانوا أبدًا يقترحون على الأنبياء إظهار المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل العناد والتعنت، ثم إن الله تعالى لمّا علم أن الصلاح في إظهار ما أظهره، وإلا لم يُظهره، ولم يكن ذلك قادحًا في نبوتهم، فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة، لما لم يكن إظهارها صلاحًا، لا جرم ما أظهرناها، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ القيامة و﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ هم المعاندون الذين يجادلون في آيات الله، ويقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٨٠ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ۝٨١﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في تقرير الوعيد عاد إلى ذكر ما يدل على وجود الإله الحكيم الرحيم، وإلى ذكر ما يصلح أن يعد إنعامًا على العباد، قال الزجاج: الأنعام: الإبل خاصة. وقال القاضي: هي الأزواج الثمانية.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: أنه لـمَ أدخل لام الغرض على قوله: ﴿لِتَرْكَبُوا۟﴾ وعلى قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟﴾ ولـمْ يُدخل على البواقي فما السبب فيه؟

الجواب: قال صاحب (الكشاف): الركوب في الحج والغزو إما أن يكون واجبًا أو مندوبًا، فهذان القسمان أغراض دينية، فلا جرم أدخل عليهما حرف التعليل، وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباحات، فلا جرم ما أدخل عليها حرف التعليل، نظيره قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[النحل: ٨] فأدخل التعليل على الركوب ولم يدخله على الزينة.

السؤال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ معناه تُحملون في البر والبحر، إذا عرفت هذا فنقول: لـمَ لم يقل: (وفي الفلك) كما قال: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠].

والجواب: أن كلمة (على) للاستعلاء فالشيء الذي يوضع في الفلك كما يصح أن يقال وُضع فيه. يصح أن يقال وُضع عليه، ولما صح الوجهان كانت لفظة (على) أَوْلى حتى يتم المراد في قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾. ولما ذكر الله هذه الدلائل الكثيرة قال: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ يعني أن هذه الآيات التي عددناها كلها - ظاهرة باهرة، فقوله: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ تنبيه على أنه ليس في شيء من الدلائل التي تقدم ذكرها ما يمكن إنكاره، قل صاحب (الكشاف): قوله: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جاء على اللغة المستفيضة، وقولك: (فأية آيات الله) قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات، نحوحمار وحمارة - غريب، وهي في (أي) أغرب لإبهامه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ

بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى راعى ترتيبًا لطيفًا في آخر هذه السورة، وذلك أنه ذكر فصلاً في دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة، ثم أردفه بفصل التهديد والوعيد، وهذا الفصل الذي وقع عليه خَتْم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد، والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكِبر العظيم في صدورهم بهذا، والسبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه، فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا، فبيَّن تعالى أن هذه الطريقة فاسدة؛ لأن الدنيا فانية ذاهبة، واحتج عليه بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ يعني لو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتمردين - ليست إلا الهلاك والبوار، مع أنهم كانوا أكثر عددًا ومالاً وجاهًا من هؤلاء المتأخرين، فلما لم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة والدولة القاهرة إلا الخيبة والخسار والحسرة والبوار، فكيف يكون حال هؤلاء الفقراء المساكين؟! أما بيان أنهم كانوا أكثر من هؤلاء عددًا فإنما يُعرف في الأخبار، وأما أنهم كانوا أشد قوة وآثارًا في الأرض، فلأنه قد بقيت آثارهم بحصون عظيمة بعدهم، مثل الأهرام الموجودة بمصر، ومثل هذه البلاد العظيمة التي بناها الملوك المتقدمون، ومثل ما حكى الله عنهم من أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (ما) في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ومحلها النصب، و(ما) في قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع، يعني: أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم؟!

ثم بيّن تعالى أن أولئك الكفار لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات، فرحوا بما عندهم من العلم، واعلم أن الضمير في قوله: ﴿فَرِحُوا۟﴾ يحتمل أن يكون عائدًا إلى الكفار، وأن يكون عائدًا إلى الرسل: أما إذا قلنا: إنه عائد إلى الكفار، فذلك العلم الذي فرحوا به أي علم كان؟ وفيه وجوه: الأول: أن يكون المراد الأشياء التي كانوا يسمونها بالعلم، وهي الشبهات التي حكاها الله عنهم في القرآن كقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٤] وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقولهم: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الأنبياء، كما قال: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، الثاني: يجوز أن يكون المراد علوم الفلاسفة، فإنهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه وصَغَّروا علم الأنبياء إلى علومهم، وعن

سقراط أنه سمع بمجيء بعض الأنبياء فقيل له: لو هاجرتَ. فقال: نحن قوم مهديون، فلا حاجة بنا إلى من يهدينا!! الثالث: يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل؛ لم يلتفتوا إليها واستهزؤوا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم، ففرحوا به. أما إذا قلنا: الضمير عائد إلى الأنبياء ففيه وجهان: الأول: أن يُجعل الفرح للرسل، ومعناه أن الرسل لما رأوا من قومهم جهلاً كاملاً، وإعراضًا عن الحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم وإعراضهم، فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم. الثاني: أن يكون المراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به، كأنه قال: استهزؤوا بالبينات، وبما جاؤوا به من علم الوحي فرحين، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ البأس شدة العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف: ١٦٥] فإن قيل: أي فرق بين قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ وبين ما لو قيل: فلم ينفعهم إيمانهم؟ قلنا: هو مثل كان في نحو قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] والمعنى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم. فإن قيل: اذكروا ضابطًا في الوقت الذي لا ينفع الإتيان بالإيمان فيه. قلنا: إنه الوقت الذي يعاين فيه نزول ملائكة الرحمة والعذاب؛ لأن في ذلك الوقت يصير المرء مُلجأ إلى الإيمان، فذلك الإيمان لا ينفع إنما ينفع مع القدرة على خلافه، حتى يكون المرء مختارًا، أما إذا عاينوا علامات الآخرة فلا.

ثم قال تعالى: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ والمعنى أن عدم قبول الإيمان حال اليأس سنة الله مطردة في كل الأمم.

ثم قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ فقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ مستعار للزمان، أي وخسروا وقت رؤية البأس، والله الهادي للصواب.

تم تفسير هذه السورة يوم السبت، الثاني من ذي الحجة، من سنة ثلاث وستمائة من الهجرة، في بلدة هراة.

يا من لا يبلغ أدنى ما استأثرت به من جلالك وعزتك أقصى نعوت الناعتين، يا من تقاصرت عن الإحاطة بمبادئ أسرار كبريائه أفهام المتفكرين، وأنظار المتأملين لا تجعلنا بفضلك ورحمتك في زمرة الخاسرين المبطلين، ولا تجعلنا يوم القيامة من المحرومين، فإنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين.

والحمد لله رب العالمين، وصلوات الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين.

تفسير سورة غافر

وهي سورة المؤمن، وتسمى سورة الطَّوْل

وهي مكيةٌ في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر[1]. وعن الحسن إلا قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» لأن الصلواتِ نزلت بالمدينة[2]. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة، وهما ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الآية:٣٥] والتي بعدها[3]. وهي خمسٌ وثمانون آية. وقيل: ثنتان وثمانون آية[4].

وفي «مسند» الدارمي قال: حدّثنا جعفر بن عون، عن مِسْعر، عن سعد بن إبراهيم قال: كنَّ الحواميم يُسمَّين العرائسَ[5]. ورُوي من حديث أنس أن رسولَ الله ﷺ قال: «الحواميمُ دِيباجُ القرآن»[6]. ورُوي عن ابن مسعود مثلُه. وقال الجوهري وأبو عُبيد[7]: وآل حم سورٌ في القرآن. قال ابن مسعود: آلُ حم دِيباجُ القرآن[8]. قال الفراء: إنما هو كقولك: آلُ فلان وآلُ فلان، كأنه نَسَبَ السورةَ كلَّها إلى حم؛ قال الكُمَيْت:

وَجَدْنا لكم في آلِ حَاميمَ آيةً　　　تَأوَّلَها مِنَّا تَقيٌّ ومُعْزِبُ[9]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٤١ .

(٢) مجمع البيان ٢٤/ ١٧٨ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٤١ ، وزاد المسير ٧/ ٢٠٤ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٥ : هذه السورة مكية بإجماع، وقد روي في بعض آياتها أنها مدنية، وهذا ضعيف، والأول أصح.

(٤) ذكرهما السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٤ .

(٥) سنن الدارمي (٣٤٢٢).

(٦) أخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم كما في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ .

(٧) في (د) و(م): أبو عبيدة.

(٨) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٤٧١).

(٩) ديوان الكميت بن زيد ص١٨ ، وفيه وفي الصحاح (حمم) والخزانة ٤/ ٣١٨: ومعرب. قال البغدادي: يقول الشاعر: من تأوّل هذه الآية لم يسعه إلا التشيّع في آل النبي ﷺ وإبداء المودة لهم على تَقِيَّة كانت أو غير تقية. وقوله: تقيٌّ ومعرب، قال الجوهري [الصحاح (عرب)]: أعرب بحجته إذا أفصح بها ولم يتقِ أحداً.

قال أبو عُبيد[١]: هكذا رواها الأُموي بالزاي، وكان أبو عمرو يرويها بالراء. فأما قولُ العامة: الحواميم، فليس من كلام العرب.

وقال أبو عُبيدة: الحواميمُ سورٌ في القرآن على غير قياس؛ وأنشد:

وبالحواميم التي قد سُبِّعَتْ[٢]

قال: والأولى أن تُجمع بذوات حم[٣].

ورُوي أن النبي ﷺ قال: «لكلِّ شيء ثمرةٌ، وإن ثمرةَ القرآن ذواتُ حم، هنَّ روضاتٌ حِسان مُخصبات مُتجاورات، فمن أحبَّ أن يرتعَ في رياض الجنة فَلْيقرأ الحواميم»[٤]. وقال النبي ﷺ: «مَثَلُ الحواميم في القرآن كمثل الحِبَرَاتِ في الثياب» ذكرهما الثعلبي[٥].

وقال أبو عُبيد: وحدّثني حجَّاج بن محمد عن أبي مَعْشر، عن محمد بن قيس قال: رأى رجلٌ سبعَ جوارٍ حِسان مُزيَّنات في النوم، فقال: لمن أنتنَّ بارك الله فيكنَّ؟ فقلن: نحن لمن قرأنا، نحن الحواميم[٦].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ اختلف في معناه؛ فقال عكرمة: قال النبيُّ ﷺ: «حم» اسمٌ

---

(١) في (م): أبو عبيدة. والكلام في غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٩٤ .

(٢) ذكره صاحب اللسان (حمم)، وقبله: وبالطواسين التي قد ثُلِّثتْ.

(٣) الصحاح (حمم).

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ ، وعزاه لابن الضُّريس.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) غريب الحديث ٤/ ٩٣ .

من أسماء الله تعالى، وهي مفاتيحُ خزائن ربِّك»[١] قال ابن عباس: «حم» اسمُ الله الأعظم. وعنه: «الر» و«حم» و«ن» حروفُ الرحمنُ مقطَّعة. وعنه أيضاً: اسمٌ من أسماء الله تعالى أقسم به. وقال قتادة: إنه اسمٌ من أسماء القرآن. مجاهد: فواتحُ السُّور[٢].

وقال عطاء الخُراساني: الحاء افتتاحُ اسمه حَميدٌ وحنانٌ وحليمٌ وحكيمٌ، والميم افتتاحُ اسمه مَلِكٌ ومجيدٌ ومنَّانٌ ومُتكبِّرٌ ومصوِّر[٣]؛ يدلُّ عليه ما روى أنسٌ أن أعرابيًّا سأل النبيَّ ﷺ: ما «حم» فإنَّا لا نعرفها في لساننا؟ فقال النبيُّ ﷺ: «بَدْءُ أسماء وفواتح سُوَره»[٤]. وقال الضحاك والكسائي: معناه: قُضِي ما هو كائن. كأنه أراد الإشارة إلى تهجِّي «حم»؛ لأنها تصير حُمَّ، بضم الحاء وتشديد الميم؛ أي: قُضِي ووَقَع[٥]. قال كعب بن مالك:

فلما تَلَاقَينا ودارت بِنَا الرَّحى وليس لِأَمْر حمَّهُ الله مَدْفَعُ[٦]

وعنه أيضاً: إن المعنى: حُمَّ أمرُ الله، أي: قَرُبَ؛ كما قال الشاعر:

قد حُمَّ يومي فسُرَّ قومٌ قومٌ بهم غَفْلَةٌ ونَومٌ

ومنه سُمِّيت الحُمَّى؛ لأنها تُقرِّب من المَنِيَّة[٧].

والمعنى المراد: قَرُبَ نصرُه لأوليائه، وانتقامُه من أعدائه كيوم بدر. وقيل: حروف هجاء؛ قال الجَرْمي: ولهذا تُقرأ ساكنةَ الحروف، فخرجت مخرجَ التهجِّي،

---

(١) لم نقف عليه، وهو هكذا مرسل.

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٢٧٤-٢٧٥، والنكت والعيون ٥/ ١٤١، وتفسير البغوي ٤/ ٩٠.

(٣) أورده البغوي في تفسيره ٤/ ٩٠.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٩٠.

(٦) ديوان كعب بن مالك ص١٨٣.

(٧) النكت والعيون ٥/ ١٤١.

وإذا سَمَّيت سورةً بشيء من هذه الحروف أعربت؛ فتقول: قرأتُ «حمَ» فتنصب؛ قال الشاعر:

يُذَكِّرني حاميم والرُّمح شاجِرٌ فهلَّا تلا حاميمَ قَبْلَ التَّقدُّمِ[1]

وقرأ عيسى بن عمر الثقفي: «حمَ» بفتح الميم على معنى: اقرأْ حم، أو لالتقاء الساكنين. وابن أبي إسحاق وأبو السَّمَّال بكسرها. والإمالة والكسر لالتقاء الساكنين[2]، أو على وجه القسم. وقرأ أبو جعفر بقطع الحاء من الميم. الباقون بالوصل. وكذلك في ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: ١-٢]. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان بالإمالة في الحاء. ورُوي عن أبي عمرو بين اللَّفظين، وهي قراءة نافع وأبي جعفر وشيبة. الباقون بالفتح مُشبعاً[3].

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ابتداء، والخبر ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾. ويجوز أن يكون «تَنْزِيلُ» خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ»[4]. ويجوز أن يكون «حم» مبتدأ و«تَنْزِيلُ» خبره، والمعنى: إن القرآنَ أنزله اللهُ، وليس منقولاً ولا مما يجوز أن يُكذَّب به.

قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ قال الفراء[5]: جعلها كالنعت للمعرفة، وهي نكرة. وقال الزجاج: هي خفضٌ على البدل[6]. النحاس[7]:

---

(١) قائله شريح بن أبي أوفى العبسي، أورده البخاري قبل الحديث (٤٨١٥)، والطبري ٢٠/ ٢٧٥، وقيل: البيت للأشتر النخعي، وقيل غير ذلك، كما في فتح الباري ٨/ ٥٥٤.

(٢) قراءة عيسى بن عمر في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥، وقراءة أبي السمّال في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٦.

(٣) السبعة ص٥٦٦، والتيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٧٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٦.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٦٦، وفيه: «غافرِ الذنب وقابلِ التوب» على صفات الله، فأما خفض «شديدِ العقاب» فعلى البدل لأنه مما يوصف به النكرة.

(٧) إعراب القرآن ٤/ ٢٦.

وتحقيقُ الكلام في هذا وتلخيصُه أن ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ يجوز أن يكونا معرفتين على أنهما لِمَا مضَى فيكونا نعتين، ويجوز أن يكونا للمستقبل والحال فيكونا نكرتين، ولا يجوز أن يكونا نعتين على هذا، ولكن يكون خَفْضُها على البدل، ويجوز النصب على الحال، فأما «شديدِ العقابِ» فهو نكرةٌ، ويكون خفضُه على البدل.

قال ابن عباس: «غَافِرِ الذَّنْبِ» لمن قال: «لا إله إلا الله» «وقَابِلِ التَّوْبِ» ممن قال: «لا إله إلا الله» «شَدِيدِ العقابِ» لمن لم يقل: «لا إله إلا الله»(١).

وقال ثابت البُنَاني: كنتُ إلى سرادق مُصْعَب بن الزبير في مكان لا تمرُّ فيه الدوابُّ، قال: فاستفتحت ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ فمر عليَّ رجلٌ على دابة، فلما قلت: «غَافِرِ الذَّنْبِ» قال: قل: يا غافرَ الذنب، اغفِرْ لي ذنبي، فلما قلت: «قَابِلِ التوْبِ» قال: قل: يا قابلَ التوب، تقبَّل توبتي، فلما قلت: «شَدِيدِ العقابِ» قال: قلْ: يا شديدَ العقاب، اعفُ عني، فلما قلتُ: «ذِي الطَّوْلِ» قال: قل: يا ذا الطَّول، طُلْ عليّ بخير؛ فقمتُ إليه فَأُخِذَ ببصري، فالتفتُّ يميناً وشمالاً فلم أرَ شيئاً(٢).

وقال أهلُ الإشارة: «غَافِرِ الذَّنْبِ» فَضْلاً «وَقَابِلِ التَّوبِ» وعداً «شَدِيدِ العِقَابِ» عدلاً «لا إله إلا هو إليه المصيرُ» فرداً.

ورُوي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام؛ فقيل له: تتابعَ في هذا الشَّراب؛ فقال عمر لكاتبه: اكتبْ: من عمرَ إلى فلان، سلامٌ عليك، وأنا أحمدُ اللهَ إليك الذي لا إله إلا هو ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ثم ختمَ الكتابَ، وقال لرسوله: لا تدفَعْه إليه حتى تَجِدَهُ صاحياً، ثم أمر مَن عنده بالدُّعاء له بالتوبة، فلما أتَتْه الصحيفةُ جعل يقرؤها ويقول:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٩٠.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٢٨ بنحوه.

قد وعدني الله أن يغفِرَ لي، وحذَّرني عِقابَه، فلم يبرحْ يُرَدِّدها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النَّزع وحسنت توبته. فلما بلغ عمرَ أمرُه قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحدَكم قد زلَّ زلَّةً، فسدِّدوه وادعوا اللهَ له أن يتوبَ عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه[١].

و«التَّوْب» يجوز أن يكون مصدر تابَ يتوبُ تَوْباً، ويَحتمِلُ أن يكون جمعَ توبة، نحو دَوْمَة ودَوْم وعَزْمة وعَزْم؛ ومنه قوله:

فَيَخْبو ساعَةً ويَهُبُّ ساعا[٢]

ويجوز أن يكون التوبُ بمعنى التوبة. قال أبو العباس: والذي يسبق إلى قلبي أن يكون مصدراً؛ أي: يقبل هذا الفعل، كما تقول: قال قولاً، وإذا كان جمعاً فمعناه: يقبل التوبات. ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ على البدل [لأنه نكرة] وعلى النعت، لأنه معرفة[٣].

وأصل الطول الإنعام والفضل يقال منه: اللهم طُلْ علينا، أي: أَنعم وتفضَّل. قال ابن عباس: «ذِي الطَّوْلِ» ذي النعم. وقال مجاهد: ذي الغنى والسَّعة[٤]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: ٢٥] أي: غِنًى وسَعَةً. وعن ابن عباس أيضاً: «ذِي الطَّوْلِ» ذي الغِنى عمن لا يقول: لا إله إلا الله[٥]. وقال عكرمة: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ ذي المَنّ[٦].

قال الجوهري[٧]: والطَّوْل بالفتح المنّ؛ يقال منه: طال عليه وتطوَّل عليه، إذا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٩٧ بنحوه.

(٢) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٣٤ ، وصدره: وكنا كالحريق أصاب غابا.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦ ، وما بين حاصرتين منه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٤٢ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٧٨ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٩٠ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٤٢ .

(٧) في الصحاح (طول).

امتنَّ عليه. وقال محمد بن كعب: «ذِي الطَّوْلِ» ذي التفضُّل؛ قال الماوردي[١]: والفرق بين المَنِّ والتفضُّل أن المنَّ عفوٌ عن ذنب. والتفضل إحسانٌ غيرُ مُستَحَق. والطَّول مأخوذٌ من الطُّول، كأنه طال بإنعامه على غيره. وقيل: لأنه طالت مُدَّة إنعامه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع.

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ سجَّل سبحانه على المُجادِلين في آيات الله بالكُفر، والمراد الجِدالُ بالباطل؛ من الطَّعن فيها، والقَصْد إلى إدحاض الحقِّ، وإطفاءِ نور الله تعالى. وقد دلَّ على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

فأما الجِدال فيها لإيضاح مُلتبَسها، وحلِّ مُشْكِلها، ومُقادحة أهل العلم في استنباط مَعانيها، وردِّ أهل الزَّيْغ بها وعنها، فأعظمُ جهاد في سبيل الله. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [الآية: ٢٥٨] مستوفى.

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ وقُرئ: «فَلَا يَغُرَّكَ»[٢]، ﴿تَقَلُّبُهُمْ﴾ أي: تصرُّفهم ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ فإني وإن أمهلتُهم لا أُهمِلُهم، بل أُعاقبهم. قال ابن عباس: يُريد تجارتهم من مكة إلى الشام وإلى اليمن. وقيل: «لَا يَغْرُرْكَ» ما هم فيه من الخير والسَّعة في الرزق، فإنه متاعٌ قليلٌ في الدنيا. وقال الزجاج[٣]: «لَا يَغْرُرْكَ» سلامتُهم بعد كُفرهم، فإن عاقبتَهم الهَلاك. وقال أبو العالية: آيتان ما أشدّهما على الذين يُجادلون في القرآن: قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[٤] [البقرة: ١٧٦].

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٤٢، وقول محمد بن كعب الذي قبله منه.
(٢) قرأ بها زيد بن علي وعبيد بن عمير، كما في البحر المحيط ٧/ ٤٤٩.
(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٦.
(٤) تفسير البغوي ٤/ ٩١.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝٦ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ على تأنيث الجماعة، أي: كذَّبتِ الرُّسُلَ[١]. ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: والأُمم الذين تحزَّبوا على أنبيائهم بالتكذيب، نحو عاد وثمود فَمن بعدَهم[٢].

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: ليحبسوه ويُعذِّبوه. وقال قتادة والسُّدِّي: لِيقتلوه[٣] والأَخذ يَرِد بمعنى الإهلاك؛ كقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]. والعرب تُسمِّي الأسيرَ الأخيذ؛ لأنه مأسورٌ للقتل؛ وأنشد قطرب قول الشاعر:

فَإِمَّا تَأْخُذُونِي تَقْتُلُونِي فَكَمْ مِنْ آخِذٍ يَهْوَى خُلُودِي[٤]

وفي وقت أَخْذهم لرسولهم قولان: أحدهما: عند دعائه لهم. الثاني: عند نزول

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٩١ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٤٣ .

(٤) جاء الشطر الثاني في النسخ الخطية: ومن أخذ فليس إلى خلودي، وضبط في (ز): أَخْذٍ، ووضع عليها «صح». والمثبت من (م)، وهو كذلك في الدر المصون ٩/ ٤٥٨ ، والبيت أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٤٣ (والكلام منه) وعجز البيت فيه: ومن يأخذ فليس إلى خلودي.

العذاب بهم.

﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي: لِيُزيلوا. ومنه: مكان دَحْض، أي: مَزْلَقة[١]، والباطل داحض؛ لأنه يَزْلَق ويَزِلّ فلا يستقر. قال يحيى بن سلّام: جادَلوا الأنبياء بالشِّرك لِيبطلوا به الإيمان[٢]. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: بالعذاب. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: عاقبة الأمم المُكذِّبة. أي: أليس وجدوه حقًّا؟!.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ أي: وجبت ولَزِمتْ؛ مأخوذٌ من الحق لأنه اللازم[٣]. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هذه قراءةُ العامة على التوحيد. وقرأ نافع وابن عامر: «كَلِمَاتُ» جمعاً[٤].

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ﴾ قال الأخفش[٥]: أي: لأنهم وبأنهم. قال الزجاج: ويجوز: إنهم بكسر الهمزة[٦]. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: المُعذَّبون بها، وتمَّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ويُروى: أن حَمَلَة العرش أرجلُهم في الأرض السُّفلى ورؤوسهم قد خَرقت العرش، وهم خشوعٌ لا يرفعون طَرْفهم، وهم أشرافُ الملائكة وأفضلُهم. ففي الحديث: «إن اللهَ تبارك وتعالى أمرَ جميعَ الملائكة أن يَغْدُوا ويروحوا بالسَّلام على حَمَلةِ العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة»[٧].

ويقال: خلقَ اللهُ العرشَ من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خَفَقان الطير المسرع ثمانين ألف عام. وقيل: حولَ العرش سبعون ألف صفٍّ من الملائكة

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٤٤ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦ .

(٤) السبعة ص٥٦٧ ، والتيسير ص١٢٢ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٦ وما بعده منه.

(٦) يعني في اللغة لا في التلاوة، والكلام في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٦٧ .

(٧) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥ ، ولم نقف عليه عند غيره.

يَطوفون به مُهَلِّلين مُكَبِّرين، ومِن ورائهم سبعون ألف صفٍّ قيام، قد وَضَعوا أيديَهم على عواتقهم، ورافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومِن ورائهم مئة ألف صفٍّ، قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا وهو يُسبِّح بما لا يُسبِّح[1] به الآخر.

وقرأ ابن عباس: «العُرْش» بضم العين[2]؛ ذَكَر جميعه الزمخشري رحمه الله.

وقيل: اتصل هذا بذكر الكفار؛ لأن المعنى ـ والله أعلم ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ يُنزِّهون الله عزَّ وجلَّ عما يقوله الكفار ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يسألون لهم المغفرة من الله تعالى[3].

وأقاويلُ أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مُجَسَّم خلقه اللهُ عزّ وجلّ، وأمرَ ملائكةً بحمله، وتَعبَّدهم بتعظيمه والطَّوافِ به؛ كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة[4].

وروى ابن طَهْمان، عن موسى بن عقبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أُذِنَ لي أنْ أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكة الله من حَمَلة العرش ما بين شحمةِ أُذنه إلى عاتقه مسيرُ سبع مئة عام» ذكره البيهقي[5]، وقد مضى في «البقرة» في آية الكرسي عِظَم العرش، وأنه أعظمُ المخلوقات[6].

وروى ثور بن يزيد، عن خالد بن مَعْدان، عن كعب الأحبار أنه قال: لما خَلَقَ اللهُ تعالى العرشَ قال: لن يخلقَ اللهُ خلقاً أعظمَ مني؛ فاهتزَّ فطوَّقه الله بحية، للحية

---

(١) في النسخ الخطية: بما سبّح، والمثبت من (م)، وهو الموافق للكشاف ٣/ ٤١٥، والكلام منه كما سيذكر المصنف.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦-٢٧ .

(٤) الأسماء والصفات ٢/ ٢٧٢ .

(٥) في الأسماء والصفات (٨٤٦).

(٦) ٤/ ٢٧٥ وما بعدها.

سبعون ألفِ جناح، في الجناح سبعون ألفِ ريشة، في كلِّ ريشة سبعون ألف وجه، في كلِّ وجه سبعون ألف فم، في كلِّ فم سبعون ألف لسان. يخرجُ من أفواهها في كلِّ يوم من التسبيح عَدَدَ قَطْر المطر، وعددَ ورق الشجر، وعددَ الحصى والثرى، وعددَ أيام الدنيا، وعددَ الملائكة أجمعين، فالتَوَت الحيةُ بالعرش، فالعرشُ إلى نصف الحية وهي ملتوية به[١].

وقال مجاهد: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب، حجاب نور وحجاب ظُلْمة، وحجاب نور وحجاب ظُلمة[٢].

﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وَسِعَتْ رحمتُك وعِلْمُك كلَّ شيء، فلما نقل الفعل عن الرحمة والعلم نصب على التفسير[٣].
﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: من الشِّرك والمعاصي ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: دين الإسلام.
﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: اصرفه عنهم حتى لا يَصِلَ إليهم.

قال إبراهيم النخعي: كان أصحابُ عبد الله يقولون: الملائكةُ خيرٌ من ابن الكَوَّاء؛ هم يستغفرون لمن في الأرض وابن الكَوَّاء يشهد عليهم بالكفر[٤]، قال إبراهيم: وكانوا يقولون: لا يَحْجُبون الاستغفار عن أحد من أهل القبلة. وقال مُطَرِّف ابن عبد الله: وجدنا أنصحَ عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغشَّ عبادِ الله لعباد الله الشيطان، وتلا هذه الآية[٥].

وقال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية: افهموها، فما في العالم جنةٌ أرجى منها؛ إنَّ مَلَكاً واحداً لو سأل الله أن يغفرَ لجميع المؤمنين لَغفرَ لهم، كيف

---

(١) هذا الخبر من الإسرائيليات التي يرويها كعب الأحبار عن كتب أهل الكتاب.
(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٥٦).
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧، وتفسير البغوي ٤/ ٩٣ بنحوه.
(٤) أخرجه أبو عبيد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ٣، وعبد الله هو ابن مسعود ﷺ، وابن الكوَّاء رجل من الخوارج، كما في تفسير أبي الليث ٢/ ١٦٢ والخبر فيه.
(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٧٨-١٧٩.

وجميعُ الملائكة وَحَملةُ العرش يستغفرون للمؤمنين. وقال خلف بن هشام البزار القارئ: كنتُ أقرأُ على سليم بن عيسى فلما بلغتُ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بكى، ثم قال: يا خلف، ما أكرمَ المؤمن على الله، نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ يُروى أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار: ما جنات عدن. قال: قصورٌ من ذهب في الجنة يدخلُها النبيُّون والصِّدِّيقون والشهداء وأئمةُ العدل(١).

﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ «التي» في محل نصب نعتاً للجنات. ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ «مَنْ» في محل نصب عطفاً على الهاء والميم في قوله: «وَأَدْخِلْهُم»(٢). «وَمَنْ صَلَحَ» بالإيمان.

﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ وقد مضى في «الرعد» نظيرُ هذه الآية(٣). قال سعيد ابن جُبير: يدخلُ الرجلُ الجنة، فيقول: يا رب، أين أبي وجدِّي وأُمي؟ وأين ولدي وولدُ ولدي؟ وأين زوجاتي؟ فيقال: إنهم لم يعملوا كعملك؛ فيقول: يارب، كنتُ أعملُ لي ولهم؛ فيقال: أدخِلوهم الجنة. ثم تلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾(٤). وَيقربُ من هذه الآية قوله: ﴿والَّذين آمَنُوا وأَتْبعناهم ذُرِّيَّاتِهم بإيمانٍ ألْحَقْنا بهم ذُرِّيَّاتهم﴾(٥) [الطور: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال قتادة: أي: وَقِهم ما يسوءهم، وقيل: التقدير: وَقِهم عذابَ السيئات(٦)، وهو أمْرٌ من: وَقَاه الله يَقِيه وِقايةً؛ بالكسر؛ أي: حَفِظَه. ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ أي: بدخول الجنة ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: النجاة الكبيرة.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/١٧٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٧ .

(٣) ١٢/٦٠ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/٢٨٦ .

(٥) هذه قراءة أبي عمرو. السبعة ص٦١٢ ، والتيسير ص٢٠٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/٥٤٨ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال الأخفش[1]: «لَمَقْتُ» هذه لام الابتداء وقعت بعد «يُنَادَوْنَ» لأن معناه: يقال لهم، والنداء قول. وقال غيره: المعنى: يقال لهم: «لَمَقْتُ اللهِ» إيَّاكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ «أَكْبَرُ» من مقت بعضِكم بعضاً يومَ القيامة؛ لأن بعضَهم عادَى بعضاً وَمقَتَهُ يومَ القيامة، فأذعنوا عند ذلك، وخَضَعوا وطلبوا الخُروجَ من النار[2].

وقال الكلبي: يقول كلُّ إنسان من أهل النار لنفسه: مَقَتُّكِ يا نفس؛ فتقول الملائكة لهم وهم في النار: لَمقتُ الله إيَّاكم إذ أنتم في الدنيا وقد بُعِثَتْ[3] إليكم الرُّسل فلم تؤمنوا أشدُّ من مَقْتكم أَنْفُسَكم اليوم.

وقال الحسن: يُعْطَون كتابَهم، فإذا نظروا إلى سيئاتكم مقتوا أنفسَهم، فينادَوْن «لَمَقْتُ الله» إيَّاكم في الدنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ اليوم. وقال معناه مجاهد[4]. وقال قتادة: المعنى: «لَمَقْتُ اللهِ» لكم «إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمانِ فَتَكْفُرُونَ» «أكبرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ» إذ عاينتم النار[5]. فإن قيل: كيف يَصِحُّ أن يَمقُتوا أَنْفُسَهم؟ ففيه وجهان: أحدهما: أنهم أحلوها بالذُّنوب محلَّ

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧.

(٣) في (م): بعث.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٥) أخرج قول مجاهد بنحوه وقول قتادة الطبري ٢٠/ ٢٨٨.

الممقوت. الثاني: أنهم لما صاروا إلى حال زال عنهم الهوى وعلموا أن نفوسَهم هي التي أوْبقتهم(١) في المعاصي مَقَتُوها(٢).

وقال محمد بن كعب القُرَظي: إنَّ أهل النار لمَّا يَئِسوا مما عند الخَزَنةِ وقال لهم مالك: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] على ما يأتي. قال بعضُهم لبعض: يا هؤلاء، إنه قد نزل بكم من العذاب والبلاء ما قد ترون، فهلمَّ فلنصبر، فلعلَّ الصبر ينفعنا كما صبر أهلُ الطاعة على طاعة الله، فنفعهم الصبرُ إذ صبروا، فأجمعوا رأيَهم على الصبر، فصبروا، فطال صبرُهم، ثم جَزِعوا فنادَوْا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من ملجأ؛ فقال إبليسُ عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ يقول: بمغنٍ عنكم شيئاً ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] فلما سَمِعوا مَقَالته مَقَتُوا أنفُسَهم. قال: فَنُودوا: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ قال: فردَّ عليهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ ذكره ابن المبارك(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ اختلف أهلُ التأويل في معنى قولهم: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، ثم أحياهم، ثم أماتَهم المَوْتةَ التي لابدَّ منها في الدنيا، ثم أحياهم للبعث والقيامة، فهاتان حياتان وموتتان، وهو قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

---

(١) في (م): أبقتهم.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٤٥-١٤٦.

(٣) وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٢٧ و٦٣١ من طريق ابن المبارك.

وقال السدي: أُميتوا في الدنيا، ثم أَحياهم في قبورهم[١] للمسألة، ثم أُميتوا، ثم أُحيوا في الآخرة[٢]. وإنما صار إلى هذا؛ لأن لفظَ الميت لا ينطلق في العُرف على النطفة.

واستدلَّ العلماء من هذا في إثبات سؤال القبر، ولو كان الثوابُ والعقابُ للروح دون الجسد، فما معنى الإحياء والإماتة؟ والروحُ عند من يقصر أحكامَ الآخرة على الأرواح لا تموتُ ولا تتغير ولا تفسدُ، وهو حيٌّ لنفسه لا يتطرَّق إليه موتٌ ولا غشية ولا فَناء.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ الآية قال: خلقَهم في ظهر آدم، وأخرجهم[٣] وأحياهم، وأخذَ عليهم المِيثاق، ثم أماتَهم، ثم أحياهم في الدنيا، ثم أماتهم[٤]. وقد مضى هذا في «البقرة»[٥].

﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ اعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف ونَدِمُوا حين لا ينفع[٦] النَّدم.

﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ أي: هل نُرَدُّ إلى الدنيا لِنعملَ بطاعتك؛ نظيره: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقوله: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ الآية [الأنعام: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ «ذلكم» في موضع رفع، أي: الأمر «ذَلكُم» أو «ذَلِكُم» العذاب الذي أنتم فيه بكفركم. وفي الكلام متروكٌ تقديره: فأُجيبوا بأن لا سبيلَ إلى الردّ. وذلك لأنكم «إذا دُعِيَ الله» أي: وُحِّدَ الله

---

(١) في (م): القبور.

(٢) أخرج الأقوال السالفة الطبري ٢٠/ ٢٩٠-٢٩٢.

(٣) في النسخ الخطية: واستخرجهم، والمثبت من (م).

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٩ بنحوه، وقال: هذا قول ضعيف، لأن الإحياء فيه ثلاث مرات.

(٥) ١/ ٣٧٤-٣٧٥.

(٦) في (م): حيث لا ينفعهم.

«وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ» وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة، وإن أشركَ به مشركٌ صدَّقتموه وآمنتم بقوله[١].

قال الثعلبي: وسمعتُ بعضَ العلماء يقول: ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ بعد الردّ إلى الدنيا لو كان ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ تُصدِّقوا المُشرِك؛ نظيره: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ عن أن يكون له صاحبة أو ولد.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: دلائلَ توحيده وقُدرته ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ جَمَعَ بين إظهارِ الآيات وإنزال الرِّزق؛ لأن بالآيات قِوامَ الأديان، وبالرِّزق قِوامَ الأبدان. وهذه الآياتُ هي السماوات والأرَضون وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبحار والأنهار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هَلَكوا.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: ما يَتَّعِظُ بهذه الآياتِ، فيوحِّد الله ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي: يرجع إلى طاعة الله ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: العبادة. وقيل: الطاعة[٢]. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عبادةَ الله، فلا تعبدوا أنتم غيرَه.

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ «ذُو العَرْش» على إضمار مبتدأ. قال

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٧، وتفسير البغوي ٤/ ٩٣.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٩٤ بنحوه.

الأخفش(١): ويجوز نصبُه على المدح .

ومعنى «رَفِيعُ الدَّرَجات» أي: رفيع الصِّفات. وقال ابن عباس والكلبي وسعيد بن جُبير: رَفَعَ(٢) السماواتِ السَّبع. وقال يحيى بن سلَّام: هو رفعه درجات(٣) أوليائه في الجنة. فـ«رَفِيعُ» على هذا بمعنى رافع؛ فَعِيل بمعنى فاعل. وهو على القول الأول من صفات الذات، ومعناه: الذي لا أرفع قدراً منه، وهو المُستَحِقُّ لدرجات المَدْحِ والثناء، وهي أصنافُها وأبوابها لا مُستَحِقَّ لها غيره؛ قاله الحَلِيمي(٤). وقد ذكرناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»(٥) والحمد لله.

«ذُو العَرْشِ» أي: خالقه ومالِكه، لا أنه مُحتاج إليه. وقيل: هو من قولهم: ثُلَّ عرشُ فلان، أي: زال مُلكه وعِزُّه(٦)، فهو سبحانه «ذُو العَرْش» بمعنى ثبوت مُلكه وسُلطانه، وقد بيَّناه في «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»(٧).

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ أي: الوحي والنبوة ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وسُمِّي ذلك روحاً لأن الناس يَحيون به؛ أي: يَحيَوْن من موت الكفر كما تحيا الأبدانُ بالأرواح(٨). وقال ابن زيد: الرُّوح القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾(٩) [الشورى: ٥٢]. وقيل: الروح جبريل؛ قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: من قوله. وقيل: من قَضائه. وقيل: «مِنْ» بمعنى الباء، أي:

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٨ .

(٢) في النسخ: رفيع، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ١٤٧ . والكلام منه.

(٣) في (م): رفعة درجة.

(٤) في المنهاج في شعب الإيمان ١/ ١٩٠ .

(٥) ص١٧٧ .

(٦) الصحاح (عرش) بنحوه.

(٧) ص١٨٣ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٩٤ .

(٩) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٩٥ .

بأمره[١]. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الأنبياءُ، يشاء هو أن يكونوا أنبياءَ، وليس لأحد فيهم مشيئة.

﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي: إنما يبعث الرسول لإنذار يوم البعث. فقوله: «لِيُنْذِرَ» يرجع إلى الرسل[٢]. وقيل: أي: لينذر اللهُ ببعثه الرُّسلَ إلى الخلائق «يَوْمَ التَّلَاقِ». وقرأ ابن عباس والحسن وابن السَّمَيْفَع: «لِتُنْذِرَ» بالتاء خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام[٣].

«يَوْمَ التَّلَاقِ» قال ابن عباس وقتادة: يوم تلتقي أهلُ السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضاً وأبو العالية ومقاتل: يلتقي فيه الخَلْق والخالق. وقيل: العابدون والمعبودون. وقيل: الظالم والمظلوم. وقيل: يَلْقى[٤] كل إنسان جزاءَ عمله. وقيل: يلتقي الأولون والآخرون على صعيدٍ واحد؛ رُوي معناه عن ابن عباس[٥]. وكلُّه صحيح المعنى.

﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ يكون بدلاً من «يوم» الأول[٦]. وقيل: «هم» في موضع رفع بالابتداء، و«بَارِزُونَ» خبرُه، والجملة في موضع خفض بالإضافة؛ فلذلك حذف التنوين من «يومَ» وإنما يكون هذا عند سيبويه إذا كان الظرف بمعنى إذ؛ تقول: لقيتك يومَ زيدٌ أميرٌ. فإن كان بمعنى إذا لم يَجُزْ، نحو: أنا ألقاك يومَ زيدٌ أميرٌ[٧].

ومعنى «بَارِزُونَ» خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء[٨]؛ لأن الأرضَ يومئذ

(١) زاد المسير ٧/ ٣١٠-٣١١ .

(٢) في (م): الرسول.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨ .

(٤) في النسخ الخطية: يلتقي، والمثبت من (م).

(٥) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٤٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٩٤ ، وزاد المسير ٧/ ٣١١ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥١ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨ .

(٨) تفسير البغوي ٥/ ٩٤ .

قاع صفصف، لا عوج فيها ولا أمْتًا على ما تقدَّم في «طه» بيانه[١].

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ قيل: إن هذا هو العامل في «يومَ هم بارِزُون»، أي: لا يخفى عليه شيء منهم ومن أعمالهم «يوم هم بارِزُونَ»[٢].

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ وذلك عند فَناء الخَلْق. وقال الحسن: هو السائل تعالى وهو المُجيبُ[٣]؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يُجيبه، فَيُجيب نَفْسه سبحانه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

النحاس[٤]: وأصحُّ ما قيل فيه ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال: يُحشَرُ الناسُ على أرض بيضاءَ مثل الفضة لم يُعْصَ اللهُ جلّ وعزّ عليها، فيؤمر منادٍ ينادي: «لِمَن المُلْكُ اليوم» فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم: «للهِ الواحدِ القهَّارِ» فيقول المؤمنون هذا سروراً وتلذُّذاً، ويقول الكافرون غمًّا وانقياداً وخُضوعاً. فأما أن يكون هذا والخَلْق غير موجودين فبعيد؛ لأنه لا فائدةَ فيه، والقولُ صحيح عن ابن مسعود، وليس هو مما يُؤخذ بالقياس ولا بالتأويل.

قلت: والقولُ الأول ظاهرٌ جدًّا؛ لأن المقصودَ إظهارُ انفراده تعالى بالمُلك عند انقطاع دعاوى المُدَّعين وانتساب المُنتسبين؛ إذ قد ذهب كلُّ مَلِك ومُلْكه ومُتكبِّر ومُلكه، وانقطعت نسبهم ودعاويهم، ودلَّ على هذا قولُه الحقّ عند قَبْضِ الأرواح وطيّ السماء: «أنا المَلِك، أين ملوكُ الأرض» كما تقدَّم في حديث أبي هريرة[٥]، وفي حديث ابن عمر: «ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبَّارون، أين المتكبِّرون»[٦]. وعنه: قوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ هو انقطاعُ زمن الدنيا وبعدَه يكون البعثُ والنَّشْر.

---

(١) ١٤/١٣٦ وما بعدها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٥٥١ بنحوه.

(٣) المصدر السابق.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/٢٨-٢٩ .

(٥) ١/٢١٨ و١٨/٣٠٨ ، وهو عند البخاري (٧٣٨٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

(٦) أخرجه البخاري (٧٤١٢)، ومسلم (٢٧٨٨).

قال محمد بن كعب: قوله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ بين النفختين حين فني الخلائق وبقي الخالق فلا يرى غير نفسه مالكاً ولا مملوكاً فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا يُجيبه أحد؛ لأن الخَلْقَ أمواتٌ فيجيب نفسَه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ لأنه بقي وحده وقهر خَلْقَه[1]. وقيل: إنه ينادي منادٍ فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيجيبه أهل الجنة: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فالله أعلم. ذكره الزمخشري[2].

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: يقال لهم إذا أقرُّوا بالملك يومئذ لله وحده: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ. ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا يُنقَص أحدٌ شيئاً مما عَمِلَه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لا يحتاجُ إلى تفكُّر وعَقْدِ يدٍ كما يفعله الحُسَّاب؛ لأنه العالم الذي لا يَعزُبُ عن عِلْمه شيء، فلا يُؤخِّرُ جزاءَ أحدٍ للاشتغال بغيره؛ وكما يرزقهم في ساعة واحدة يُحاسبهم كذلك في ساعة واحدة. وقد مضَى هذا المعنى في «البقرة»[3]. وفي الخبر: لا ينتصف النهار حتى يقيل أهلُ الجنة في الجنة وأهلُ النار في النار[4].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ أي: يوم القيامة. سُمِّيت بذلك لأنها قريبة؛ إذْ

(١) النكت والعيون ٥/١٤٨.

(٢) في الكشاف ٣/ ٤٢٠.

(٣) ٣/٣٥٩ وما بعدها.

(٤) قاله ابن عباس وابن مسعود ﵁ كما سلف ١٥/ ٣٩٨.

كل ما هو آتٍ قريب. وأَزِفَ فلانٌ، أي: قرب يَأْزَفُ أَزَفًا؛ قال النابغة:

أَزِف التَّرحُّلُ غيرَ أنَّ رِكابَنا لَمَّا تَزَلْ بِرحالِنا وَكَأنْ قَدِ[1]

أي: قَرُبَ. ونظيرُ هذه الآية: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾ [النجم:٥٧] أي: قَرُبت الساعة. وكان بعضهم يتمثل ويقول:

أزِف الرَّحيلُ وليس لي مِن زَادِ غير الذُّنُوب لِشِقْوَتِي ونَكادِي[2]

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ على الحال، وهو محمول على المعنى. قال الزجاج[3]: المعنى: إذ قلوبُ الناس «لَدَى الحناجِرِ» في حال كَظْمهم. وأجاز الفراء[4] أن يكون التقدير: «وأَنْذِرْهُمْ» كاظِمِينَ. وأجاز رفع «كَاظِمِينَ» على أنه خبرٌ للقلوب[5]. وقال: المعنى: إذ هم كاظمون. وقال الكسائي: يجوز رفع ﴿كَٰظِمِينَ﴾ على الابتداء.

وقد قيل: إن المراد بـ«يوم الآزِفَةِ» يوم حضور المنية؛ قاله قطرب، وكذا ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ عند حضور المَنِيَّة. والأوّل أظهر. وقال قتادة: وقعت في الحناجر من المَخافة، فهي لا تخرجُ ولا تعود في أمكنتها[6]، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة كما قال: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣].

وقيل: هذا إخبارٌ عن نهاية الجَزَع؛ كما قال: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠]. وأُضيف اليومُ على ﴿ٱلْأَزِفَةِ﴾ على تقدير: يوم القيامةِ ﴿ٱلْأَزِفَةِ﴾، أو يوم المجادلة ﴿ٱلْأَزِفَةِ﴾. وعند الكوفيين هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، مثل:

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٣٨، وفيه: أَفِدَ، بدل: أزف، وهو برواية المصنف في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٨٣، وتفسير الرازي ٢٧/ ٤٩.

(٢) قائله ابن الجهم الحوفي المصري، كما في خريدة القصر للعماد الأصفهاني (شعراء مصر) ٢/ ٢٠٠.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٦٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٩.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦.

(٥) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٤٩.

مسجد الجامع، وصلاة الأولى[١].

﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: من قريب ينفع ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فيشفع فيهم.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ قال المُؤَرِّجُ: فيه تقديمٌ وتأخير، أي: يعلم الأعينَ الخائنة. وقال ابن عباس: هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمرُّ المرأةُ فَيُسارقهم النظرَ إليها. وعنه: هو الرجل ينظر إلى المرأة، فإذا نظر إليه أصحابُه غَضَّ بصرَه، فإذا رأى منهم غَفْلةً تدسَّسَ بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابُه غَضَّ بصره، وقد علم الله عزَّ وجلَّ منه أن بودِّه[٢] لو نظر إلى عورتها[٣].

وقال مجاهد: هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. وقال قتادة: هي الهَمْزة بعينه وإغماضه فيما لا يحبُّ الله تعالى[٤].

وقال الضحاك: هو قول الإنسان: ما رأيتُ، وقد رأى، ورأيتُ، وما رأى. وقال السدي: إنها الرَّمْز بالعين. وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة[٥].

وقال الفراء[٦]: «خَائِنَةَ الأعْيُنِ» النظرة الثانية، «ومَا تُخْفِي الصُّدُورُ» النظرة الأولى. وقال ابن عباس: «ومَا تُخْفِي الصُّدُورُ» أي: هل يزني بها لو خلا بها أو لا. وقيل: «وما تُخْفي الصُّدورُ» تُكِنُّه وتُضْمِرُه[٧].

ولما جيء بعبد الله بن أبي سَرْح إلى رسول الله ﷺ، بعد ما اطمأنَّ أهلُ مكة وطلب له الأمانَ عثمانُ ﵁، صَمَتَ رسولُ الله ﷺ طويلاً ثم قال: «نعم» فلما انصرف، قال رسولُ الله ﷺ لمن حوله: «ما صَمَتُّ إلا لِيقومَ إليه بعضُكم فيضربَ عُنُقَه» فقال رجلٌ من

---

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧ .
(٢) في (م): أنه يودّ.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢١٤ .
(٤) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٠٤ .
(٥) النكت والعيون ٥/ ١٥٠ .
(٦) معاني القرآن ٣/ ٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٩ .
(٧) النكت والعيون ٥/ ١٥٠ .

الأنصار: فهلَّا أومأتَ إليَّ يا رسولَ الله؛ فقال: «إنَّ النبيَّ لا تكون له خائنةُ أعين»[١].

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يُجازي من غَضَّ بصرَه عن المحارم، ومَن نظر إليها، ومن عَزَمَ على مُواقعة الفواحش إذا قدر عليها[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأوثان ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ لأنها لا تعلم شيئاً ولا تقدر عليه ولا تملك[٣].

وقراءة العامة بالياء على الخبر على الظالمين، وهي اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وهشام: «تَدْعُونَ» بالتاء[٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «هو» زائدة فاصلة. ويجوز أن تكون في موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبرٌ، والجملة خبر «إن»[٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ في موضع جزم عطف على «يَسِيرُوا»، ويجوز أن يكونَ في موضع نصب على أنه جواب، والجزم والنصب في التثنية والجمع واحد. ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ﴾ اسم كان، والخبر في «كيف». و﴿وَاقٍ﴾ في موضع خَفْض معطوف على اللفظ. ويجوز أن يكون في موضع رَفْع على الموضع، فرفعُه وخَفْضُه واحد؛ لأن الياء تُحذف وتبقى الكسرة دالَّةً عليها[٦]. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في غير موضع، فأغنى عن الإعادة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، والنسائي ٧/ ١٠٥-١٠٦ من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، وعبد الله بن أبي سرح كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم ارتدّ ولحق بالمشركين، فأمر النبي ﷺ يوم فتح مكة بقتله... وأسلم أيام الفتح، وولاّه عثمان رضي الله عنهما مصر، وسلفت قصته ٨/ ٤٥٩ وما بعدها.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٠٣ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٩٥ .

(٤) السبعة ص٥٦٨ ، والتيسير ص١٩١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ وهي التسعُ الآياتُ المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ وقد مضَى تعيينها[١]. ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بِحُجَّة واضحةٍ بينة، وهو يُذكَّر ويُؤنَّث[٢]. وقيل: أراد بالسلطان التوراة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾ خصَّهم بالذِّكر لأن مدارَ التدبير في عداوة موسى كان عليهم[٣]؛ ففرعون الملك وهامان الوزير وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه اللهُ معهما؛ لأن عمله في الكفر والتكذيب كأعمالهما.

﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ لما عَجَزوا عن معارضته حملوا المُعجزات على السِّحر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهي المُعجزة الظاهرة ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ قال قتادة: هذا قَتْلٌ غير القتل الأول؛ لأنَّ فرعون كان قد أَمسك عن قتل الوِلدان وقت[٤] ولادة موسى، فلما بعثَ اللهُ موسى أعاد القتل على بني إسرائيل عقوبةً لهم، فيمتنع الإنسان من الإيمان؛ ولئلا يَكثُرَ جمعُهم فيعتضدوا بالذُّكور من أولادهم، فشغلهم اللهُ عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب،

---

(١) ١٨/ ١٨١ وما بعدها.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٤ ، بنحوه.

(٤) في (م): بعد.

كالضفادع والقُمَّل والدَّم والطُّوفان إلى أن خرجوا من مصر، فأغرقهم الله. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في خُسران وهَلاك، وإن الناسَ لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا فكيده يذهب باطلاً[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ «أَقْتُلْ» جزم؛ لأنه جوابُ الأمر. «وَلْيَدْعُ» جزم؛ لأنه أمر، و«ذَرُونِي» ليس بمجزوم وإن كان أمراً، ولكن لفظُه لفظُ المجزوم، وهو مَبنيّ. وقيل: هذا يدلُّ على أنه قيل لفرعون: إنا نخاف أن يدعوَ عليك فيجاب؛ فقال: «وَلْيَدْعُ رَبَّه»[2] أي: لا يهولنَّكم ما يذكر من ربِّه، فإنه لا حقيقةَ له، وأنا ربُّكم الأعلى.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي: عبادتَكم لي إلى عبادة ربِّه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ إنْ لم يُبدلْ دينكم، فإنه يظهر في الأرض الفساد. أي: يقع بين الناس بسببه الخلاف.

وقراءة المدنيين وأبي عبد الرحمن السُّلَمي وابن عامر وأبي عمرو: «وَأَنْ يُظْهِرَ في الأرْضِ الفَسَادَ»، وقراءة الكوفيين: «أوْ أنْ يَظْهرَ» بفتح الياء «الفَسَادُ» بالرفع[3]، وكذلك هي في مصاحف الكوفيين: «أو» بألف، وإليه يذهب أبو عُبيد؛ قال: لأن فيه زيادَة حرف، وفيه فصل؛ ولأن «أو» تكون بمعنى الواو. النحاس[4]: وهذا عند حُذَّاق النحويين لا يجوز أن تكون بمعنى الواو؛ لأن في ذلك بطلانَ المعاني، ولو جاز أن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٠ بنحوه، وقول قتادة ذكره أيضاً البغوي في تفسيره ٤/ ٩٥ وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢١٥ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١ .

(٣) قرأ نافع أبو عمرو: «وأن يُظْهِرَ»، وقرأ ابن كثير وابن عامر: «وأَنْ يَظْهرَ»، وقرأ عاصم في رواية شعبة وحمزة والكسائي: «أو أنْ يَظْهر»، وقرأ عاصم في رواية حفص: «أَوْ أَنْ يُظْهِرَ». ومن قرأ: «يُظْهِرَ» بضم الياء، قرأ: «الفسادَ» بالنصب، ومن قرأ: «يَظْهر» بفتح الياء، قرأ: «الفسادُ» بالضم. السبعة ص٥٦٩ ، والتيسير ص١٩١ .

(٤) إعراب القرآن ٤/ ٣١ ، وما قبله منه.

تكون بمعنى الواو لما احتيج إلى هذا ها هنا؛ لأن معنى الواو «إنِّي أخَافُ» الأمرين جميعاً، ومعنى «أو» لأحد الأمرين، أي: «إنِّي أخَافُ أن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ» فإن أعوزَه ذلك أظهرَ في الأرض الفساد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ لما هدَّده فرعون بالقتل استعاذ موسى بالله ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: مُتعظِّم عن الإيمان بالله، وصفتُه أنه ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «وَقَالَ رَجُلٌ مؤمِنٌ» ذكر بعض المفسرين: أن اسم هذا الرجل حبيب[(١)]. وقيل: شمعان، بالشين المعجمة. قال السُّهيلي[(٢)]: وهو أصحُّ ما قيل فيه. وفي «تاريخ» الطبري رحمه الله: اسمه خير[(٣)]. وقيل: حزفيل؛ ذكره الثعلبي عن ابن عباس[(٤)] وأكثرِ العلماء. الزمخشري[(٥)]: واسمه سمعان أو حبيب. وقيل: خربيل أو حزبيل.

واختُلف هل كان إسرائيلياً أو قِبْطيّاً، فقال الحسن وغيره: كان قبطياً. ويقال: إنه

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٢ وعزاه لابن إسحاق.

(٢) في التعريف والإعلام ص١٣١ و١٥١ . وعنه نقل المصنف قول الطبري التالي، وهو في تاريخه ١/ ٤٠٧ .

(٣) في (ظ): جبر، والمثبت موافق للتعريف والإعلام، وفي تاريخ الطبري: حبرك، وفي تفسير الطبري ٢٠/ ٣١١ : خبرك.

(٤) في كتب التفسير أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اسم الرجل: حزبيل.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٢٤ .

كان ابنَ عم فرعون؛ قاله السدي. قال: وهو الذي نجا مع موسى عليه السلام؛ ولهذا قال: «مِنْ آلِ فِرعونَ» وهذا الرجُل هو المُرادُ بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ الآية [القصص: ٢٠]. وهذا قول مقاتل. وقال ابن عباس: لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذي أنذر موسى فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[1].

وفي هذا تسليةٌ للنبي ﷺ، أي: لا تَعْجب من مُشركي قومك. وكان هذا الرجل له وَجاهة عند فرعون؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء. وقيل: كان هذا الرجلُ من بني إسرائيل يَكتُم إيمانَه من آل فرعون؛ عن السُّدي أيضاً. ففي الكلام على هذا تقديم وتأخير، والتقدير: وقال رجلٌ مؤمنٌ يَكْتُم إيمانَه من آل فرعون[2].

فمن جعل الرجل قِبطيًّا فـ«من» عنده متعلقة بمحذوف صفة لرجل؛ التقدير: وقال رجلٌ مؤمن منسوبٌ من آل فرعون؛ أي: من أهله وأقاربه. ومن جعله إسرائيليًّا فـ«مِن» مُتعلِّقة بـ«يكتم». في موضع المفعول الثاني لـ«يكتم» القشيري: ومن جعله إسرائيليًّا ففيه بُعْدٌ؛ لأنه يقال: كَتَمه أمر كذا، ولا يقال: كَتَم منه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[3] [النساء: ٤٢] وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثلَ هذا القول.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي: لِأَنْ يقول، ومن أجل «أنْ يقولَ رَبِّيَ اللهُ» فـ «أنْ» في موضع نصب بنزع الخافض.

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ يعني الآيات التسع ﴿مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ ولم يكن ذلك لشكٍّ منه في رسالته وصِدْقه، ولكن تَلطُّفًا في الاستكفاف

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٥٢، وتفسير البغوي ٤/ ٩٦، وزاد المسير ٧/ ٢١٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٦، وتفسير البغوي ٤/ ٩٦ بنحوه.

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٧/ ٥٧.

واستنزالاً عن الأذى[١]. ولو كان و«إنْ يكن» بالنون جاز[٢]، ولكن حُذفت النون لِكَثْرةِ الاستعمال على قول سيبويه؛ ولأنها نونُ الإعراب على قول أبي العباس[٣].

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي: إن لم يُصبكم إلا بعضُ الذي يعدكم، به هَلَكْتُم. ومذهبُ أبي عُبيدة[٤] أن معنى ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ كل الذي يَعِدُكم وأنشد قولَ لبيد:

تَـرَّاكُ أَمِـكِـنَـةٍ إذا لـم أرْضَـهـا ... أو يَرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها[٥]

فبعض بمعنى كلّ[٦]؛ لأن البعضَ إذا أصابهم أصابهم الكلّ لا محالةَ؛ لدخوله في الوعيد، وهذا ترقيق الكلام في الوعظ. وذكر الماوردي[٧]: أن البعض قد يستعمل في موضع الكلّ تلطُّفاً في الخِطاب وتوسُّعاً في الكلام؛ كما قال الشاعر:

قـد يُـدْرِك الـمـتـأنّـي بـعـضَ حَـاجـتِـهِ ... وقد يكون مع المُستعجِلِ الزَّلَلُ[٨]

وقيل أيضاً: قال ذلك لأنه حذَّرهم أنواعاً من العذاب كل نوع منها مُهلِكٌ؛ فكأنه حذَّرهم أن يُصيبهم بعضُ تلك الأنواع. وقيل: وعدَهم موسى بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة إن كفروا؛ فالمعنى: يُصبكم أحدُ العذابين. وقيل: أي: يُصِبْكم هذا العذابُ الذي يقوله في الدنيا وهو بعضُ الوعد[٩]، ثم يترادف العذابُ في الآخرة أيضاً.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٥٣ .

(٢) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١ .

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥ .

(٥) شرح ديوان لبيد ص٣١٣ ، وفيه: يعتلق، بدل: يرتبط.

(٦) قال النحاس في معاني القرآن ٦/ ٢١٦ : وهذا قول مرغوب عنه، لأن فيه بطلان المعاني. وقال الرازي في تفسيره ٢٧/ ٥٨ : والجمهور على أن هذا القول خطأ، قالوا: وأراد لبيد ببعض النفوس نفسه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ١٥٣ .

(٨) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٢٥ .

(٩) في (م): الوعيد.

وقيل: وعدَهم العذابَ إن كفروا والثوابَ إنْ آمنوا، فإذا كفروا يُصيبهم بعضُ ما وُعِدوا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ على نفسه ﴿كَذَّابٌ﴾ على ربِّه، إشارة إلى موسى، ويكون هذا من قول المؤمن. وقيل: «مُسْرِفٌ» في عناده، «كَذَّابٌ» في ادّعائه إشارة إلى فرعون، ويكون هذا من قول الله تعالى(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ قال القاضي أبو بكر بن العربي(٢): ظنَّ بعضُهم أن المُكلَّف إذا كتم إيمانَه ولم يتلفَّظ به بلسانه أنه لا يكون مؤمناً باعتقاده، وقد قال مالك: إن الرجلَ إذا نوى بقلبه طلاقَ زوجته أنه يلزمه، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه. فجعل مدارَ الإيمان على القلب وأنه كذلك، لكن ليس على الإطلاق، وقد بيَّناه في أصول الفقه؛ بما لُبابه أن المُكلَّف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافراً وإن لم يتلفَّظ بلسانه، وأما إذا نوى الإيمانَ بقلبه فلا يكون مؤمناً بحال حتى يتلفظ بلسانه، ولا تمنعه التَّقِيَّةُ والخوف من أن يتلفَّظَ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى، إنما تمنعه التَّقِيَّةُ من أن يسمعه غيره، وليس من شرط الإيمان أن يسمعَه الغيرُ في صحته من التكليف، وإنما يُشترط سماعُ الغير له ليكفَّ عن نفسه وماله.

الرابعة: روى البخاري ومسلم عن عروةَ بن الزبير قال: قلتُ لعبد الله بن عمرو بن العاص: أَخْبِرْني بأشدِّ ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ؛ قال: بينا رسولُ الله ﷺ بِفِنَاء الكعبة، إذ أقبل عقبةُ بن أبي مُعَيط، فأخذ بِمَنْكِبِ رسول الله ﷺ، ولوى ثوبَه في عُنقه فخنقه به خَنْقًا شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بِمَنْكِبِهِ ودفع عن رسول الله ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لفظ البخاري(٣).

خرجه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي ﷺ قال: اجتمعَتْ قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاث، فأرادوا قَتْلَ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٥٣ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٧ .

(٣) الحديث (٤٨١٥)، ولم نقف عليه في صحيح مسلم، وأخرجه أحمد (٦٩٠٨).

رسول الله ﷺ، فأقبل هذا يجؤه وهذا يُتَلتله[١]، فاستغاث النبيُّ ﷺ يومئذ فلم يُغِثه أحدٌ إلا أبو بكر، وله ضفيرتان، فأقبل يَجَأُ ذا ويُتلتل ذا، ويقول بأعلى صوته: ويلكم «أتَقْتُلُونَ رَجُلًا أن يقولَ رَبِّيَ الله» والله، إنه لرسول الله؛ فَقُطِعَتْ إحدى ضفيرتي أبي بكر يومئذ. فقال عليٌّ: والله، لَيوم أبي بكر خيرٌ من مؤمن آل فرعون؛ إنَّ ذلك رجلٌ كَتَمَ إيمانَه، فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا أبو بكر أظهر إيمانَه وبذلَ مالَه ودمَه لله عزّ وجلّ"[٢].

قلت: قول عليّ ﷺ: إن ذلك رجلٌ كَتَم إيمانه يُريد في أول أمره بخلاف الصدّيق، فإنه أَظهر إيمانَه ولم يَكْتُمْه؛ وإلا فالقرآن مُصرِّح بأن مؤمنَ آل فرعون أظهر إيمانه لمَّا أرادوا قَتْلَ موسى عليه السلام على ما يأتي بيانه[٣].

وفي «نوادر الأصول» أيضاً عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالوا لها: ما أشدُّ شيءٍ رأيتِ المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعوداً في المسجد، ويتذاكرون رسولَ الله ﷺ ما يقول في آلهتهم، فبيناهم كذلك إذ دخل رسولُ الله ﷺ، فقاموا إليه بأجمعهم، وكانوا إذا سألوه عن شيء صدَقهم، فقالوا: ألستَ تقول كذا في آلهتنا، قال: «بلى» فَتَشبَّثُوا فيه بأجمعهم فأتى الصَّريخ إلى أبي بكر فقال له: أدرِكْ صاحبَك. فخرج من عندنا وإن له غدائرَ، فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر، فَرَجَعَ إلينا أبو بكر فجعل لا يمسُّ شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام، إكرام إكرام[٤].

---

(١) قوله: يجؤه، أي: يضربه، والتَّلْتلة: التحريك، والإقلاق، والزعزعة. القاموس المحيط (وجأ) و(تلل).

(٢) نوادر الأصول ص٢٤٤ ، وأخرجه البزار في البحر الزخار (٧٦١) بنحوه مطولاً وقال: وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن علي إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

(٣) في الآيات التالية.

(٤) نوادر الأصول ص٢٤٥ ، وأخرجه الحميدي في مسنده (٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ هذا من قول مؤمن آل فرعون، وفي قوله «يا قَوْمِ» دليل على أنه قبطيّ، ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال: «يَا قَوْمِ» ليكونوا أقربَ إلى قَبول وَعْظه «لكم المُلْكُ» فاشكروا الله على ذلك.

﴿ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: غالبين، وهو نصب على الحال[١]، أي: في حال ظُهوركم. والمراد بالأرض أرضُ مصر في قول السدي وغيره؛ كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١] أي: في أرض مصر.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ﴾ أي: من عذاب الله؛ تحذيراً لهم من نِقَمهِ إن كان موسى صادقاً، فذكَّر وحذَّر، فعلم فرعون ظُهور حُجَّته فقال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما أُشير عليكم إلا ما أرى لنفسي ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ في تكذيب موسى والإيمان بي[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ﴾ زادهم في الوعظ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني أيام العذاب التي عُذِّب فيها المتحزِّبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ زاد في الوعظ والتخويف وأفصحَ عن إيمانه، إما مستسلماً مُوَطِّنًا نفسَه على القتل، أو واثقاً بأنهم لا يَقصِدونه

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٥٤.

بسوء، وقد وَقَاهُ الله شرَّهم بقوله الحق ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾. وقراءة العامة ﴿ٱلتَّنَادِ﴾ بتخفيف الدال وهو يوم القيامة؛ قال أمية بن أبي الصَّلت:

وبَثَّ الخَلْق فيها إذْ دَحاها فهم سُكَّانُها حتى التَّناد[1]

سُمِّي بذلك لمناداة الناس بعضَهم بعضاً؛ فينادي أصحابُ الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، ويُنادي أصحابُ الجنة أصحابَ النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ ويُنادي أصحابُ النار أصحابَ الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ويُنادي المنادي أيضاً بالشِّقوة والسعادة: ألا إنَّ فلانَ بن فلان قد شقي شقاوةً لا يسعدُ بعدَها أبداً، ألا إن فلان بن فلان قد سَعِدَ سعادةً لا يشقى بعدَها أبداً. وهذا عند وزن الأعمال. وتُنادي الملائكةُ أصحابَ الجنة: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] ويُنادَى حين يذبح الموت: يا أهلَ الجنة، خلودٌ لا موت، ويا أهلَ النار، خلودٌ لا موت. ويُنادَى كلُّ قوم بإمامهم، إلى غير ذلك من النداء[2].

وقرأ الحسن وابن السَّميفع ويعقوب وابن كثير ومجاهد: «التَّنَادي» بإثبات الياء في الوصل والوقف على الأصل[3]. وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة: «يوم التَّنَادِّ» بتشديد الدال[4]. قال بعضُ أهل العربية: هذا لحنٌ؛ لأنه من نَدَّ يَنِدُّ، إذا مَرَّ على وجهه هارباً؛ كما قال الشاعر:

وبَرْكٍ هُجُودٍ قد أثارتْ مَخَافتي نَوادِيَها أَسْعى بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ[5]

قال: فلا معنى لهذا في القيامة. قال أبو جعفر النحاس[6]: وهذا غلطٌ، والقراءة

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٤ .

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ١٥٤-١٥٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٥٨ ، وتفسير الرازي ٢٧/ ٦١ .

(٣) قراءة ابن كثير في التيسير ص١٩٢ ، وقراءة يعقوب من العشرة في النشر ٢/ ٣٦٦ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٢ ، والمحتسب ٢/ ٢٤٣ .

(٥) قائله طرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٣٧ ، وفيه: بواديها أمشي، بدل: نواديها أسعى. وقوله: بَرْك: أي: جماعة الإبل الباركة، وهجود: جمع هاجد، وهو النائم. والعَضْب: السيف القاطع. اللسان (برك) و(هجد) و(عضب).

(٦) في معاني القرآن ٦/ ٢٢٠ ، وما قبله منه.

بها حسنةٌ على معنى يوم التنافر.

قال الضحاك: ذلك إذا سَمِعوا زفيرَ جهنم نَدُّوا هرباً، فلا يأتون قِطْراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة، فيرجِعون إلى المكان الذي كانوا فيه[(١)]؛ فذلك قوله: «يَوْمَ التَّنَادِ»، وقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الرحمن: ٣٣]، وقوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الحاقة: ١٧] ذكره ابن المبارك بمعناه؛ قال: وأخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: حدّثنا عبد الجبار بن عُبيد الله بن سلمان في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۞ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ ثم تستجيبُ لهم أعينُهم بالدَّمع فيبكون حتى يَنْفَدَ الدَّمع، ثم تستجيبُ لهم أعينُهم بالدَّم فيبكون حتى يَنْفَدَ الدم، ثم تستجيب لهم أعينُهم بالقَيْح. قال: يُرسَل عليهم من الله أمرٌ، فَيُوَلُّون مُدْبرين، ثم تستجيبُ لهم أعينهم بالقيح، فيبكون حتى يَنْفَدَ القيح، فتغورُ أعينُهم كالخَرْق في الطين.

وقيل: إن هذا يكون عند نَفْخِ إسرافيلَ عليه السلام في الصُّور نَفْخةَ الفَزَع[(٢)].

ذكره علي بن مَعْبد والطبري وغيرهما من حديث أبي هريرة، وفيه: «فتكون الأرضُ كالسفينة في البحر تَضْرِبها الأمواجُ، فيميدُ الناسُ على ظَهْرها وتَذْهَلُ المراضعُ، وتضعُ الحواملُ ما في بطونها، وتشيبُ الوِلدانُ، وتتطاير الشياطين هاربةً، فتلقاها الملائكةُ تضربُ وجوهَها، ويُوَلِّي الناس مُدبرين يُنادي بعضُهم بعضاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۞ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الحديثَ بكماله[(٣)]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[(٤)] وتكلَّمنا عليه هناك.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٢٠.

(٢) الزهد لابن المبارك (زوائد نعيم) (٣٥٦).

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٣١٧. وهو حديث طويل أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦) وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٨٢-٢٨٧ بطوله، ثم قال: هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة.

(٤) ص١٧٣ و١٩٣.

وروى عليّ[١] بن نصر عن أبي عمرو إسكانَ الدال من «التّناد» في الوصل خاصة. وروى أبو معمر عن عبد الوارث[٢] زيادةَ الياء في الوصل خاصة، وهو مذهبُ ورش. والمشهور عن أبي عمرو حَذْفُها في الحالين. وكذلك قرأ سائرُ السبعة سوى ورش على ما ذكرنا عنه، وسوى ابن كثير على ما تقدَّم[٣].

وقيل: سُمِّي يومُ القيامة يومَ التَّناد؛ لأن الكافرَ ينادي فيه بالويل والثُّبور والحَسْرة. قاله ابن جريج[٤]. وقيل: فيه إضمارٌ، أي: إني أخافُ عليكم عذابَ يوم التناد؛ فالله أعلم.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ على البدل من «يوم التَّناد»[٥].

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: مَن خَلَق اللهُ في قلبه الضَّلالَ فلا هاديَ له. وفي قائله قولان: أحدُهما: موسى. الثاني: مؤمن آل فرعون[٦]، وهو الأظهرُ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قيل: إنَّ هذا من قول موسى. وقيل: هو من تَمام وعظ مؤمن آل فرعون؛ ذَكَّرهم قديمَ عُتُوِّهم على الأنبياء؛

---

(١) في (م): عن علي.

(٢) كذا في النسخ: عن عبد الوارث، ولعله يريد: عبد الوارث عن أبي عمرو.

(٣) التيسير ص١٩٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٥٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٥٥ .

وأراد: يوسفُ بن يعقوب جاءهم بالبينات: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[١] [يوسف: ٣٩]. قال ابن جُريج: هو يوسفُ بن يعقوب بعثه الله تعالى رسولاً إلى القِبط بعد موت الملك من قَبْلِ موسى بالبينات؛ وهي الرؤيا[٢]. وقال ابن عباس: هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيّاً عشرين سنة[٣]. وحكى النقاش عن الضحاك: إن الله تعالى بعثَ إليهم رسولاً من الجن يقال له: يوسف[٤].

وقال وهب بن منبِّه: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عُمِّر. وغيره يقول: هو آخر.

النحاس[٥]: وليس في الآية ما يدلُّ على أنه هو؛ لأنه إذا أتى بالبينات نبيٌّ لمن معه ولمن بعده فقد جاءهم جميعاً بها، وعليهم أن يُصدِّقوه بها.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي: أسلافكم كانوا في شكٍّ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أي: مَن يدَّعي الرسالة ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أي: مثل ذلك الضَّلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مُشرِكٌ ﴿مُّرْتَابٌ﴾ شاكٌّ في وحدانية الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حُجَجِهِ الظاهرة ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي: بغير حُجَّة وبرهان، و«الذين» في موضع نَصْب على البدل من «مَنْ»، وقال الزجاج[٦]: أي: كذلك يُضِلُّ الله الذين يُجادلون في آيات الله فـ«الذين» نصب.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٩٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٥٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٢٦ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٥٥. قال ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٢١ هو يوسف بن يعقوب، ويقال: إنه ليس به، وليس بشيء.

(٥) إعراب القرآن ٤/ ٣٣.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٣، وما قبله منه.

قال: ويجوز أن يكون رَفْعًا على معنى: هم الذين، أو على الابتداء، والخبر ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾.

ثم قيل: هذا من كلام مؤمن آل فرعون. وقيل: ابتداء خطاب من الله تعالى. «مَقْتًا» على البيان، أي: «كَبُرَ» جِدالهم «مَقْتًا»؛ كقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾[1] [الكهف: ٥] ومَقْتُ الله تعالى ذَمُّه لهم ولَعْنُه إيَّاهم وإحلالُ العذاب بهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبعَ الله على قلوب هؤلاء المُجادلين، فكذلك ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ أي: يَخْتِمُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ حتى لا يعقل الرَّشاد، ولا يقبلَ الحقَّ.

وقراءة العامة: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ بإضافة قلب إلى المتكبر، واختاره أبو حاتم وأبو عُبيد.

وفي الكلام حذف، والمعنى: «كذلكَ يَطْبَعُ اللهُ على كُلِّ قَلْبِ» على كل «مُتَكبِّرٍ جَبَّارٍ» فحذف «كُلّ» الثانية لِتقدُّم ما يدلُّ عليها. وإذا لم يُقدَّر حذفُ «كلّ» لم يستقم المعنى؛ لأنه يصير معناه: أنه يطبعُ على جميع قلبه، وليس المعنى عليه. وإنما المعنى أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلباً قلباً. ومما يدلُّ على حذف «كُلّ» قول أبي دُؤَاد:

أكُـلَّ امـرِئٍ تَـحْـسَـبِـيـن امـرأً ... ونـارٍ تَـوَقَّـدُ بـالـلَّـيـل نـارا[2]

يريد: وكلّ نارٍ. وفي قراءة ابن مسعود: «على قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ»[3] فهذه قراءةٌ على التفسير والإضافة. وقرأ أبو عمرو وابن مُحيصن وابن ذكوان عن أهل الشام: «قلبٍ» مُنَوَّن[4] على أن «متكبرٍ» نعت للقلب، فكَنَى بالقلب عن الجُملة؛ لأن القلب هو الذي يتكبَّر، وسائرُ الأعضاء تَبَعٌ له؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ في الجسد مُضغةً إذا صَلَحَتْ

(١) إعراب القرآن ٤/ ٣٣، بنحوه.

(٢) البيت في الكتاب ١/ ٦٦، والحجة للفارسي ٦/ ١١٠-١١١ والكلام الذي قبله فيه بنحوه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢.

(٤) السبعة ص٥٧٠، والتيسير ص١٩١. وينظر الحجة للفارسي ٦/ ١٠٩-١١٠.

صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسدَت فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[١] ويجوز أن يكون على حذف المضاف؛ أي: على كل ذي قلب مُتكبِّر؛ تجعلُ الصفةَ لصاحب القلب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ لما قال مؤمنُ آل فرعون ما قال، وخاف فرعونُ أن يتمكَّن كلامُ هذا المؤمن في قلوب القوم، أَوْ هَمَ أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فإنْ بانَ له صوابُه لم يُخفِه عنهم، وإن لم يَصِحَّ ثَبَّتَهُمْ على دينهم؛ فأمر وزيره هامان ببناء الصَّرح. وقد مضى في «القصص» ذكره[٢].

﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ . أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ «أسْبابَ السَّمواتِ» بدل من الأوَل. وأسبابُ السماء أبوابُها في قول قتادة والزهري والسُّدِّي والأخفش؛ وأنشد:

ومَنْ هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ولو رامَ أسْبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ[٣]

وقال أبو صالح: أسباب السماوات طُرقها[٤]. وقيل: الأمور التي تستمسك بها السماوات. وكرَّر «أسباب» تفخيماً؛ لأن الشيء إذا أُبهم ثم أُوضح كان تفخيماً لشأنه[٥]. والله أعلم.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ فأنظرَ إليه نظرَ مُشْرِفٍ عليه. تَوهَّم أنه جسمٌ تحويه الأماكن. وكان فرعون يدَّعي الأُلوهية، ويرى تحقيقها بالجلوس في مكان مُشرِف.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بَشير ﷺ، وسلف ١/ ٢٨٧.

(٢) ١٣/ ٢٨٨.

(٣) قائله زهير، وهو في شرح ديوانه ص٣٠، والبيت من معلقته، ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص٨٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٥٦. والبيت وما قبله منه.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٢٨.

وقراءة العامة: «فَأَطَّلِعُ» بالرفع نسقاً على قوله: «أَبْلُغُ»، وقرأ الأعرج والسُّلَمي وعيسى وحفص: «فَأَطَّلِعَ» بالنصب(١)؛ قال أبو عُبيد(٢): على جواب «العل» بالفاء. النحاس: ومعنى النصب خلافُ معنى الرفع؛ لأن معنى النصب: متى بلغتُ الأسباب اطَّلعتُ. ومعنى الرفع لعلّي أبلغُ الأسبابَ، ثم لَعلّي أَطَّلِعُ بعد ذلك؛ إلا أن ثم أشدُّ تراخياً من الفاء.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ أي: وإني لأظن موسى كاذباً في ادّعائه إلهاً دوني، وإنما أفعلُ ما أفعلُ لإزاحةِ العِلَّة. وهذا يوجب شكَّ فرعون في أمر الله. وقيل: إن الظن بمعنى اليقين، أي: وأنا أتيقَّن أنه كاذب، وإنما أقولُ ما أقولُه لإزالة الشُّبهة عمن لا يَتيقَّن(٣) ما أتيقَّنه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: كما قال هذه المَقالة وارتابَ زَيَّن له الشيطانُ، أو زَيَّن الله سوءَ عمله، أي: الشرك والتكذيب.

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ قراءة الكوفيين «وصُدَّ» على ما لم يُسمَّ فاعلُه(٤)، وهو اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم. ويجوز على هذه القراءة «وَصِدَّ» بكسر الصاد، نُقلت كسرة الدال(٥) على الصاد؛ وهي قراءة يحيى بن وثَّاب(٦) وعلقمة. وقرأ ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن بن أبي بَكْرة «وَصَدٌّ عَنِ السَّبِيلِ» بالرفع والتنوين(٧). الباقون «وَصَدَّ» بفتح الصاد والدال. أي: صدَّ فرعونُ الناسَ عن السبيل.

---

(١) السبعة ص٥٧٠ ، والتيسر ص١٩٢ .

(٢) في (م): أبو عبيدة، والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣ ، والكلام منه.

(٣) في (م): أتيقن.

(٤) السبعة ص٥٧١ ، والتيسير ص١٣٣ .

(٥) يعني الدال الأولى من «صُدَّ». والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣ ، وينظر الدر المصون ٩/ ٤٨٣ .

(٦) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٦٦ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣-٣٤ . وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠ .

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: في خُسران وضلال، ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[١] [المسد: ١] وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] وفي موضع ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣] فهدّ الله صرحه، وغرَّقه هو وقومه على ما تقدّم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾ هذا من تمام ما قاله مؤمنُ آل فرعون؛ أي: اقتدوا بي في الدين، ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي: طريقَ الهُدى، وهو الجنة. وقيل: من قول موسى[٣].

وقرأ معاذ بن جبل: «الرَّشَّادِ» بتشديد الشين[٤]، وهو لحنٌ عند أكثر أهل العربية؛ لأنه إنما يقال: أرشد يُرشد، ولا يكون فَعَّال من أفعل، إنما يكون من الثلاثي، فإن أردتَ التكثيرَ من الرُّباعي قلت: مِفْعال. قال النحاس[٥]: يجوز أن يكون رَشَّاد بمعنى

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠ .

(٢) ١٣/ ٢٨٨ وما بعدها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠ ، وزاد المسير ٧/ ٢٢٤ بنحوه.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٢ ، والمحتسب ٢/ ٢٤١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢١٨-٢١٩ وما قبله منه.

يُرشد لا على أنه مشتقٌّ منه، ولكن كما يقال: لَأّال من اللؤلؤ. فهو بمعناه، وليس جارياً عليه، ويجوز أن يكون رشَّاد من رَشَدَ يَرشُدُ، أي: صاحب رشاد؛ كما قال:

كـلـيـنـي لِـهَـمٍّ يـا أمَـيْـمَـةَ نـاصِـبِ[1]

الزمخشري[2]: وقُرئ: «الرَّشَّادِ» فَعَّال من رَشِد[3] ـ بالكسر ـ كعَلَّام، أو من رَشَد بالفتح، كعبَّاد. وقيل: من أرشد كجبَّار من أجبر، وليس بذاك؛ لأن فعَّالاً من أفعل لم يجئ إلا في عدّة أحرف: نحو درَّاك وسأَّرٍ وقصَّار وجَبَّار. ولا يصحُّ القياس على هذا القليل. ويجوز أن يكون نسبته إلى الرشد، كعَوَّاج وبتّات[4] غير منظور فيه إلى فعل.

ووقع في المصحف «اتَّبِعْونِ» بغير ياء، وقرأها يعقوب وابن كثير بالإثبات في الوصل والوقف. وحَذَفَها أبو عمرو ونافع[5] في الوقف، وأثبتوها في الوصل، إلا وَرْشًا حذفها في الحالتين، وكذلك الباقون[6]؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء، ومَن أثبتها فعلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: يُتَمَتَّع بها قليلاً، ثم تنقطع وتزول. ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي: الاستقرار والخُلود. ومُراده بالدار الآخرة الجنة والنار، لأنهما لا يَفنيان. بيَّن ذلك بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ يعني: الشِّرك ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو العذاب[7]. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال ابن عباس:

---

(١) قائله النابغة الذبياني وهو في ديوانه ص٩، وعجزه: وليلٍ أُقاسيه بطيءِ الكواكبِ.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٢٥.

(٣) في النسخ الخطية: أرشد، والمثبت من (م)، وهو الموافق للكشاف.

(٤) العوَّاج: بائع العاج. والبتَّات: بائع البتّ، وهو الطيلسان من خزّ ونحوه. القاموس المحيط (عوج) و(بتت).

(٥) يعني في رواية قالون.

(٦) السبعة ص٥٧٣، والتيسير ص١٨٢، والنشر ٢/ ٣٦٦.

(٧) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٢٩-٣٣٠ بنحوه.

يعني لا إله إلا الله[١]. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مُصَدِّق بقلبه لله وللأنبياء.

﴿فأُولئكَ يُدْخَلُونَ الجنَّةَ﴾ بضمِّ الياء على ما لم يُسَمَّ فاعلُه. وهي قراءةُ ابن كثير وابن مُحَيْصن وأبي عمرو ويعقوب وأبي بكر عن عاصم[٢]، يدلُّ عليه ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الباقون: «يَدْخُلونَ» بفتح الياء.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ أي: إلى طريق الإيمان المُوصل إلى الجنان ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بيَّن أن ما قال فرعون من قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سبيل الغيّ عاقبته النار، وكانوا دَعَوْه إلى اتّباعه؛ ولهذا قال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهو فرعون ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾ تقدَّم الكلامُ فيه[٣]، ومعناه: حقًّا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ «ما» بمعنى الذي[٤] ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ قال الزجاج[٥]: ليس له استجابةُ دعوة تنفع؛ وقال غيره: ليس له دعوةٌ تُوجب له الألوهية ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾.

وقال الكلبي: ليس له شفاعةٌ في الدنيا ولا في الآخرة[٦]. وكان فرعون أولًا يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ثم دعاهم إلى عبادة البقر، فكانت تُعبَدُ ما كانت شابَّة، فإذا هَرِمت أَمر بِذَبْحها، ثم دعا بأُخرى لِتُعبد، ثم لما طال عليه الزمان قال: أنا ربُّكم الأعلى.

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ قال قتادة وابن سيرين: يعني المشركين.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٢٢٤ دون نسبة.

(٢) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة. السبعة ص٥٧١، والتيسير ص٩٧، والنشر ٢/ ٢٥٢.

(٣) ١١/ ٩٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦١.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٦. ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٤، وما بعده منه.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٥٨.

وقال مجاهد والشعبي: هم السفهاءُ السفَّاكون للدِّماء بغير حقِّها[١]. وقال عكرمة: الجبَّارون والمُتكبِّرون. وقيل: هم الذين تعدَّوا حُدودَ الله. وهذا جامعٌ لما ذُكر.

و«أنَّ» في المواضع في موضع نصب بإسقاط حرف الجر. وعلى ما حكاه سيبويه عن الخليل من أن «لَا جَرَمَ» ردٌّ لكلام يجوز أن يكون موضعُ «أنَّ» رفعاً على تقدير: وجب أن ما تدعونني إليه، كأنه قال: وجب بُطلانُ ما تدعونني إليه، والمَردُّ إلى الله، وكون المسرفين هم أصحاب النار[٢].

قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ تهديد ووعيد، و«ما» يجوز أن تكون بمعنى الذي، أي: الذي أقولُه لكم. ويجوز أن تكون مصدريةً، أي: فستذكرون قولي لكم إذا حلَّ بكم العذاب. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أتوكَّل عليه وأُسَلِّم أمري إليه. وقيل: هذا يدلُّ على أنهم أرادوا قَتْلَه. وقال مقاتل: هربَ هذا المؤمنُ إلى الجبل فلم يقدروا عليه. وقد قيل: القائل موسى[٣]. والأظهرُ أنه مؤمن آل فرعون، وهو قول ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي: من إلحاق أنواعِ العذاب به، فطلبوه فما وجدوه؛ لأنه فَوَّضَ أمرَه إلى الله. قال قتادة: كان قبطيًّا فنجَّاه الله مع بني إسرائيل[٤]. فالهاء على هذا لمؤمن آل فرعون. وقيل: إنها لموسى على ما تقدَّم من الخِلاف.

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٨ دون ذكر ابن سيرين، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٣٤ .

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦١ ، وينظر ما سلف ١١/ ٩٤ .

(٣) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ١٥٩ دون ذكر مقاتل.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٩٩ .

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ قال الكسائي: يقال: حاق يَحِيقُ حَيْقاً وحُيُوقاً؛ إذا نزل ولزم[1]. ثم بيَّن العذاب فقال: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وفيه ستةُ أوجه: يكون رفعاً على البدل من «سُوءُ». ويجوز أن يكون بمعنى هو النار. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء. وقال الفراء[2]: يكون مرفوعاً بالعائد على معنى: النار عليها يُعرَضون، فهذه أربعةُ أوجه في الرفع، وأجاز الفراء النصب؛ لأن بعدها عائداً وقبلَها ما يتَّصل به، وأجاز الأخفشُ[3] الخفضَ على البدل من «العَذَابِ». والجمهور على أن هذا العَرْضَ في البرزخ.

واحتجَّ بعضُ أهل العلم في تثبيت عذاب القبر بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ما دامت الدنيا[4]. كذلك قال مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال: هذه الآية تدلُّ على عذاب القبر في الدنيا، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وفي الحديث عن ابن مسعود: إن أرواحَ آل فرعون ومَن كان مِثْلَهم من الكفار تُعرَض على النار بالغَداة والعَشِيّ، فيقال: هذه دارُكم[5]. وعنه أيضاً: إنّ أرواحَهم في أجواف طير سُود تغدو على جهنم وتروح كلَّ يوم مرتين، فذلك عَرضُها[6].

وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال: سمعتُ ميمون بن مَيْسرة[7] يقول: كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي: أصبحنا والحمدُ لله، وعُرِضَ آلُ فرعون على النار. فإذا أمسى

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٤ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٤-٣٥ وما قبله منه.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٧ .

(٤) تفسير الرازي ٢٧/ ٧٣ بنحوه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٥ ، وينظر التعليق التالي.

(٦) هذا الأثر والذي قبله واحد، أخرجه ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٤٨ .

(٧) غيَّرها محققوا (م) إلى مهران، وهو خطأ.

نادى: أمسينا والحمد لله، وعُرِض آلُ فرعون على النار؛ فلا يسمع أبا هريرة أحدٌ إلا تعوَّذ بالله من النار[(١)].

وفي حديث صخر بن جُوَيْرية عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن الكافر إذا مات عُرِضَ على النار بالغَداة والعَشِيّ، ثم تلا: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وإن المؤمنَ إذا مات عُرِضَ روحه على الجنة بالغَدَاة والعَشِيّ»[(٢)].

وخرَّج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقْعده بالغَداة والعشيّ، إنْ كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهلِ النار فمن أهلِ النار فيقال: هذا مَقْعدُك حتى يبعثكَ الله إليه يومَ القيامة»[(٣)].

قال الفراء[(٤)]: في الغَداة والعشِيّ بمقادير ذلك في الدنيا. وهو قول مجاهد. قال: «غُدُوًّا وَعَشِيًّا» قال: من أيام الدنيا[(٥)].

وقال حماد بن محمد الفزاريّ: قال رجلٌ للأوزاعي، رأينا طيوراً تخرجُ من البحر تأخذُ ناحية الغرب، بيضاً صِغاراً، فَوْجاً فَوْجاً لا يعلم عددَها إلا الله، فإذا كان العشاء رَجَعتْ مثلَها سوداً. قال: تلك الطيورُ في حواصلها أرواحُ آل فرعون، يُعرضون على النار غُدوًّا وعَشِيًّا، فترجع إلى أوكارها وقد احترقت رِياشُها وصارت سوداً، فينبتُ عليها من الليل رياشها بيضاً وتتناثر السود، ثم تغدو فتُعرض على النار غُدوًّا وعشيًّا، ثم ترجع إلى وَكْرها، فذلك دَأْبها ما كانت في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو الهاوية. قال

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٠٠).

(٢) ذكره بهذا الإسناد وهذا اللفظ النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٥، وعنه نقله المصنف، ولم نقف عليه بهذا السياق عند غيره، وينظر الحديث التالي.

(٣) صحيح البخاري (١٣٧٩)، وصحيح مسلم (٢٨٦٦)، وأخرجه أحمد (٥٩٢٦).

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٥.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٢٩، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٥٦٦، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٣٣٩ ولفظه: يعني: ما كانت الدنيا.

الأوزاعي: فبلغنا أنهم ألفا ألفٍ وستُّ مئة ألف[١].

و«غُدُوًّا» مصدر جُعل ظرفاً على السعة. وَ«عَشِيًّا» عطف عليه وتم الكلام. ثم تبتدئ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ على أن تنصبَ يوماً بقوله: «أَدْخِلوا» ويجوز أن يكون منصوباً بـ«يُعْرَضُونَ» على معنى «يُعْرَضُونَ» على النار في الدنيا «ويومَ تَقُومُ الساعةُ» فلا يُوقف عليه[٢].

وقرأ نافع وأهل المدينة وحمزة والكسائي: «أَدْخِلُوا» بقطع الألف وكسر الخاء من أدخل[٣]، وهي اختيار أبي عُبيد؛ أي: يأمر الله الملائكةَ أن يُدخلوهم، ودليلُه «النَّار يُعْرَضُونَ عليها». الباقون: «ادخُلُوا» بوصل الألف وضمّ الخاء من دخل، أي: يقال لهم: «ادْخُلُوا» يا «آل فرعونَ أَشَدَّ العذابِ» وهو اختيار أبي حاتم. قال: في القراءة الأولى: «آل» مفعولٌ أول و«أَشَدَّ» مفعولٌ ثانٍ بحذف الجر، وفي القراءة الثانية منصوب؛ لأنه نداء مضاف[٤].

وآل فرعون: مَنْ كان على دينه وعلى مذهبه، وإذا كان من كان على دينه ومذهبه في أشدّ العذاب كان هو أقربَ إلى ذلك. وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إنَّ العبدَ يُولَدُ مؤمناً، ويحيا مؤمناً، ويموت مؤمناً؛ منهم يحيى بن زكريا عليهما السلام، وُلِدَ مؤمناً، وحيي مؤمناً، ومات مؤمناً، وإنَّ العبدَ يُولَدُ كافراً، ويحيا كافراً، ويموت كافراً؛ منهم فرعون، وُلِدَ كافراً، وحيي كافراً، ومات كافراً» ذكره النحاس[٥].

وجعل الفرَّاء في الآية تقديماً وتأخيراً مجازه: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ فجعل العرضَ في الآخرة، وهو خِلافُ

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٣٨ . وفيه: إنهم ست مئة ألف مقاتل.
(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٥ ، وينظر الدر المصون ٩/ ٤٨٥ .
(٣) وقرأ بها عاصم في رواية حفص، السبعة ص٥٧٢ ، والتيسير ص١٩٢ ، والنشر ٢/ ٣٦٥ .
(٤) الحجة للفارسي ٦/ ١١٣ بنحوه.
(٥) في إعراب القرآن ٤/ ٣٥ ، وما قبله منه. والحديث أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس ﷺ كما في الدر المنثور ٦/ ٢٢٧ وليس فيه ذكر يحيى عليه السلام ولا فرعون.

ما ذهب إليه الجمهور من انتظام الكلام على سياقه على ما تقدَّم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: يختصمون فيها ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ عن الانقياد لِلأَنْبِياءِ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ فيما دعوتمونا إليه من الشِّرك في الدنيا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أي: مُتَحمِّلون ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: جزءاً من العذاب. والتَّبَعُ يكون واحداً، ويكون جمعاً في قول البصريين، واحدُه تابع. وقال أهلُ الكوفة: هو جمعٌ لا واحدَ له كالمصدر، فلذلك لم يُجمع، ولو جُمع لقيل: أتباع[1].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي: في جهنم. قال الأخفش[2]: «كُلٌّ» مرفوعٌ بالابتداء. وأجاز الكسائي والفراء[3] «إنَّا كُلًّا فيها» بالنصب على النعت والتأكيد للمضمر في «إنَّا»، وكذلك قرأ ابن السَّمَيْفَع وعيسى بن عمر[4]. والكوفيون يُسمُّون التأكيد نعتًا. ومنع ذلك سيبويه؛ قال: لأن «كُلًّا» لا تُنعت ولا يُنعت بها. ولا يجوز البدلُ فيه؛ لأن المُخبر عن نفسه لا يُبدل منه غيره، وقال معناه المبرد، قال: لا

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٠٠ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦ .

(٢) في معاني القرآن ١/ ٦٧٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٦ ، وما بعده منه.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ١٠ .

(٤) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٦٩ .

يجوز أن يُبدل من المُضمر هنا؛ لأنه مُخاطَب، ولا يُبدل من المُخاطَب ولا من المُخاطِب؛ لأنهما لا يُشكلان فَيُبدَل منهما؛ هذا نصُّ كلامه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي: لا يُؤاخِذُ أحداً بذنب غيره؛ فكلٌّ منّا كافر[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ من الأمم الكافرة. ومن العرب من يقول: اللذون على أنه جمعٌ مُسلَّم مُعرب، ومن قال: «الذين» في الرفع بَنَاه كما كان في الواحد مَبْنيًّا. وقال الأخفش: ضُمَّت النون إلى الذي فأشبه خمسةَ عشرَ، فَبُنيَ على الفتح. ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ خزنة جمع خازن، ويقال: خُزَّان وخُزَّن. ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ «يُخفِّفْ» جواب مجزوم، وإن كان بالفاء كان منصوباً، إلا أن الأكثرَ في كلام العرب في جواب الأمر وما أشبهه أن يكون بغير فاء، وعلى هذا جاء القرآن بأفصح اللُّغات كما قال:

قِفا نَبْكِ مِن ذِكْرى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ[٢]

قال محمد بن كعب القُرَظي: بلغني ـ أو ذُكِرَ لي ـ أن أهلَ النار استغاثوا بالخَزَنةِ؛ فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فسألوا يوماً واحداً يُخفَّف عنهم فيه العذابُ فَرُدَّت عليهم ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ الخبر بطوله[٣].

وفي الحديث عن أبي الدرداء ـ خرجه الترمذي وغيره ـ قال: يُلقى على أهل النار الجوع حتى يَعْدِلَ ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون منه فَيُغاثون بالضَّريع لا يُسمن ولا يُغني من جوع، فيأكلونه لا يُغني عنهم شيئاً، فيستغيثون فَيُغاثون بطعام ذي غُصَّة،

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٦ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/٣٦-٣٧، والبيت لامرئ القيس، وهو من معلقته، وسلف ١٠/ ٣٦٤.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠.

فَيغَصُّون به، فيذكرون أنهم كانوا في الدنيا يُجيزون الغَصَص بالماء، فيستغيثون بالشَّراب فَيُرفَعُ لهم الحميم بالكلاليب، فإذا دنا من وجوههم شواها، فإذا وقع في بطونهم قطَّع أمعاءهم وما في بطونهم، فيستغيثون بالملائكة يقولون: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فيُجيبونهم ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[(١)] أي: خسار وتَبار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾، ويجوز حذفُ الضَّمة لِثقلِها، فيقال: «رُسْلنَا» والمراد موسى عليه السلام. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في موضع نصب عطف على الرُّسل[(٢)]، والمراد المؤمن الذي وعظ. وقيل: هو عامٌّ في الرُّسل والمؤمنين. ونَصْرهم بإعلاء الحُجج وإفلاحها في قول أبي العالية. وقيل: بالانتقام من أعدائهم. قال السدي: ما قَتَل قومٌ قطُّ نبيًّا أو قوماً من دُعاة الحقِّ من المؤمنين إلا بعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ من ينتقم لهم، فصاروا منصورين فيها وإن قُتِلوا[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ يعني: يومَ القيامة. قال زيد بن أسلم: «الأشْهادُ» أربعة: الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد[(٤)]. وقال مجاهد والسدي: «الأشْهادُ» الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ، وعلى الأُمم بالتكذيب. وقال قتادة:

---

(١) نقله المصنف بهذا اللفظ من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧، وأخرجه الترمذي (٢٥٨٦) بنحوه وقال: إنما نعرف هذا الحديث..... عن أبي الدرداء قوله، وليس بمرفوع.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٧.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٦٠.

(٤) في النسخ الخطية: الأشهاد، والمثبت من (م).

الملائكةُ والأنبياء[١].

ثم قيل: «الأَشْهَادُ» جمع شهيد مثل شريف وأشراف[٢]. وقال الزجاج[٣]: «الأَشْهَادُ» جمع شاهد، مثل صاحب وأصحاب. النحاس[٤]: ليس باب فاعل أن يُجمع على أفعال، ولا يُقاس عليه، ولكن ما جاء منه مسموعاً أُدِّيَ كما سُمع، وكان على حذف الزائد. وأجاز الأخفش والفراء: «وَيَوْمَ تَقُومُ الأَشْهَادُ» بالتاء على تأنيث الجماعة[٥].

وفي الحديث عن أبي الدرداء ـ وبعض المُحدِّثين يقول عن النبي ﷺ ـ قال: «من ردَّ عن عِرْض أخيه المسلم كان حقًّا على الله عزَّ وجلَّ أن يَرُدَّ عنه نارَ جهنم، ثم تلا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾»[٦]. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَن حمى مؤمناً مِن منافق يغتابُه بعثَ اللهُ عزّ وجلّ يومَ القيامة مَلَكاً يحميه من النار. ومَن ذَكَر مسلماً بشيء يَشِينه به وَقَفَهُ اللهُ عزّ وجلّ على جسرٍ من جهنم حتى يخرجَ مما قال»[٧].

﴿يَوْمَ﴾ بدل من «يوم» الأول[٨]. ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ قرأ نافع والكوفيون: «يَنْفَعُ» بالياء. الباقون بالتاء[٩]. ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ «اللَّعنةُ»

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٦٠-١٦١ ، وقولا مجاهد وقتادة أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٤٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ٣٨ . وقول الزجاج الذي قبله عنه.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٧٩ ، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ١٠ ، و«تقوم» بالتاء؛ قرأ بها ابن هرمز وإسماعيل، كما في البحر المحيط ٧/ ٤٧٠ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٥٣٦) مرفوعاً، وأشار إلى الموقوف أبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٧) أخرجه أحمد (١٥٦٤٩)، وأبو داود (٤٨٨٣) من حديث معاذ بن أنس الجهني ﷺ، وفي إسناده إسماعيل بن يحيى المعافري، قال الذهبي في الميزان ١/ ٢٥٤ : فيه جهالة، وذكر هذا الحديث من غرائبه. وهذا الحديث والذي قبله نقلهما المصنف من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٨ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤ .

(٩) السبعة ص٥٧٣ ، والتيسير ص١٩٢ .

البُعد من رحمة الله، و«سُوءُ الدَّارِ» جهنم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ هذا دخل في نُصرة الرُّسل في الدنيا والآخرة، أي: آتيناه التوراة والنبوة. وسُمِّيت التوراة هدًى بما فيها من الهُدى والنور؛ وفي التنزيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة جعلناها لهم ميراثاً. ﴿هُدًى﴾ بدل من «الكتاب»، ويجوز بمعنى هو هُدًى؛ يعني ذلك الكتاب. ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: موعظة لأصحاب العقول.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: فاصبِرْ يا محمد على أذى المشركين. كما صبر مَن قبلك ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بنصرك وإظهارك، كما نصرتُ موسى وبني إسرائيل. وقال الكلبي: نُسِخَ هذا بآية السيف[1].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ قيل: لذنب أُمَّتك، حُذف المُضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه. وقيل: لذنب نَفْسِكَ على من يُجَوِّز الصغائر على الأنبياء[2]. ومَن قال: لا تجوز قال: هذا تعبُّد للنبي عليه الصلاة والسلام بالدعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ [آل عمران: ١٩٤] والفائدة زيادةُ الدرجات، وأن يصيرَ الدعاءُ سنةً لمن

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٠١.

(٢) تفسير الرزاي ٢٧/ ٧٧-٧٨ بنحوه.

بعده(١). وقيل: فاستغفر الله من ذنب صَدَرَ منك قبلَ النبوة.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ يعني صلاة الفجر وصلاةَ العصر؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: هي صلاةٌ كانت بمكة قبل أن تُفرضَ الصلواتُ الخمس؛ ركعتان غُدْوة وركعتان عشيّة. عن الحسن أيضاً، ذكره الماوردي(٢). فيكون هذا مما نُسخ والله أعلم.

وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ بالشُّكر له والثناء عليه. وقيل: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: استدم التسبيحَ في الصلاة وخارجاً منها لِتشتغلَ بذلك عن استعجال النصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ يُخاصِمون ﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حُجَّة ﴿أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ قال الزجاج(٣): المعنى: ما في صدورهم إلا كِبْرٌ ما هم ببالغي إرادتهم فيه. قدَّره على الحذف. وقال غيره: المعنى: ما هم ببالغي الكِبْر، على غير حذف؛ لأن هؤلاء قومٌ رأَوْا أنهم إن اتَّبعوا النبيَّ ﷺ قلَّ ارتفاعهم، ونقصتْ أحوالُهم، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تَبعاً، فأَعْلم اللهُ عزَّ وجلَّ أنهم لا يَبلُغون الارتفاع الذي أملوه بالتكذيب(٤). والمراد المشركون. وقيل: اليهود(٥)؛ فالآيةُ مدنيةٌ على هذا كما تقدَّم أولَ السورة.

والمعنى: إن تَعَظَّموا عن اتّباعِ محمد ﷺ، وقالوا: إن الدجَّال سيخرج عن قريب فيردّ المُلك إلينا، وتسير معه الأنهار، وهو آيةٌ من آيات الله، فنزلت الآية فيهم. قاله أبو العالية وغيره(٦). وقد تقدَّم في «آل عمران» أنه يخرج ويطأُ البلادَ كلَّها إلا مكةَ

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٠١.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ١٦١، وفيه قول قتادة السالف، وقول الحسن الأول ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٥.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٣٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٦١.

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦١، وتفسير البغوي ٤/ ١٠١ بنحوه.

والمدينة[١]. وقد ذكرنا خبره مستوفى في كتاب «التذكرة»[٢] وهو يهودي، واسمه صاف، ويُكْنَى أبا يوسف[٣].

وقيل: كل مَن كَفَرَ بالنبيِّ ﷺ. وهذا حسن؛ لأنه يَعُمُّ. وقال مجاهد: معناه: في صدورهم عظمةٌ ما هم ببالغيها، والمعنى واحد[٤]. وقيل: المراد بالكِبْر الأمرُ الكبير. أي: يطلبون النبوة أو أمراً كبيراً يَصِلُون به إليك من القتل ونحوه، ولا يبلغون ذلك. أو يتمنَّون موتَك قبل أن يتمَّ دينُك، ولا يبلغونه.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ قيل: من فتنة الدجال على قول من قال: إن الآية نزلت في اليهود. وعلى القول الآخر من شرِّ الكفار. وقيل: من مثل ما ابتُلوا به من الكفر والكِبْر. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ «هو» يكون فاصلاً، ويكون مبتدأ، وما بعده خبرُه، والجملة خبرُ إنَّ على ما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ وخبره. قال أبو العالية: أي: أعظم من خَلْق الدجال حين عظَّمَتْه اليهود. وقال يحيى بن سلام: هو احتجاجٌ على مُنكري البعث؛ أي: هما أكبرُ من إعادة خَلْق الناس، فَلِمَ اعتقدوا عجزي عنها[٥]؟! ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: المؤمن والكافر والضالُّ والمهتدي. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ولا يستوي العاملُ للصالحات

---

(١) ٥/ ١٣٦ وما بعدها.

(٢) ص٦٥٨ وما بعدها.

(٣) صاف هو اسم ابن صياد. قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٨/ ٤٦ : قال العلماء: وقصته مُشكلة، وأمره مُشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره، ولا شك في أنه دجّال من الدجاجلة. اهـ. وحديث ابن صياد أخرجه أحمد (٦٣٦٣)، والبخاري (١٣٥٥)، ومسلم (٢٩٣١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٥٦٦ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٦١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٦٢ .

﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ الذي يعمل السيئات. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قراءةُ العامة بياء على الخبر، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأجل ما قبله من الخبر وما بعده. وقرأ الكوفيون بالتاء على الخطاب[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ هذه لامُ التأكيد دخلت في خبر إنَّ، وسبيلُها أن تكون في أوّل الكلام؛ لأنها توكيدُ الجملة إلا أنها تُزَحلَق عن موضعها؛ كذا قال سيبويه. تقول: إنَّ عَمراً لخارجٌ؛ وإنما أُخِّرتْ عن موضعها لئلا يُجمع بينها وبين إنَّ؛ لأنهما يُؤدّيان عن معنى واحد، وكذا لا يُجمع بين إنَّ وأنَّ عند البصريين. وأجاز هشام: إنَّ أنَّ زيداً منطلقٌ حقّ؛ فإن حذفت حقًّا لم يَجُزْ عند أحدٍ من النحويين عَلِمتُه؛ قاله النحاس[٢].

﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شكَّ ولا مِرْية. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُصدِّقون بها، وعندها يبين فرق ما بين الطائع والعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية؛ روى النُّعمان بن بَشِير

---

(١) السبعة ص٥٧٢، والتيسير ص١٩٢.

(٢) في إعراب القرآن ٤/ ٣٩-٤٠.

قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «الدُّعاءُ هو العبادة» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[1]. فدلَّ هذا على أن الدعاءَ هو العبادة. وكذا قال أكثرُ المفسرين؛ وأن المعنى: وَحِّدوني واعبُدوني أتقبَّلْ عبادتكم وأغفِر لكم. وقيل: هو الذِّكر والدعاء والسؤال. قال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «لِيسأَلْ أحدُكم ربَّه حاجتَه كلَّها حتى يسألَه شِسْعَ نَعْله إذا انقطع»[2]. ويقال: الدُّعاء: هو تَرْكُ الذُّنوب[3]. وحكى قتادة أن كعب الأحبار قال: أُعطِيَتْ هذه الأمةَ ثلاثاً لم تُعْطَهن أمةٌ قبلَهم إلا نبيّ: كان إذا أُرسل نبيٌّ قيل له: أنت شاهدٌ على أمتك، وقال تعالى لهذه الأمة: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وكان يقال للنبيّ: ليس عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وكان يقال للنبيّ: ادعُني أَستجِبْ لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[4].

قلت: مثل هذا لا يقال من جهة الرأي. وقد جاء مرفوعاً؛ رواه ليثٌ، عن شَهْر ابن حَوْشَب، عن عُبادة بن الصامت، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أُعطِيَتْ أمتي ثلاثاً لم تُعطَ إلا للأنبياء: كان اللهُ تعالى إذا بعثَ النبيَّ قال: ادعُني أستجِبْ لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وكان اللهُ إذا بعثَ النبيَّ قال: ما جعلَ عليك في الدين من حرج، وقال لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وكان اللهُ إذا بعثَ النبيَّ جعله شهيداً على قومه، وجعل هذه الأمةَ شهداءَ

(١) سنن الترمذي (٣٣٧٢)، وأخرجه أحمد (١٨٣٥٢)، وسلف ٣/ ١٧٨ .

(٢) أخرجه الترمذي كما في تحفة الأشراف ١/ ١٠٧ ، وابن حبان (٨٦٦). وفي إسناده قَطَن بن نُسَير، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٣٩١ : كان أبو حاتم يحمل عليه، وقال ابن عدي: كان يسرق الحديث... رواه القواريري عن جعفر فأرسله، فقيل للقواريري: إن شيخنا يوصله. فقال القواريري: باطل. يعني وَصْلَه. اهـ.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٣ عن الثوري.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٦٢-١٦٣ .

على الناس» ذكره الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»[(١)].

وكان خالد الربعي يقول: عَجِبتُ[(٢)] لهذه الأمة! قيل لها: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ أَمرهم بالدُّعاء ووَعَدَهم الاستجابة، وليس بينهما شرط. قال له قائل: مثل ماذا؟ قال: مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥] فهاهنا شرطٌ، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ [يونس:٢] فليس فيه شرطُ العمل؛ ومثل قوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:١٤] فهاهنا شرط، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ ليس فيه شرط، وكانت الأمة تَفزَعُ إلى أنبيائها في حوائجها حتى تسأل الأنبياءُ لهم ذلك[(٣)].

وقد قيل: إن هذا من باب المُطلق والمُقيد على ما تقدَّم في «البقرة» بيانه[(٤)]. أي: «أسْتَجِبْ لكم» إنْ شئت؛ كقوله: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾. وقد تكون الاستجابةُ في غير عين المطلوب على حديث أبي سعيد الخدري على ما تقدَّم في «البقرة» بيانُه فتأمَّلْه هناك[(٥)].

وقرأ ابن كثير وابن مُحيصن ورُوَيس عن يعقوب، وعَباس[(٦)] عن أبي عمرو، وأبو بكر والمُفضَّل عن عاصم: «سيُدخَلون» بضمِّ الياء وفتح الخاء على ما لم يُسَمَّ فاعله[(٧)]. الباقون: ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ بفتح الياء وضمِّ الخاء. ومعنى ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين

---

(١) ص٣٩١ ، وليث بن أبي سُليم وشهر بن حوشب ضعيفان كما في تقريب التهذيب، وسلف الحديث ٢/ ٤٣٦ .

(٢) في (م): عجيب.

(٣) نوادر الأصول ص٣٩١ ، وسلف ٣/ ١٧٨-١٧٩ .

(٤) ٣/ ١٧٩ .

(٥) ٣/ ١٨٠ ، وينظر متن الحديث وتخريجه ثمة.

(٦) في (م): عيّاش، وهو خطأ، وعباس: هو ابن الفضل بن عمرو الواقفي الأنصاري، قاضي الموصل، من أكابر أصحاب أبي عمرو في القراءة. غاية النهاية ٢/ ٣٥٣ .

(٧) وقرأ بها أبو جعفر من العشرة كما في النشر ٢/ ٢٥٢ ، وينظر السبعة ص٥٧٢ ، والتيسير ص١٩٢ .

أَذِلَّاء، وقد تقدَّم[(١)].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ «جَعَلَ» هنا بمعنى خَلَقَ؛ والعربُ تُفرِّق بين جَعَلَ إذا كانت بمعنى خَلَقَ، وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خَلَقَ؛ فإذا كانت بمعنى خَلَقَ فلا تُعدِّيها إلا إلى مفعول واحد، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدَّتها إلى مفعولين؛ نحو قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣][(٢)] وقد مضى هذا المعنى في غير موضع[(٣)].

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ أي: مُضيئاً، لِتُبصروا فيه حوائجَكم، وتتصرَّفوا في طلب معائشكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ فَضْلَه وإنعامَه عليهم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ بيَّن الدلالةَ على وحدانيته وقُدرته. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أي: كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان بعد أن تبيَّنت لكم دلائِلُه كذلك؛ أي: كما صُرِفتم عن الحقّ مع قيام الدليل عليه فـ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ﴾ يُصْرَفُ عن الحقّ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا﴾ زاد في تأكيد التعريف والدليل؛ أي: جعل لكم الأرضَ مستقرًّا لكم في حياتكم وبعد الموت. ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ تقدَّم[(٤)]. ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ أي: خَلَقَكم في أحسن صورة. وقرأ أبو رَزين والأشهبُ العُقَيلي: «صِوَرَكُمْ» بكسر الصاد[(٥)].

قال الجوهري[(٦)]: والصِّوَر ـ بكسر الصاد ـ لغة في الصُّوَر، جمع صورة، ويُنشد

(١) ١٢/ ٣٣٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠.

(٣) ٨/ ٣١٧.

(٤) ١/ ٣٤٤-٣٤٥.

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٢، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٠.

(٦) في الصحاح (صور).

هذا البيت على هذه اللغة يصفُ الجواري:

أَشبَهْنَ مِن بَقَرِ الخَلْصَاءِ أعيُنَها ... وهُنَّ أحْسَنُ مِن صِيرانِها صِورا[١]

[والصِّيران جمع صِوار، وهو القطيع من البقر، والصِّوار أيضاً وِعاءُ المِسْك][٢] وقد جمعهما الشاعر بقوله:

إذا لاحَ الصِّوارُ ذكَرتُ لَيْلَى ... وأذْكُرُها إذا نَفَح الصِّوَارُ[٣]

والصِّيارُ لغة فيه.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تقدَّم. ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ أي: الباقي الذي لا يموت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ أي: الطاعة والعبادة. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الفراء: هو خبرٌ، وفيه إضمارُ أمر، أي: ادعوه واحمَدُوه. وقد مضى هذا كلُّه مستوفى في «البقرة» وغيرها[٤]. وقال ابن عباس: من قال: لا إله إلّا الله، فليقل: الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين[٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ﴾ أي: قل يا محمد: نهاني الله الذي هو الحيُّ القيوم، ولا إلهَ غيره ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ غيره. ﴿لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ أي: دلائلُ توحيده ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ أذِلَّ وأخضعَ ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكانوا دَعَوْه إلى دين آبائه،

---

(١) قائله أبو ثروان كما في إصلاح المنطق ص١٥٠ . والخَلْصاء: ماء بالبادية. اللسان (خلص).

(٢) ما بين حاصرتين من الصحاح.

(٣) قائله بشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٣٣١ .

(٤) ١/ ٢٠٢ في سورة الفاتحة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٠٤ ، وفيه قول الفراء، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٥٧ .

فَأُمِرَ أن يقولَ هذا.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً. وقد تقدَّم هذا[1]. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ وهي حالة اجتماع القوّة وتمام العقل. وقد مضى في «الأنعام» بيانه[2].

﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ بضم الشين قراءةُ نافع وابن مُحيصن وحفص وهشام ويعقوب وأبو عمرو على الأصل؛ لأنه جمع فَعْل، نحو: قَلْب وقُلُوب، ورأس ورؤوس.

وقرأ الباقون بكسر الشين لمراعاة الياء[3]، وكلاهما جمع كَثْرة، وفي العدد القليل أشياخ، والأصل أشْيُخ؛ مثل فَلْس وأَفْلُس، إلا أن الحركة في الياء ثقيلة[4]. وقرئ: «شَيْخًا» على التوحيد[5]؛ كقوله: «طِفْلًا» والمعنى: كلُّ واحد منكم. واقتصر على الواحد لأن الغرضَ بيانُ الجنس. وفي «الصحاح»[6]: جمع الشّيخ شُيوخ وأشياخ وشِيَخة وشِيخان ومَشْيَخة ومَشَايخ ومَشْيُوخاء، والمرأة شَيخة. قال عَبيد:

كـأنَّـهـا شَـيْـخَـةٌ رَقُـوبُ[7]

وقد شاخ الرجلُ يَشِيخ شَيَخًا ـ بالتحريك على أَصْله ـ وشَيْخوخةً، وأصلُ الياء متحركة فسكنت؛ لأنه ليس في الكلام فَعَلول. وشَيَّخ تَشْييخًا، أي: شاخ. [وشَيَّخْته] دعوته شيخًا للتبجيل. وتصغير الشيخ شُيَيْخ وشِيَيْخ أيضاً ـ بكسر الشين ـ ولا تقل: شُوَيخ[8].

---

(١) ١٤/ ٣٢١ وما بعدها.

(٢) ٩/ ١١١ وما بعدها.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وابن كثير، وأبو بكر وابن ذكوان بكسر الشين، والباقون بضمها. السبعة ص١٧٨، والتيسير ص١٩٢، والنشر ٢/ ٢٢٦.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤١.

(٥) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٦.

(٦) الصحاح (شيخ).

(٧) ديوان عَبيد بن الأبرص ص٢٩، وصدره: باتَتْ على إِرَم عذوباً.

(٨) الصحاح (شيخ) وما بين حاصرتين منه.

النحاس[١]: وإن اضطرَّ شاعرٌ جاز أن يقول: أشْيُخ، مثل: عَيْن وأعْيُن، إلا أنه حَسُنَ في عين؛ لأنها مؤنثة. والشيخُ مَن جاوز أربعين سنة. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ قال مجاهد: أي: مِن قبل أن يكون شيخاً، أو مِن قبل هذه الأحوال إذا خرج سَقْطاً. ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ قال مجاهد: الموتُ للكل. واللام لامُ العاقبة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلك فتعلموا أن لا إلهَ غيره.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ زاد في التنبيه، أي: هو الذي يقدرُ على الإحياء والإماتة. ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: أراد فِعْلَه قال: ﴿لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. ونصب «فيكون» ابن عامر على جواب الأمر[٢]. وقد مضى في «البقرة» القول فيه[٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ قال ابن زيد: هم المشركون بدليل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾. وقال

---

(١) إعراب القرآن ٤/ ٤١ .

(٢) السبعة ص١٦٨ ، والتيسير ص٧٦ .

(٣) ١/ ٣٣٩ .

أكثرُ المفسرين: نزلت في القَدَرية[١]. قال ابن سيرين: إنْ لم تكن هذه الآيةُ نزلَتْ في القَدَريّة، فلا أدري فيمن نزلت. قال أبو قَبِيل: لا أحْسِبُ المُكَذِّبين بالقَدَر إلا الذين يُجادلون الذين آمنوا[٢]. وقال عقبة بن عامر: قال النبي ﷺ: «نزلَتْ هذه الآيةُ في القَدَرِيّة» ذكره المهدوي[٣].

قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ أي: عن قريب يعلمون بُطلانَ ما هم فيه إذا دخلوا النار وغُلَّت أيديهم إلى أعناقهم. قال التَّيمي: لو أن غُلًّا من أغلال جهنم وُضِع على جبل لوَهَصه حتى يبلغ الماء الأسود[٤]. ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ بالرفع قراءة العامة عطفاً على الأغلال.

قال أبو حاتم: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ مستأنف على هذه القراءة. وقال غيره: هو في موضع نصب على الحال، والتقدير: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ مسحوبين. وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعكرمة وابن مسعود: «والسَّلاسِلَ» بالنصب، «يَسْحَبُونَ» بفتح الياء، والتقدير في هذه القراءة: ويَسحبون السلاسلَ[٥]. قال ابن عباس: إذا كانوا يَجُرُّونها فهو أشدُّ عليهم[٦].

وحكي عن بعضهم: «والسلاسِلِ» بالجرّ[٧]، ووجهُه أنه محمولٌ على المعنى؛ لأن المعنى: أعناقهم في الأغلال والسلاسلِ؛ قاله الفرّاء[٨]. وقال الزجاج[٩]: ومن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٥٦٨ .

(٢) أخرجهما الطبري ٢٠/٣٦١ . وأبو قَبِيل: هو حيّ بن هانئ بن ناضر ـ بمعجمة ـ المعافري، المحدّث، يماني استوطن مصر. مات سنة (١٢٨هـ). السير ٥/ ٢١٤ .

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٨٣ . وقوله: وهصة: الوَهْص: الرمي العنيف. القاموس (وهص).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٢ . وقراءة ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنه في القراءات الشاذة ص١٣٣ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٣٦ .

(٧) ذكرها السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٤٩٥ عن ابن عباس وجماعة.

(٨) في معاني القرآن ٣/ ١١ .

(٩) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٨ .

قرأ: «والسلاسِلِ يُسحبون» بالخفض فالمعنى عنده: وفي «السلاسِل يُسْحَبُونَ».

قال ابن الأنباري(١): والخفضُ على هذا المعنى غير جائز؛ لأنك إذا قلت: زيد في الدار، لم يحسن أن تُضمر «في» فتقول: زيد الدارِ، ولكنَّ الخفضَ جائزٌ على معنى: إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل، فتخفض السلاسل على النَّسق على تأويل الأغلال؛ لأن الأغلالَ في تأويل الخفض؛ كما تقول: خاصمَ عبدُ الله زيداً العاقِلَيْن؛ فتنصب العاقِلَيْن، ويجوز رَفْعُهما؛ لأن أحدَهما إذا خاصمَ صاحبَه فقد خاصمَه صاحبُه؛ أنشد الفرّاء:

قد سَالَم الحياتِ مِنه القدَما الأُفْعُوانَ والشُّجاعَ الشَّجْعَما(٢)

فنصب الأُفعوان على الإتباع للحيات [لأن الحيَّاتِ] إذا سالمت القدمَ فقد سالمتها القدمُ. فمن نَصَبَ السلاسل أو خَفَضَها لم يَقِفْ عليها(٣).

و«الحميم» المتناهي في الحر. وقيل: الصديد المَغْلي. ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ أي: يُطرحون فيها فيكونون وَقوداً لها؛ قاله مجاهد(٤). يقال: سَجَرتُ التنور، أي: أوقدته، وسَجَرته: ملأته؛ ومنه ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ [الطور: ٦] أي: المملوء. فالمعنى على هذا: تُملأ بهم النار، وقال الشاعر يصف وَعْلاً:

إذا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً تَرَى حولها النَّبْعَ والسَّاسَما(٥)

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٧٣-٨٧٤ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١١ ، والرجز قيل: هو لمساور العبسي، وقيل: للعجّاج، وقيل: لأبي حيان الفقعسي، وقيل: للدُّبَيري، وقيل: لعبد بني عبس، وقوله: الأُفعوان ـ بالضم ـ: الذكر من الأفاعي، والشُّجاع: الذكر من الحيات، والشجعم: الجريء، وقيل: الطويل مع عِظَم جسم، والميم زائدة. خزانة الأدب ١١/ ٤١٧-٤١٨ .

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٧٣-٨٧٤ ، وما بين حاصرتين منه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٣٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٥ .

(٥) في (ظ): السماسما، وفي (م): السَّمسما. والبيت للنمر بن تولب، وهو في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٣٤ (وما قبله منه) وخزانة الأدب ١١/ ٩٩ . والنَّبع والسَّاسَم: شجر يُعمل منه القسي. القاموس (نبع) و(سسم).

أي: عيناً مملوءة. ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ . مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا تقريعٌ وتوبيخ[١]. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: هلكوا وذهبوا عنا وتركونا في العذاب؛ مِنْ ضَلَّ الماءُ في اللبن، أي: خفي. وقيل: أي: صاروا بحيث لا نَجِدُهم.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: شيئاً لا يُبصر ولا يسمع ولا يضرُّ ولا ينفع[٢]. وليس هذا إنكاراً لعبادة الأصنام، بل هو اعترافٌ بأن عبادتَهم الأصنامَ كانت باطلةً؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: كما فعل بهؤلاء من الإضلال يفعل بكل كافر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: ذلكم العذابُ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ بالمعاصي، يقال لهم ذلك توبيخاً. أي: إنما نالَكم هذا بما كنتم تُظهرون في الدنيا من السُّرور بالمعصية وكَثْرة المال والأتباع والصِّحة. وقيل: إن فرحَهم بها عندهم أنهم قالوا للرُّسل: نحن نعلمُ أنا لا نُبعث ولا نُعذَّب. وكذا قال مجاهد في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ قال مجاهد وغيره: أي: تَبْطَرون وتَأْشَرون[٣]. وقد مضى في «سبحان» بيانُه[٤].

وقال الضحاك: الفرحُ السرورُ، والمَرَحُ العُدوان.، وروى خالد عن ثور عن معاذ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهُ يُبغض البَذِخين الفرحين، ويحبُّ كلَّ قلبٍ حزين، ويُبغض أهلَ بيتٍ لَحِمين، ويُبغض كلَّ حِبْر سمين»[٥] فأما أهلُ بيت لَحِمين: فالذين يأكلون لحومَ الناس بالغِيبة. وأما الحِبْر السمين: فالمُتحبِّرُ بعلمه ولا يُخبر بعلمه الناس؛ يعني المُستكثِرُ من عِلْمه ولا ينتفع به الناس. ذكره الماوردي. وقد قيل في

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٩ .
(٢) زاد المسير ٧/ ٢٣٧ بنحوه.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣ .
(٤) ١٣/ ٨١ .
(٥) نقله المصنف بهذا اللفظ عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٦٥ ، وقوله منه: «إن الله يحب كل قلب حزين» أخرجه البيهقي في الشعب (٨٩٣) من طريق ضمرة بن حبيب عن أبي الدرداء مرفوعاً. وهذا إسناد منقطع، فإن ضمرة لم يلقَ أبا الدرداء ﷺ وقوله: «ويبغض أهل بيت لَحِمين، ويبغض كل حبر سمين» أخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (٥٦٦٨) عن كعب قوله.

اللَّحِمِين: إنهم الذين يُكثرون أكل اللحم؛ ومنه قول عمر: اتقوا هذه المجازر فإنَّ لها ضراوةً كَضَراوة الخمر[1]؛ ذكره المهدوي. والأوّل قول سفيان الثوري[2]. ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يقال لهم ذلك اليوم، وقد قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ﴾ [الحجر: ٤٤]. ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ تقدم جميعه[3].

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ﴾ هذا تسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام؛ أي: إنا لَننتقم لك منهم إما في حياتك أو في الآخرة. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في موضع جزم بالشرط، وما زائدة للتوكيد، وكذا النون، وزال الجزم وبُني الفعل على الفتح. ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ عطف عليه ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ الجواب[4].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾ عزّاه أيضاً بما لَقِيَتِ الرُّسل من قبله. ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ﴾ أي: أنبأناك بأخبارهم وما لَقُوا من قومهم. ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ أي: من قِبَلِ نفسه ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا جاء الوقتُ المُسمى لِعذابهم أهلكهم اللهُ، وإنما التأخيرُ لإسلام من عَلِمَ اللهُ إسلامَه منهم، ولمن في أصلابهم من المؤمنين. وقيل: أشار بهذا إلى القَتْل ببدر. ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي: الذين يتَّبعون الباطلَ والشِّرك.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج[5]: الأنعام

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٥ بلفظ: إياكم واللحمَ، فإن له ضراوةً كضراوة الخمر. وسلف ٩/ ٢٠٨ .

(٢) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٣١٧ .

(٣) ١٢/ ٢١٤ وما بعدها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣ .

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٨ .

هاهنا الإبل. ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فاحتجَّ من مَنَعَ من أكل الخيل وأباح أكل الجِمال بأنّ الله عزَّ وجلَّ قال في الأنعام: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وقال في الخيل: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨] ولم يذكر إباحةَ أكلها[١]. وقد مضى هذا في «النحل» مستوفى[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ في الوبر والصوف والشَّعر واللَّبن والزُّبْد والسمن والجبن وغير ذلك. ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: تحمل الأثقالَ والأسفار. وقد مضى في «النحل» بيانُ هذا كلِّه فلا معنى لإعادته[٣]. ثم قال: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ يعني الأنعام في البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: آياتِهِ الدالَّةَ على وحدانيته وقُدرته فيما ذكر. ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ نصب «أيًا» بـ«تُنكرون» لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله، ولو كان مع الفعل هاء لكان الاختيار في «أيّ» الرفع، ولو كان الاستفهام بألف أو هل وكان بعدهما اسم بعده فعل معه هاء لكان الاختيار النصب[٤]، أي: إذا كنتم لا تُنكرون أن هذه الأشياء من الله، فلم تُنكرون قُدرته على البعث والنَّشر؟

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حتى يُشاهدوا آثارَ الأُمم السالفة. ﴿كَانُوا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٣-٤٤.

(٢) ١٢/ ٢٧٨ وما بعدها.

(٣) ١٢/ ٢٧٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٤.

﴿أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الأبنية والأموال وما أدالوا به من الأولاد والأتباع؛ يقال: دلوت بفلان إليك، أي: استشفعت به إليك. وعلى هذا «ما» للجحد، أي: فلم يُغْنِ عنهم ذلك شيئاً. وقيل: «ما» للاستفهام، أي: أيّ شيء أغنى عنهم كسبهم حين هلكوا[١]. ولم ينصرف «أكْثَرَ»؛ لأنه على وزن أفعل. وزعم الكوفيون أن كل مالا ينصرف فإنه يجوز أن ينصرف إلا أفعل من كذا، فإنه لا يجوز صرفه بوجه في شِعْرٍ[٢] ولا غيره إذا كانت معه من. قال أبو العباس: ولو كانت من المانعةَ من صرفه لَوجب ألا يقال: مررت بخير منك وشر من عمرو.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالآيات الواضحات ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في معناه ثلاثة أقوال؛ قال مجاهد: إن الكفار الذين فرحوا بما عندهم من العلم قالوا: نحن أعلم منهم، لن نُعذّب ولن نُبعث. وقيل: فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحو ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم:٧]. وقيل: الذين فرحوا الرُّسلُ، لمّا كذّبهم قومُهم أعلمهم الله عزَّ وجلَّ أنه مُهلك الكافرين ومُنجيهم والمؤمنين، فـ «فرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» بنجاة المؤمنين ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: بالكفار ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: عقاب استهزائهم بما جاء به الرسل صلوات الله عليهم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا العذاب. ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ أي: بالأوثان التي أشركناهم في العبادة ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ بالله عند مُعاينة العذاب وحين رَأَوُا البأس. ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ مصدر؛ لأن العرب تقول: سَنَّ يسن سنًّا وسُنةً؛ أي: سنّ الله عزَّ وجلَّ في الكفار أنه لا

(١) تفسير البغوي ٤/١٠٦ .

(٢) في النسخ الخطية: معرفة، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٤ ، والكلام منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٤-٤٥ .

ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب[١]. وقد مضى هذا مُبيَّناً في «النساء» و«يونس»[٢] وأن التوبة لا تُقبل بعد رؤية العذاب وحصول العلم الضروري. وقيل: أي: احذروا يا أهل مكة سنَّة الله في إهلاك الكَفَرة فـ «سنَّةَ الله» منصوب على التحذير والإغراء[٣].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قال الزجاج[٤]: وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك إلا أنه تبيَّن لهم[٥] الخُسران لما رأوا العذاب.

وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كَسُنَّتنا في جميع الكافرين فـ «سنة» نصب بنزع الخافض، أي: كسنّة الله في الأُمم كلِّها. والله أعلم.

تم تفسير سورة «غافر» والحمد لله.

---

(١) المصدر السابق بنحوه.

(٢) ٦/ ١٥٢ و١١/ ٥٥ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٠٦ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٤٥ .

(٥) في النسخ: بيّن لنا، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وفي معاني القرآن للزجاج: بيَّن لهم.

سُورةُ المؤمنِ

مَكيَّةٌ، وآيُها خمسٌ أو ثمان وثمانونَ[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿حمٓ﴾ أمالَهُ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ صريحًا، ونافعٌ بروايةِ وَرشٍ وأبو عَمرٍو بَيْنَ بَيْنَ[2]، وقُرِئَ بفتحِ الميم على التَّحريكِ لالتقاءِ السَّاكِنَيْنِ[3]، والنَّصبِ بإضمارِ: اقرأ، ومَنعُ صَرفِهِ للتَّعريفِ والتَّأنيثِ، أو لأنَّها على زِنَةِ أعجميٍّ كقابيلَ وهابيلَ.

(٢) ـ ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ لعلَّ تخصيصَ الوَصفَينِ لِما في القرآنِ مِن الإعجازِ والحِكَمِ الدَّالِّ على القُدرَةِ الكامِلَةِ والحكمةِ البالغَةِ.

(٣) ـ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ صفاتٌ أُخَرُ لتَحقيقِ ما فيهِ مِن التَّرغيبِ والتَّرهيبِ والحَثِّ على ما هو المقصودُ منه، والإضافةُ فيها حقيقيَّةٌ على أنَّه لم يُرَدْ بها زمانٌ مَخصوصٌ.

---

(١) قال الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢١٨): وهي ثمانون وثنتان في البصري، وأربع في المدنيين والمكي، وخمس في الكوفي، وست في الشامي، اختلافها تسع آيات.

(٢) ورش من طريق الأزرق، وهي بخلف عن أبي عمرو، انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٩١)، و«النشر» (٢/ ٧٠).

(٣) وهي قراءة أبي السمال كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣)، وعيسى بن عمر كما في «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٤٥)، وقراءة الجمهور التسكين.

وأُريدَ بـ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ مُشدِّدَه، أو الشَّديدُ عِقابُه، فحذفَ الَّلامَ للازدواجِ وأمنِ الإلباسِ.

أو أبدالٌ[1]، وجعلُه وحدَه بَدَلًا مُشَوِّشٌ للنَّظمِ.

وتوسيطُ الواو بينَ الأوَّلَينِ؛ لإفادةِ الجمعِ بين مَحْوِ الذنوبِ وقبولِ التَّوبةِ، أو تغايُرِ الوَصْفَينِ؛ إذ ربَّما يُتوهَّمُ الاتحادُ أو تغايرُ موقعِ الفعلينِ؛ لأنَّ الغفرَ هو السترُ فيكونُ لذنبٍ باقٍ وذلك لِمَن لم يَتُبْ؛ فإنَّ التَّائبَ من الذَّنبِ كمَن لا ذنبَ له.

والتَّوبُ: مَصدَرٌ كالتَّوبةِ، وقيل: جَمْعُها. والطَّوْلُ: الفَضلُ بتركِ العقابِ المستحقِّ.

وفي توحيدِ صفَةِ العَذابِ مغمورةً بصفاتِ الرَّحمةِ دليلُ رُجْحانِها[2].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجبُ الإقبالُ الكُلِّيُّ على عبادتِه.

﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيُجازي المطيعَ والعاصيَ.

(٤) ـ ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لَمَّا حقَّقَ أمرَ التَّنزيلِ سجَّلَ بالكُفرِ على المجادِلِينَ[3] فيه بالطَّعنِ وإدحاضِ الحقِّ لقولِه[4]: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]، فأمَّا الجِدالُ فيه لحلِّ عُقدِهِ واستنباطِ حَقائقِهِ وقَطعِ تَشبُّثِ أهلِ الزَّيغِ به وقطعِ مَطاعِنِهم فيه فمِنْ أعظَمِ الطَّاعاتِ، ولذلك قالَ عليه السَّلامُ: «إنَّ جِدالًا في القرآنِ كفرٌ»[5] بالتَّنكيرِ، مع أنَّه ليس جِدالًا فيه على الحقيقةِ.

---

(١) قوله: «أو أبدال» بفتح الهمزة عطف على «صفات»، انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٣٨).

(٢) الضمير يعود للرحمة.

(٣) قوله: «سجل بالكفر على المجادلين» إلخ: أي أثبت ذلك لهم كما يثبت الشيء في السجل، قاله الخفاجي في «حاشيته».

(٤) في نسخة الفاروقي: «كقوله».

(٥) رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٢٤٠٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٦١) من حديث =

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ فلا يَغرُرْكَ إمهالُهم وإقبالُهم في دُنياهُم وتقلُّبُهم في بلادِ الشَّامِ واليمنِ في التِّجاراتِ المُربحةِ، فإنَّهُم مأخوذونَ عمَّا[1] قريبٍ بكُفرِهم أخذَ مَنْ قبلَهُم كما قال:

(٥) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ والذين تحزَّبُوا علـى الرُّسُلِ وناصَبوهُمْ بعدَ قومِ نوحٍ كعادٍ وثمودَ.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ مِن هؤلاءِ ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾، وقُرِئَ: (برسولِها)[2].

﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليَتمكَّنُوا مِن إصابَتِه بما أرادوا مِن تَعذيبٍ وقتلٍ[3]، مِن الأخذِ؛ بمعنى الأَسْـرِ.

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بما لا حقيقةَ له ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليزيلوهُ بهِ.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاكِ جزاءً لهَمِّهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فإنَّكُم تمرُّونَ على دِيارِهم وترَوْنَ أثرَهُ[4]، وهو تقريرٌ فيه تعجيبٌ[5].

= عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ورواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ١٦٧)، وعبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٧/ ٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) في نسخة التفتازاني: «عن».

(٢) قرأ بها ابن مسعود كما في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٥)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٢٨١).

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «وقيل». قال الشهاب في «حاشيته»: (وقتل) بالتاء المثناة الفوقية، والتمكن منه لا يستلزمه، إذ المتمكن من الشيء قد لا يفعله لمانع وغيره، وقوله: (من الأخذ بمعنى الأسر) فإنه يقال للأسير أخيذ، فهو مأخوذ منه فكني به عما ذكر، والتمكن من القتل لا ينافي الأسر كما توهم، وفي بعض النسخ: (وقيل) بالقاف والياء التحتية، فيكون الأخذ في الآية بمعنى الأسر، والأولى هي الموافقة لما في الكشاف، والمناسبة للمقام وجزالة المعنى.

(٤) في نسخة الخيالي: «أثرهم»، وفي نسخة الطبلاوي: «آثارهم».

(٥) في نسخة التفتازاني: «تعجب».

(٦) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: وعيدُهُ أو قَضاؤُهُ بالعذابِ.

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لكُفرِهِم.

﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بدلٌ مِن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدلَ الكلِّ أو الاشتمالِ على إرادةِ اللَّفظِ أو المَعْنَى.

(٧) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ الكَرُوبيُّونَ[1] أعلى طبقاتِ الملائكةِ وأوَّلُهم وجودًا، وحَمْلُهم إيَّاه وحَفِيفُهُم[2] حولَه مجازٌ عَن حفظِهِم وتَدبيرِهِم له، أو كنايةٌ عن قُربِهم مِن ذي العرشِ ومكانَتِهم عندَهُ وتوسُّطِهِم في نفاذِ أمرِهِ.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يذكرونَ اللهَ بمَجامعِ الثَّناءِ مِن صفاتِ الجلالِ والإكرامِ، وجَعَلَ التَّسبيحَ أَصْلًا والحمدَ حالًا؛ لأنَّ الحمدَ مُقتَضى حالِهِم دونَ التَّسبيحِ.

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أخبرَ عَنْهُم بالإيمانِ إظهارًا لفَضلِهِ وتعظيمًا لأهلِهِ، ومَساقُ الآيةِ لذلك كما صرَّحَ به بقولِه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وإشعارًا بأنَّ حَمَلَةَ العرشِ وسُكَّانَ الفَرشِ في مَعرِفَتِه سواءٌ ردًّا على المُجسِّمَةِ.

---

(١) قال الشهاب في «حاشيته»: الكروبيون جمع كروبي بفتح الكاف وضم الراء المهملة المخففة وتشديدها خطأ، ثم واو بعدها باء موحدة ثم ياء مشددة من كرب بمعنى قرب، وقد توقف بعضهم في سماعه من العرب وأثبته أبو علي الفارسي البغدادي، واستشهد له بقوله:

كروبيـــة منهـــم ركـــوع وســـجد

وفيه دلالة على المبالغة في قربهم بصيغة فعول والياء، فإنها تزاد لذلك.

وقيل الكرب أيضاً شدة القرب وهم سادة الملائكة كما في «الفائق» [(٣/ ٢٥٨)]: كجبريل وإسرافيل.

وقال البيهقي [في «شعب الإيمان» (١٤٦) عن وهب]: إنهم ملائكة العذاب فهو عنده من الكرب بمعنى الشدة والحزن كما صرح به ويجوز أخذه منه على المعنى الأول أيضاً لشدة خوفهم من الله وكلام المصنف على أن الكروبيين هم حملة العرش، اهـ.

(٢) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «وحفوفهم».

واستغفارُهُم: شَفاعَتُهُم وحَملُهُم على التَّوبةِ وإلهامُهُم ما يُوجِبُ المغفرةَ.

وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ المُشاركةَ في الإيمانِ تُوجِبُ النُّصحَ والشَّفقةَ وإنْ تَخالَفَتِ الأجناسُ؛ لأنَّها أقوى المناسباتِ كما قالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿رَبَّنَا﴾؛ أي يقولونَ: ربَّنا وهو بيانٌ لـ﴿يستغفرون﴾ أو حالٌ.

﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وَسِعَتْ رحمَتُه وعِلْمُه، فأُزيلَ عن أصلِه للإغراقِ في وَصفِهِ بالرَّحمةِ والعلمِ، والمبالغةِ[1] في عُمومِهما، وتقديمُ الرَّحمةِ؛ لأنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ هاهنا.

﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ للذينَ عَلِمْتَ مِنْهُم التَّوبةَ واتِّباعَ سَبيلِ الحقِّ.

﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ واحفَظْهُم عنه، وهو تصريحٌ بعدَ إشعارٍ للتَّأكيدِ والدَّلالةِ على شِدَّةِ العذابِ.

(٨) - ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ وعدْتَهُم[2] إيَّاها ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ عطفٌ على (هم) الأوَّلِ؛ أي: أدخِلْهُم ومَعَهُم هؤلاءِ[3] ليتِمَّ سُرورُهُم، أو الثَّاني لبيانِ عُمومِ الوعدِ.

وقُرِئَ: (جنَّةَ عدنٍ)[4]، و(صَلُح) بالضمِّ[5]، و(ذُرِّيَّتِهِم)[6] بالتَّوحيدِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «وبالمبالغة».

(٢) «وعدتهم»: ليس في نسخة الخيالي.

(٣) قوله: «هؤلاء»: ليس في نسخة الفاروقي.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣) عن الأعمش.

(٥) انظر: «الكامل في القراءات» (ص: ٦٣١)، و«البحر» (١٨/ ٣٩٤)، عن ابن أبي عبلة.

(٦) انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٤٨)، و«البحر» (١٨/ ٣٩٤)، عن عيسى بن عمر.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنعُ عليه مَقدورٌ، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلُ إلَّا ما تقتضيهِ حِكمَتُه، ومِن ذلك الوَفاءُ بالوعدِ.

(٩) ـ ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ العقوباتِ أو جزاءَ السَّيِّئاتِ، وهو تعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ، أو مخصوصٌ بـ﴿من صَلَحَ﴾، أو المعاصي[1] في الدُّنيا لقولِه: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾؛ أي: ومَنْ تَقِها في الدُّنيا فقد رَحِمتَهُ في الآخرةِ، كأنَّهُم طَلَبُوا السَّبَبَ بعدَما سألُوا المُسبَّبَ[2].

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ يعني الرَّحمةَ، أو الوقايةَ[3]، أو مجموعَهُما.

(١٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ﴾ يومَ القيامةِ فيقالُ لهم: ﴿لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: لَمَقتُ اللهِ إيَّاكم أكبرُ مِن مَقتِكُم أنفسَكُم الأمَّارةَ بالسُّوءِ.

﴿إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ﴾ ظرفٌ لفعلٍ دلَّ عليه المقتُ الأوَّلُ لا له؛ لأنَّه أخبرَ عنه، ولا للثَّاني؛ لأنَّ مَقتَهُم أنفُسَهُم يومَ القيامةِ حينَ عايَنُوا جزاءَ أعمالِهِم الخبيثةِ إلَّا أن يُؤوَّلَ بنحوِ: (الصَّيفَ ضَيَّعْتِ اللبنَ)، أو تعليلٌ للحكمِ، وزمانُ المَقْتَيْنِ واحِدٌ[4].

(١١) ـ ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ إماتَتَيْنِ بأَنْ خلَقْتَنا أمواتًا أوَّلًا، ثمَّ صَيَّرْتَنا أمواتًا عند انقضاءِ آجالِنا، فإنَّ الإماتةَ جعلُ الشَّيءِ عادمَ الحياةِ ابتداءً، أو بتَصييرٍ كالتَّصغيرِ

---

(١) «أو المعاصي» عطف على «العقوبات أو جزاء السيئات».

(٢) قوله: «كأنهم طلبوا السبب» أي وهو وقايتهم السيئات (بعدما سألوا المسبَّب)؛ أي: وهو إدخالهم الجنات، انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤١ ـ ٤٢).

(٣) في نسخة الفاروقي: «أو الوفاء به»، وفي نسخة التفتازاني: «والوقاية».

(٤) انظر: «لباب التفاسير» (٨/ ٧٨)، وذكره الكرماني أيضاً في «غرائب التفسير» (٢/ ١٠٢٧) واستغربه.

والتَّكبيرِ، ولذلك قيل: سبحانَ مَن صغَّرَ البَعُوضَ وكبَّرَ الفيلَ، وإن خُصَّ بالتَّصييرِ فاختيارُ الفاعلِ المختارِ أحدَ مقبوليهِ تَصييرٌ وصَرْفٌ له عَن الآخرِ[1].

﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾: الإحياءَةَ الأولى وإحياءةَ البعثِ.

وقيل: الإماتةُ الأولى عندَ انخرامِ الأجَلِ، والثَّانيةُ في القبرِ بعدَ الإحياءِ للسُّؤالِ، والإحياءانِ ما في القبرِ والبَعثِ[2]؛ إذ المقصودُ اعتِرافُهُم بعدَ المعاينةِ[3] بما غَفَلوا عنه ولم يَكترِثُوا به، ولذلك تسبَّبَ لقولِه[4]: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فإنَّ اقترافَهُم لها مِن اغترارِهِم بالدُّنيا وإنكارِهِم للبَعثِ.

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ نوعِ خُروجٍ من النَّارِ ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ طريقٍ فنَسْلُكَه، وذلك إنَّما يَقولونَهُ مِن فَرْطِ[5] قُنوطِهِم تَعلُّلًا وتحيُّرًا، ولذلك أُجيبوا بقولِه:

(١٢) ـ ﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي أنتُمْ فيه ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بسببِ أنَّه ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ متَّحدًا أو توحَّدَ وحدَهُ، فحُذِفَ الفعلُ وأُقيمَ مُقامهُ في الحاليَّةِ ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بالتَّوحيدِ ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ بالإشراكِ.

﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ المستحقِّ للعبادةِ حيثُ حكمَ عَلَيكُم بالعذابِ السَّرمَدِ[6] ﴿ٱلْعَلِىِّ

---

(١) في نسخة التفتازاني: «مفعوليه»، وقوله: (فاختيار الفاعل المختار أحد مقبوليه) الضمير للفاعل المختار أو هو للشيء، والمقبول ما يقبله الشيء من الحالين، قاله الخفاجي في «حاشيته».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «والمبعث».

(٣) في نسخة الفاروقي: «المعاتبة».

(٤) في نسخة التفتازاني: «بقوله».

(٥) في نسخة الخيالي: «يقولونه لفرط».

(٦) «حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد»: ليس في نسخة التفتازاني والخيالي، وجاء في نسخة الفاروقي بعد قوله: «بغيره حيث حكم».

﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ مِن أَنْ يُشرَكَ به ويسوَّى بغيرِهِ حيثُ حكمَ على مَن أشرَكَ وسَوَّى به بعضَ مخلوقاتِهِ في استحقاقِ العبادةِ = بالعذابِ السَّرمَدِ.

(١٣) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدَّالَّةَ على التَّوحيدِ وسائرِ ما يجبُ أَنْ يُعلَمَ تكميلًا لنفوسِكُم ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أسبابَ رزقٍ[1] كالمطرِ مُراعاةً لِمَعاشِكُم.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآياتِ التي هي كالمَركوزَةِ في العُقولِ لِظُهورِهَا المغفولِ عنها للانهماكِ في التَّقليدِ واتِّباعِ الهوى ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يرجعُ عَن الإنكارِ بالإقبالِ عَلَيها والتَّفكُّرِ فيها، فإنَّ الجازمَ بشَيءٍ لا ينظرُ فيما يُنافيهِ.

(١٤) ـ ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مِن الشِّركِ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إخلاصَكُم وشقَّ عليهِم.

(١٥) ـ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خبرانِ آخرانِ للدَّلالةِ على علوِّ صَمديَّتِه مِن حيثُ المعقولُ والمحسوسُ الدالُّ على تَفرُّدِه في الألوهيَّةِ؛ فإنَّ مَن ارتفعَتْ دَرجاتُ كَمالِه بحيثُ لا يظهَرُ دونَها كمالٌ، وكانَ العرشُ الذي هو أصلُ العالمِ الجسمانيِّ في قبضةِ قُدرَتِه؛ لا يَصِحُّ أن يشركَ به.

وقيلَ: الدَّرجاتُ مراتِبُ المخلوقاتِ، أو مَصاعِدُ الملائكةِ إلى العرشِ أو السَّمواتِ، أو درجاتُ الثَّوابِ.

وقُرِئَ: (رفيعَ) بالنَّصبِ على المدحِ[2].

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ خبرٌ رابعٌ للدَّلالةِ على أنَّ الرّوحانيَّاتِ

---

(١) «أسباب رزق»: ليس في نسخة التفتازاني والخيالي.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٩٩)، وقد أجازها الأخفش لكن لم يصرح بكونها قراءة.

أيضًا مُسَخَّراتٌ لأمرِهِ بإظهارِ آثارِهَا وهو الوحيُ، وتمهيدٌ للنبوَّةِ بعدَ تقريرِ التَّوحيدِ.

و﴿الرُّوح﴾: الوحيُ، و﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ بيانُه؛ لأنَّه أمرٌ بالخيرِ أو مبدؤهُ، والآمرُ هو المَلَكُ المُبلِّغُ ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾: يختارهُ للنبوَّةِ، وفيه دليلٌ على أنَّها عَطائِيَّةٌ.

﴿لِيُنذِرَ﴾ غايةُ الإلقاءِ، والمستكِنُّ فيه (للهِ) أو لِـ(مَن) أو للرُّوحِ، واللامُ مع القربِ تُؤيِّدُ الثَّاني.

﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يومَ القيامةِ؛ فإنَّ فيه يتلاقى الأرواحُ والأجسادُ وأهلُ السَّماءِ والأرضِ والمعبودونَ والعِبادُ والأعمالُ والعُمَّالُ.

(١٦) - ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ خارجونَ مِن قُبورِهِم، أو ظاهرونَ لا يسترُهُم شيءٌ، أو ظاهرةٌ نُفوسُهُم لا تحجُبُهم غواشِي الأبدانِ، أو أعمالُهُم[1] وسَرائِرُهُم.

﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٌ﴾ مِن أعيانِهم وأعمالِهم وأحوالِهم، وهو تقريرٌ لقولِه: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ وإزاحةٌ لنَحوِ ما يُتوهَّمُ في الدُّنيا.

﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ حكايةٌ لِمَا يُسأَلُ عنه في ذلكَ اليومِ، ولِما يجابُ به، أو لِمَا دلَّ عليه ظاهرُ الحالِ فيه مِن زَوالِ الأسبابِ وارتفاعِ الوسائطِ، وأمَّا حقيقَةُ الحالِ فناطقَةٌ بذلك دائمًا.

(١٧) - ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ كأنَّه نتيجةٌ لِمَا سبقَ، وتَحقيقُهُ أنَّ النُّفوسَ تكتسبُ[2] بالعقائدِ والأعمالِ هيئاتٍ تُوجِبُ لذَّتَها وألَمَها لكنَّها لا تَشعرُ بها في الدُّنيا لعوائقَ تَشغَلُها، فإذا قامَتْ قِيامَتُها زالتِ العَوائِقُ وأدركت لذَّتَها وألَمَها[3].

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «وأعمالهم».

(٢) في نسخة الفاروقي: «تكسب».

(٣) قال الآلوسي في «روح المعاني» معلقاً على هذاا لكلام: الظاهر أن هذا قول باللذة والألم =

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بنقصِ الثَّوابِ وزيادةِ العِقابِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إذ[1] لا يَشغَلُهُ شأنٌ عن شأنٍ، فيَصِلُ إليهم ما يستحقُّونَهُ سَريعًا.

(١٨) ـ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ أي: القِيامةِ، سُمِّيَت بها لأُزوفِها؛ أي: قُرْبِها، أو الخُطَّةِ الآزِفَةِ وهي مُشارفَتُهم النَّارَ، وقيل: الموتَ[2].

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ فإنَّها ترتفعُ عَن أَماكنِها وتلتَصِقُ[3] بحُلوقِهم، فلا تعودُ فيتروَّحُوا ولا تخرجُ فيَستَرِيحُوا.

﴿كَٰظِمِينَ﴾ على الغمِّ، حالٌ مِن أصحابِ القلوبِ على المعنى؛ لأنَّه على الإضافةِ أو مِنْها، أو مِن ضَمِيرِهَا في (لدى)، وجَمَعَهُ لذلك؛ لأنَّ الكظمَ مِن أفعالِ العُقَلاءِ كقولِه: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، أو مِن مَفعولِ ﴿أَنْذِرْهُم﴾ على أنَّه حالٌ مُقدَّرَةٌ.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾: قريبٍ مُشفِقٍ ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾: ولا شفيعٍ مُشفَّعٍ.

والضَّمائرُ إن كانَتْ للكفَّارِ ـ وهو الظَّاهرُ ـ كان وَضعُ الظَّالِمِينَ مَوضِعَ ضَميرِهِم للدَّلالةِ على اختصاصِ ذلك بهم وأنَّه لظُلْمِهِم.

(١٩) ـ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ النَّظرةَ الخائنةَ، كالنَّظرةِ الثَّانيةِ إلى المحرَّمِ[4] واستراقِ النَّظرِ إليه، أو خيانةَ الأعيُنِ.

= الروحانيين ونحن لا ننكر حصولهما يومئذ لكن نقول: إن الجزاء لا ينحصر بهما بل يكون أيضا بلذة وألم جسمانيين. فالاقتصار في تفسير الآية على ذلك قصور.

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «أي».

(٢) انظر: «لباب التفاسير» (٨/ ٨٤).

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «فتلتصق».

(٤) في نسخة الفاروقي والخيالي: «غير المَحْرَم».

﴿وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ مِن الضَّمائرِ، والجملَةُ خبرٌ خامِسٌ للدَّلالةِ على أنَّه ما مِن خَفِيٍّ إلا وهو مُتعلَّقُ العلمِ والجَزاءِ.

(٢٠) ـ ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ﴾ لأنَّه المالكُ الحاكمُ على الإطلاقِ فلا يقضي بشَيْءٍ إلَّا وهو حقُّهُ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ تهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ الجمادَ لا يُقالُ فيه: إنَّه يَقضي أو لا يَقضي.

وقرأ نافِعٌ وهِشامٌ[١] بالتَّاءِ[٢] على الالتفاتِ، أو إضمارِ (قُلْ).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقريرٌ لعلمهِ بخائنةِ الأعيُنِ وقَضائِهِ بالحقِّ، ووعيدٌ لهم على ما يقولونَ ويفعلونَ، وتعريضٌ بحالِ ما يدعونَ مِن دونِه.

(٢١) ـ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مآلُ حالِ الذين كذَّبُوا الرُّسُلَ قبلَهُم كعادٍ وثمودَ.

﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: قُدرةً وتَمكُّنًا.

وإنَّما جيءَ بالفصلِ وحَقُّهُ أن يقعَ بينَ مَعرِفتَينِ لِمُضارعَةِ (أَفعلَ مِن) للمَعرِفَةِ في امتناعِ دخولِ الَّلامِ عليه.

وقرأ ابنُ عامرٍ ﴿أشدَّ مِنكُم﴾ بالكافِ[٣].

﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مثلَ القِلاعِ والمدائنِ الحصينَةِ.

---

(١) «وهشام»: ليس في نسخة الفاروقي.

(٢) وهي قراءة نافع، وابن عامر من رواية هشام، انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٨)، و«التيسير» (ص: ١٩١).

(٣) «وقرأ ابن عامر «أشد منكم» بالكاف» من نسخة التفتازني. وانظر: «السبعة» (ص: ٥٦٨)، و«التيسير» (ص: ١٩١).

وقيل: المَعنى: وأكثرَ آثارًا كقولِه:

مُتَقلِّــدًا سَــيْفًا وَرُمْحَــا[١]

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يمنعُ العَذابَ عَنْهُم.

(٢٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذُ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمُعجزاتِ أو الأحكامِ الواضِحَةِ، ﴿فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ مُتمَكِّنٌ ممَّا يُريدُهُ غايةَ التَّمكُّنِ، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يُؤبَهُ بعقابٍ دونَ عِقابِه.

(٢٣) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني المعجزاتِ.

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحُجَّةٍ قاهرةٍ ظاهرةٍ[٢]، والعطفُ لتَغايُرِ الوَصْفَيْنِ، أو لإفرادِ بَعضِ المُعجزاتِ كالعَصَا تَفخيمًا لشَأْنِه.

(٢٤) ـ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يعنونَ مُوسى عليهِ السَّلامُ.

وفيه تَسلِيَةٌ لرَسُولِ اللهِ ﷺ، وبيانٌ لِعاقبَةِ مَن هوَ أَشَدُّ الذين كانوا من قبلِهم بطشًا وأقرَبُهم زمانًا.

---

(١) عجز بيت لعبد الله بن الزِّبَعْرى، وهو في «ديوانه» (ص: ٣٢)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٦٨)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ١٢١)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٧٧)، و«الكامل» للمبرد (١/ ٢٩١) و(٢/ ٢٠٤)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٣١) و«تفسير الطبري» (١/ ١٣٧). ومعناه: متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً. وصدره:

يــا ليــت زوجــك قــد غــدا

ويروى:

ورأيــتُ زوجَــك فــي الوغــى

(٢) «ظاهرة»: ليس في نسخة الخيالي والطبلاوي.

(٢٥) ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾ أي: أعيدُوا عليهم ما كُنتُمْ تفعَلُونَ بـهـم أوَّلًا كي يصدُّوا عَنْ مُظاهرَةِ مُـوسـى.

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾: في ضَياعٍ.

ووضعُ الظَّاهرِ فيه موضِعَ الضَّميرِ لتَعميمِ الحُكمِ والدَّلالَةِ على العِلَّةِ.

(٢٦) ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ كانُوا يَكُفُّونَهُ مِن قتلِهِ ويقولون: إنَّه ليسَ الذي تخافُه بل هو ساحِرٌ ولو قتلتَهُ ظُنَّ أنَّكَ عَجَزْتَ عَن مُعارضَتِه بالحُجَّةِ، وتَعلُّلُه بذلك مع كونِه سَفَّاكًا في أهوَنِ شيءٍ دَليلٌ على أنَّه تيقَّنَ أنَّه نَبيٌّ فخافَ مِن قتلِهِ، أو ظَنَّ أنَّه لو حاولَه[1] لم يتيَسَّرْ له، ويُؤيِّدُه قولُه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ فإنَّه تَجلُّدٌ وعدمُ مُبالاةٍ بدُعائِه ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ إن لم أَقْتُلْه ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾: أن يُغيِّرَ مـا أنتُمْ عليهِ مِـن عبادتِه[2] وعبادةِ الأصنامِ؛ لقولِه: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ ما يفسدُ دُنياكُمْ مِن التَّحارُبِ والتَّهارُجِ إن لم يَقْدِرْ أنْ يُبطِلَ[3] دينكُم بالكُلِّيَّةِ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافِعٌ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ بالواوِ على مَعنى الجمعِ[4]، وابنُ كَثيرٍ وأبو عمرو وابنُ عامرٍ والكوفيُّونَ غيرَ حَفصٍ بفتحِ الياءِ والهاءِ[5] ورفعِ (الفسادِ).

---

(١) في نسخة الفاروقي: «جادله».

(٢) في نسخة التفتازاني: «عبادتي». وفي هامش نسخة الفاروقي: «الأولى: عبادتي. سعدي».

(٣) في نسخة التفتازاني: «يبدل».

(٤) أي بالـواو العاطفـة: ﴿وأن يظهـر﴾، وقـراءة الكوفيين عاصم وحمـزة والكسـائي: ﴿أو أن﴾ بألف قبـل الـواو، وكذلـك هي فـي مصحاف أهـل الكوفـة، انظـر: «السـبعة» (ص: ٥٦٩)، و«التيسـير» (ص: ١٩١)، و«النشر» (٢/ ٣٦٥).

(٥) أي: (يَظْهَرَ) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٦)، و«التيسير» (ص: ١٩١)، و«النشر» (٢/ ٣٦٥)؟

(٢٧) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ أي: لقومِه لَمَّا سَمِعَ بكَلامِهِ[١]: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صَدَّرَ الكلامَ بـ(إنَّ) تأكيدًا وإشعارًا على أنَّ السَّببَ المؤكِّدَ في دفعِ الشرِّ هو العياذُ باللهِ، وخَصَّ اسمَ الربِّ؛ لأنَّ المطلوبَ هو الحفظُ والتَّربيةُ، وأضافَه[٢] إليه وإليهم حثًّا لهم على مُوافقتِهِ لِمَا في تَظاهُرِ الأرواحِ مِن استجلابِ الإجابةِ.

ولم يُسَمِّ فِرعونَ وذَكَرَ وَصْفًا يعمُّه وغيرَهُ؛ لتَعميمِ الاستعاذةِ ورعايةِ الحقِّ والدَّلالةِ على الحاملِ له على القولِ.

وقرأ أبو عَمرٍو وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿عُتُّ﴾[٣] فيهِ وفي (الدخان) بالإدغامِ، وعن نافعٍ مِثلُه[٤].

(٢٨) ـ ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مِن أَقاربِه، وقيل: ﴿مِّنْ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ والرَّجلُ إسرائيليٌّ، أو غريبٌ مُوحِّدٌ كانَ يُنافِقُهم.

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أتقصدونَ قتلَهُ ﴿أَن يَقُولَ﴾ لأن يقولَ، أو: وقتَ أَنْ يقولَ مِن غيرِ رَوِيَّةٍ وتأمُّلٍ في أمرِهِ، ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وحدَهُ، وهو في الدَّلالةِ على الحصرِ مثل: صَدِيقِي زَيدٌ.

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المتكثِّرَةِ على صدقِه مِن المعجزاتِ والاستدلالاتِ.

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافَهُ إليهِمْ بعدَ ذكرِ البيِّناتِ احتِجاجًا عليهم واستِدراجًا لهم إلى الاعترافِ به.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «كلامه».

(٢) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «وإضافته».

(٣) انظر: «التيسير» (ص: ٤٤).

(٤) انظر: «النشر» (٢/ ١٦).

ثـمَّ أخذَهُم بالاحتجاجِ مِـن بـابِ الاحتياطِ فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يَتخطَّاهُ وَبَالُ كذبِه فيُحتاجَ في دفعِهِ إلى قتلِه. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ فَلا أقلَّ مِن أَنْ يُصيبَكُم بعضُهُ.

وفيـه مُبالغَـةٌ فـي التَّحذيـرِ، وإظهارٌ للإنصـافِ وعَـدمِ التَّعصُّبِ، ولذلـك قدَّمَ كونَـهُ كاذبًا.

أو يُصِبْكُم ما يَعِدُكُم مِن عذابِ الدُّنيَا وهو بعضُ مَواعيدِهِ؛ كأنَّهُ خَوَّفَهُم بما هو أظهَرُ احتمالًا عندَهُم، وتفسيرُ البَعضِ بالكلِّ كقولِ لَبِيدٍ:

تَـرَّاكُ أَمْكِـنَــةٍ إذَا لَـمْ أَرْضَـهَـا أَوْ يَرْتَبِـطْ بَعْـضَ النُّفُـوسِ حِمَامُهَـا[1]

= مردودٌ؛ لأنَّه أرادَ بالبعضِ نفسَهُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ احتجاجٌ ثالثٌ ذات وجهين:

أحدهمـا: أنَّـه لـو كانَ مُسـرِفًا كذَّابًـا لَمَـا هـداهُ اللهُ إلـى البيِّنـاتِ ولَمـا عضدَهُ بتلـكَ المُعجـزاتِ.

وثانيهما: أنَّ مَن خذلَهُ اللهُ وأهلكَهُ فلا حاجةَ لَكُم إلى قتلِه، ولعلَّهُ أرادَ به المعنى الأوَّلَ وخيَّلَ إليهم الثَّاني؛ ليُلَيِّنَ[2] شَكِيمتَهُم، وعرَّضَ به لفرعونَ بأنَّهُ مُسرِفٌ كذَّابٌ لا يهديهِ اللهُ[3] سبيلَ الصَّوابِ وطريقَ[4] النَّجاةِ.

---

(١) البيت في «ديوان لبيد» (ص: ١١٣)، وهو من معلقته المشهورة، وقد فسر أبو عبيدة البعض في البيت بالكل فقال: الموت لا يعتلق بعض النفوس دون بعض. وتعقبه الزجاج في «معاني القرآن» (١/ ٤١٥) ـ تفسير آل عمران ـ بقوله: إن البعض والجزءَ لا يُكونُ الكُل، وأنشد أبو عبيدة بيتًا غلط في معناه ـ يعني هذا البيت ـ وقال: المعنى: أو يعتلق كل النفوس حمامها، وإنما المعنى: أو يعتلق نفسي حمامها. وفي كلام الناس: بعض يعرفك، أي: أنا أعرفك.

(٢) في نسخة الخيالي: «لتليين».

(٣) في نسخة الخيالي زيادة: «إلى».

(٤) في نسخة الفاروقي والتفتازاني والطبلاوي: «وسبيل» بدل «وطريق».

(٢٩) ـ ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ﴾: غالبيـنَ عاليـنَ ﴿فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾: أرضِ مصـرَ.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: فلا تُفسِدُوا أمرَكُم ولا تتعرَّضُوا لبأسِ اللهِ بقَتلِهِ فإنَّه إنْ جاءَنا لم يمنَعْنَا منه أحدٌ.

وإنَّما أدرجَ نفسَهُ في الضَّميرَيْنِ؛ لأنَّه كانَ مِنْهُم في القرابةِ، وليريَهُم أنَّه معَهُم ومُساهِمُهُم فيما ينصحُ لهم.

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ﴾ ما أشيرُ إليكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وأستَصْوِبُه مِن قتلِه ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ وما أُعَلِّمُكُمْ إلَّا ما عَلِمْتُ مِـن الصَّوابِ، وقلبي ولِساني مُتواطِئَانِ عليه ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾: طريقَ الصَّوابِ(١).

وقُرِئَ بالتَّشديدِ(٢) على أنَّه فَعَّالٌ للمُبالغةِ مِن رَشِدَ كعَلَّامٍ، أو مِن رَشَدَ كعَبَّادٍ، لا مِن أرشدَ كجَبَّارٍ مِن أَجْبَرَ؛ لأنَّهُ مَقصورٌ على السَّماعِ، أو للنِّسبةِ إلى الرُّشدِ كعَوَّاجٍ وبَتَّاتٍ(٣).

(٣٠) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم﴾ فـي تكـذيبِه والتَّعرُّضِ لـه، ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ مثلَ أيَّامِ الأُمَمِ الماضيةِ يعني وَقائِعَهُم، وجمعُ الأحزابِ مع التَّفسيرِ أَغْنى عن جمعِ اليَومِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وما أعلمكم إلا ما علمت من طريق الصواب وقلبي ولساني عليه» بدل من قوله: «﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ وما أعلمكم» إلى هاهنا، والمثبت من بقية النسخ.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٤١)، عن معاذ رضي الله عنه.

(٣) قوله: «كعواج وبتات»؛ أي: بيَّاع العاج وبيَّاع البتِّ، وهو الطيلسانُ من خَزٍّ أو صوف، انظر: «فتوح الغيب» (١٣/ ٥٠٥).

(٣١) ـ ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ مثلَ جزاءِ ما كانوا عليه دائبًا مِن الكفرِ وإيذاءِ الرُّسُلِ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقومِ لُوطٍ.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ فلا يُعاقِبُهم بغيرِ ذنبٍ ولا يُخلِّي الظَّالمَ منهم بغيرِ انتقامٍ، وهو أبلغُ مِن قولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦][١] مِن حيثُ إنَّ المنفيَّ فيه نفيُ حُدوثِ تَعلُّقِ إرادتِه بالظُّلمِ.

(٣٢) ـ ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾: يومَ القيامةِ، ينادي فيه بعضُهُم بعضًا للاستغاثةِ، أو يتصايَحُونَ بالويلِ والثُّبورِ، أو يتنادَى أصحابُ الجنَّةِ وأصحابُ النَّارِ كما حكى في (الأعراف).

وقُرِئَ بالتَّشديدِ[٢]، وهو أن يَنِدَّ بعضُهم مِن بعضٍ، كقولِه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤].

(٣٣) ـ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ﴾ عن الموقفِ ﴿مُدْبِرِينَ﴾: منصرفينَ عنه إلى النَّارِ، وقيل: فارِّينَ عنها ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمُكُم مِن عَذابِه، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

(٣٤) ـ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ يوسفُ بنُ يعقوبَ على أنَّ فِرعونَهُ فرعونُ موسَى، أو على نسبَةِ أحوالِ الآباءِ إلى الأولادِ، أو سبطُه يوسفُ بنُ إبراهيمَ بنِ يوسفَ.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ مِن قبلِ موسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمُعجزاتِ ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ مِن الدِّينِ ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ ماتَ ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ ضمًّا

---

(١) لأن نفي إرادة الشيء أبلغ من نفيه، ونفي النكرة أشمل إذ معناه لا يريد شيئاً من الظلم خصوصاً، والآية الثانية فيها نفي المبالغة، وقد ذكر ثمة أن فيها مبالغة من وجه آخر، قاله الخفاجي «حاشيته»، بتصرف.

(٢) أي: (التنادّ) بتشديد الدال، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٤٣)، عن ابن عباس والضحاك، وذكرها الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣١٨) دون نسبة.

إلى تكذيبِ رِسالَتِه تكذيبَ رِسالةِ مَن بعدَهُ، أو جزمًا بأَنْ لا يُبعَثَ بعدَهُ رَسولٌ مع الشَّكِّ في رسالتِهِ.

وقُرِئَ: (أَلَنْ يَبْعَثَ اللهُ)[1] على أنَّ بعضَهُم يُقرِّرُ بعضًا بنَفْيِ البعثِ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلكَ الإضلالِ ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في العِصْيَانِ، ﴿مُّرْتَابٌ﴾ شاكٌّ فيما يشهَدُ به البيِّناتُ لغَلَبةِ[2] الوهمِ والانهماكِ في التَّقليدِ.

(٣٥) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ مِن الموصولِ الأوَّلِ لأنَّه بمَعنى الجمعِ.

﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ بغيرِ حُجَّةٍ، بل إمَّا بتقليدٍ أو شُبهَةٍ داحِضَةٍ ﴿أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه ضميرُ (مَنْ)، وإفرادُهُ للَّفظِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مُبتدأً وخبرُهُ ﴿كَبُرَ﴾ على حذفِ مُضافٍ؛ أي: وجدالُ[3] الذين يجادِلُونَ كَبُرَ مَقْتًا أو بغيرِ سلطانٍ، وفاعِلُ ﴿كَبُرَ﴾: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كَبُرَ مقتًا مثلُ ذلك الجدالِ، فيكونُ قولُه: ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ استئنافًا للدَّلالةِ على الموجِبِ لجِدالِهِم.

وقرَأَ أبو عمرٍو وابنُ ذكوانَ[4]: ﴿قلبٍ﴾ بالتَّنوينِ[5] على وصفِه بالتَّكبُّرِ والتَّجبُّرِ لأنَّه مَنبَعُهُما كقولِهم: رأَتْ عَيني وسَمِعَتْ أُذُني، أو على حذفِ مُضافٍ؛ أي: على كلِّ ذي قلبٍ مُتكبِّرٍ.

---

(١) انظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ١٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥٥٩)، عن أبيٍّ وابن مسعود رضي الله عنهما.

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «بغلبة».

(٣) في نسخة الفاروقي: «وجدل».

(٤) في نسخة الفاروقي: «لجدالهم وقُرِئَ».

(٥) والباقون بترك التنوين، انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٩١).

(٣٦) ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ بناءً مَكشُوفًا عاليًا، مِن صَرَّحَ الشَّيءُ: إذا ظهرَ.

﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ الطُّرقَ.

(٣٧) ـ ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بيانٌ لها، وفي إبهامِها ثمَّ إيضاحِها تفخيمٌ لشأْنِها وتَشويقٌ للسَّامعِ إلى مَعرِفَتِها.

﴿فأطَّلعُ إلى إلهِ مُوسَى﴾ عطفٌ على ﴿أَبْلُغُ﴾، وقرأَ حَفصٌ بالنَّصبِ[١] على جوابِ التَّرجِّي، ولعلَّهُ أرادَ أنْ يَبنِيَ له رَصَدًا في موضعٍ عالٍ يرصُدُ منه أحوالَ الكواكبِ التي هي أسبابٌ سَماويَّةٌ تَدلُّ على الحوادثِ الأرضيَّةِ فيَرَى هل فيها ما يدلُّ على إرسالِ اللهِ تَعالى إيَّاه.

أو: أن يُرِيَ فسادَ قولِ مُوسى بأنَّ إخبارَهُ مِن إلهِ السَّماءِ يتوقَّفُ[٢] على اطلاعِه ووُصولِه إليه، وذلك لا يَتأتَّى إلا بالصُّعودِ إلى السَّماءِ وهو ممَّا لا يَقْوَى عليهِ الإنسانُ وذلك لجَهْلِه باللهِ وكيفيَّةِ استنبائِه.

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ في دَعْوَى الرِّسالةِ[٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلَ ذلك التَّزيينِ ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيلِ الرَّشادِ، والفاعِلُ علَى الحقيقَةِ هو اللهُ، ويدلُّ عليه أنَّه قُرِئَ: (وزَيَّنَ) بالفتحِ[٤]، وبالتوسُّطِ الشَّيطانُ.

---

(١) أي: ﴿فأطلعَ﴾، وقراءة الباقين بالرفع، انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٠)، و«التيسير» (ص: ١٧٢).

(٢) في نسخة الفاروقي: «متوقفٌ».

(٣) في نسخة الفاروقي: «النبوة».

(٤) انظر: «الكشاف» (٧/ ٥٧٩)، و«البحر» (١٨/ ٤٢٨).

وقرأ الحِجازيَّانِ والشَّاميُّ وأبو عمرٍو: ﴿وصَدَّ﴾[1] على أنَّ فِرعونَ صَدَّ النَّاسَ عَن الهُدى بأمثالِ هذه التَّمويهاتِ والشُّبُهاتِ، ويؤيِّدُه: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: خَسَارٍ.

(٣٨) ـ ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ يعني مُؤمِنَ آلِ فرعونَ، وقيل: موسى: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ بالدَّلالةِ ﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ سبيلًا يَصِلُ سالِكُهُ إلى المقصودِ، وفيه تعريضٌ بأنَّ ما عليه فرعونُ وقومُهُ سبيلُ الغَيِّ.

(٣٩) ـ ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ تمتُّعٌ يَسيرٌ لسُرعَةِ زَوالِها ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ لخُلودِها.

(٤٠) ـ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلًا مِن اللهِ، وفيه دليلٌ على أنَّ الجناياتِ تُغْرَمُ بمِثْلِها.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغيرِ تَقديرٍ ومُوازنَةٍ بالعملِ بل أضعافًا مُضاعفَةً فضلًا منهُ ورَحمةً، ولعلَّ تقسيمَ العُمَّالِ، وجعلَ الجزاءِ جُملَةً اسميَّةً مُصدَّرَةً باسمِ الإشارةِ، وتفضيلَ الثَّوابِ[2] لتَغليبِ الرحمَةِ، وجَعَلَ العملَ عُمدَةً والإيمانَ حالًا؛ للدَّلالةِ على أنَّه شَرطٌ في اعتبارِ العملِ، وأنَّ ثوابَهُ أعلى مِن ذلكَ.

(٤١) ـ ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ كرَّرَ نِداءَهُم إيقاظًا لهم عَن سِنَةِ الغَفلَةِ، واهتمامًا بالمُنادى له، ومبالغةً في تَوبيخِهم على ما

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٧١)، و«التيسير» (ص: ١٣٣)، و«النشر» (٢/ ٢٩٨).

(٢) قوله: «وتفضيل الثواب»: بالضاد المعجمة في جميع النسخ، وكذا قاله الخفاجي في «حاشيته» والمعنى: أنه جعله زائداً على العمل لكونه أضعافاً مضاعفة له. ثم قال: وجوَّز كونه بالصاد المهملة؛ أي جعله مفصلاً.

يقابلونَ به نُصحَهُ، وعَطفهُ[1] عـلـى النِّداءِ الثَّاني الدَّاخلِ على ما هو بيانٌ لِمَا قبلَهُ، ولذلك لـم يَعطِف على الأوَّلِ؛ فإنَّ ما بعدَهُ أيضًا تفسيرٌ لِمَا أَجمَلَ فيه تصريحًا أو تعريضًا[2] أو على الأوَّلِ.

(٤٢) ـ ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ ﴾ بدلٌ أو بيانٌ فيه تعليلٌ، والدُّعاءُ كالهدايةِ في التَّعدِيَةِ بـ(إلى) واللامِ.

﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ﴾ برُبوبيَّتِه ﴿عِلْمٌ﴾ والمرادُ نفيُ المعلومِ والإشعارُ بأنَّ الأُلوهِيَّةَ لا بُدَّ لها مِن بُرهانٍ واعتقادَها لا يَصِحُّ إلا عَنْ إيقانٍ.

﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ المستجمعِ لصِفَاتِ الأُلـوهيَّةِ مِـن كَـمالِ القُدرَةِ والغَلَبَةِ وما يتوقَّفُ عليه مِن العلمِ والإرادةِ والتَّمكُّنِ مِن المُجازاةِ والقُدرَةِ على التَّعذيبِ والغُفرانِ.

(٤٣) ـ ﴿ لَا جَرَمَ﴾ (لا) ردٌّ لِمَـا دعـوهُ إليه و﴿جَرَمَ﴾ فَعَلَ بمعنى: حقَّ، وفاعِلُه: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: حـقَّ عـدمُ دَعـوةِ آلهتِكُم إلـى عِبادَتِهـا أَصـلًا؛ لأنَّها جمـاداتٌ ليسَ لها مـا يَقتَضِـي أُلوهِيَّتَها، أو: عـدمُ دَعوَةٍ مُسـتجابةٍ، أو: عـدمُ اسـتجابةِ دعوةٍ لها.

وقيل: ﴿جَرَمَ﴾ بمَعنى كَسَبَ وفاعِلُه مُستكِنٌّ فيه؛ أي: كَسَبَ ذلك الدُّعاءَ إليه أَنْ لا دعوةَ له؛ بمعنى: ما حصلَ مِن ذلك إلا ظهورُ بُطلانِ دَعوَتِه.

وقيل: فَعَلٌ مِن الجَرْمِ بمعنى القَطْعِ، كمَا أنَّ (بُدًّا) مِن (لا بُدَّ) فُعْلٌ مِن (التَّبديدِ)

---

(١) قوله: «وعطفه»: اسم مبتدأ، أو فعل ماض معطوف على «كرر نداءهم». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الفاروقي: «وتعريضًا». وهي في نسخة كما قال الخفاجي في «حاشيته».

وهو التَّفريقُ، والمعنى: لا قطعَ لبُطلانِ دعوةِ[1] أُلوهيَّةِ الأصنامِ؛ أي: لا ينقطِعُ في وقتٍ ما فتَنْقَلِبُ حقًّا، ويؤيِّدُه قولُهم: (لا جُرْمَ أنَّه يفعلُ) لغةٌ فيه كالرُّشْدِ والرَّشَدِ.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالموتِ ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الضَّلالةِ والطُّغيانِ كالإشراكِ وسَفْكِ الدِّماءِ ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ مُلازِمُوها.

(٤٤) ـ ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ فسيذكرُ بَعضُكُم بعضًا عند مُعاينةِ العَذابِ ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ مِن النَّصيحةِ ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ ليعصمَني مِن كُلِّ سُوءٍ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيحرسُهُم، فكأنَّهُ جوابُ تَوعُّدِهِم المفهومِ مِن قولِه:

(٤٥) ـ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ شَدائدَ مَكرِهِم، وقيل: الضَّميرُ لِمُوسى.

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ بفِرْعَونَ وقومِه، واستغنى بذِكرِهِم عَن ذكرِهِ للعلمِ بأنَّه أَوْلَى بذلك.

وقيل: بطَلَبةِ المؤمنِ مِن قومِهِ، فإنَّه فرَّ منه إلى جبلٍ فأَتْبعهُ طائفةً فوَجدوهُ يُصَلِّي والوحوشُ صفوفٌ حولَهُ فرَجَعُوا رعبًا، فقتلَهُم.

﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ الغرقُ، أو القتلُ، أو النَّارُ.

(٤٦) ـ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ، أو ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبرُ مَحذوفٍ و﴿يُعْرَضُونَ﴾ استئنافٌ للبيانِ، أو بدلٌ و﴿يُعْرَضُونَ﴾ حالٌ مِنها أو من الآلِ.

وقُرِئَتْ مَنصوبةً[2] على الاختصاصِ أو بإضمارِ فعلٍ يُفَسِّرُه ﴿يُعْرَضُونَ﴾

---

(١) في نسخة الخيالي: «دعوى».

(٢) أي: (النَّارَ)، انظر: «الكشاف» (٧/ ٥٨٥)، و«البحر» (١٨/ ٤٣٢)، وأجازها الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٩)، لكن لم يصرح بأنها قراءة.

مثل: يُصْلَوْنَ؛ فإنَّ عرضَهُم على النَّارِ إحراقُهُم بها مِن قولِهِم: عُرِضَ الأُسارى على السَّيفِ: إذا قُتِلُوا به، وذلك لأرواحِهِم كما روى ابنُ مَسعودٍ: إنَّ أرواحَهُم في أَجوافِ طَيرٍ سُودٍ تُعرَضُ على النَّارِ بُكرةً وعَشِيًّا إلى يومِ القيامَةِ.

وذكرُ الوَقتينِ يحتملُ التَّخصيصَ والتَّأبيدَ، وفيهِ دَليلٌ على بقاءِ النَّفسِ وعَذابِ القَـبـرِ.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: هذا ما دامَت الدُّنيَا، فإذا قامَتِ السَّاعَةُ قيلَ لهم: ﴿أُدْخُلُوا آلَ فِرعونَ﴾ يا آلَ فِرعونَ ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ عذابَ جهنَّمَ، فإنَّه أشَدُّ مما كانوا فيهِ أو أشدُّ عذابِ جَهنَّمَ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ ونافِعٌ ويعقوبُ وحَفصُ ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾[1] على أمرِ الملائكَةِ بإدخالِهِم النَّارَ.

(٤٧) ـ ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ واذكُرْ وقتَ تَخاصُمِهِم فيها، ويحتملُ عطفه على ﴿غُدُوًّا﴾.

﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ تفصيلٌ لهُ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تُبَّاعًا كخَدَمٍ في جمعِ خادِمٍ، أو ذَوِي تَبَعٍ بمعنى اتّباعٍ؛ على الإضمارِ أو التَّجوُّزِ.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بالدَّفعِ أو الحملِ، و﴿نَصِيبًا﴾ مفعولٌ لِمَا دَلَّ عليهِ ﴿مُّغْنُونَ﴾، أو له بالتَّضمينِ[2]، أو مَصدرٌ كـ(شيئًا) في قولِه: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠]، فيكون ﴿مِّنَ﴾ صِلَةً لـ﴿مُّغْنُونَ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٢)، و«النشر» (٢/ ٣٦٥).

(٢) قوله: «مفعول»؛ أي به «لما دلَّ عليه مغنون»؛ أي: هل أنتم دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾، «أوله» أي: أو مفعول لـ ﴿مُّغْنُونَ﴾ «بالتضمين»؛ أي: بتضمنه معنى (حاملين) «حاشية الأنصاري» (٥/ ٥٧).

(٤٨) ـ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ نحن وأنتُمْ فكيفَ نُغْنِي عَنْكُم ولـو قَدَرْنا لأغنينا عَنْ أنفُسِنَا.

وقُرِئَ: (كُلًّا)[1] على التَّأكيدِ؛ لأنَّه بمعنى: كلُّنا، وتنوينُه عِوَضٌ عن المضافِ إليهِ، ولا يجوزُ جعلُهُ حالًا مِن المُستكنِّ في الظَّرفِ، فإنَّه لا يعمَلُ في الحالِ المُتقدِّمَةِ كمَا يعملُ في الظَّرفِ المُتقدِّمِ كقولك: كلَّ يومٍ لكَ ثوبٌ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ بأَنْ أدخلَ أهلَ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلَ النَّارِ النَّارَ ولا مُعَقِّبَ لحُكمِه.

(٤٩) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ أي: لخزَنَتِها، ووَضعُ (جهنَّمَ) مَوضِعَ الضَّميرِ للتَّهويلِ أو لبيانِ مَحَلِّهِم فيها، إذ يحتملُ[2] أن تكونَ جَهَنَّمُ أبعدَ دَرَكاتِها مِن قَوْلِهم: بِئْرٌ جِهِنَّامٌ: بعيدةُ القَعْرِ.

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا ﴾ قدرَ يومٍ ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ شيئًا مِن العَذابِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ المفعولُ ﴿يَوْمًا ﴾ بحذفِ المضافِ و﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ بيانُه.

(٥٠) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أرادوا بهِ إلزامَهُم للحُجَّةِ، وتوبيخَهُم على إضاعَتِهِم أوقاتَ الدُّعاءِ وتعطيلِهِم أسبابَ الإجابةِ.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ﴾ فإنَّا لا نجترئُ فيه[3] إذ لم يُؤذَنْ لنا في الدُّعاءِ لأَمثالِكُم، وفيه إقناطٌ لَهُم عن الإجابةِ.

---

(١) نسبت لابن السميفع، انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٣/ ٢١٢)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥٦٣)، و«البحر» (١٨/ ٤٣٥).

(٢) في نسخة الخيالي: «ويحتمل».

(٣) قال الشهاب في «حاشيته»: يعني ليس المقصود أمرهم بالدعاء، بل امتناعهم من الدعاء مع التوبيخ، وامتناعهم منه يتضمن إقناطهم من الإجابة لهم.

﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ في[1] ضياعٍ لا يُجَابُ.

(٥١) ـ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالحُجَّةِ والظَّفرِ والانتقامِ لَهُم مِن الكفرةِ، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ أي: في الدَّارينِ، ولا ينتقضُ ذلك بما كانَ لأعدائهم عليهم[2] مِن الغلبةِ امتحانًا[3]؛ إذ العبرةُ بالعواقبِ وغالبِ الأمرِ.

و﴿ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾: جمعُ شاهدٍ كصَاحبٍ وأَصحابٍ، والمرادُ بهم: مَن يَقومُ يومَ القِيامَةِ للشَّهادةِ على النَّاسِ مِن الملائكةِ والأنبياءِ والمُؤمنينَ.

(٥٢) ـ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدلٌ مِن الأوَّلِ، وعدمُ نَفعِ المعذرَةِ؛ لأَنَّها باطِلَةٌ، أو لأنَّه لا يُؤذَنُ لهم فيعتذرونَ.

وقرأ غيرُ الكوفِيِّينَ ونافعٌ بالتَّاءِ[4].

﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ البعدُ مِن الرَّحمَةِ ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ جهنَّمُ.

(٥٣) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ما يُهتدى به في الدِّينِ[5] مِن المعجزاتِ والصُّحُفِ والشَّرائعِ، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وتَركْنا عليهم بعدَهُ مِن ذلك التَّوراةَ.

---

(١) «في» من نسخة التفتازاني.

(٢) في كل النسخ عدا نسخة الفاروقي: «لهم» بدل: «لأعدائهم عليهم».

(٣) في نسخة الفاروقي: «أحياناً».

(٤) من قوله: «وقرأ غير الكوفيين ونافع بالتاء»: ليس في نسخة الفاروقي، انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٢)، و«التيسير» (٢/ ٣٦٥).

(٥) في نسخة الخيالي: «الدارين».

(٥٤) ـ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ هدايةً وتذكرةً[١]، أو هاديًا ومُذكِّرًا[٢] ﴿لِأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ﴾ لذَوِي العُقولِ السَّليمَةِ.

(٥٥) ـ ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذى المشركينَ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بالنَّصرِ لا يُخْلِفُهُ واستشهِدْ[٣] بحالِ مُوسى وفِرعونَ، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ وأقبِلْ على أمرِ دينك، وتدارَكْ فَرَطاتِكَ بتركِ[٤] الأَولى والاهتمامِ بأمرِ العِدَى بالاستغفارِ؛ فإنَّهُ تَعالى كافيكَ بالنَّصرِ[٥] وإظهارِ الأمرِ.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ﴾ ودُمْ على التَّسبيحِ والتَّحميدِ لرَبِّك.

وقيل: صَلِّ لهذينِ الوقتينِ؛ إذ كان الواجبُ بمكَّةَ ركعتينِ بُكْرةً وركعتينِ عَشِيًّا.

(٥٦) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِي ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ عامٌّ في كلِّ مُجادِلٍ مُبطِلٍ وإن نزلَت في مُشركي مكَّةَ أو اليهودِ حينَ قالوا: لستَ صاحبَنا بل هو المسيحُ بن داودَ[٦] يبلُغُ سلطانُهُ البرَّ والبحرَ ويسيرُ معه الأنهارُ[٧].

﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إلا تكبُّرٌ عن الحقِّ وتعظُّمٌ عَن التَّفكُّرِ والتَّعلُّمِ، أو إرادةُ الرِّياسَةِ، أو أنَّ النبوَّةَ والملكَ لا يكونان[٨] إلا لهم، ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ ببالغِي دفعِ الآياتِ أو المرادِ.

---

(١) في هامش نسخة الفاروقي: «إشارة إلى أنهما مفعول له».

(٢) في هامش نسخة الفاروقي: «إشارة إلى أنهما حال».

(٣) قوله: «واستشهد»: إما هو بصيغة الأمر، أو هو بصيغة الماضي. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «كترك».

(٥) في نسخة الفاروقي: «في النصر»، وفي نسخة التفتازاني: «من النصر».

(٦) يريدون: الدجال. كما في «الكشاف» (٧/ ٥٩١).

(٧) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦)، و«الكشاف» (٧/ ٥٩١).

(٨) في كل النسخ ما عدا نسخة الخيالي: «يكون».

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فالتَجِئ إليه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لأقوالِكُم وأفعالِكُم.

(٥٧) ـ ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ فمَنْ قَدَرَ على خلقِها مع عِظَمِها أوَّلًا مِن غيرِ أصلٍ قَدَرَ على خلقِ الإنسانِ ثانيًا مِن أصلٍ وهو بيانٌ لأشْكَلِ ما يُجادِلُونَ فيه من أمرِ التَّوحيدِ.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنَّهُم لا ينظرونَ ولا يتأمَّلُونَ لفرطِ غَفْلَتِهِم واتِّباعِهِم أهواءَهُم.

(٥٨) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ الغافلُ والمُستَبْصِرُ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ والمحسِنُ والمُسيءُ، فينبَغِي أن يكونَ لَهُم حالٌ يظهرُ فيها التَّفاوُتُ وهي فيما بعدَ البَعثِ، وزيادةُ (لا) في المُسيءِ؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ مساواتِه للمُحسنِ فيما له مِن الفضلِ والكرامةِ.

والعاطفُ الثَّاني عطفَ المَوصولَ[1] بما عُطِفَ عليه على الأَعمى والبَصيرِ؛ لتَغايُرِ الوَصْفَيْنِ في المقصودِ، أو الدّلالةِ بالصَّراحةِ والتَّمثيلِ.

﴿قليلًا ما يتذكَّرونَ﴾ أي: تَذكُّرًا ما قليلًا يَتذكَّرونَ، والضَّمِيرُ للنَّاسِ أو الكُفَّارِ[2].

---

(١) قوله: (والعاطف الثاني عطف الموصول...) إلخ إشارة إلى أن المراد عطف المجموع على المجموع كما في قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ ولم يترك العطف بينهما لأن الأول مشبه به والثاني مشبه فهما بحسب المآل متحدان، فكان ينبغي ترك العطف بينهما لأن كلاً من الوصفين مغاير لكل من الوصفين الآخرين، وتغاير الصفات كتغاير الذوات في صحة التعاطف، ووجه التغاير أن الغافل والمتبصر والمحسن والمسيء صفات متغايرة الفهوم بقطع النظر عن اتحاد ما صدقها، وعدمه ولا حاجة إلى القول بأن القصد في الأولين إلى العلم وفي الآخرين إلى العمل، قاله الخفاجي في «حاشيته».

(٢) في نسخة الخيالي: «أو للكفار».

وقرأ الكوفِيُّونَ بالتَّاءِ[١] على تغليبِ المُخاطبِ، أو الالتفاتِ، أو أمرِ الرَّسولِ بالمُخاطبَةِ.

(٥٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ في مَجيئِهَا؛ لوُضوحِ الدَّلالةِ على جوازِهَا، وإجماعِ الرُّسُلِ على الوعدِ بوُقوعِها.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدِّقونَ بها؛ لقُصورِ نَظرِهم على ظاهرِ ما يحسُّونَ به.

(٦٠) ـ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ اعبُدوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أُثِبْكُم[٢]؛ لقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ صاغرينَ، وإنْ فُسِّرَ الدُّعاءُ بالسُّؤالِ كان الاستكبارُ الصَّارِفُ عنه مُنزَّلًا مَنزِلَتَهُ للمُبالغَةِ، أو المرادُ بالعبادةِ الدُّعاءُ فإنَّه مِن أبوابِها.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ: ﴿سيُدْخَلُونَ﴾ بضمِّ الياءِ وفَتحِ الخاءِ[٣].

(٦١) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ لتَسْتَريحُوا فيه؛ بأن خلقَهُ باردًا مُظلمًا ليؤدِّيَ إلى ضعفِ المُحرِّكاتِ وهدوءِ الحواسِّ.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يُبصَرُ فيه أو بهِ، وإسنادُ الإبصارِ إليه مَجازٌ فيه مُبالغةٌ، ولذلك عُدِلَ بهِ عن التَّعليلِ إلى الحالِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لا يُوازيهِ فضلٌ، وللإشعارِ به لم يَقُل: لمُفضِّلٌ.

---

(١) وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم، انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٢).

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «أثب لكم».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٧٢)، و«التيسير» (ص: ١٩٢)، و«النشر» (٢/ ٢٥٢).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لجَهْلِهم بالمنعمِ، وإغفالِهم مواقعَ النِّعَمِ.

وتكريرُ النَّاسِ؛ لتَخصيصِ الكُفرانِ بهم.

(٦٢) ـ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المخصوصُ بالأفعالِ المُقتَضِيَةِ للألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ، ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبارٌ مُترادِفَةٌ، تُخصِّصُ اللاحقَةُ السَّابقةَ وتُقرِّرُهَا.

وقُرِئَ: (خالِقَ) بالنَّصبِ[1] على الاختصاصِ، فيكونُ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافًا بما هو كالنَّتيجَةِ للأوصافِ المذكورةِ.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيفَ ومِن أيِّ وجهٍ تُصرَفُونَ مِن عبادتِهِ إلى عبادَةِ غيرِهِ؟!

(٦٣) ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: كمَا أُفِكُوا أُفِكَ عَنِ الحقِّ كلُّ مَن جحدَ بآياتِ الله ولم يَتأمَّلْها.

(٦٤) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ استدلالٌ ثانٍ بأفعالٍ أُخَرَ مَخصوصةٍ.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بأَنْ خَلقَكُم مُنتصبَ القامةِ باديَ البشرةِ مُتناسبَ الأعضاءِ والتَّخطيطاتِ مُتهيِّأً لِمُزاولَةِ الصِّناعاتِ[2] واكتسابِ الكَمالاتِ.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ اللَّذائذِ.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنَّ كُلَّ ما سِواهُ مربوبٌ مُفتَقِرٌ بالذَّاتِ معرَّضٌ للزَّوالِ.

---

(١) انظر: «البحر» (١٨/ ٤٤٦) عن زيد بن علي.

(٢) في نسخة التفتازاني: «الصنائع».

(٦٥) ـ ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ المتفرِدُ بالحياةِ الذَّاتيةِ ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجودَ يُساويهِ أو يُدانيهِ في ذاتِهِ وصِفاتِه، ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبدوهُ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطَّاعةَ مِن الشِّركِ والرِّياءِ، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قائلينَ له.

(٦٦) ـ ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى﴾ مِـن الحججِ والآياتِ، أو مِـن الآياتِ فإنَّها مقويةٌ لأدلَّةِ العقلِ منبِّهَةٌ عليها، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أَنْ أنقادَ له وأخلصَ له ديني.

(٦٧) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أطفالًا، والتَّوحيدُ لإرادةِ الجنسِ، أو على تأويلِ كلِّ واحدٍ مِنْكُم.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ اللَّامُ فيه مُتعلِّقَةٌ بمَحذوفٍ تَقديرُهُ: ثـمَّ يُبقيـكُمْ لتَبْلُغوا، وكذا في قوله: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾، ويجوزُ عَطفُهُ على ﴿لِتَبْلُغُوٓا۟﴾.

وقُرِئَ[1]: ﴿شِيوخًا﴾ بالكسرِ[2]، و(شِيْخًا)[3] لقولِه ﴿طِفْلًا﴾.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ الشَّيخوخَةِ، أو بلوغِ الأَشُدِّ، ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾ ويفعلُ ذلك لتَبْلُغوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ هو وقتُ المَوتِ أو يومُ القِيامةِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «لتبلغوا وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام» بدل: «وقرئ»، والمثبت من بقية النسخ، ولعل عبارة النسخة نسخة التفتازاني غير تامّة، قال الأنصاري في «حاشيته» (٥/ ٦٣ ـ ٦٤): «وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام ﴿شُيُوخاً﴾ بضم الشين»: ساقط من نسخ، وبتقدير ثبوته وصحته كان الأنسب أن يقول بدل قوله: «وقرئ ﴿شيوخاً﴾ بالكسر»: والباقون بالكسر، اهـ. وانظر التعليق الآتي.

(٢) وهي قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وابن ذكوان وأبو بكر، انظر: «السبعة» (ص: ١٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٩٢)، و«النشر» (٢/ ٢٢٦).

(٣) انظر: «الكشاف» (٧/ ٥٩٨).

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك مِن الحُججِ والعِبَرِ.

(٦٨) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ فإذا أرادَهُ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يحتاجُ في تكوينِهِ إلى عُدَّةٍ وتَجشُّمِ كُلْفةٍ.

والفاءُ الأولى للدَّلالةِ على أنَّ ذلك نتيجةُ ما سبقَ مِن حيثُ إنَّه يَقتَضِي قدرةً ذاتيَّةً غيرَ مُتوقِّفَةٍ على العُدَدِ والموادِّ.

(٦٩) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ عن التَّصديقِ به، وتكريرُ ذمِّ المُجادلةِ؛ لتعدُّدِ المجادِلِ، أو المجادَلِ فيهِ، أو للتَّوكيدِ.

(٧٠) ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بالقُرآنِ، أو بجنسِ الكُتُبِ السَّماويَّةِ، ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ مِن سائرِ الكُتبِ، أو الوحيِ والشَّرائعِ، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جزاءَ تكذيبِهم.

(٧١ ـ ٧٢) ـ ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ ظرفٌ لـ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إذ المعنى على الاستقبالِ، والتَّعبيرُ بلفظِ المُضيِّ[١] لتيقُّنِه.

﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عطفٌ على ﴿الأغلال﴾، أو مُبتدأٌ خبرُه: ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: يُسحَبُونَ بها، وهو على الأوَّلِ حالٌ.

وقُرِئَ: (والسَّلاسِلَ يَسْحَبُونَ) بالنَّصبِ وفتحِ الياءِ[٢] على تقديمِ المفعولِ وعطفِ الفِعليَّةِ على الاسميَّةِ، و(السَّلاسلِ) بالجرِّ[٣] حملًا على المعنى؛ إذ

---

(١) في نسخة الخيالي: «الماضي».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٤٤).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٧٨)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٢٣٣)، و«إعراب القرآن» له (٤/ ٣١)، و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (٢/ ٦٣٨)، و«الكشاف» (٧/ ٥٩٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥٦٩)، و«البحر» (١٨/ ٤٥٠).

الأغـلالُ فـي أعناقِهـم بمعنى: أعناقُهُم فـي الأَغـلالِ، أو إضمارًا للبـاءِ، ويدلُّ عليه القراءةُ به(١).

﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ يُحْرَقونَ، مِن سَجَرَ التَّنُّورَ: إذا ملأَهُ بالوقودِ.

ومِنهُ: السَّجِيرُ(٢) للصَّدِيقِ كأنَّه سُجِرَ بالحُبِّ؛ أي: مُلِئَ، والمرادُ أنَّهم يُعذَّبُونَ(٣) بأنواعٍ مِن العَذابِ وينقلونَ مِن بعضِهَا إلى بعضٍ.

(٧٣ ـ ٧٤) ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابُـوا عنـا، وذلك قبـلَ أَنْ يُقرَنَ بهـم آلهتُهُـم، أو ضاعوا عنَّا فلـم نَجِدْ مِنْهُـم ما كُنَّا نَتوقَّـعُ منهم.

﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي: بَلْ تبيَّنَ لَنا أنَّا لم نَكُن نعبدُ شيئًا بعبادَتِهِم فإنَّهُم ليسوا شيئًا يُعتَدُّ به، كقولك: حَسِبْتُه شيئًا؛ فلَمْ يَكُن.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ هذا(٤) الضَّلالِ ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حتَّى لا يَهْتَدُوا إلى شيءٍ ينفَعُهُم في الآخرةِ، أو يضلُّهُم عَن آلِهَتِهِم حتَّى لو تَطَالَبُوا لَمْ يَتصادَفُوا.

(٧٥) ـ ﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضـلالُ ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تبطرونَ وتَتكبَّرُونَ ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو الشِّركُ والطُّغيانُ ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ تتوسَّعُونَ في الفرحِ، والعُدولُ إلى الخطابِ للمُبالغَةِ في التَّوبيخِ.

---

(١) أي: «وبالسلاسل يسحبون»، وهي قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه كما في «معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٢٣٣)، وذكرها عنه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٦٩)، وأبو حيان في «البحر» (١٨/ ٤٥٠) بلفظ: (وفي السلاسل).

(٢) قوله: «ومنه السجير»، سجير الرجل خليله وصفيه، انظر: «الصحاح» (مادة: سجر).

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي: «والمراد تعذيبهم».

(٤) في نسخة التفتازاني: «ذلك».

(٧٦) ـ ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الأبـوابَ السَّبـعةَ المقسومـةَ لَكُم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدِّرينَ الخُلودَ، ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عَن الحقِّ جهنَّمُ، وكان مُقتضى النَّظمِ: فبِئْسَ مدخَلُ المُتكبِّرينَ، ولكن لَمَّا كان الدُّخولُ المقيَّدُ بالخلودِ سببَ الثَّواءِ عبَّرَ بالمَثْوَى[1].

(٧٧) ـ ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بهلاكِ الكُفَّارِ ﴿حَقٌّ﴾ كائنٌ لا مَحالةَ.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ فإنْ نُرِكَ، و(ما) مَزيدةٌ لتَأكيدِ الشَّرطيَّةِ ولذلك لحقَتِ[2] النُّونُ الفِعلَ، ولا تلحقُ مع (إن) وحدَها.

﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ وهو القتلُ والأسرُ، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبلَ أَنْ تراهُ.

﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يـومَ القيامةِ فنجازيهم بأعمـالِهم، وهـو جوابُ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوفٌ مثلُ: فذاكَ.

ويجـوزُ أن يكـونَ جـوابًا لهما بمعنـى: إنْ نُعذِّبهُم فـي حياتِكَ أو لـم نُعذِّبْهم فإنَّـا نُعذِّبُهـم فـي الآخرةِ أشـدَّ العَذابِ، ويـدلُّ على شِـدَّتِه الاقتصارُ بذكـرِ الرُّجوعِ في هـذا المَعرِضِ.

(٧٨) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ إذ قيـلَ: عـددُ الأنبيـاءِ مئةُ ألـفٍ وأربعةٌ وعِشـرونَ ألفًا، والمذكـورُ قِصَّتُهم أشـخاصٌ مَعدودةٌ.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنَّ المُعجزاتِ عطايا قسَمَها بينَهُم

(١) في نسخة الفاروقي: «ذكر المثوى».

(٢) في نسخة التفتازاني: «ألحقت».

على ما اقتَضَتْه حكمتُه كسائرِ القِسَمِ ليسَ لهم[١] اختيارٌ في إيثارِ بعضِها والاستبدادِ بإتيانِ المقترحِ بها.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بالعذابِ في الدُّنيا أو الآخرةِ ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ بإنجاءِ المُحِقِّ وتعذيبِ المُبطِلِ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ المعاندونَ باقتراحِ الآياتِ بعدَ ظُهورِ ما يُغنيهِم عنها.

(٧٩) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فإنَّ مِن جنسِها ما يُؤكَلُ كالغنمِ، ومِنْهَا ما يُؤكَلُ ويُركَبُ وهو الإبلُ والبقرُ.

(٨٠) ـ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ كالألبانِ والجُلودِ والأوبارِ، ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ بالمُسافرَةِ عليها، ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البرِّ ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ في البَحرِ ﴿تُحْمَلُونَ﴾.

وإنَّما قال: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾، ولم يقل: (في الفُلكِ)؛ للمُزاوجَةِ.

وتَغييرُ النَّظْمِ في الأكلِ؛ لأنَّهُ في حَيِّزِ الضَّرورَةِ. وقيل: لأنه يُقصَدُ به التَّعيُّشُ والتَّلذُّذُ.

والرُّكوبُ، والمسافرةُ عليها قد تكونُ لأغراضٍ دينيَّةٍ واجبةٍ أو مندوبةٍ.

أو للفرقِ بين العينِ والمنفعَةِ.

(٨١) ـ ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ دلائِلَهُ الدَّالَّةَ على كمالِ قُدرَتِه وفرطِ رَحمَتِه.

﴿فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: أيَّ آيةٍ مِن تلك الآياتِ ﴿تُنكِرُونَ﴾ فإنَّها لِظُهورِهَا لا تقبَلُ الإنكارَ، وهو ناصبُ (أيَّ)، إذ لَوْ[٢] قدَّرْتَهُ مُتعلِّقًا بضَمِيرِه كانَ الأَوْلَى رفعُهُ، والتَّفرِقَةُ بالتَّاءِ في (أي) أغرَبُ منها في الأسماءِ غيرِ الصِّفاتِ لإبهامِه.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «لهم فيه».

(٢) في نسخة الفاروقي: «ولو».

(٨٢) ـ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ ما بَقِيَ مِنْهُم مِن القُصورِ والمصانعِ ونحوهما.

وقيل: آثارَ أقدامِهم في الأرضِ لِعِظَمِ أَجرامِهِم.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الأولى نافِيَةٌ أو استفهاميَّةٌ مَنصوبَةٌ بـ(أغنى)، والثَّانيةُ موصولةٌ أو مَصدريَّةٌ مرفوعةٌ به.

(٨٣) ـ ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمُعجِزاتِ أو الآياتِ الواضحاتِ ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ واستحقرُوا علمَ الرُّسلِ، والمرادُ بالعلمِ عَقائِدُهُم الزَّائفةُ وشُبَهُهم الدَّاحِضَةُ كقوله: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ [النمل: ٦٦] وهو قولهم: لا نُبعَثُ، ولا نُعذَّبُ، وما أظنُّ السَّاعةَ قائمةً، ونحوُها.

وسمَّاها عِلْمًا على زَعمِهِم تهكُّمًا بهم، أو مِن علمِ الطَّبائعِ والتَّنجيمِ والصَّنائعِ ونحوِ ذلك، أو علمِ الأنبياءِ.

وفَرَحُهُم به فرحُ[1] ضَحِكِهم منه واستهزائِهم به، ويُؤيِّدُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وقيل: الفرحُ أيضًا للرُّسُلِ فإنَّهُم لَمَّا رَأَوْا تمادِيَ جهلِ الكُفَّارِ وسوءَ عاقِبَتِهِم فَرِحُوا بما أُوتوا مِن العلمِ وشَكروا اللهَ عليه، وحاقَ بالكافرينَ جزاءُ جهلِهِم واستِهزائِهِم.

(٨٤) ـ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ شِدَّةَ عَذابِنا ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ يعنونَ الأصنامَ.

(٨٥) ـ ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾؛ لامتناعِ قَبولِهِ حينئذٍ، ولذلك قال: (لم يَكُ) بمَعنى: لم يَصِحَّ ولم يَسْتَقِم.

---

(١) «فرح» من نسخة الفاروقي.

والفاءُ الأولى؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ كالنَّتيجَةِ لقولِه: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾.

والثَّانيةُ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ﴾ كالتَّفسيرِ لقوله: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾.

والباقِيَتانِ؛ لأنَّ رؤيةَ البأسِ مُسبَّبَةٌ عَن مجيءِ الرُّسُلِ، وامتناعَ نفيِ الإيمانِ مُسبَّبٌ عن الرُّؤيَةِ.

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ أي: سَنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً ماضِيَةً في العبادِ، وهي مِن المصادرِ المؤكِّدةِ، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي: وقتَ رُؤيَتِهِم البأسَ، اسمُ مكانٍ استُعِيرَ للزَّمانِ.

وعن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرَأَ سُورَةَ المُؤمِنِ لَمْ يبقَ رُوحُ نَبِيٍّ وَلَا صِدِّيقٍ وَلَا شَهِيدٍ وَلَا مُؤْمِنٍ إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ»[١].

***

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ١٥٧)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٥٨)، وهو قطعة من حديث أبي بن كعب الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٧٢).

(٤٠) سورة غافر مكية وآياتها خمس وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا،

وقوله تعالى: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾، أي تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذّر وإن تكاثف حجابه، وقوله عزّ وجلّ: ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ أي يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه، وخضع لديه، وقوله جل وعلا ﴿شديد العقاب﴾ أي لمن تمرد وطغى، وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله تعالى وبغى، وهذه كقوله: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن ليبقى العبد بين الرجاء والخوف، وقوله تعالى: ﴿ذي الطول﴾ قال ابن عباس: يعني السعة والغنى[١]، وقال يزيد بن الأصم ﴿ذي الطول﴾ يعني الخير الكثير، وقال عكرمة: ذي المن، وقال قتادة: ذي النعم والفواضل، **والمعنى** أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ الآية، وقوله جلت عظمته: ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا نظير له في جميع صفاته فلا إله غيره ولا رب سواه، ﴿إليه المصير﴾ أي المرجع والمآب، فيجازي كل عامل بعمله، وقال أبو بكر ابن عياش: جاء رجل إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين إني قتلت فهل لي من توبة؟ فقرأ عمر رضي الله عنه: ﴿حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾، وقال: اعمل ولا تيأس[٢]، وعن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر

---

(١) وهو قول مجاهد وقتادة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

ابن الخطّاب رضي الله عنه، ففقده عمر فقال: ما فعل فلان ابن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هـذا الشراب، قال، فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب «من عمر بن الخطّاب إلى فلان ابن فلان: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلّه إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إلّه إلا هو إليه المصير»، ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه»، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جعل يقرأه ويردّده ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي، فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زل زلة فسدّدوه ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه[1].

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إلا الذين كفروا﴾ أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾ أي في أموالهم ونعيمها وزهرتها، كما قال جل وعلا: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، ثم قال تعالى مسلياً لنبيّه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿والأحزاب من بعدهم﴾ أي من كل أمة، ﴿وهمَّت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾ أي حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا بـه الحق﴾ أي ما حلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي، روى ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أعان باطلاً ليدحض بـه حقاً فقد برئت منه ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ»[2].

وقوله جلّت عظمته ﴿فأخذتهم﴾ أي أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام، ﴿فكيف كـان عقاب﴾ أي فكيف بلغك عذابي لهم ونكالي بهم لقد كان شديداً موجعاً مؤلماً؟ قال قتادة: كان شديداً والله.

وقوله جل جلاله: ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ أي كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد، بطريق الأولى، لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك، والله أعلم.

ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والحافظ أبو نعيم.

(٢) أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.

كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة، ومن حوله الملائكة من الكروبيين، بأنهم ﴿ يسبّحون بحمد ربهم ﴾ أي يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح، ﴿ ويؤمنون به ﴾ أي خاشعون له أذلاء بين يديه، وأنهم ﴿ يستغفرون للذين آمنوا ﴾ أي من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤمّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت في الصحيح: « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثله »[1] . قال شهر بن حوشب رضي الله عنه: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ أي رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾، أي فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا، وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخير وترك المنكرات، ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجع الأليم، ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ أي ساوينا بين الكل في المنزلة لتقر أعينهم، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني، بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل، تفضلاً منا ومنة. وقال سعيد بن جبير: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل، فيقول: إني إنما عملت لي ولهم فيلحقون به في الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية: ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾، وقوله تبارك وتعالى ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي الذي لا يمانع ولا يغالب، ﴿ وقهم السيئات ﴾ أي فعلها، أو وبالها ممن وقعت منه، ﴿ ومن تق السيئات يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فقد رحمته ﴾ أي لطفت به ونجيته من العقوبة ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه .

﴿وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم، وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا، حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم في هذه الحالة، قال قتادة: المعنى لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم، حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة[1]، وقوله: ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: هذه الآية، كقوله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية، **والمقصود** أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله عزّ وجلّ في عرصات القيامة، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ فلا يجابون، ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسيسها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ كقوله ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾، وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة، وهي قولهم: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ أي قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً ثم أمتنا ثم أحييتنا فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، ﴿فهل إلى خروج من سبيل﴾ أي فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تمجه وتنفيه، ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا﴾ أي أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدار الدنيا كما قال عزّ وجلّ ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿فالحكم لله العلي الكبير﴾ أي هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجور، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء. وقوله جل جلاله: ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ أي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة، الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها،

---

(١) وهكذا قال الحسن البصري ومجاهد والسدي.

(٢) وكذا قال ابن عباس والضحّاك وقتادة.

﴿ وينزّل لكم من السماء رزقاً ﴾ وهو المطر الذي يخرج بـه من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختـلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بـين هذه الأشياء، ﴿ وما يتذكر ﴾ أي يعتبر ويتفكر في هـذه الأشياء ويستدل بهـا على عظمة خالقها ﴿ إلا من ينيب ﴾ أي من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ أي فأخلصوا لله وحده العبادة والدعـاء وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم، قال الإمام أحمد: كان عبدالله بن الزبير يقول في دُبُر كل صلاة حين يسلم « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. قال: وكان رسول الله ﷺ يهل بهن دُبُر كل صلاة »[1]، وقـد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله. ولا نعبد إلا إياه » الحديث، وقال النبي ﷺ: « ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجـابة، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعـاءً من قلب غـافل لاه »[2].

* رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه، وارتفـاع عرشه العظيم العـالي على جميع مخلوقاته، كالسقف لها كما قال تعالى: ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾. وقـد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وارتفـاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة، وقوله تعالى: ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾، كقوله جلت عظمته: ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أن لا إله إلا أنا فاتقون ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ نزل بـه الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾، قال ابن عباس: ﴿ يوم التلاق ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة حذر الله منه عباده، يلتقي فيه آدم وآخر ولده، وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد. وقال قتادة والسدي: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق، وقال ميمون بن مهران: يلتقي الظالم والمظلوم، وقـد يقال إن يوم التلاق يشمل هذا كله ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر كما قاله آخرون. وقوله جلّ جلاله: ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ أي ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم، ﴿ لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار ﴾ قـد تقدم في حديث ابن عمر

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم والترمذي والنسائي.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً.

رضي الله عنهما أنه تعالى يطوي السماوات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك ، أنا الجبار ، أنا المتكبر . أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ وفي حديث الصور أنه عزّ وجلّ إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه وحده لا شريك له ، حينئذ يقول: ﴿ لمن الملك اليوم﴾ ؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿ لله الواحد القهار ﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : ينادي مناد بين يدي الساعة يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات، قال، وينزل الله عزّ وجلّ إلى السماء الدنيا ويقول : ﴿ لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ﴾[1] ، وقوله جلّت عظمته: ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾، يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر ، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ ، كما ثبت في صحيح مسلم : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا – إلى أن قال – يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال جلّ وعلا: ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ .

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

يوم الآزفة : اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لاقترابها ، كما قال تعالى: ﴿ أزفت الآزفة • ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ ، وقال عزّ وجلّ: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾، وقال جل وعلا: ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ الآية، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ . قال قتادة : وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها[2] ، ومعنى ﴿ كاظمين ﴾ أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾، وقال ابن جريج ﴿ كاظمين ﴾ أي باكين، وقوله سبحانه ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ ، أي ليس للذين ظلموا من قريب ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير ، وقوله تعالى: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ يخبر عزّ وجلّ عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ليحذر الناس ربهم ، فيتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ، فإنه عزّ وجلّ يعلم العين الخائنة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر ، قال ابن عباس ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس موقوفاً .

(٢) وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد .

غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود لو اطلع على فرجها . وقال الضحّاك ﴿ خائنة الأعين ﴾: هو الغمز، وقول الرجل رأيت ولم ير، وقال ابن عباس: يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي: ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي من الوسوسة، وقوله عزّ وجلّ ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ أي يحكم بالعدل . قال ابن عباس: قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾، وقوله جلّ وعلا: ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿ لا يقضون بشيء ﴾ أي لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء، ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .

* أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)

يقول تعالى: ﴿ أو لم يسيروا ﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ أي من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿ وآثاراً في الأرض ﴾ أي أثروا في الأرض من البنايات والمعالم ما لا يقدر هؤلاء عليه كما قال عزّ وجلّ، ﴿ وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ مع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ وهي كفرهم برسلهم، ﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾ أي وما دفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق، ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها، فقال تعالى ﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، ﴿ فكفروا ﴾ أي مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا، ﴿ فأخذهم الله ﴾ تعالى أي أهلكهم ودمر عليهم، ﴿ إنه قوي شديد العقاب ﴾ أي ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو ﴿ شديد العقاب ﴾ أي عقابه أليم شديد وجيع، أعاذنا الله تبارك وتعالى منه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)

يقول تعالى مسلياً لنبيّه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا

والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، ولهذا قال تعالى: ﴿ بآياتنا وسلطان مبين﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان، ﴿إلى فرعون﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية، ﴿وهامان﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿وقارون﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة، ﴿فقالوا: ساحر كذاب﴾ أي كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً، مموّهاً كذاباً في أن الله جل وعلا أرسله وهذه كقوله تعالى: ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾، ﴿فلما جاءهم بالحق من عندنا﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله عزّ وجلّ أرسله إليهم، ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم﴾، وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل، أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني فلإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام، ولهذا قالوا: ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ أي وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه﴾، وهذا عزم من فرعون - لعنه الله تعالى - على قتل موسى عليه الصلاة والسلام، أي قال لقومه دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿وليدع ربه﴾ أي لا أبالي منه، وهذا في غاية الجحد والعناد ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مذكراً، يعني واعظاً، يشفق على الناس من موسى عليه السلام، ﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ أي لما بلغه قول فرعون ﴿ ذروني أقتل موسى﴾ قال موسى عليه السلام: استجرت بالله، وعذت به من شره وشر أمثاله، ولهذا قال: ﴿ إني عذت بربي وربكم﴾ أيها المخاطبون ﴿من كل متكبر﴾ أي عن الحق مجرم ﴿لا يؤمن بيوم الحساب﴾، ولهذا جاء في الحديث ان رسول الله ﷺ كان إذ خاف قوماً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك في نحورهم».

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان (قبطياً) من آل فرعون، قال السدي: كان ابن عم فرعون، واختاره ابن جرير، ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجله بالعقوبة لأنه منهم، قال ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾[1]، وقد كان هذا الرجل يكتم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير.

إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ فأخذت الرجل غضبة لله عزّ وجلّ، وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهي قوله: ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه عن عروة ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال، قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفِناء الكعبة إذ أقبل (عقبة بن أبي معيط) فأخذ بمنكِب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال: ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾[1]؟وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سئل: ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال: مَرّ ﷺ ذات يوم، فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال: «أنا ذاك» فقاموا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيت أبا بكر رضي الله عنه محتضنه من ورائه، وهو يصيح بأعلى صوته، وإن عينيه ليسيلان وهو يقول: يا قوم ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾؟ حتى فرغ من الآية كلها[2]، وقوله تعالى: ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أي كيف تقتلونه وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿ وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾، يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم بـه، فمن العقل والرأي والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذباً فإن الله سبحانه سيجازيه على كذبه، وإن يك صادقاً وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة، فينبغي أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وشأنه.

وقوله جل وعلا: ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ أي لو كان هذا كاذباً كما تزعمون، لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين، لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله، ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم: ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ﴾ أي قد أنعم الله عليكم بهذا الملك، والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ أي لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء. ﴿ قال فرعون ﴾ لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أي ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي، وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة، ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر ﴾، وقال الله تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾، فقوله: ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ كذب فيه وافترى، وخان رعيته فغشهم وما نصحهم، وكذا قوله: ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ أي وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد، وقد كذب أيضاً في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تبارك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم والنسائي.

وتعالى: ﴿ فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾ ، وقال جلّت عظمته: ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ . وفي الحديث: « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

هذا إخبار من الله عزّ وجلّ عن هذا الرجل الصالح (مؤمن آل فرعون) أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة، فقال ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ أي الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله وما رده عنهم راد ولا صده عنهم صاد ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ ، أي إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ يعني يوم القيامة، وسمي بذلك لما جاء في حديث الصور إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك ذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضاً، وقال الضحاك: بل ذلك إذا جيء بجهنم ذهب الناس هراباً منهم، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر وهو قوله تعالى: ﴿ والملك على أرجائها ﴾ ، وقيل: لأن الميزان عنده ملك إذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته، ألا قد سعد فلان ابن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف عمله نادى ألا قد شقي فلان بن فلان، وقيل: سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم ﴾ ، ومناداة أهل النار أهل الجنة ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ ، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة، وأهل النار كما هو مذكور في سورة الأعراف، واختار البغوي وغيره أنه سمي بذلك لمجموع ذلك، وهو قول حسن جيد، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ أي ذاهبين هاربين، ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ أي لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أي من أضله الله فلا هادي له غيره، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ يعني أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة

والسلام وهو (يوسف) عليه الصلاة والسلام كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي، ولهذا قال تعالى: ﴿ فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ أي يئستم فقلتم طامعين ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم، ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى، فإن الله عزّ وجلّ يمقت على ذلك أشد المقت ، ولهذا قال تعالى ﴿ كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ أي والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفته ، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر ﴾ أي على اتباع الحق ﴿ جبار ﴾ قال قتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق، والله تعالى أعلم .

* وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وعتوه، وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام، أنه أمر وزيره ﴿ هامان ﴾ أن يبني له ﴿ صرحاً ﴾ وهو القصر العالي المنيف الشاهق، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي ، كما قال تعالى: ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً ﴾، وقوله: ﴿ لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات ﴾ قال سعيد بن جبير : أبواب السماوات ، وقيل: طرق السماوات ﴿ فأطلع إلى آله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾، وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله عزّ وجلّ أرسله إليه، قال الله تعالى ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾ أي بصنعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية، أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني إلا في خسار .

وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الجبار الأعلى فقال لهم: ﴿ يا قوم اتبعونِ أهدكم سبيل الرشاد ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾، ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ أي قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل، ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ أي الدار التي

لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال جلت عظمته ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ أي واحدة مثلها، ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ أي لا يتقدر بجزاء، بل يثيبه الله عزّ وجلّ ثواباً كثيراً، لا انقضاء له ولا نفاد.

* وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وتصديق رسوله ﷺ الذي بعثه ﴿وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم﴾ أي على جهل بلا دليل ﴿وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ أي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه ﴿لا جرم أنَّ ما تدعونني إليه﴾ يقول: حقاً، قال ابن جرير: معنى قوله ﴿لا جرم﴾: حقاً، وقال الضحاك ﴿لا جرم﴾: لا كذب، المعنى إنّ الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ قال مجاهد: الوثن ليس له شيء، وقال قتادة: يعني الوثن لا ينفع ولا يضر. وقال السدي: لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ وقوله: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾، وقوله ﴿وأن مردنا إلى الله﴾ أي في الدار الآخرة فيجازي كلاً بعمله، ولهذا قال ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ أي خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله عزّ وجلّ ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ أي وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ أي هو بصير بهم تعالى وتقدس، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام، وأما في الآخرة فبالجنة، ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ وهو الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساء إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ أي أشده ألماً وأعظمه نكالاً، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى:

﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾. وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهي تقول: أشعرت أنكم تفتنون في قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود»، قالت عائشة: فلبثنا ليالي ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا إنكم تفتنون في القبور»، قالت عائشة رضي الله عنها: فكان رسول الله ﷺ بعد، يستعيذ من عذاب القبر[1]. وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر، فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ، عن عذاب القبر، فقال ﷺ: «نعم عذاب القبر حق» قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلَّى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[2]. وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً.

وقال قتادة ﴿غدواً وعشياً﴾: صباحاً ومساء ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم، توبيخاً ونقمة وصغاراً لهم، وقال ابن زيد: هم فيها يُغْدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة، وقال ابن أبي حاتم، عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تسرح بهم في الجنة حيث شاءوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت، فتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها[3]، وفي حديث الإسراء، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال فيه: «ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ وآل فرعون كالإبل المسومة يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون»، وروى ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى قال، قلنا: يا رسول الله! ما إثابة الله الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رحماً أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك». قلنا: فما إثابته في الآخرة؟ قال ﷺ: «عذاباً دون العذاب»، وقرأ: ﴿أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾[4]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عزّ وجل إليه يوم القيامة»[5]

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُواْ

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم والبزار.
(٥) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا
دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن تحاجّ أهل النار وتخاصمهم وفرعون وقومه من جملتهم ﴿ فيقول الضعفاء ﴾ وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ أي أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، ﴿ فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ أي قسطاً تتحملونه عنا ﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ أي لا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ أي فقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا كما قال تعالى: ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾، ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ لما علموا أن الله عزّ وجلّ لا يستجيب منهم، ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ سألوا الخزنة وهم كالسجّانين لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾؟ أي أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل؟ ﴿ قالوا بلى قالوا فادعوا ﴾ أي أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم، ثم نخبركم أنه لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي لا يقبل ولا يستجاب.

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ
ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى
وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ
﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

قد عُلِمَ أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه كيحيى وزكريا وشعيا، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً إلى الله كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟ أجاب ابن جرير على ذلك بجوابين: (أحدهما) أن يكون الخبر خرج عاماً، والمراد به البعض، وهذا سائغ في اللغة. (الثاني) أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم. وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود، فسلط الله تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وهذه نصرة عظيمة، وسنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر، أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم، ولهذا أهلك الله عزّ وجلّ قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس، وقوم لوط وأهل مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجى الله تعالى من بينهم

المؤمنين فلم يهلك منهم أحـداً، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحـداً، قال السدي: «لم يبعث الله عزّ وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه أو قومـاً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قـال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها»، وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه ببلده المشرف المعظم، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل النـاس في دين الله أفواجاً، ثم قبضه الله تعالى إليه فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله عزّ وجلّ، حتى انتشرت الدعوة المحمديه في مشارق الأرض ومغاربها؛ ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ أي يوم القيـامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل، قال مجاهد: الأشهاد الملائكة ﴿يوم لا ينفع الظالمين﴾ وهم المشركون ﴿معذرتهم﴾ أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ولهم اللعنة﴾ أي الإبعاد والطرد من الرحمة، ﴿ولهم سوء الدار﴾ وهي النـار، قال السدي: بئس المنزل والمقيل، وقال ابن عباس: أي سوء العاقبة.

وقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ وهو ما بعثه الله عزّ وجل به من الهدى والنور، ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ أي جعلنا لهم العـاقبة، وأورثنـاهم ملك فرعون، وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة ﴿هدى وذكرى لأولى الألباب﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة، وقوله عزّ وجلّ ﴿فاصبر﴾ أي يا محمد ﴿إن وعد الله حق﴾ أي وعدناك أنا سنعلي كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد، وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك، وقوله تبارك وتعالى: ﴿واستغفر لذنبك﴾ هذا تهييج للأمة على الاستغفار، ﴿وسبح بحمد ربك بالعشي﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿والإبكار﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل. وقوله تعالى: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ أي يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه - من إخماد الحق وإعلاء الباطل - بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصـدهم هو الموضوع ﴿فاستعذ بالله﴾ أي من حال مثل هؤلاء ﴿إنه هو السميع البصير﴾، أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان، هذا تفسير ابن جرير.

* لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه، بأنه خلق السماوات والأرض،

وخلقهما أكبر من خلق النـاس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾، وقال ههنا: ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق النـاس ولكن أكثر النـاس لا يعلمون ﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض وينكرون المعاد استبعاداً وكفراً وعناداً، وقـد اعترفوا بمـا هو أولى مما أنكروا، ثم قال تعالى: ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون ﴾ أي كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار، والكفرة الفجار ﴿ قليلاً ما تتذكرون ﴾ أي ما أقل ما يتذكر كثير من الناس، ثم قال تعالى: ﴿ إن الساعة لآتية ﴾ أي لكائنة وواقعة، ﴿ لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ أي لا يصدقون بهـا بـل يكذبون بوجودها.

* وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه، أنه ندب عبـاده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجـابة، قال كعب الأحبار: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطهن أمة قبلها إلا نبي: كان إذا أرسل الله نبياً قال له: أنت شاهد على أمتك، وجعلكم شهداء على الناس، وكان يقال له: ليس عليك في الدين من حرج، وقال لهـذه الأمة: ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ وكان يقال له: ادعني أستجب لك، وقال لهذه الأمة: ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾، وروى الإمـام أحمد، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿ ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «من لم يَدْعُ الله عزّ وجلّ غضب عليه»[2]. وروى الحافظ الرامهرمزي، عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري، وجدنا في ذؤابة سيفه كتاباً: بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لربكم في بقية أيام دهركم نفحات فتعرضوا له، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبداً»، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ أي عن دعائي وتوحيدي، ﴿ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين حقيرين، كما قال النبي ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة مثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له (بولس) تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبـال عصارة أهل النار»[3]. وقال وهيب بن الورد، حدثني رجل قال: كنت أسير ذات يوم في أرض الروم، فسمعت هاتفاً من فوق رأس جبل وهو يقول: يا رب عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحداً غيرك، يا رب عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك، قال: ثم عـاد الثانية فقال: يا رب عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيء

---

(١) رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، قال ابن كثير: إسناده لا بأس به.

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً.

من سخطك يرضي غيرك، قال، فناديته: أجني أنت أم إنسي؟ قال: بل إنسي، اشغل نفسك مما يعنيك عما لا يعنيك[١] وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[٢].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه، ويستريحون فيه من حركات ترددهم في المعايش بالنهار وجعل النهار مبصراً، أي مضيئاً ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يقومون بشكر نعم الله عليهم، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء هو الواحد الأحد، خالق الأشياء الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿فأنّى تؤفكون﴾ أي فكيف تعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة منحوتة! وقوله عزّ وجلّ: ﴿كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون﴾ أي كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره، بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته، وقوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾ أي جعلها لكم مستقراً، تعيشون عليها وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها، ﴿والسماء بناء﴾ أي سقفاً للعالم محفوظاً، ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ أي فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم، ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي من المآكل والمشارب في الدنيا، فذكر أنه خلق الدار والسكان والأرزاق، فهو الخالق الرزّاق، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾. وقال تعالى ههنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾ أي فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين، ثم قال تعالى: ﴿هو الحي لا إله إلا هو﴾ أي هو الحي أولا وأبداً، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا نظير له ولا عديل له ﴿فادعوه مخلصين له الدين﴾ أي موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو الحمد لله رب العالمين، عن ابن عباس قال: من قال: لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين، وذلك قوله تعالى: ﴿فادعو الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾[٣]

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه أحمد والبزار.

(٣) رواه ابن جرير.

* ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إن الله عزّ وجلّ ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، وقد بيّن تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلت عظمته : ﴿هو الذي خلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم يخرجكم طفلاً، ثم لتبلغوا أشدكم، ثم لتكونوا شيوخاً﴾ أي هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿ومنكم من يتوفى من قبل﴾ أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوفى صغيراً وشاباً وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله تعالى: ﴿لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾، وقال عزّ وجلّ ههنا : ﴿ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون﴾. قال ابن جريج : تتذكرون البعث، ثم قال تعالى: ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ أي هو المتفرد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه، ﴿فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي لا يخالف ولا يمانع بل ما شاء كان لا محالة .

* ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)﴾

يقول تعالى : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق بالباطل، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ؟ ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا﴾ أي من الهدى والبيان ﴿فسوف يعلمون﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب جل جلاله لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾، وقوله عزّ وجلّ ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل﴾ أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم، ولهذا قال تعالى : ﴿يسحبون في الحميم، ثم في النار يسجرون﴾، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾، وقال تعالى: ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صبّوا فوق رأسه من عذاب

الحميم، ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتهكم والاستهزاء بهم، وقوله تعالى: ﴿ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله﴾؟ أي قيل لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا، ﴿بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً﴾ أي جحدوا عبادتهم، كقوله جلّت عظمته: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾، ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾، وقوله: ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون﴾ أي تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشركم وبطركم، ﴿ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾، أي فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحججه، والله أعلم.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه: ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ أي في الدنيا وكذلك وقع، فإن الله تعالى أقر عينه يوم بدر ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ أي فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة، ثم قال تعالى مسلياً له: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك﴾ أي منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم، ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة، ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء ولله الحمد والمنة، وقوله تعالى: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين، ﴿قضي بالحق﴾ فينجي المؤمنين ويهلك الكافرين، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال، إلى البلاد النائية والأقطار الشاسعة، والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحرث عليها الأرض، والغنم تؤكل ويشرب لبنها، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة ولذا قال عزّ وجلّ: ﴿لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون﴾، وقوله جلَّ وعلا: ﴿ويريكم آياته﴾ أي حججه

وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿ فأي آيات الله تنكرون﴾ ؟ أي لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر ، وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم، وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا رد عنهم ذرة من بأس الله ، وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل، قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب، وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به، ﴿ وحاق بهم﴾ أي أحاط بهم ، ﴿ ما كانوا به يستهزئون﴾ أي يكذبون ويستبعدون وقوعه، ﴿ فلما رأوا بأسنا﴾ أي عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿ قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ أي وحدوا الله عزّ وجلّ وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المعذرة، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ فلم يقبل الله منه لأنه قد استجاب لنبيّه موسى عليه السلام . وهكذا قال تعالى ههنا ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده﴾ أي هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل، ولهذا جاء في الحديث : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وخسر هنالك الكافرون﴾ .

[آخر تفسير سورة غافر ، ولله الحمد والمنة]

* * *

تفسير سورة غافر[١]

وهى مكية.

قد كره بعض السلف، منهم محمد بن سيرين أن يقال: «الحواميم»، وإنما يقال: «آل حم».

قال عبد الله بن مسعود: «آل حم» ديباج القرآن.

وقال ابن عباس: إن لكل شىء لباباً، ولُبَاب القرآن «آل حم» ـ أو قال: الحواميم.

قال مِسْعَر بن كِدَام: كان يقال لهن: «العرائس».

روى ذلك كله الإمام العَلَم[٢] أبو عُبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، فى كتاب: «فضائل القرآن»[٣].

وقال حُميد بن زَنْجويه: حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص عن عبيد الله[٤] قال: إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلا، فمر بأثر غيث فبينا هو يسير فيه ويتعجب [منه][٥]، إذ هبط على روضات دَمِثات فقال: عجبت من الغيث الأول، فهذا أعجب وأعجب فقيل له: إن مثل الغيث الأول مثل عِظَم[٦] القرآن، وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات، مثل آل حم فى القرآن. أورده البغوى[٧].

وقال ابن لَهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب: أن الجرّاح بن أبى الجراح حدثه عن ابن عباس، قال: لكل شىء لباب، ولباب القرآن الحواميم[٨].

وقال ابن مسعود: إذا وَقعتُ فى «آل حم» فقد وقعتُ فى روضات أتأنّق فيهن[٩].

وقال أبو عبيد: حدثنا الأشجعى، حدثنا مسْعر ـ هو ابن كِدَام ـ عمن حدثه: أن رجلا رأى أبا الدرداء [رضى الله عنه][١٠] يبنى مسجداً، فقال له: ما هذا؟ فقال: أبنيه من أجل «آل حم»[١١].

وقد يكون هذا المسجد الذى بناه أبو الدرداء، هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق. وقد يكون صيانتها وحفظها ببركته وبركة ما وُضع له، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء، كما قال رسول الله[١٢] ﷺ لأصحابه فى بعض الغزوات: «إن بيّتم الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون». وفى رواية: «لا تنصرون»[١٣].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن الحكم بن ظِبْيان بن خَلَف المازنى، ومحمد بن

(١) فى ت، س: «المؤمن». (٢) فى أ: «العالم».
(٣) فضائل القرآن (ص١٣٧، ١٣٨).
(٤) فى ت: «عبد الله». (٥) زيادة من ت، س، أ. (٦) فى أ: «عظيم».
(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٣٤).
(٨) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص١٣٧) والبغوى فى تفسيره (٧/ ١٣٤).
(٩) رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص١٣٧). (١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) فضائل القرآن لأبى عبيد (ص١٣٧).
(١٢) فى ت: «النبى».
(١٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٤/ ٦٥) وأبو داود فى السنن برقم (٢٥٩٧) والترمذى فى السنن برقم (١٦٨٢) عن المهلب بن أبى صفرة عمن سمع النبى ﷺ.

الليث الهمدانى قالا: حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا عبد الرحمن بن أبى بكر المليكى، عن زرارة ابن مصعب، عن أبى سلمة، عن أبى هُرَيرة، رضى الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسى وأول حم المؤمن، عُصِم ذلك اليوم من كل سوء».

ثم قال: لا نعلمه يُروى إلا بهذا الإسناد. ورواه الترمذى من حديث المليكى، وقال: تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه[١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم فى أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقد قيل: إن ﴿حم﴾ اسم من أسماء الله عز وجل، وأنشدوا فى ذلك[٢].

يُذَكِّرُنى حاميمَ والرمحُ شَاجر فَهَلا تلا حَاميمَ قَبْل التَّقدُّمِ

وقد ورد[٣] فى الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى، من حديث الثورى، عن أبى إسحاق، عن المهلب بن أبى صُفْرة قال: حدثنى من سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن بُيِّتم الليلة فقولوا: حم، لا ينصرون» وهذا إسناد صحيح[٤].

واختار أبو عبيد أن يُروى: «فقولوا: حم، لا ينصروا» أى: إن قلتم ذلك لا ينصروا، جعله جزاء لقوله: فقولوا.

وقوله: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أى: تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآن ـ من الله ذى العزة والعلم ،فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه.

وقوله: ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ أى: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة فى المستقبل لمن تاب إليه وخَضَع لديه.

وقوله: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ أى: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن[٥] أوامر الله، وبغى [وقد اجتمع في هذه الآية الرجاء والخوف][٦]. وهذه كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، يقرن هذين الوصفين كثيراً فى مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف.

وقوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ قال ابن عباس: يعنى: السعة والغنى. وكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال يزيد بن الأصم: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: يعنى: الخير الكثير.

(١) سنن الترمذى برقم (٢٨٧٩).
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٤/٢٦) وفى صحيح البخارى (٨/٥٥٣) «فتح» منسوبا إلى شريح بن أوفى العبسى.
(٣) فى أ: «روى».
(٤) سنن أبى داود برقم (٢٥٩٧) وسنن الترمذى برقم (١٦٨٢).
(٥) فى أ: «على». (٦) زيادة من أ.

وقال عكرمة: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾: ذى المن.

وقال قتادة: [يعنى][(١)]: ذى النعم والفواضل.

والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هو فيه من المنن والأنعام، التى لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا [إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ] [(٢)]﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: لا نظير له فى جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى: إليه المرجع والمآب، فيجازى كل عامل بعمله، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا إسحاق السَّبيعى يقول: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][(٣)] فقال: يا أمير المؤمنين، إنى قَتَلْتُ، فهل لى من توبة؟ فقرأ عليه: ﴿حمٓ . تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وقال: اعمل ولا تيأس.

رواه ابن أبى حاتم ـ واللفظ له ـ وابن جرير[(٤)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن مروان الرَّقِّى، حدثنا عمر ـ يعنى ابن أيوب ـ أخبرنا جعفر بن بَرْقان، عن يزيد بن الأصم[(٥)] قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][(٦)]، ففقده عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع فى هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، [أما بعد][(٧)]: فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذى الطول، لا إله إلا هو إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقْبِل بقلبه، وأن يتوب الله عليه[(٨)]. فلما بلغ الرجل كتابُ عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرنى عقوبته، ووعدنى أن يغفر لى.

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان، وزاد: «فلم يزل يُرَدّدها على نفسه، ثم بكى، ثم نَزَع فأحسن النَّزع فلما بلغ عمر [رضى الله عنه][(٩)] خبرُه قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم زل زلّة فسددوه ووفقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه[(١٠)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمر بن شبَّة[(١١)]، حدثنا حماد بن واقد ـ أبو عُمَر الصفار ـ، حدثنا ثابت البنانى، قال: كنت مع مصعب بن الزبير فى سواد الكوفة، فدخلت حائطاً أصلى ركعتين، فافتتحت: ﴿حمٓ﴾ المؤمن، حتى بلغت: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فإذا رجل خلفى على بغلة شهباء عليه مُقَطَّعات يمنية، فقال: إذا قلت: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ فقل: «يا غافر الذنب، اغفر لى ذنبى».

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من ت، وفى الأصل: «الآية». (٣) زيادة من ت، أ.

(٤) تفسير الطبرى (٢٤/٢٧).

(٥) فى ت: «وروى أيضا بإسناده عن يزيد بن الأصم». (٦) زيادة من ت.

(٧) زيادة من أ. (٨) فى س، أ: «أن يقبل بقلبه ويتوب عليه».

(٩) زيادة من أ.

(١٠) حلية الأولياء (٤/٩٧).

(١١) فى أ: «ابن أبى شيبة».

وإذا قلت: ﴿ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، فقل: «يا قابل التوب، اقبل توبتى». وإذا قلت: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، فقل: «يا شديد العقاب، لا تعاقبنى». قال: فالتفت فلم أر أحداً، فخرجت إلى الباب فقلت: مرّ بكم رجل عليه مقطعات يمنية؟ قالوا: ما رأينا أحداً فكانوا يُرَون أنه إلياس.

ثم رواه من طريق أخرى، عن ثابت، بنحوه. وليس فيه ذكر إلياس.

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) ﴾.

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه، ﴿ فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴾ أى: فى أموالهم ونعيمها وزهرتها، كما قال: ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه[(١)] محمد ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء؛ فإنه قد كذبهم[(٢)] أممهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل[(٣)]، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾، وهو أول رسول بَعَثه الله ينهى عن عبادة الأوثان، ﴿ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى: من كل أمة، ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أى: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله[(٤)]، ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ ﴾ أى: مَاحَلُوا بالشبهة[(٥)] ليردوا الحق الواضح الجلى.

وقد قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا مُعْتَمر ابن سليمان قال: سمعت أبى يحدث عن حَنَش، عن عكرمة، عن ابن عباس[(٦)][رضى الله عنه] [(٧)]، عن النبى ﷺ قال: «من أعان باطلا ليدحض بباطله حقاً، فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله»[(٨)].

وقوله: ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أى: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أى: فكيف بلغك عذابى لهم، ونكالى بهم؟ قد كان شديداً موجعاً مؤلماً.

قال قتادة: كان والله شديداً.

---

(١) فى ت: «الرسوله». (٢) فى س، أ: «كذبتهم». (٣) فى ت، س: «القليل».
(٤) فى ت، س، أ: «رسولهم». (٥) فى ت، أ: «ما جاؤوا به من الشبهة».
(٦) فى ت: «وقد روى الطبرانى بإسناده». (٧) زيادة من أ .
(٨) المعجم الكبير (١١/ ٢١٥) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٠٠) من طريق على بن عبد العزيز به موقوفا وقال: «صحيح الإسناد»، وتعقبه الذهبى بقوله: «فيه حنش الرحبى وهو ضعيف».

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى: كما حقت كلمةُ العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى؛ لأن من كذّبك [1] فلا وثوق له بتصديق غيرك.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾.

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حَمَلة العرش الأربعة، ومن حوله من الكروبيين، بأنهم يسبحون بحمد ربهم، أى: يقرنون بين التسبيح الدال على نفى النقائص، والتحميد المقتضى لإثبات صفات المدح، ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أى: خاشعون له أذلاء بين يديه، وأنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: من أهل الأرض ممن آمن بالغيب، فقيض الله سبحانه ملائكته المقربين أن يَدْعُوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة، عليهم الصلاة والسلام، كانوا يُؤَمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت فى صحيح مسلم: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله»[2].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو ابن أبى شيبة ـ حدثنا عبدة بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن عكرمة عن ابن عباس[3] [رضى الله عنه][4]؛ أن رسول الله ﷺ صدّق أمية فى شىء من شعره، فقال:

رَجُلٌ وثَور تَحْتَ رِجْل يَمينه ... وَالنَّسْرُ للأُخْرَى، ولَيْثٌ مُرْصَدُ

فقال رسول الله ﷺ: «صدق». فقال:

وَالشمس تَطلعُ كل آخر لَيْـلةٍ ... حَمْراءُ يُصْبحُ لَونُها يَتَوَرَّدُ

تَأبَى فَما تَطلُع لَنَا فى رِسْلها ... إلا معَذّبَة وَإلا تُجْلَـــدَ

فقال النبى ﷺ: «صدق»[5].

وهذا إسناد جيد: وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية،

---

(١) فى س: «كذب بك».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٣٢) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

(٣) فى ت: «وقد روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) المسند (١/ ٢٥٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٢٧): «رجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس».

كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وهنا سؤال، وهو أن يقال: ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية، ودلالة هذا الحديث؟ وبين الحديث الذى رواه أبو داود:

حدثنا محمد بن الصباح البزار؛ حدثنا الوليد بن أبى ثور، عن سماك، عن عبد الله بن عَمِيرة[١]، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنت بالبطحاء فى عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا: السحاب. قال: «والمزن؟» قالوا: والمزن. قال: «والعَنَان؟» قالوا: والعنان ـ قال أبو داود: ولم أتقن العنان جيداً ـ قال: «هل تدرون بُعْدَ ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندرى. قال: «بُعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث[٢] وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك» حتى عَدّ سبع سموات «ثم فوق السماء السابعة بحر[٣]، بين[٤] أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوْعَال، بين أظلافهن ورُكبهن مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله، عز وجل، فوق ذلك» ثم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث سماك بن حرب، به[٥]. وقال الترمذى: حسن غريب.

وهذا يقتضى أن حملة العرش ثمانية، كما قال شَهْر بن حَوْشَب: حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك». وأربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك».

ولهذا يقولون إذا استغفروا [٦] للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أى: إن رحمتك تَسَع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم [وأقوالهم][٧] وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أى: فاصفح عن المسيئين[٨] إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجع الأليم[٩]. ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أى: اجمع بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع فى منازل متجاورة، كما قال [تعالى][١٠]: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَأَتْبَعناهُمْ ذُرِّيَّاتهم[١١] بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أى: ساوينا بين الكل فى المنزلة، لتقر أعينهم، وما نقصنا العالى حتى يساوى الدانى، بل رفعنا الناقص فى العمل[١٢]، فساويناه بكثير العمل، تفضلا منا ومنة.

---

(١) فى ت: «عمرة». (٢) فى ت، س: «أو اثنين أو ثلاثة».
(٣) فى ت: «ثم فوق السماء بحرا»، وفى س: «ثم فوق السابعة بحر». (٤) فى أ: «بحر ما بين».
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٧٢٣ ـ ٤٧٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣٣٢٠) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٣).
(٦) فى ت: «استغفروا للمؤمنين». (٧) زيادة من أ. (٨) فى أ: «المسلمين».
(٩) فى ت: «المؤلم». (١٠) زيادة من ت، س، أ. (١١) فى س: «واتبعتهم ذريتهم».
(١٢) فى ت، أ: «رفعنا ناقص العمل».

قال سعيد بن جبير: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه، وأين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك[١] فى العمل. فيقول: إنى إنما عملت لى ولهم. فَيُلحقُونَ به فى الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير: أنصحُ عبادِ الله للمؤمنين الملائكةُ، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم﴾ ، وأغشُّ عباد الله للمؤمنين الشياطينُ.

وقوله: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: الذى لا يمانع ولا يغالب، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم فى أقوالك وأفعالك، من شرعك وقدرك[٢].

﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: فعلها أو وَبالها ممن وقعت منه، ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أى: لطفت به ونجيته من العقوبة، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن الكفار: أنهم يُنَادَون يوم القيامة وهم فى غَمَرات النيران يتلظون، وذلك عندما[٣] باشروا من عذاب الله ما لا قِبَل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا[٤] من الأعمال السيئة، التى كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارا عاليا، نادوهم [به][٥] نداء بأن مقت الله لهم فى الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان، فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم فى هذه الحالة.

قال قتادة فى قوله: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ يقول: لمقتُ الله أهل الضلالة حين عُرِض عليهم الإيمان فى الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة[٦].

وهكذا قال الحسن البصرى، ومجاهد، والسدى، وذَرُّ بن عبد الله[٧] الهَمْدانى، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبرى، رحمهم الله.

---

(١) فى ت: «رقبتك».
(٢) فى أ: «وقدرتك».
(٣) فى أ: «بعدما».
(٤) فى ت، س: «أسلفوه».
(٥) زيادة من ت، أ.
(٦) فى أ: «عذاب الله فى يوم القيامة».
(٧) فى س: «عبيد الله».

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال الثورى، عن أبى[1] إسحاق، عن أبى الأحوص، عن ابن مسعود [رضى الله عنه][2] :هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وأبو مالك .وهذا هو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية.

وقال السّدّى: أميتوا فى الدنيا ثم أحيوا فى قبورهم فخوطبوا، ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة.

وقال ابن زيد: أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم، ثم خلقهم فى الأرحام ثم أماتهم [ثم أحياهم][3] يوم القيامة.

وهذان القولان ـ من السدى، وابن زيد ـ ضعيفان؛ لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات. والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما. والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدى الله، عز وجل، فى عرصات القيامة، كما قال:﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، فلا يجابون. ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنَّكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى:﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مَسّها وحَسيسها ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم،﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾، [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وفى هذه الآية الكريمة تلطفوا فى السؤال، وقدموا بين يدى كلامهم مُقدّمة، وهى قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أى: قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أى: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك؛ لنعمل غير الذى كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون. فأُجيبُوا ألا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا. ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تَجْحَده وتنفيه؛ ولهذا قال تعالى:﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾، أى: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أى: هو الحاكم فى خلقه، العادل الذى لا يجور، فيهدى من

(١) فى أ: «ابن». (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من ت، س، أ.

من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ** ﴾ أى: يظهر قدرته لخلقه[1] بما يشاهدونه فى خلقه العلوى والسفلى من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿ **وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا** ﴾، وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه، وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿ **وَمَا يَتَذَكَّرُ** ﴾ أى: يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿ **إِلَّا مَن يُنِيبُ** ﴾ أى: من هو بصير منيب إلى الله، عز وجل.

وقوله: ﴿ **فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ أى: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين فى مسلكهم ومذهبهم.

قال[2] الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام ـ يعنى بن عروة بن الزبير ـ عن أبى الزبير محمد بن مسلم بن مدرس المكى قال: كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم[3]: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» قال: وكان رسول الله ﷺ يُهَلِّل بهن[4] دبر كل صلاة[5].

ورواه مسلم وأبو داود والنسائى، من طرق، عن هشام بن عروة، وحجاج بن أبى عثمان، وموسى بن عقبة، ثلاثتهم عن أبى الزبير، عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول فى دبر الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له[6]» وذكر تمامه[7].

وقد ثبت فى الصحيح عن ابن الزبير؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»[8].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الربيع، حدثنا الخَصِيب بن ناصح، حدثنا صالح ـ يعنى المِرِّى ـ عن هشام بن حسان، عن ابن سِيرين، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ادعوا الله

---

(١) فى أ: «بخلقه». (٢) فى ت: «روى». (٣) فى أ: «عقب الصلوات المكتوبات».
(٤) فى ت: «بهن فى دبر».
(٥) المسند (٤/٤).
(٦) فى ت: «لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير».
(٧) صحيح مسلم برقم (٥٩٤).
(٨) صحيح مسلم برقم (٥٩٤) وسنن أبى داود برقم (١٥٠٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٢٦٢)

وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه»[١].

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)﴾.

يقول تعالى [مخبرا][٢] عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ. تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. [فَاصْبِرْ][٣]﴾ [المعارج: ٣، ٤]، وسيأتى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، فى قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله [تعالى][٤]. وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة. وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة. وقد تقدم فى حديث «الأوعال» ما يدل على ارتفاعه عن[٥] السموات السبع بشىء عظيم.

وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا [فَاتَّقُونِ][٦]﴾ [النحل: ٢]، وكقوله: ﴿وَإِنَّهُ[٧] لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ [بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ][٨]﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤]؛ ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَوْمَ التَّلاقِ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، حذر منه عباده.

وقال ابن جُرَيْج: قال ابن عباس: يلتقى فيه آدم وآخر ولده.

وقال ابن زيد: يلتقى فيه العباد.

وقال قتادة، والسدى، وبلال بن سعد، وسفيان بن عيينة[٩]: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض.

وقال قتادة أيضا: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق.

وقال مَيْمون بن مِهْران: يلتقى [فيه][١٠] الظالم والمظلوم.

---

(١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٤٧٩) عن معاوية بن صالح، ورواه الحاكم فى المستدرك (١/٤٩٣) عن عفان بن مسلم وموسى ابن إسماعيل، ورواه الطبرانى فى كتاب الدعاء برقم (٦٢) عن مخلد بن خداش، كلهم من طريق صالح المرى به. قال الطبرانى فى المعجم الأوسط: «لم يرو هذا الحديث عن هشام بن حسان إلا صالح المرى»، ومداره على صالح المرى وهو متروك.

(٢) زيادة من ت، س، أ.
(٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت.
(٥) فى ت، س: «من».
(٦) فى س: «فاعبدوه» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.
(٧) فى ت: «إنه» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.
(٨) زيادة من ت.
(٩) فى ت: «قتادة وغيره».
(١٠) زيادة من أ.

وقد يقال: إن يوم القيامة[١] هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر . كما قاله آخرون.

وقوله: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾: أي: الجميع فى علمه على السواء.

وقوله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قد تقدم فى حديث ابن عمر: أنه تعالى[٢] يطوى السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟[٣].

وفى حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه، وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى: الذى هو وحده قد قَهَر كل شيء وغلبه[٤].

وقد قال[٥] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو نَضْرة، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][٦] قال: ينادى مناد بين يدى الساعة: يأيها الناس، أتتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله [عز وجل][٧] إلى سماء الدنيا ويقول: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يخبر تعالى عن عدله فى حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت فى صحيح مسلم[٨]، عن أبى ذر، عن رسول الله ﷺ ـ فيما يحكى عن ربه عز وجل ـ أنه قال: «يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ـ إلى أن قال ـ: يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم[٩] ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[١٠].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أى: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال [تعالى][١١]: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)﴾.

(١) فى ت، س: «التلاق». (٢) فى ت: «أن الله».
(٣) سورة الزمر، الآية ٦٧ .
(٤) انظر حديث الصور بتمامه عند تفسير الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.
(٥) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم». (٦) زيادة من أ. (٧) زيادة من ت، أ.
(٨) فى ت: «البخارى»وهو خطأ . (٩) فى ت، س: «لكم».
(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).
(١١) زيادة من س .

يوم الآزفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿ **أَزِفَتِ الآزِفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ** ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وقال: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ** ﴾ [الأنبياء: ١] وقال: ﴿**أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ** ﴾ [النحل: ١] وقال: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ** ﴾ [الملك: ٢٧].

وقوله: ﴿**إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ**﴾ [أى ساكتين](١) ،قال قتادة: وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة، والسدى، وغير واحد.

ومعنى ﴿**كَاظِمِينَ**﴾ أى: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا** ﴾ [النبأ: ٣٨].

وقال ابن جُرَيْج(٢): ﴿**كَاظِمِينَ**﴾ أى: باكين.

وقوله: ﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾ أى: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

وقوله: ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حَقّ الحياء، ويَتَّقُوهُ حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.

قال ابن عباس فى قوله: ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾: وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غَضّ، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض [بصره عنها](٣) وقد اطلع الله من قلبه أنه وَدّ لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الضحاك: ﴿**خَائِنَةَ الأَعْيُنِ**﴾: هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم ير؛ أو: لم أر، وقد رأى.

وقال ابن عباس: يعلم [الله](٤) تعالى من العين فى نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿**وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزنى بها أم لا؟

وقال السدى: ﴿**وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ أى: من الوسوسة.

---

(١) زيادة من ت .
(٢) فى ت: «جرير».
(٣) زيادة من س، أ.
(٤) زيادة من س.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكم بالعدل.

وقال الأعمش: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][1] في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾: قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وهذا الذى فسر به ابن عباس فى هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ[2] الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ أى: لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أى: سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك.

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)﴾.

يقول تعالى: أو لم يسر هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة، ﴿وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ أى: أثروا فى الأرض من البنايات والمعالم والديارات، ما لا يقدر عليه هؤلاء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] أى: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهى كفرهم برسلهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أى: وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق.

ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التى ارتكبوها واجترموها، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، ﴿فَكَفَرُوا﴾ أى: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أى: أهلكهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالها، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: عقابه أليم شديد وجيع. أعاذنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾.

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى س: «لتجزى».

يقول تعالى مسليا لنبيه ﷺ[1] فى تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له فى الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران[2]، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل[3] الواضحات؛ ولهذا قال: ﴿ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ والسلطان هو: الحُجة والبرهان ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، هو: ملك القبط بالديار المصرية، ﴿ وَهَامَانَ ﴾، وهو: وزيره فى مملكته، ﴿ وَقَارُونَ ﴾، وكان أكثر الناس فى زمانه مالا وتجارة ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ أى: كذبوه وجعلوه ساحراً مُمَخْرِقاً مموهاً كذاباً فى أن الله أرسله. وهذه كقوله [تعالى][4]: ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ .أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾ أى: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم، ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثانى: فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكى يتشاءموا بموسى، عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

قال قتادة: هذا أمر بعد أمر.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴾ أى: وما مكرهم وقصدهم الذى هو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا يُنصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك فى ضلال.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾: وهذا عَزْمٌ من فرعون ـ لعنه الله ـ على قتل موسى، عليه السلام، أى: قال لقومه: دعونى حتى أقتل لكم هذا، ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أى: لا أبالى منه. وهذا فى غاية الجحد والتجهرم والعناد.

وقوله ـ قبحه الله ـ: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾، يعنى: موسى، يخشى فرعون أن يُضِلَّ موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال فى المثل: «صار فرعون مُذَكِّراً»، يعنى: واعظا، يشفق على الناس من موسى، عليه السلام.

وقرأ الأكثرون: «أن يبدل دينكم وأن يُظهِر فى الأرض الفساد» وقرأ آخرون: ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ وقرأ بعضهم: «يَظْهَر فى الأرض الفسادُ»، بالضم.

وقال موسى: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى: لما بلغه قول فرعون: ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال موسى: استجرتُ بالله وعُذْتُ به من شره وشر أمثاله؛ ولهذا قال: ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾، أيها المخاطبون، ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أى: عن الحق، مجرم، ﴿لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ

(١) فى س: «لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه».
(٢) فى أ: «لموسى عليه السلام».
(٣) فى ت: «والدلالات».
(٤) زيادة من ت، س.

﴿الْحِسَابِ﴾؛ ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوما قال: «اللهم، إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك فى نحورهم»(١).

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾.

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبْطياً من آل فرعون.

قال السدى: كان ابن عم فرعون، ويقال: إنه الذى نجا مع موسى. واختاره ابن جرير(٢)، ورَدَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً؛ لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه، وكف عن قتل موسى، عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل(٣) بالعقوبة؛ لأنه منهم(٤).

وقال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون، والذى قال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] رواه ابن أبى حاتم.

وقد كان هذا الرجلُ يكتم إيمانه عن قومه القبط، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل، و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهى قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [أى: لأجل أن يقول ربى الله](٥)، اللهم إلا ما رواه البخارى فى صحيحه حيث قال:

حدثنا على بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى، حدثنى يحيى بن أبى كثير، حدثنى محمد بن إبراهيم التيمى، حدثنى(٦) عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنى بأشد شىء مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة، إذ أقبل عُقْبة بن أبى مُعَيط، فأخذ بمَنْكب رسول الله ﷺ ولَوَى ثوبه فى عنقه، فخنقه خنقاً شديدا، فأقبل أبو بكر، رضى الله عنه، فأخذ بمنكبة(٧) ودَفَع عن النبى ﷺ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ٤١٤).

(١) تفسير الطبرى (٢٤/ ٣٨).

(٣) فى ت: «يقابل».

(٤) فى ت، س: «متهم».

(٥) زيادة من ت، س، أ.

(٦) فى ت: «فى صحيحه بإسناده عن».

(٧) فى ت، س: «بمنكبيه».

انفرد به البخارى من حديث الأوزاعى قال: وتابعه محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عروة، عن أبيه، به[(١)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمدانى، حدثنا عَبْدة، عن هشام ـ يعنى ابن عروة ـ عن أبيه، عن عمرو بن العاص أنه سُئِل: ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال: مر بهم ذات يوم فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال: «أنا ذاك» فقاموا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيتُ أبا بكر محتضنه من ورائه، وهو يصيح بأعلى صوته، وإن عينيه ليسيلان، وهو يقول: يا قوم، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؟ حتى فرغ من الآية كلها.

وهكذا رواه النسائى من حديث عبدة، فجعله من مسند عمرو بن العاص، رضى الله عنه[(٢)].

وقوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أى: كيف تقتلون رجلا لكونه يقول: «ربى الله»، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تَنَزَّل معهم فى المخاطبة فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يعنى: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذبا فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة، وإن يك صادقا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذى يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا، فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

وهكذا أخبر الله [تعالى][(٣)] عن موسى، عليه السلام، أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة فى قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ. أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ. وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ١٧ ـ ٢١] وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله [تعالى][(٤)] عباد الله، ولا يمسوه بسوء، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة فى ترك أذيته، قال الله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] أى: إلا ألا تؤذونى فيما بينى وبينكم من القرابة، فلا تؤذونى وتتركوا بينى وبين الناس. وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحاً مبيناً.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أى: لو كان هذا الذى يزعم أن الله أرسله إليكم كاذبا كما تزعمون، لكان أمره بينا، يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله، كانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديدا ومنهجه مستقيما، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله، وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨١٥).

(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٦٢).

(٣) زيادة من ت، س، أ.

(٤) زيادة من أ.

ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم[1] وحلول نقمة الله بهم: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أى: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ أى: لا تغنى عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله إن أرادنا بسوء.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لقومه، راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذى كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾ أى: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به[2] من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ ﴾ كذب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضا فى ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، وفى الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا لم يَرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»[3].

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ(٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) ﴾ .

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون: أنه حذر قومه بأس الله فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ أى: الذين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد، ولا صده عنهم صاد.

(١) فى س، أ: «عليهم». (٢) فى س: «جاءه».
(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٥٠، ٧١٥١) ومسلم فى صحيحه برقم (١٤٢) بنحوه من حديث معقل بن يسار رضى الله عنه.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أى: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قدره، ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يعنى: يوم القيامة وسمى بذلك، قال بعضهم: لما جاء فى حديث الصور: إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضا.

وقال آخرون، منهم الضحاك: بل ذلك إذا جيء بجهنم، ذهب الناس هرَابا[1]، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وقد روى عن ابن عباس، والحسن، والضحاك: أنهم قرؤوا: «يوم التنادّ»، بتشديد الدال، من ند البعير: إذا شرد وذهب.

وقيل: لأن الميزان عنده ملك، وإذا وزن عمل العبد[2] فرجح نادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا. وإن خف عمله نادى: ألا قد شقى فلان بن فلان.

وقال قتادة: ينادى كل قوم بأعمالهم: ينادى أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار.

وقيل: سمى بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، كما هو مذكور فى سورة الأعراف.

واختار البغوى وغيره: أنه سمى بذلك لمجموع ذلك. وهو قول حسن جيد، والله أعلم[3].

وقوله: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أى: ذاهبين هاربين، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١، ١٢]، ولهذا قال: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أى: ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أى: من أضله [الله][4] فلا هادى له غيره.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعنى: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى، وهو يوسف، عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته[5] القبط، فما أطاعوه تلك الساعة[6] إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أى: يئستم فقلتم طامعين: ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أى: كحالكم هذا

---

(١) فى س، أ: «هرابا منه». (٢) فى ت: «أعمال العبد».
(٣) معالم التنزيل للبغوى (٧/١٤٧، ١٤٨).
(٤) زيادة من ت، س. (٥) فى أ: «أمة». (٦) فى ت، س، أ: «تلك الطاعة».
(٧) فى س: «تكون».

ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أى: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: والمؤمنون أيضا يُبغضُون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفا، ولا ينكر منكرا؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أى: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾.

وروى ابن أبى حاتم، عن عكرمة ـ وحكى عن الشعبى ـ أنهما قالا: لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين.

وقال أبو عمران الجونى، وقتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن فرعون، وعتوه، وتمرده، وافترائه فى تكذيبه موسى، عليه السلام، أنه أمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا، وهو: القصر العالى المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجرّ المضروب من الطين المشوى، كما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]، ولهذا قال إبراهيم النخعى: كانوا يكرهون البناء بالآجر، وأن يجعلوه فى قبورهم. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ قال سعيد بن جبير، وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى فى أن الله، عز وجل، أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أى: بصنيعه هذا الذى أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى، عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ قال ابن عباس [رضى الله عنهما](١)، ومجاهد: يعنى إلا فى خسار.

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴾.

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسى الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ

(١) زيادة من س.

اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ، لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ .

ثم زهدهم في الدنيا التي [قد][1] آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى [ﷺ][2]، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أي: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب [وتزول] [3]وتضمحل، ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ أي: واحدة مثلها، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله، ثوابا كثيرا لا انقضاء له ولا نفاد.

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ .

يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾؟ أي: جهل[4] بلا دليل ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾أي: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يقول: حقا.

قال السدي، وابن جرير: معنى قوله: ﴿لا جَرَمَ﴾ :حقا.

وقال الضحاك: ﴿لا جَرَمَ﴾: لا كذب.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لا جَرَمَ﴾، يقول: بلى، إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ﴾.

قال مجاهد: الوثن ليس بشيء.

وقال قتادة: يعني الوثن، لا ينفع ولا يضر.

وقال السدي: لا يجيب داعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

---

(١) زيادة من ت، س، أ. (٢) زيادة من ت.

(٣) زيادة من ت. (٤) في ت، أ: «على جهل».

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: فى الدار الآخرة، فيجازى كلا بعمله؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أى: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أى: هو بصير بهم، فيهدى من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله [تعالى](١): ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فنجاه الله مع موسى، عليه السلام، وأما فى الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو: الغرق فى اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أى: أشده ألما وأعظمه نكالا. وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور، وهى قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لاشك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر فى البرزخ، وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا هاشم ـ هو ابن القاسم أبو النضر ـ حدثنا إسحاق بن سعيد(٢) ـ هو ابن عمرو بن سعيد ابن العاص ـ حدثنا سعيد ـ يعنى أباه ـ عن عائشة؛ أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر. قالت: فدخل رسول الله ﷺ علىّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: «لا، وعم ذلك؟». قالت: هذه اليهودية، لا نصنع إليها شيئا من المعروف إلا قالت: وقاك الله عذاب القبر. قال: «كذبت يهود(٣). وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملا بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادى بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم. أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا وضحكتم قليلا. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق»(٤).

وهذا إسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم، ولم يخرجاه.

وروى أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا سفيان، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة ـ قال: سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت له، فقال: «لا». قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وإنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم».

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «سعد». (٣) فى أ: «يهودية».
(٤) المسند (٦/ ٨١).

وهذا أيضا على شرطهما[١].

فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدليل على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح إلى النار غدوا وعشيا فى البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور، إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية الآتى ذكرها.

وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن فى قبره بذنب، ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا يونس، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهى تقول: أشعرت أنكم تفتنون فى قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود». قالت عائشة: فلبثنا ليالى، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشعرت أنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر.

وهكذا رواه مسلم، عن هارون بن سعيد وحرملة، كلاهما عن ابن وهب، عن يونس بن يزيد الأيلى، عن الزهرى، به[٢].

وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد فى قبورها، فلما أوحى إليه فى ذلك بخصوصيته استعاذ منه، والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

وقد روى البخارى من حديث شعبة، عن أشعث بن أبى الشعثاء، عن أبيه، عن مسروق، عن عائشة[٣]، رضى الله عنها، أن يهودية دخلت عليها فقالت: أعاذك الله من عذاب القبر[٤]. فسألت عائشة[٥] رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: «نعم، عذاب القبر حق». قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[٦].

فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية فى هذا الخبر، وقرر عليه. وفى الأخبار المتقدمة: أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحى، فلعلهما قضيتان، والله أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جدا.

وقال قتادة فى قوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: صباحا ومساء، ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخا ونقمة وصَغَارا لهم.

وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يُغدَى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة .

---

(١) المسند (٦/ ٢٣٨).

(٢) المسند (٦/ ٢٤٨) وصحيح مسلم برقم (٥٨٤).

(٣) فى ت: «وقد روى البخارى بإسناده من عائشة».

(٤) فى ت: «القبور» وفى أ: «وقاك الله من عذاب القبر».

(٥) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».

(٦) صحيح البخارى برقم (١٣٧٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا المحاربى، حدثنا ليث، عن عبد الرحمن بن ثروان، عن هزيل، عن عبد الله بن مسعود[١]، رضى الله عنه، قال: إن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر تسرح بهم فى الجنة حيث شاؤوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين فى أجواف عصافير تسرح فى الجنة حيث شاءت، فتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش، وإن أرواح آل فرعون فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها.

وقد رواه الثورى، عن أبى قيس، عن الهُزَيل بن شرحبيل، من كلامه فى أرواح آل فرعون. وكذلك قال السدى.

وفى حديث الإسراء من رواية أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال فيه: «ثم انطلق بى إلى خلق كثير من خلق الله، رجالٌ كلٌّ رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، وآل فرعون كالإبل المسومة[٢] يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون»[٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا زيد بن أخْرَم، حدثنا عامر بن مُدْرِك الحارثى، حدثنا عتبة ـ يعنى ابن يقظان ـ عن قيس بن مسلم، عن طارق، عن[٤] شهاب، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله». قال: قلنا: يا رسول الله، ما إثابة الكافر؟ فقال: «إن كان قد وصل رحما أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة، أثابه الله المال والولد والصحة وأشباه ذلك». قلنا: فما إثابته فى الآخرة؟ قال: «عذابا دون العذاب»، وقرأ: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

ورواه البزار فى مسنده، عن زيد بن أخرم، ثم قال: لا نعلم له إسنادا غير هذا[٥].

وقال ابن جرير: حدثنا عبد الكريم بن أبى عمير، حدثنا حماد بن محمد الفزارى البلخى قال: سمعت[٦] الأوزاعى وسأله رجل فقال: رحمك الله. رأينا طيورا تخرج من البحر، تأخذ ناحية الغرب بيضا، فوجا فوجا، لا يعلم عددها إلا الله، عز وجل، فإذا كان العشى رجع مثلها سودا. قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قال: نعم. قال: إن تلك[٧] الطير فى حواصلها أرواح آل فرعون، تعرض على النار غدوا وعشيا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رِيَاشُها وصارت سودا، فينبت عليها من الليل ريش أبيض، وتتناثر السود، ثم تغدو على النار غدوا وعشيا، ثم ترجع إلى وكورها. فذلك دأبهم فى الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، قال: وكانوا

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن ابن مسعود».
(٢) فى س: «المنسومة».
(٣) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.
(٤) فى س: «ابن».
(٥) مسند البزار برقم (٩٤٥) «كشف الأستار» ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٢٥٣) من طريق على بن الحسين به، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى. قلت: فيه عتبة بن يقظان وهو واه.
(٦) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده إلى».
(٧) فى ت: «ذلك».

يقولون: إنهم ستمائة ألف مقاتل[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله، عز وجل، إلى يوم القيامة».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث مالك، به[٣].

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) ﴾.

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار فى النار، وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم **﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾** وهم: الأتباع **﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾** وهم: القادة والسادة والكبراء: **﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾** أى: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال، **﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾** أى: قسطا تتحملونه عنا. **﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾** أى: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال. **﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾** أى: يقسم[٤] بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: **﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ٣٨].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾؛ لما علموا أن الله، سبحانه، لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: **﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾** [المؤمنون: ١٠٨] سألوا الخزنة ـ وهم كالبوابين[٥] لأهل النار ـ أن يدعوا لهم الله أن يخفف عن الكافرين ولو يوما واحدا من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: **﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾** أى: أو ما قامت عليكم الحجج فى الدنيا على ألسنة الرسل؟ **﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾** أى: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا، لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم؛ ولهذا قالوا[٦]: **﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾** أى: إلا من ذهاب، لا يتقبل ولا يستجاب.

---

(١) تفسير الطبرى (٢٤/٤٦).

(٢) فى أ: «ابن عمر رضى الله عنهما».

(٣) المسند (٢/١١٣) وصحيح البخارى برقم (١٣٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٦).

(٤) فى ت: «فقسم». (٥) فى ت، أ: «كالسجانين». (٦) فى ت: «قال».

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾.

قد أورد أبو جعفر بن جرير، رحمه الله تعالى، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالا فقال: قد عُلم أن بعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا[(١)] وشعياء، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم[(٢)]، وإما إلى السماء كعيسى[(٣)]، فأين النصرة فى الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين[(٤)].

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاما، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ فى اللغة.

الثانى: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو فى غيبتهم أو بعد موتهم، كما فُعِلَ بقتلة يحيى وزكريا[(٥)] وشعياء، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح، عليه السلام، من اليهود، فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماما عادلا، وحكما مقسطا، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام. وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله فى خلقه فى قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا، ويقر أعينهم ممن أذاهم، ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب»[(٦)]. وفى الحديث الآخر: «إنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب»[(٧)]؛ ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل[(٨)] مدين، وأشباههم وأضرابهم، ممن كذب الرسل وخالف الحق. وأنجى الله من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحدا، وعذب الكافرين، فلم يفلت منهم أحدا[(٩)].

قال السدى: لم يبعث الله رسولا قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم فى الدنيا. قال: فكانت[(١٠)] الأنبياء والمؤمنون يقتلون فى الدنيا، وهم منصورون فيها.

---

(١) فى ت، أ: «كيحيى بن زكريا». (٢) فى أ: «كإبراهيم عليه السلام». (٣) فى أ: «كعيسى عليه السلام».
(٤) تفسير الطبرى (٢٤/ ٤٨).
(٥) فى ت: «يحيى بن زكريا».
(٦) صحيح البخارى برقم (٦٥٠٢).
(٧) لم أجده بهذا اللفظ، وقد رواه أبو نعيم فى الحلية (١/ ١١) موقوفا على ابن عباس: «وأنا الثائر لأوليائى يوم القيامة».
(٨) فى أ: «وأصحاب». (٩) فى س: «واحدا». (١٠) فى ت، س: «وكانت».

وهكذا نصر الله [سبحانه][(١)] نبيه محمدا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هى العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهرانى قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارا وأعوانا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين فى الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح [عليه][(٢)] مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة[(٣)] العرب بكمالها، ودخل الناس فى دين الله أفواجا. ثم قبضه الله، تعالى، إليه، لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا عباد الله إلى الله. وفتحوا البلاد والرّساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية فى مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام[(٤)] الساعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ أى: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل.

قال مجاهد: الأشهاد: الملائكة.

وقوله: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾.

وقرأ آخرون: «يَوْمُ» بالرفع، كأنه فسره به ﴿يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ. يَوْمُ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ﴾، وهم المشركون ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أى: لا يقبل منهم عذر ولا فدية، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أى: الإبعاد والطرد من الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهى النار. قاله السدى، بئس المنزل والمقيل.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أى: سوء العاقبة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾، وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور؛ ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أى: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم[(٥)] بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى، عليه السلام، وفى الكتاب الذى أورثوه ـ وهو التوراة ـ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ وهى: العقول الصحيحة السليمة.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أى: يا محمد، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ أى: وعدناك أنا سنعلى كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك، والله لا يخلف الميعاد. وهذا الذى أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾، هذا تهييج للأمة على الاستغفار، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾ أى: فى أواخر النهار وأوائل الليل، ﴿وَالإِبْكَارِ﴾، وهى أوائل النهار وأواخر الليل.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أى: يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله، ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من ت، وفى أ: «عليهم». (٣) فى ت: «جزائر».
(٤) فى ت: «يوم». (٥) فى ت: «وأورثنا بنى إسرائيل».

أى: ما فى صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى: من حال مثل هؤلاء، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أو[1]: من شر[2] مثل هؤلاء المجادلين فى آيات الله بغير سلطان. هذا تفسير ابن جرير.

وقال كعب وأبو العالية: نزلت هذه الآية فى اليهود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ قال أبو العالية: وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملكون به الأرض. فقال الله لنبيه ﷺ آمرا له أن يستعيذ من فتنة الدجال، ولهذا قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد، وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم فى كتابه، والله أعلم.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩)﴾.

يقول تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه ـ بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهم أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[3]﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال هاهنا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد، استبعادا وكفرا وعنادا، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا.

ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أى: كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار، ﴿قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أى: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس.

ثم قال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ[4]﴾ أى: لكائنة وواقعة، ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها.

---

(١) فى ت: «أى». (٢) فى أ: «شك».

(٣) فى ت، أ: «أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، حيث إن ناسخا المخطوطتين ت، أ قد خلطا بين الآية الحادية والثمانين من سورة يس وبين الآية الثالثة والثلاثين من سورة الأحقاف.

(٤) فى ت: «آتية» وهو خطأ.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أشهب، حدثنا مالك، عن[١] شيخ قديم من أهل اليمن ـ قدم من ثم ـ قال: سمعت أن الساعة إذا دنت اشتد البلاء على الناس، واشتد حر الشمس.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾.

هذا من فضله، تبارك وتعالى، وكرمه: أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثورى يقول: يا مَنْ أحبُّ عباده إليه مَنْ سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس كذلك[٢] غيرك يارب.

رواه ابن أبى حاتم.

وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

اللهُ يَغْضبُ إن تركْتَ سُؤَالَهُ ... وبُنَىُّ آدمَ حين يُسألُ يَغْضَبُ

وقال قتادة: قال كعب الأحبار: أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تُعطهُن[٣] أمة قبلهم إلا نبى: كان إذا أرسل الله نبيا قيل له: «أنت شاهد على أمتك»، وجعلتكم[٤] شهداء على الناس. وكان يقال له: «ليس عليك فى الدين من حرج». وقال لهذه الأمة: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾** [الحج:٧٨]. وكان يقال له: «ادعنى[٥] أستجب لك» وقال لهذه الأمة: **﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾** رواه ابن أبى حاتم.

وقال[٦] الإمام الحافظ أبو يعلى. أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده: حدثنا أبو إبراهيم الترجمانى، حدثنا صالح المرى قال: سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ ـ فيما يروى عن ربه عز وجل ـ قال: «أربع خصال، واحدة منهن لى، وواحدة لك، وواحدة فيما بينى وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادى[٧]: فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا، وأما التى لك علىَّ فما عملت من خير جزيتك به، وأما التي بينى وبينك: فمنك الدعاء وعلى الإجابة، وأما التى بينك وبين عبادى: فارض لهم ما[٨] ترضى لنفسك»[٩].

وقال[١٠] الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن ذر، عن يُسيع الكندى، عن النعمان بن بشير، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: **﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾**.

---

(١) فى ت: «روى ابن أبى حاتم عن». (٢) فى ت، أ: «وليس أحد كذلك». (٣) فى س: «يعطهن».
(٤) فى ت، أ: «وجعلكم». (٥) فى س: «ادعونى». (٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت: «العباد». (٨) فى ت، أ: «بما».
(٩) مسند أبى يعلى (٥/١٤٣) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٩) «كشف الأستار» من طريق الحجاج بن المنهال عن صالح المرى به، وقال: «تفرد به صالح المرى». قال الهيثمى فى المجمع (١/٥١): «فى إسناده صالح المرى وهو ضعيف، وتدليس الحسن أيضا» والمحمل هنا على صالح بن بشير المرى فهو ضعيف جدا وقد تفرد به.
(١٠) فى ت: «وروى».

وهكذا رواه أصحاب السنن: الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، وابن جرير، كلهم من حديث الأعمش، به[١]. وقال الترمذي: حسن صحيح.

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن جرير أيضا، من حديث شعبة، عن منصور، عن ذر، به[٢].

وأخرجه الترمذي أيضا من حديث الثوري، عن منصور والأعمش، كلاهما عن ذر، به[٣].

ورواه ابن حبان والحاكم في صحيحيهما، وقال الحاكم: صحيح الإسناد[٤].

وقال[٥] الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثني أبو مليح المدني ـ شيخ من أهل المدينة ـ سمعه عن أبي صالح، وقال مرة: سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة [رضي الله عنه][٦] قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله، عز وجل، غضب الله عليه».

تفرد به أحمد[٧]، وهذا إسناد لا بأس به.

وقال[٨] الإمام أحمد أيضا: حدثنا مروان الفزاري، حدثنا صُبيح أبو المليح: سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأله يغضب عليه»[٩].

قال ابن معين: أبو المليح هذا اسمه: صُبَيْح. كذا قيده بالضم عبد الغني بن سعيد. وأما أبوصالح هذا فهو[١٠] الخُوزي[١١]، سكن شِعَب الخوز[١٢]. قاله البزار في مسنده. وكذا وقع في روايته أبو المليح الفارسي، عن أبي صالح الخُوزي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأل الله يغضب عليه»[١٣].

وقال[١٤] الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهُرْمزي: حدثنا همام، حدثنا إبراهيم، عن الحسن، حدثنا نائل بن نجيح، حدثني عائذ بن حبيب، عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد ابن مسلمة الأنصاري، وجدنا في ذؤابة[١٥] سيفه كتابا: «بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لربكم في بقية دهركم نفحات[١٦]، فتعرضوا له، لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد[١٧] بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبدا»[١٨].

(١) المسند (٤/ ٢٧١) وسنن الترمذي برقم (٣٣٧٢) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٢٨) وتفسير الطبري (٢٤/ ٥١).

(٢) سنن أبي داود برقم (١٤٧٩) وسنن الترمذي برقم (٢٩٦٩) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٤٦) وتفسير الطبري (٢٤/ ٥١).

(٣) سنن الترمذي برقم (٣٢٤٧).

(٤) صحيح ابن حبان برقم (٢٣٩٦) «موارد» والمستدرك (١/ ٤٩١).

(٥) في ت: «وروى». (٦) زيادة من ت.

(٧) المسند (٢/ ٤٧٧) وتفرد به أحمد بهذا اللفظ، وإلا فقد رواه ابن ماجه في السنن برقم (٣٨٢٧) من طريق وكيع بهذا الإسناد بلفظ: «من لم يسأل الله يغضب عليه».

(٨) في ت: «وروى».

(٩) المسند (٢/ ٤٤٢).

(١٠) في ت، س: «وهو». (١١) في أ: «الجزري». (١٢) في أ: «الجزر».

(١٣) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣٣٧٣) وقال: «أبو المليح اسمه صبيح، وسمعت محمدا يقوله، وقال: يقال له: فارسي».

(١٤) في ت: «وروى». (١٥) في ت: «رواية».

(١٦) في ت: «في بقية أيام نفحات»، وفي س، أ: «في بقية أيام دهركم نفحات». (١٧) في ت: «يسعد».

(١٨) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٢٣٣) من وجه آخر.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: عن دعائي وتوحيدي، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين حقيرين، كما قال[1] الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يُحْشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذَّرّ، في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا[2] سجنا في جهنم ـ يقال له: بولس ـ تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال: عصارة أهل النار»[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو بكر بن محمد بن يزيد بن خُنَيْس: سمعت أبي يحدث عن وُهَيب[4] بن الورد: حدثني رجل قال: كنت أسير ذات يوم في أرض الروم، فسمعت هاتفا من فوق رأس جبل وهو يقول: يارب، عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحدا غيرك! يارب، عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك ـ قال: ثم ذهبت، ثم جاءت الطامة الكبرى ـ قال: ثم عاد الثانية فقال: يارب، عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيء من سخطك يُرضي[5] غيرك. قال وهيب: وهذه الطامة الكبرى. قال: فناديته: أجني أنت أم إنسي؟ قال: بل إنسي، اشغل نفسك بما يَعْنيك عما لا يعنيك.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)﴾ .

يقول تعالى ممتنا على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم في المعايش بالنهار، وجعل النهار مبصرا، أي: مضيئا، ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ[6] لا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر نعم[7] الله عليهم.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء، الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون غيره من الأصنام، التي لا تخلق شيئا، بل هي مخلوقة منحوتة.

---

(١) في ت: «روى».
(٢) في ت: «يدخلون».
(٣) المسند (٢/ ١٧٩).
(٤) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بسنده عن وهيب».
(٥) في ت، س: «برضى».
(٦) في ت: «ولكن أكثرهم» وهو خطأ.
(٧) في أ: «ما أنعم».

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى: جعلها مستقرا لكم، بساطا مهادا تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون فى مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أى: سقفا للعالم محفوظا، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أى: فخلقكم فى أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من المآكل والمشارب فى الدنيا. فذكر أنه خلق الدار، والسكان، والأرزاق ـ فهو الخالق الرازق، كما قال فى سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا[1] رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٠، ٢١] وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أى: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم.

ثم قال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: هو الحى أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: لا نظير له ولا عديل له، ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: «لا إله إلا الله» أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين، عملا بهذه الآية.

ثم روى عن محمد بن على بن الحسن بن شقيق، عن أبيه، عن الحسين بن واقد، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس[2] قال: من قال: «لا إله إلا الله» فليقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» فذلك[3] قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال أبو أسامة وغيره، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن سعيد بن جبير قال: إذا قرأت: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر: ١٤]، فقل: «لا إله إلاّ الله» وقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يُعْبَد أحد سواه من الأصنام والأنداد

(١) فى س: «اتقوا» وهو خطأ. (٢) فى ت: «ثم روى بإسناده عن ابن عباس». (٣) فى ت، س: «وذلك».

والأوثان. وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أى: هو الذى يقلبكم فى هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أى: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطا، ومنهم من يتوفى صغيرا، وشابا، وكهلا قبل الشيخوخة، كقوله ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥] وقال هاهنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، قال ابن جريج، تتذكرون البعث.

ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه، ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أى: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان [لا محالة][1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)﴾.

يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون فى الحق والباطل، كيف تُصرّف عقولهم عن الهدى إلى الضلال، ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أى: من الهدى والبيان، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب، جل جلاله، لهؤلاء، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥].

وقوله: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ أى: متصلة بالأغلال، بأيدى الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾، كما قال: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]. وقال بعد ذكره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨] وقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ. فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ. لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ. فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[الواقعة: ٤١ـ ٥٦]. وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ. خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ. إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾[الدخان: ٤٣ ـ ٥٠]،

---

(١) زيادة من س، أ.

أى: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهكم والاستهزاء بهم.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا منصور بن عمار، حدثنا بشير[١] بن طلحة الخزامى، عن خالد بن دُرَيْك، عن يعلى بن مُنْيَة ـ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ قال: «ينشئ الله سحابة لأهل النار سوداء مظلمة، ويقال: يا أهل النار، أى شيء تطلبون؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقولون: نسأل بَرْد الشراب، فتمطرهم أغلالا تزيد فى أغلالهم، وسلاسل تزيد فى سلاسلهم، وجمرا يُلْهبُ النار عليهم». هذا حديث غريب[٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ. مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: قيل لهم: أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله؟ هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أى: ذهبوا فلم ينفعونا، ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ أى: جحدوا عبادتهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أى: تقول لهم الملائكة: هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم فى الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشركم وبطركم، ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: فبئس المَنْزِلُ والمَقِيلُ الذى فيه الهوان والعذاب الشديد، لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحُجَجه.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾.

يقول تعالى آمرا رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أى: فى الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا فى يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى أيام حياته ﷺ.

وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أى: فنذيقهم العذاب الشديد فى الآخرة.

ثم قال مسليا له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ كما قال فى «سورة النساء» سواء، أى: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر ممن ذكر

---

(١) فى أ: «بشر».

(٢) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٤٨٤٦) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٣٩٤) من طريق أحمد بن منيع عن منصور به، وقال الطبرانى: «لا يروى عن يعلى إلا بهذا الإسناد، تفرد به منصور». وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٩٠): «فيه من فيه ضعف قليل، وفيه من لم أعرفه».

بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك فى سورة النساء[١]، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتى قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله [٢]له فى ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾: وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾، فينجو المؤمنون، ويهلك الكافرون؛ ولهذا قال: ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده، بما خلق لهم من الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويشرب لبنها، وتحرث عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويشرب لبنها. والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة، كما فَصَّل وبَيَّنَ فى أماكن تقدم ذكرها فى «سورة الأنعام»[٣]، و«سورة النحل»[٤]، وغير ذلك؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم، ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾؟ أى: لا تقدرون على إنكار شىء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾.

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل فى قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع

---

(١) راجع تفسير الآية: ١٦٤ من سورة النساء.

(٢) فى أ: «إلا بإذن الله».

(٣) راجع تفسير الآيات: ١٤١ ـ ١٤٤ من سورة الأنعام.

(٤) راجع تفسير الآيات: ٥ ـ ٨ من سورة النحل.

شدة قواهم، وما أثروه فى الأرض، وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئا، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل[١] بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم فى زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب.

وقال السدى: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فأتاهم من بأس الله ما لا قِبَل لهم به.

﴿ وَحَاقَ بِهِم﴾ أى: أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ أى: يكذبون ويستبعدون وقوعه.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أى: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أى: وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تُقَال العثرات، ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله [تبارك و][٢] تعالى: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾؟ [يونس: ٩١] أى: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. و[هكذا][٣] هاهنا قال: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أى: هذا حكم الله فى جميع[٤] مَنْ تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء فى الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[٥] أى: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة، وعاين الملك، فلا توبة حينئذ؛ ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

آخر تفسير «سورة غافر[٦]»، ولله الحمد والمنة

(١) فى أ: «رسلهم». (٢) زيادة من س، أ. (٣) زيادة من س، أ.

(٤) فى أ: «فى جميع عباده».

(٥) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٣٧) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٢٥٣) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٦) فى س: «المؤمن».

سورة المؤمن

مكّيّة،[1] وهي خمس وثمانون، أو ثنتان وثمانون[2] آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ②﴾

﴿حمٓ﴾ بتفخيم الألِف[3] وتَسكين الميم. وقُرئ بإمالة الألِف،[4] وبإخراجِها بينَ بينَ،[5] وبفتح الميم[6] لالتقاء الساكنين، أو نصبِها بإضمارِ "اقرأ" ونحوِه. ومنع الصرف للتعريف والتأنيث، أو للتعريف وكونها على زِنة قابيل وهابيل. وبقيّة الكلام فيه وفي قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كالذي سلَف في ﴿الٓمٓ﴾ السجدة. وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ كما في مطلعِ سورة الزمر في الوجوه كلّها. ووَجه التعرّض لنعتي العزّة والعِلم ما ذُكِر هناك.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ③﴾

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ إمّا صفاتٌ أُخَرُ لتحقيق ما فيها مِن الترغيب والترهيب، والحثِّ على ما هو المقصود. والإضافة فيها حقيقيّة على أنّه لم يُرَد بها زمان مخصوص، وأريدَ بـ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ مُشدِّده،[7] أو الشديدِ عِقابُه بحذف اللام للازدواجِ[8] وأمْنِ الالتباس. أو أبدالٌ،[9] وجعلُه وحده بدلًا

---

[1] س + قال الحسَن: إلّا قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [غافر، ٤٠/٥٥]؛ لأنّ الصلوات نزلت بالمدينة.

[2] س ي - أو ثنتان وثمانون.

[3] المراد بتفخيم الألف هنا فتحها الذي هو ضدّ الإمالة.

[4] قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف وابن ذكوان وشعبة. النشر لابن الجزري، ٧٠/٢.

[5] قرأ بها ورش عن نافع، وهو أحد الوجهين عن أبي عمرو، والوجه الثاني له الفتح. النشر لابن الجزري، ٧٠/٢.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

[7] كذا ضبطه المصنّف تبعًا بـ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾.

[8] أي: إنّما حذف الألف واللام مِن شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظًا. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٤٩/٤.

[9] السياق: إمّا صفاتٌ أُخَرُ... أو أبدالٌ...

-كما فعله الزجّاج-[١] مشوّش للنظم.

وتوسيط الواو بين الأوّلَين لإفادة الجمعِ بين "مَحو الذنوب" و"قبول التوبة"، أو تغايرِ الوصفين؛ إذ ربّما يُتوهّم الاتّحاد، أو تغايرِ موقعِ الفعلين؛ لأنّ "الغَفْر" هو السَّتر مع بقاء الذنب، وذلك لمَن لم يتب، «فإنّ التائب مِن الذنب كمَن لا ذنبَ له».[٢]

و﴿ٱلتَّوۡبِ﴾ مصدر كالتوبة، وقيل: هو جمعها.[٣] و﴿ٱلطَّوۡلِ﴾ الفضل بترك العقاب المُستَحَقّ، وفي توحيد صفة العذاب مغمورةً بصفات الرحمة دليل سَبقها ورُجحانها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجب الإقبال الكلّي على طاعته في أوامره ونواهيه. ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فحَسْب، لا إلى غيره، لا استقلالًا ولا اشتراكًا، فيجازي كلًّا مِن المطيع والعاصي.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالطعن فيها، واستعمالِ المقدّمات الباطلة
[٢٠ظ] / لإدحاض الحقّ، كقوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر، ٤٠/٥].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بها، وأمّا الذين آمنوا فلا يَخطر ببالهم شائبة شبهة منها فضلًا عن الطعن فيها. وأمّا الجدالُ فيها لحَلّ مشكلاتها وكشف مُعضلاتها واستنباطِ حقائقها الكلّيّة وتوضيحِ مناهجِ الحقّ في مضايق الأفهام ومزالق الأقدام وإبطالِ شُبَه أهل الزيغ والضلال فمِن أعظم الطاعات، ولذلك قال عليه السلام: «إنّ جدالًا في القرآن كُفر»[٤] بالتنكير للفرق بين جدالٍ وجدالٍ.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ لترتيب النهي أو وجوبِ الانتهاء على ما قبلها مِن التسجيل عليهم بالكفر الذي لا شيء أمقَتُ منه عند الله تعالى، ولا أجلَبُ لخُسران الدنيا والآخرة، فإنّ مَن تحقّق ذلك

---

١ انظر: معاني القرآن للزجّاج، ٣٦٦/٤.

٢ حديث عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في سنن ابن ماجه، ١٤١٩/٢ (٤٢٥٠)؛ والسنن الكبرى للبيهقي، ٢٥٩/١٠ (٢٠٥٦١).

٣ أي: جمع التوبة، والمراد إنّه اسم جمعي، كتَمر وتَمرة. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٥٦/٧.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٤. وهو في مسند أحمد، ٤٨٦/١٢ (٧٥٠٨)، بلفظ: «جدالٌ في القرآن كُفر».

لا يكاد يغترّ بما لهم مِن حظوظ الدنيا وزخارفها، فإنّهم مأخوذون عمّا قليل أخذَ مَن قبلهم مِن الأمم حسبما ينطق به قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الذين تحزّبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوحٍ، مثل عاد وثمود وأضرابهم. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ مِن تلك الأمم العاتية ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ وقرئ: "بِرَسُولِهَا"[1] ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكّنوا منه فيصيبوا به ما أرادوا مِن تعذيب أو قتل، مِن الأخذ بمعنى الأسْر.

﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الذي لا أصلَ ولا حقيقةَ له أصلًا ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ الذي لا مَحيد عنه كما فعل هؤلاء، ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بسبب ذلك أخذَ عزيز مُقتدِر. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الذي عاقبتهم به، فإنّ آثار دمارهم عُرضة للناظرين، ولآخُذَنَّ هؤلاء أيضًا لاتّحادهم في الطريقة واشتراكهم في الجَريرة، كما يُنبئُ عنه قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: كما وجَب وثبَت حكمه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذِّبة المُتحزِّبة على رسلهم المجادِلةِ بالباطل لإدحاض الحقّ به، وجَب أيضًا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: كفروا بك وتحزّبوا عليك وهمّوا بما لم ينالوا، كما يُنبئ عنه إضافة اسم الربّ إلى ضميره عليه السلام، / فإنّ ذلك للإشعار بأنّ وجوب كلمة العذاب عليهم مِن أحكام تربيته [٢١و]
التي مِن جملتها نُصرته عليه السلام وتعذيب أعدائه، وذلك إنّما يتحقّق بكون الموصول عبارة عن كفّار قومه، لا عن الأمم المهلَكَة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في حيّز النصب بحذف لام التعليل، أي: لأنّهم مستحِقّو[2] أشدِّ العقوبات وأفظعِها التي هي عذاب النار، وملازموها أبدًا

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

[2] في الأصول الخطّيّة: "مستحقّوا" بألف بعد الواو.

لكونهم كفّارًا معاندين متحزّبين على الرسول عليه السلام، كدأب مَن قبلهم مِن الأمم المُهلَكة، فهم لِسائر فنون العقوبات أشدُّ استحقاقًا وأحقُّ استيجابًا. وقيل: هو في محلّ الرفع على أنّه بدل مِن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، والمعنى: مثل ذلك الوجوب وجَب على الكفرة المُهلَكة كونَهم مِن أصحاب النار، أي: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بعذاب الاستئصال، كذلك وجب تعذيبهم بعذاب النار في الآخرة. ومحلّ الكاف على التقديرين النصب على أنّه نعت لمصدر محذوف.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ وهم أعلى طبقات الملائكة عليهم السلام، وأوّلهم وجودًا. وحَملُهم إيّاه وحَفيفُهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له، وكنايةٌ عن زُلفاهم[١] مِن ذي العرش جلّ جلاله ومكانتِهم عنده. ومحلّ الموصول الرفع على الابتداء، خبره: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، والجملة استئناف مَسوق لتسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببيان أنّ أشراف الملائكة عليهم السلام مثابرون على ولاية مَن معه مِن المؤمنين ونصرتِهم واستدعاءِ مَا يُسْعِدُهم في الدارَين، أي: ينزّهونه تعالى عن كلّ ما لا يليق بشأنه الجليل ملتبسين بحمده على نَعمائه التي لا تتناهى.

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إيمانًا حقيقًا بحالهم. والتصريح به مع الغِنَى عن ذكره رأسًا لإظهار فضيلةِ الإيمان، وإبرازِ شرف أهلِه، والإشعارِ بعلّة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فإنّ المشاركة في الإيمان أقوى
[٢١ظ] المناسبات وأتمّها وأدْعَى الدواعي إلى النصحِ والشفقة. / وفي نظم استغفارهم لهم في سِلك وظائفهم المفروضة عليهم مِن تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم إيذانٌ بكمال اعتنائهم به، وإشعارٌ بوقوعه عند الله تعالى في موقع القبول.

---

[١] أي: قُربِهم. والزلفة والزلفى: القربة والمَنزلة. **الصِّحاح** للجوهري، «زلف».

رُوي أنّ حملة العرش أرجلُهم في الأرض السفلى، ورءوسهم قد خرقت العرش، وهم خُشوع لا يرفعون طرفهم.[١]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا تتفكّروا في عِظَم ربّكم، ولكن تفكّروا فيما خلق الله مِن الملائكة، فإنّ خلقًا مِن الملائكة يقال له: إسرافيل، زاويةٌ مِن زوايا العرش على كاهِله، وقدماه في الأرض السفلى، وقد مرَق رأسه[٢] مِن سبع سماوات، وإنّه لَيتضاءل مِن عظَمة الله حتّى يصير كأنّه الوَصَعُ».[٣]

وفي الحديث: «إنّ الله أمرَ جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلًا لهم على سائرهم».[٤]

وقيل: خلق الله تعالى العرش مِن جوهرة خضراء، وبين القائمتين مِن قوائمه خفَقان الطيرِ المُسرِعِ ثمانين ألفَ عامٍ.[٥]

وقيل: حول العرش سبعون ألفَ صفٍّ مِن الملائكة يطوفون به مهلِّلين مكبِّرين، ومِن ورائهم سبعون ألفَ صفٍّ قيامٌ قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومِن ورائهم مائةُ ألفِ صفٍّ، قد وضعوا أيمانهم على الشمائل، ما منهم أحد إلّا وهو يُسبّح بما لا يُسبّح به الآخر.[٦]

﴿رَبَّنَا﴾ على إرادة القول، أي: يقولون: ربّنا، على أنّه إمّا بيان لاستغفارهم أو حال. ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعَتْ رحمتُك وعلمك، فأزيل عن أصله للإغراق في وصفه تعالى بالرحمة والعِلم، والمبالغةِ في عمومهما. وتقديم الرحمة لأنّها المقصودة بالذات ههنا.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٦/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥١/٤.

٢ أي: خرَقها وخرج مِن الجانب الآخر. انظر: الصّحاح للجوهري، «مرق».

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٦/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٢/٤. قال الزيلعي: "غريب". تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢١٨/٣. | والوَصَع: طائر أصغر مِن العصفور. الصّحاح للجوهري، «وصع».

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٢/٤.

٥ الكشّاف للزمخشري، ١٥٢/٤؛ تفسير القرطبي، ٢٩٤/١٥.

٦ الكشّاف للزمخشري، ١٥٢/٤؛ تفسير القرطبي، ٢٩٤/١٥. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٧/٨.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي: للذين علمتَ منهم التوبةَ واتّباعَ سبيل الحقّ؛ لترتيب الدعاء على ما قبلها مِن سَعة الرحمة والعِلم. ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ واحفظهم عنه، وهو تصريح بعد إشعارٍ للتأكيد.

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨﴾

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾ عطفٌ على ﴿قِهِمۡ﴾.[١] وتوسيط النداء بينهما للمبالغة في الجُؤار.[٢] ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ أي: وعدتَهم إيّاها. وقُرئ: "جَنَّةَ عَدْنٍ".[٣]

[٢٢و] ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ/ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ أي: صلاحًا مصحِّحًا لدخول الجنّة في الجملة، وإن كان دون صلاحِ أصولهم. وهو عطفٌ على الضمير الأوّل، أي: وَأَدخِلها[٤] معهم هؤلاء؛ ليتِمّ سرورهم، ويتضاعف ابتهاجهم. أو على الثاني، لكن لا بناءً على الوعد العامّ للكلّ كما قيل؛[٥] إذ لا يبقى حينئذ للعطف وجه؛ بل بناءً على الوعد الخاصّ بهم بقوله تعالى: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور، ٢١/٥٢]، بأن يكونوا أعلى درجة مِن ذرّيّتهم.

قال سعيد بن جُبير: «يدخل المؤمن الجنّة فيقول: "أين أبي؟ أين ولدي؟ أين زوجي؟" فيقال: "إنّهم لم يعملوا مثل عملك"، فيقول: "إنّي كنت أعمل لي ولهم"، فيقال: "أَدْخِلوهم الجنّة"».[٦]

وسبْقُ الوعد بالإدخال والإلحاق لا يستدعي حصول الموعود بلا توسّط شفاعةٍ واستغفارٍ، وعليه مبنى قولِ مَن قال: فائدة الاستغفار زيادة الكرامة والثواب. والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ الدعاء بالإدخال فيه صريح، وفي الثاني ضِمني.

---

١ في الآية السابقة.

٢ الجُؤار: رفع الصوت مع تضرّع واستغاثة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «جأر».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٤ وفي هامش م: أي: جنّات عدن «منه».

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥٢/٥.

٦ جامع البيان للطبري، ٢٨٦/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٨/٨.

وقُرئ: "صَلُحَ" بالضمّ،[1] و"ذُرِيَّتِهِمْ" بالإفراد.[2]

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الذي لا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة الباهرة مِن الأمور التي مِن جملتها إنجاز الوعد. فالجملة تعليل لِما قبلها.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٩﴾

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: العقوباتِ؛ لأنّ جزاء السيّئة سيّئة، أو جزاءَ السيّئات على حذف المضاف، وهو تعميم بعد تخصيص، أو مخصوصٌ بالأَتباع، أو المعاصِيَ في الدنيا، فمعنى قوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾: ومَن تَقِهِ المعاصيَ في الدنيا فقد رحمته في الآخرة، كأنّهم طلبوا لَهم السببَ بعدما سألوا المسبَّبَ.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الرحمة المفهومة مِن ﴿رَحِمْتَهُۥ﴾، أو إليها وإلى الوقاية. وما فيه مِن معنى البعد لِما مرّ مرارًا مِن الإشعار ببُعد درجة المشار إليه. ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا مَطمَع وراءه لطامع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ١٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ شروع في بيان أحوال الكفَرة بعد دخولهم النار بعد ما بُيّن فيما سبق ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.[3] ﴿يُنَادَوْنَ﴾ أي: مِن مكان بعيد، وهم في النار، وقَد مقَتُوا أنفسهم الأمّارة بالسوء التي وقعوا فيما وقعوا باتّباعِ هواها، أو مقَتَ بعضُهم بعضًا مِن الأحباب، كقوله تعالى: / ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [٢٢ظ]
[العنكبوت، ٢٥/٢٩]، أي: أبغضوها أشدّ البغض، وأنكروها أبلغ الإنكار، وأظهروا ذلك على رءوس الأشهاد، فيقال لهم عند ذلك: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لمَقت الله أنفسَكم الأمّارةَ بالسوء، أو مَقتُه إيّاكم في الدُّنيا.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

[3] غافر، ٦/٤٠.

﴿إِذۡ تُدۡعَوۡنَ﴾ مِن جهة الأنبياءِ ﴿إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فتأبَونَ قَبوله ﴿فَتَكۡفُرُونَ﴾ اتّباعًا لأنفسكم الأمّارة، ومسارعةً إلى هواها، أوِ اقتداءً بأخِلّائكم المضلِّين، واستحبابًا لآرائهم أكبرَ مِن مَقتكم أنفسَكم الأمّارة، أو مِن مَقت بعضكم بعضًا اليوم. فـ﴿إِذۡ﴾ ظرف للمَقت الأوّل وإن توسّط بينهما الخبر، لِما في الظروف مِن الاتّساعِ. وقيل: لمصدر آخَر مقدّر، أي: مقتُه إيّاكم إذ تُدعَون. وقيل: مفعول لـ"اذكروا". والأوّل هو الوجه.

وقيل: كلا المَقتَين في الآخرة، و﴿إِذۡ تُدۡعَوۡنَ﴾ تعليل لِما بين الظرف والسبب مِن علاقة اللزوم. والمعنى: لَمَقتُ الله إيّاكم الآن أكبر مِن مَقتكم أنفسَكم لِما كنتم تُدعَون إلى الإيمان فتكفرون. وتخصيص هذا الوجه بصورة كون المراد بـ"أنفسهم" أضرابَهم ممّا لا داعي إليه.

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١﴾

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ صفتان لمصدرَي الفعلين المذكورين، أي: إماتتَين وإحياءتَين، أو موتتَين وحياتَين، على أنّهما مصدران لهما أيضًا بحذف الزوائد، أو لفعلين يدلّ عليهما المذكوران، فإنّ الإماتة والإحياء يُنبئانِ عن الموت والحياة[1] حتمًا، كأنّه قيل: أمتَّنا فمُتنا موتتَين اثنتَين، وأَحيَيْتَنا فَحَيِينا حياتَين[2] اثنتين، على طريقة قول مَن قال:

وعضّةُ دهرٍ يا ابنَ مروانَ لم يدَع ... مِن المال إلّا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ[3]

أي: لَم يدَع فلم يبقَ إلّا مُسحَت... إلخ.

---

[1] م س: والحيوة.

[2] م س: حيوتين.

[3] للفرزدق في ديوانه، ص ١١٧، بلفظ:
وعضّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم تدَع ... مِن المال إلّا مُسحَتًا أو مُجرَّفُ
والمُسحَت: الذي لم يبق منه بقيّة. والمجلّف: الذي ذهَب معظمه، وبقي منه شيء يسير. قال الزمخشري: «هذا البيت ما تزال الرُّكَب تصطكّ في تسوية إعرابه». الكشّاف للزمخشري، ٧٢/٣. وقال ابن قتيبة: «رفع الفرزدق آخر البيت ضرورةً، وأتعبَ أهل الإعراب في طلب العلّة، فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا منه بشيء يُرتضى». الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٨٩/١.

قيل: أرادوا بالإماتة الأولى خَلْقَهم أمواتًا، وبالثانية إماتَتهم عند انقضاء آجالهم، على أنّ الإماتة جعل الشيء عادِم الحياة، أعمّ مِن أن يكون بإنشائه كذلك، كما في قولهم: "سبحان مَن صغّر البعوض وكبّر الفيل"، أو بجعله كذلك بعد الحياة وبالإحياءين الإحياءَ الأوّلَ وإحياءَ البعث.

وقيل: أرادُوا بالإماتة الأولى ما بعد حياة الدنيا، وبالثانية ما بعد حياة القبر، وبالإحياءين: ما في القبر وما عند البعث، / وهو الأنسب بحالهم. وأمّا [٢٣و] حديث لزوم الزيادة على النصّ[1] ضرورة تحقّق حياة الدنيا فمدفوع، لكن لا بما قيل مِن عدم اعتدادهم بها لزوالها وانقضائها وانقطاعِ آثارها وأحكامها؛ بل بأنّ مقصودهم إحداث الاعتراف بما كانوا يُنكرونه في الدنيا كما ينطق به قولهم: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ والتزام العمل بموجَب ذلك الاعتراف؛ ليتوسّلوا بذلك إلى ما علّقوا به أطماعهم الفارغة مِن الرَجْعِ إلى الدنيا، كما قد صرّحوا به حيث قالوا: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢]، وهو الذي أرادوه بقولهم: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ مع نوعِ استبعادٍ له واستشعار يأسٍ منه، لا أنّهم قالوهُ بطريق القنوط البحت كما قيل.[2]

ولا ريب في أنّ الذي كانوا ينكرونه ويفرّعون عليه فنون الكفر والمعاصي ليس إلّا الإحياءَ بعد الموت، وأمّا الإحياء الأوّل فلم يكونوا ينكرونه لينظموه في سلك ما اعترفوا به وزعموا أنّ الاعتراف به يُجديهم نفعًا، وإنّما ذكروا الموتة الأولى مع كونهم معترفين بها في الدنيا لتوقّف حياة القبر عليها، وكذا حال الموتة في القبر، فإنّ مقصدهم الأصلي هو الاعتراف بالإحياءين، وإنّما ذكروا الإماتتين لترتيبهما عليهما ذِكرًا حسب ترتّبهما عليهما وجودًا.

وتنكيرُ ﴿سَبِيلٖ﴾ للإبهام، أي: مِن سبيلٍ مّا كيفما كان.

---

١ وفي هامش م: بناء على أنّ لفظ ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ نص في مدلوله. «منه». | قال الزمخشري: «ومَن جعل الإماتتين التي بعد حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزِمَه إثبات ثلاث إحياءات، وهو خلاف ما في القرآن، إلّا أن يتَمحّل فيجعل إحداها غيرَ معتدّ بها، أو يزعم أنّ الله تعالى يُحييهم في القبور، وتستمرّ بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها». الكشّاف للزمخشري، ١٥٥/٤.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٥٥/٤.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾... إلخ جواب لهم باستحالة حصول ما يرجونه ببيان ما يوجبها مِن أعمالهم السيّئة، أي: ذلكم الذي أنتم فيه مِن العذاب مطلقًا -لا مقيّدًا بالخلود كما قيل-[1] ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ أي: بسبب أنّ الشأن ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ﴾ في الدنيا، أي: عُبِد ﴿وَحْدَهُۥ﴾ أي: منفردًا ﴿كَفَرْتُمْ﴾ أي: بتوحيده، ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ / أي: بالإشراك به وتُسارعوا فيه. [٢٣ظ]

وفي إيراد ﴿إِذَا﴾ وصيغةِ الماضي في الشرطيّة الأُولى و﴿إِن﴾ وصيغةِ المضارعِ في الثانية ما لا يخفى مِن الدلالة على كمال سوء حالهم.

وحيث كان حالكم كذلك ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ الذي لا يحكم إلّا بالحقّ، ولا يقضي إلّا بما يقتضيه الحكمة، ﴿ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ الذي ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا مُعقِّب لحُكمه، وقد حكَم بأنّه لا مغفرة للمشرك، ولا نهاية لعقوبته، كما لا نهاية لشَناعته، فلا سبيل لكم إلى الخروج أبَدًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالّة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرُّده بالألوهيّة لتستدلّوا بها على ذلك، وتعملوا بموجَبها فتوحِّدوه تعالى، وتَخُصُّوه بالعبادة. ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد. وقُرِئ بالتخفيف[2] مِن الإنزال. ﴿لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أي: سببَ رزق، وهو المطر، وإفرادُه بالذكر مع كونه مِن جملة الآيات الدالّة على كمال قدرته تعالى لتفرُّده بعنوان كونه مِن آثار رحمته وجلائل نعمته المُوجبة للشكر. وصيغة المضارعِ في الفعلين للدلالة على تجدّد الإراءة والتنزيل واستمرارهما. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول لِما مرّ غير مرّة.

---

١ انظر: اللباب لابن عادل، ٢١/١٧.

٢ أي: "وَيُنْزِلُ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات الباهرة ولا يَعمل بمقتضاها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إلى الله تعالى، ويتفكّر فيما أودعه في تضاعيف مصنوعاته مِن شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى، ومَن ليس كذلك فهو بمَعزِل مِن التذكّر والاتّعاظ.

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: إذا كان الأمر كما ذكر مِن اختصاص التذكّر بمَن ينيب فاعبدوه أيّها المؤمنون مخلصين له دينكم بموجَب إنابتكم إليه تعالى وإيمانكم به، ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ذلك وغاظَهم إخلاصُكم.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ نحو: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [البقرة، ١١٧/٢] على أنّه صفة مشبَّهة أضيفت إلى فاعلها بعد النقل إلى فَعُل بالضمّ كما هو المشهور -وتفسيره بـ"الرافع" ليكون مِن إضافة اسم الفاعل إلى المفعول[١] بعيدٌ في الاستعمال- أي: رفيع درجات ملائكتِه، / أي: معارجِهم ومصاعدِهم إلى العرش. ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: مالكه. [٢٤و]

وهما خبران آخران لقوله تعالى: ﴿هُوَ﴾،[٢] أُخبِر عنه بهما إيذانًا بعلوّ شأنه تعالى وعِظَم سلطانه الموجِبَين لتخصيص العبادة به وإخلاص الدين له، إمّا بطريق الاستشهاد بهما عليهما، فإنّ ارتفاع معارج ملائكته إلى العرشِ وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوي والسفلي تحت ملكوته وقبضةِ قدرته ممّا يَقْضِي بكونِ علوّ شأنه وعِظَم سلطانه في غايةٍ لا غايةَ وراءها. وإمّا بجعلهما عبارةً عنهما بطريق المجاز المتفرّعِ على الكناية، كالاستواء على العرش. وتمهيدًا[٣] لِمَا يعقُبهما مِن قوله تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾، فإنّه خبر آخر لِما ذكر،

---

١ انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٤٣/٩؛ وتفسير القرطبي، ٢٩٩/١٥.

٢ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الآيةَ [غافر، ١٣/٤٠].

٣ وفي هامش م: عطفٌ على "إيذانًا". «منه».

مُنْبِئ عن إنزال الرزق الروحاني الذي هو الوحي بعد بيان إنزال[١] الرزق الجسماني الذي هو المطر، أي: ينزل الوحي الجاري مِن القلوب منزلةَ الروح مِن الأجساد.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بيان لـ﴿ٱلرُّوحَ﴾ الذي أريد به الوحي، فإنّه أمر بالخير، أو حال منه، أي: حال كونه ناشئًا ومبتدِئًا مِن أمره، أو صفة له على رأي مَن يُجوّز حذف الموصول مع بعض صلته، أي: الروح الكائن مِن أمره، أو متعلّق بـ﴿يُلْقِى﴾، و﴿مِنْ﴾ للسببيّةِ كالباء، مثلَ ما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ [نوح، ٧١/٢٥]، أي: يُلقي الوحي بسبب أمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهو الذي اصطفاه لرسالته وتبليغ أحكامه إليهم.

﴿لِيُنذِرَ﴾ أي: اللهُ تعالى، أو الملقَى عليه، أو الروح. وقُرئ: "لِتُنْذِرَ"[٢] على أنّ الفاعل هو الرسول عليه السلام، أو الروحُ؛ لأنّها قد تؤنّث. ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ إمّا ظرف للمفعول الثاني، أي: لِيُنذر الناس العذابَ يومَ التلاقي، وهو يوم القيامة؛ لأنّه يتلاقى فيه الأرواح والأجساد وأهل السماوات والأرض. أو هو المفعول الثاني اتّساعًا أو أصالةً، فإنّه مِن شدّة هَوله وفظاعته حقيق بالإنذار أصالةً. وقُرئ: "لِيُنْذَرَ" على البناء للمفعول ورفعِ "اليوم".[٣]

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾،[٤] أي: خارجون مِن قبورهم، / أو ظاهرون لا يسترهم شيء مِن جبل أو أَكَمةٍ أو بناءٍ، لكون الأرض يومئذ قاعًا صفصفًا، ولا عليهم ثياب، إنّما هم عُراة مكشوفون، كما جاء في الحديث: «يحشرون عُراةً حُفاةً غُزلًا».[٥] وقيل: ظاهرةٌ نفوسهم لا يحجبهم غواشي الأبدان، أو أعمالُهم وسرائِرهم. [٢٤ظ]

---

١ م س - إنزال ["صحّ" في هامش م س].

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن واليماني. **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٣٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن ويعقوب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١٧.

٤ في الآية السابقة.

٥ **صحيح البخاري**، ٤/١٦٨ (٣٤٤٧)؛ **صحيح مسلم**، ٤/٢١٩٤ (٢٨٦٠). | "غُزلًا" -بضمّ الغين المعجمة وإسكان الراء- معناه: غير مختونين. **شرح صحيح مسلم** للنووي، ١٧/١٩٣.

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ استئناف لبيان بُروزهم، وتقريرٌ له، وإزاحةٌ لِما كان يتوهّمه المتوهِّمون في الدنيا مِن الاستتار توهّمًا باطلًا، أو خبر ثانٍ. وقيل: حال مِن ضمير ﴿بَٰرِزُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه تعالى شيءٌ مّا مِن أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم الجليّة والخفيّة السابقةِ واللّاحِقة.

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ حكاية لِما يقع حينئذ مِن السؤال والجواب بتقدير قولٍ معطوف على ما قبله مِن الجملة المَنفيّة المستأنَفة، أو مستأنَفٍ يقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن حكاية بروزهم وظهور أحوالهم، كأنّه قيل: فماذا يكون حينئذ؟ فقيل: يُقال... إلخ، أي: ينادي منادٍ: لمَن المُلك اليوم؟ فيُجيبه أهل المَحشر: لله الواحد القهّار.

وقيل: المجيب هو السائل بعينه، لما رُوي أنّه يَجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد في أرض بيضاء، كأنّها سبيكة فضّة، لـم يُعصَ اللهُ فيها قطُّ،[١] فأوّلُ ما يُتكلّم به أن ينادِيَ منادٍ: لمَن الملك اليومَ؟ لله الواحد القهّار.[٢]

وقيل: هي حكايةٌ لِما يَنطق به لسان الحال مِن تقطُّع أسباب التصرّفات المجازيّة، واختصاص جميع الأفاعيل بقَبضة القدرة الإلهيّة.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٧﴾

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾... إلخ إمّا مِن تتمّة الجواب لبيان حكم اختصاص المُلك به تعالى ونتيجتِه التي هي الحُكم السَّويّ والقضاء بالحقّ، أو حكايةٌ لِما سيقوله تعالى يومئذ عَقيب السؤال والجواب، أي: تُجزَى كلُّ نفس مِن النفوس البَرّة والفاجرة بما كسبت مِن خير أو شرّ.

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عذاب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: سريعٌ حسابُه تمامًا؛ إذ لا يشغله تعالى[٣] شأن عن شأن، فيحاسِب الخلائق قاطبةً في أقرب زمان، كما نُقل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: / أنّه تعالى إذا أخذ [٢٥و]

---

١ س - قطّ.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١٥٧/٤. وهو في الزهد والرقائق لابن المبارك، ١١٥/٢.

٣ س - تعالى.

في حسابهم لم يَقِلْ[١] أهلُ الجنّة إلّا فيها ولا أهلُ النار إلّا فيها.[٢] فيكون تعليلًا لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ﴾... إلخ، فإنّ كون ذلك اليوم بعينه يومَ التلاقي ويومَ البُروز ربّما يوهِم استبعادَ وقوعِ الكلّ فيه. أو سريعٌ[٣] مَجيئًا، فيكون تعليلًا للإنذار.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨﴾

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ أي: القيامة. سمّيت بها لأُزُوفِها؛ وهو القُرْب، غيرَ أنّ فيه إشعارًا بضيق الوقت. وقيل: الخُطّةِ الآزفةِ؛ وهي مشارفة أهل النار دخولَها. وقيل: وقتَ حضور الموت، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة، ٨٣/٥٦]، وقولِه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾ [القيامة، ٢٦/٧٥].

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾، فإنّها ترتفع مِن أماكنها، فتلتصق بحُلوقهم، فلا تعود فيَتروَّحوا، ولا تَخرجُ فيَستريحوا بالموت. ﴿كَـٰظِمِينَ﴾ على الغمّ، حال مِن أصحاب ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ على المعنى؛ إذ الأصل: قلوبُهم، أو مِن ضميرها في الظرف. وجمع السلامة باعتبار أنّ الكَظْم مِن أحوال العقلاء، كقوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ [الشعراء، ٤/٢٦]، أو مِن مفعول ﴿أَنذِرْهُمْ﴾ على أنّها حال مقدَّرة، أي: أنذرهم مُقَدَّرًا كَظْمُهم، أو مُشارفين الكَظْم.

﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: قريب مُشفِقٍ، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: لا شفيعٍ مُشفَّعٍ،[٤] على معنى نفي الشفاعة والطاعة معًا، على طريقة قوله:

عـلـى لَاحِـــبٍ لا يُـهـتَـدَى بـمَـنـارِه[٥]

---

[١] مِن القيلولة؛ وهي النوم في الظهيرة. انظر: **الصّحاح** للجوهري، «قيل».

[٢] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٧/٤. وفي **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٣٨/٣، عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم: «لا ينتصف النهار مِن يوم القيامة حتّى يَقيل أهل الجنّة في الجنّة، وأهل النار في النار». وهو في **جامع البيان** للطبري، ٥٥٦/١٩ (الصافات، ٦٨/٣٧)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[٣] السياق: أي: سريعٌ حسابُه... أو سريعٌ مَجيئًا...

[٤] وفي هامش م: والجملة حال أخرى. «منه».

[٥] تمامه:

إذا سافَهُ العَودُ النباطيُّ جَرْجرا

وهو لامرئ القيس في ديوانه، ص ٦٦. وقوله: "على لاحِب" أي: على طريق واضح. وسافه: شمّه. والعَود: البعير الهرم. والجرجرة: صوت يردّده البعير في حنجرته، وإنّما يُجرجر في الطريق إذا شمّه، لِما يعرف مِن شدّته وصعوبة مَسلكه. انظر: **أمالي ابن الشجري**، ٢٩٩/١.

والضمائر إن عادت إلى الكفّار -وهو الظاهر- فوضعُ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مَوضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم، وتعليلِ الحكم به.

﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾

﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ النظرةَ الخائنةَ، كالنظرة الثانية إلى غير المَحرم، واستراقِ النظر إليه، أو خيانةَ الأعين على أنّها مصدر كالعافية، ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ مِن الضمائر والأسرار. والجملة خبر آخر -مثل: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾-[1] للدلالة على أنّه ما مِن خفيّ إلّا وهو متعلَّقُ العِلم والجزاء.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠﴾

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ لأنّه المالك الحاكم / على الإطلاق، فلا يقضي بشيء [٢٥ظ] إلّا وهو حقّ وعدل. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ يعبدونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ تهكُّم بهم؛ لأنّ الجماد لا يقال في حقّه: يَقضي أوْ لا يَقضي. وقُرئ: "تَدْعُونَ" على الخطاب[2] التِفاتًا، أو على إضمار "قل".

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعيُن، وقضائِه بالحقّ، ووعيدٌ لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريضٌ بحال ما يدعون مِن دونه تعالى.[3]

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١﴾

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: مآل حال مَن قبلَهم مِن الأُمم المكذِّبة لرسلهم، كعاد وثمودَ وأضرابِهم.

﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ قدرةً وتمكّنًا مِن التصرّفات. وإنّما جيء بضمير الفصل -مع أنّ حقّه التوسّط بين معرفتين- لمضاهاة "أفعلَ مِنْ" للمعرفة في امتناعِ

---

[1] غافر، ١٥/٤٠.
[2] قرأ بها نافع وابن عامر بخُلف عن ابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٣٦٤/٢.
[3] س - تعالى.

دخول اللام عليه. وقُرئ: "أَشَدَّ مِنكُمْ" بالكاف.[١] ﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مثل: القِلاع الحصينة، والمدائن المتينة. وقيل: المعنى: وأكثرَ آثارًا، كقوله:

متقلِّدًا سيفًا ورُمحًا[٢]

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أخذًا وَبيلًا[٣] ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: مِن واقٍ يقيهم عذابَ الله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الأخذ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات، أو بالأحكام الظاهرة، ﴿فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ متمكِّن ممّا يريد غايةَ التمكّن، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يُؤبَهُ عند عقابه بعقاب.[٤]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهي معجزاته ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وحجّة قاهرة، وهي إمّا عين الآياتِ والعطفُ لتغاير العنوانين، وإمّا بعض مشاهيرها كالعصا، أُفردَت بالذِّكر مع اندراجها تحت الآيات لإنافتها إفرادَ جبريل وميكال به مع دخولهما في الملائكة عليهم السلام.[٥]

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: فيما أظهره مِن المعجزات، وفيما ادّعاه مِن رسالة ربّ العالمين.

---

١ قرأ بها ابن عامر، وكذا هو في المصحف الشامي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٢ صدره:

يا ليت زوجَك قد غدا

وهو بغير نسبة في الصِّحاح للجوهري، «قلد»؛ ولسان العرب لابن منظور، «قلد».

٣ مِن قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل، ٧٣/١٦]. وسيأتي في تفسير سورة المزّمّل: الوَبيل: الثقيل الغليظ، مِن قولهم: "كلأٌ وَبيلٌ" أي: وَخيم.

٤ وفي هامش م: يقال: لا يُؤبَهُ بِهِ، ولا يُؤبَهُ له، أي: لا يُبالَى به. «منه».

٥ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة، ٢/٩٨].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾

/ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهو ما ظهر على يده مِن المعجزات القاهرة ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ كما قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [الأعراف، ١٢٧/٧]، أي: أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه أوّلًا. وكان فرعون قد كفّ عن قتل الولدان، فلمّا بُعِث عليه السلامُ وأحسّ بأنّه قد وقع ما وقع أعاده عليهم غيظًا وحنَقًا وزعْمًا منه أنّه يصدّهم بذلك عن مظاهرته ظنًّا منهم أنّه المولود الذي حكم المُنجِّمون والكهَنةُ بذهاب مُلكهم على يده. [٢٦و]

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في ضَياعٍ وبطلان لا يغني عنهم شيئًا، ويَنفُذ عليهم لا محالة القَدَرُ المقدورُ والقضاءُ المحتومُ. واللام إمّا للعهد، والإظهارُ في موقعِ الإضمار لِذمِّهم بالكفر والإشعارِ بعلّة الحكم، أو للجنس وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا. والجملة اعتراض جيء به في تضاعيف ما حُكي عنهم مِن الأباطيل للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهروه مِن الإبراق والإرعاد واضمحلالِه بالمَرّة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كان مَلَؤُه إذا همّ بقتله عليه السلام كفُّوه بقولهم: ليس هذا بالذي تخافه، فإنّه أقلّ مِن ذلك وأضعف، وما هو إلّا بعض السحَرة، وبقولهم: إذا قتلتَه أدخلتَ على الناس شبهةً، واعتقدوا أنّك عجزت عن معارضته بالحُجّة، وعدَلت إلى المقارعة بالسيف.

والظاهر مِن دهاء اللعين ونكارَته أنّه كان قد استيقن أنّه نبيّ، وأنّ ما جاء به آياتٌ باهرة، وما هو بسحرٍ، ولكن كان يخاف إن همّ بقتله أن يُعاجَل بالهلاك، وكان قوله هذا تمويهًا على قومه وإيهامًا أنّهم هم الكافّون له عن قتله، ولولاهم لَقتله،

وما كان الذي يكفّه إلّا ما في نفسه مِن الفزع الهائل، وقولُه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥ﴾ تجلُّد منه، وإظهار لعدم المبالاة بدعائه، ولكنّه أَخْوفُ ما يخافه.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي: يُغيّر ما أنتم عليه مِن الدين الذي هو عبارة عن عبادته وعبادةِ الأصنام لتُقرّبهم إليه، ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ / ٱلْفَسَادَ﴾ ما يفسد دنياكم مِن التحارُب والتهارُجِ إن لم يقدِر على تبديل دينكم بالكلّيّة. وقُرئ بالواو الجامعة.[١] وقُرئ بفتحِ الياء والهاء ورفع ﴿ٱلْفَسَادَ﴾.[٢] وقُرئ: "يَظَّهَّرَ" بتشديد الظاء والهاء،[٣] مِن "تَظَهَّر" بمعنى "تظاهَر"، أي: تتابَع وتعاوَن. [٢٦ظ]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ أي: لقومه حين سمع بمَا تَقوَّله اللعين مِن حديث قتله عليه السلام: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صدَّر عليه السلام كلامه بـ"إنّ" تأكيدًا لَه وإظهارًا لِمزيد الاعتناء بمضمونه وفرطِ الرغبة فيه. وخصّ اسم الربّ المُنبئ عن الحفظ والتربية لأنّهما الذي يستدعيه، وأَضافَهُ إليه وإليهم حثًّا لهم على موافقته في العياذ به تعالى والتوكّل عليه، فإنّ في تظاهر النفوس تأثيرًا قويًّا في استجلاب الإجابة، ولم يسمّ فرعون؛ بل ذكَرَه بوصفٍ يعمّه وغيره مِن الجبابرة لتعميم الاستعاذة والإشعار بعِلّة القساوة والجُرأة على الله تعالى. وقُرئ: "عُذتُّ"[٤] بالإدغام.[٥]

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

---

١ أي: "وَأَن يُظْهِرَ" بدَل ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ﴾. قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٢ أي: "يَظْهَرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادُ". قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلَف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٤ في الأصول الخطّيّة: "عدت" بالدال، لعلّ ذلك إشارةً إلى قَلبها عند الإدغام، إلّا أنّها عند الإدغام تُقلب تاءً، وليس دالًا.

٥ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلَف وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/١٦.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قيل: كان قبطيًا ابنَ عمّ لفرعون آمَن بموسى سرًا، وقيل: كان إسرائيليًا، أو غريبًا، موحِّدًا ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ أي: مِن فرعون ومَلَئه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أتقصدون قتلَه؟ ﴿أَن يَقُولَ﴾ لِأَن يقولَ، أو كراهةَ أن يقول: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي: وحدَه مِن غير رَويّة وتأمّلٍ في أمره، ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والحال أنّه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها وعهدتموها ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافَه إليهم بعد ذكر البيّنات احتجاجًا عليهم واستنزالًا لهم عن رتبة المكابرة.

ثمّ أخذهم بالاحتجاجِ مِن باب الاحتياط، فقال: ﴿وَإِن[1] يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطّاه وبالُ كذِبه فيُحتاجَ في دفعه إلى قتله. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي: إن لم يصبكم كلُّه فلا أقلّ مِن إصابة بعضه، لا سيّما إن تعرّضتم له بسُوءٍ، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف / وعدم التعصّب، [٢٧و] ولذلك قدَّم مِن شِقَّي الترديد كونَه كاذبًا. أو يُصِبْكم ما يعدكم مِن عذاب الدنيا، وهو بعض ما يعدهم، كأنّه خوّفهم بما هو أظهر احتمالًا عندهم. وتفسير "البعض" بالكلّ مستدِلًا[2] بقول لَبيد:

تَــرّاك أمـكـنَـةٍ إذا لـم أرضَـهـا   أو يرتَبِطْ بعضَ النفوسِ حمامُها[3]

مردود[4] لِما أنَّ مراده بـ"البعض" نفسُه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاج آخر ذو وَجهين:

أحدهما: أنّه لو كان مُسرفًا كذّابًا لَما هداه الله إلى البيّنات، ولَما أيّده بتلك المعجزات.

وثانيهما: إن كان كذلك خذَله الله وأهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله.

---

[1] م س ي: "فإن".

[2] قال ذلك أبو عبيدة مَعمر بن المثنّى في مجاز القرآن، ٢/٢٠٥. وانظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١٦٣.

[3] ديوان لبيد بن ربيعة، ص ١١٣. قال الزوزني: «يقول: إنّي ترّاك أماكن إذا لم أرضها إلّا أن يرتبط نفسي حمامها فلا يمكنها البَراح، وأراد بـ"بعض النفوس" هنا نفسَه، هذا أوجه الأقوال وأحسنها، ومَن جعل "بعض النفوس" بمعنى: كلّ النفوس؛ فقد أخطأ؛ لأنّ بعضًا لا يفيد العموم والاستيعاب، وتحرير المعنى: إنّي لا أترك الأماكن التي أجتويها وأقلوها إلّا أن أموت». شرح المعلّقات السبع للزوزني، ص ١٩٣.

[4] السياق: وتفسير "البعض" بالكلّ... مردود.

ولعلّه أراهم المعنى الثاني وهو عاكف على المعنى الأوّل لِتَلين شكيمتُهم. وقد عرّض به لفرعون بأنّه مُسرف كذّاب، لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة.

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين عالين على بني إسرائيل ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أرضِ مِصر، لا يُقاومكم أحد في هذا الوقت ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ مِن أخذه وعذابه ﴿إِن جَآءَنَا﴾ أي: فلا تفسدوا أمركم، ولا تتعرّضوا لِبأس الله بقتله، فإنّه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد. وإنّما نسبَ ما يَسرُّهم مِن المُلك والظهور في الأرض إليهم خاصّة ونظَم نفسه في سِلكهم فيما يَسُوءُهم مِن مَجيء بأس الله تعالى تطييبًا لقلوبهم، وإيذانًا بأنّه مناصح لهم ساعٍ في تحصيل ما يُجديهم ودفع ما يُرْديهم سعْيَه في حقّ نفسه ليتأثّروا بنُصحه.

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ بعدما سمع نصحه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ﴾ أي: ما أُشير عليكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وأَستصوبه مِن قتله، ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: الصواب. أو لا أُعلِمكم إلّا ما أَعلم، ولا أُسِرّ عنكم خلافَ ما أُظهِره. ولقد كذَب حيث كان مستشعِرًا للخَوف الشديد، ولكنّه كان يَتجلّد، ولولاه لَما استشار أحدًا أبدًا.

وقُرِئ بتشديد الشين[١] للمبالغة مِن "رَشِد" كـ"عَلّام"، أو مِن "رَشَد" كـ"عبّاد"، لا مِن "أرشَد" كـ"جَبّار" مِن "أجبَر"؛ لأنّه مقصور على السماع، أو للنسبة إلى الرُّشد كـ"عَوّاج" و"بَتّاتٍ" غيرَ منظور فيه إلى فعلٍ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ مخاطبًا لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم﴾ في تكذيبه والتعرّض له بالسوء[٢] ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ مثلَ أيّام الأمم الماضية، يعني: وقائعهم. وجَمعُ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ مع التفسير أغنى عن جمع "اليوم".

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

[٢] س: بسوء.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ٣١﴾

/ ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: مثلَ جزاء ما كانوا عليه مِن الكفر وإيذاء الرسل. ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب، ولا يخلّي الظالم منهم بغير انتقام. وهو أبلغ مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت، ٤١/٤٦]، لِما أنّ المنفيّ فيه إرادةُ ظلمٍ مَا، فينتفي الظلم بطريق الأولويّة. [٢٧ظ]

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ٣٣﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ[1] إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ خوّفهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي. و﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم القيامة؛ لأنّه ينادي فيه بعضهم للاستغاثة، أو يتصايحون بالويل والثبور، أو يتنادى أصحابُ الجنّة وأصحاب النار حسبما حُكي في سورة الأعراف.[2] وقُرئ بتشديد الدال،[3] وهو أن يَنِدَّ[4] بعضهم مِن بعض، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس، ٨٠/٣٤]. وعنِ الضحّاك: «إذا سمعوا زفير النار نَدُّوا هرَبًا، فلا يأتون قُطرًا مِن الأقطار إلّا وجدوا ملائكةً صفوفًا، فبينا هم يموج بعضهم في بعضٍ إذ سمعوا مناديًا: أقبِلوا إلى الحساب».[5]

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾،[6] أي: منصرفين عن الموقف إلى النار، أو فارّين منها حسبما نُقل آنفًا.[7] ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم مِن عذابه. والجملة حال أخرى مِن ضمير ﴿تُوَلُّونَ﴾.

---

١ م س ي: يا قَوم.
٢ وهو قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾... الآيات [الأعراف، ٧/٥٠].
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والكلبي والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.
٤ مِن نَدَّ البعير يَنِدُّ نَدًّا ونِدادًا ونُدودًا: نفَرَ وذهب على وجهه شاردًا. انظر: الصّحاح للجوهري، «ندد».
٥ الكشّاف للزمخشري، ٤/١٦٥. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٧٥؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤/١١.
٦ في الآية السابقة.
٧ على قراءة التشديد في الدال.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى طريق النجاة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام على أنّ فرعونه فرعون موسى، أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد. وقيل: سبطه يوسف بن إبراهيم بن يوسف الصدّيق. ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ موسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحة. ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ مِن الدين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ بالموت ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ ضمًّا إلى تكذيب رسالته تكذيبَ رسالةِ مَن بعده، أو جزمًا بأن لا يُبعث بعدَه رسول مع الشكّ في رسالته. وقُرئ: "أَلَن يَبْعَثَ اللهُ"[1] على أنّ بعضهم يقرّر بعضًا بنفي البعث.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإضلال الفظيع ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في عصيانه ﴿مُّرْتَابٌ﴾ في دينه، شاكٌّ فيما يشهد به / البينات لِغلبة الوهم والانهماك في التقليد. [٢٨و]

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدل مِن الموصول الأوّل، أو بيان له، أو صفة باعتبار معناه، كأنّه قيل: كلُّ مُسرِفٍ مرتابٍ، أو المسرفين المرتابين. ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ متعلِّق بـ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾، أي: بغير حجّة صالحة للتمسّك بها في الجملة ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ صفةٌ ﴿سُلْطَٰنٍ﴾.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه ضرب مِن التعجّب والاستعظام. وفي ﴿كَبُرَ﴾ ضمير يعود إلى ﴿مَنْ﴾،[2] وتذكيره باعتبار اللفظ. وقيل: إلى الجدال المستفاد مِن ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ وابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: تفسير السمعاني، ١٩/٥.

[2] في الآية السابقة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فيصدر عنه أمثال ما ذُكر مِن الإسراف والارتياب والمجادلة بالباطل. وقُرئ بتنوينِ "قَلْبٍ".[١] ووصفُه بالتكبّر والتجبّر لأنّه منبعهما.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي: بناءً مكشوفًا عاليًا، مِن "صرّح الشيءُ" إذا ظَهر. ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ أي: الطرق.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بيان لها. وفي إبهامها ثمّ إيضاحِها تفخيم لشأنها، وتشويق للسامع إلى معرفتها، ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بالنصب على جواب الترجّي. وقُرئ بالرفع[٢] عطفًا على ﴿أَبْلُغُ﴾.

ولعلّه أراد أن يبني له رصَدًا في موضع عالٍ ليَرصُد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماويّة تدلّ على الحوادث الأرضيّة، فيرى هل فيها ما يدلّ على إرسال الله تعالى إيّاه؟ أو أن يُرِيَ فساد قوله عليه السلام بأنّ إخباره مِن إله السماء يتوقّف على اطّلاعه عليه ووصوله إليه، وذلك لا يتأتّى إلّا بالصعود إلى السماء، وهو ممّا لا يقوى عليه الإنسان، وما ذاك إلّا لجهله بالله سبحانه، وكيفيّةِ استنبائِه.

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ فيما يدّعيه مِن الرسالة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك التزيين البليغ المُفرط ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فانهمك فيه انهماكًا لا يَرعوي عنه / بحالٍ، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيل الرشاد. والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى، ويُؤيّده قراءة "زَيَّنَ" بالفتح،[٣] [٢٨ظ]

١ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٦٥/٢.

٢ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٦٥/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

وبالتوسّط الشيطانُ. وقُرئ: "وَصَدٌّ"،[١] على أنّ فرعون صَدّ الناس عن الهدى بأمثال هذه التمويهات والشُّبُهات، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: خسار وهلاك، أو على أنّه مِن "صَدّ صدودًا"، أي: أعرَض. وقُرئ بكسر الصاد[٢] على نقل حركة الدال إليه. وقُرئ: "وَصَدٌّ"[٣] على أنّه عطفٌ على ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾. وقُرئ: "وَصُدُّوا"،[٤] أي: هو وقومه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ أي: مؤمن آل فرعونَ. وقيل: موسى عليه السلام. ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ فيما دلَلتُكم عليه ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: سبيلًا يصِل سالكه إلى المقصود. وفيه تعريض بأنّ ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغيّ والضلال.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: تمتُّع يسير لسرعة زوالها. أجملَ لَهم أوّلًا ثمّ فسّر، فافتتح بذمّ الدنيا وتصغير شأنها؛ لأنّ الإخلاد إليها رأس كلّ شرّ، ومنه يتشعّب فنون ما يؤدّي إلى سَخط الله تعالى، ثمّ ثنّى بتعظيم الآخرة فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ لخلودها ودوام ما فيها.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾

﴿مَنْ عَمِلَ﴾ في الدنيا ﴿سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلًا مِن الله سبحانه. وفيه دليل على أنّ الجنايات تُغرَم بأمثالها ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين عملوا ذلك ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٨.

٢ أي: "وَصِدُّ". قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الرحمن بن أبي بَكرة وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

أي: بغير تقدير وموازنة بالعمل؛ بل أضعافًا مضاعفة فضلًا مِن الله عزّ وجلّ ورحمةً. وجعلُ العملِ عمدةً والإيمانِ حالًا للإيذان بأنّه لا عبرة بالعمل بدونِه، وأنّ ثوابه أعلَى مِن ذلك.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ۝٤٢﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ كرّر نداءهم إيقاظًا لهم عن سِنة الغفلة، واعتناءً بالمنادى له، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نُصحه. ومدار التعجّب الذي يُلوّحُ به الاستفهامُ دعوتُهم إيّاه إلى النار، لا دعوتُه إيّاهم إلى النجاة، كأنّه قيل: أخبروني كيف هذه الحال؟ / أدعوكم إلى الخير، وتدعونني إلى [٢٩و] الشرّ. وقد جعلَه بعضهم مِن قَبيل "ما لي أراك حزينًا؟"، أي: ما لك تكون حزينًا.

وقوله تعالى: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بدل أو بيان فيه تعليل. والدعاء كالهداية في التعدية بـ"إلى" واللام. ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ﴾ بشركته له تعالى في المعبوديّة، وقيل: بربوبيّته ﴿عِلْمٌ﴾ والمراد نفي المعلوم والإشعار بأنّ الألوهيّة لا بدّ لها مِن برهان موجِب للعلم بها.

﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ الجامع لجميع صفات الألوهيّة مِن كمال القدرة والغلبة، وما يتوقّف عليه مِن العِلم والإرادة، والتمكّنِ مِن المُجازاة، والقدرة على التعذيب والغفران.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾ ﴿لَا﴾ رَدٌّ لِما دعَوه إليه، و﴿جَرَمَ﴾ فعل ماضٍ بمعنى "حَقَّ"، وفاعلُه قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: حقَّ ووَجَب عدمُ دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلًا، أو عدمُ دعوة مستجابة، أو عدمُ استجابة دعوة لها. وقيل: ﴿جَرَمَ﴾ بمعنى "كَسَب"، وفاعله مستكِنّ فيه، أي: كَسَب ذلك الدعاءُ إليه بطلانَ دعوته، بمعنى: ما حصل مِن ذلك إلّا ظهورُ بطلان دعوته.

وقيل: ﴿جَرَمَ﴾ فَعَلَ مِن الجَرْم وهو القطع، كما أنَّ "بُدًّا" مِن "لا بُدَّ" فُعْلٌ مِنَ التبديد، أي: التفريق، والمعنى: لا قطعَ لبطلان ألوهيّة الأصنام، أي: لا ينقطع في وقتٍ مّا فينقلِبَ حقًّا، ويؤيّده قولهم: "لا جُرْم أنّه يفعل" بضمّ الجيم وسكون الراء. وفُعْلٌ وفَعَلٌ أخوان، كرُشْد ورَشَدٍ.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: بالموت، عطف على ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي﴾، داخل في حكمه، وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: في الضلال والطغيان كالإشراك وسفك الدماء ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ملازموها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ وقُرئ: "فَسَتُذَكِّرُونَ"،[1] أي: فسيُذكِّر بعضكم بعضًا عند

[٢٩ظ] معاينة العذاب ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ مِن النصائح، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ / قالَه لِما أنّهم كانوا توعّدوه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيحرُس مَن يَلوذ به مِن المكاره.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ شدائدَ مَكرهم وما همّوا به مِن إلحاق أنواع العذاب بمَن خالفهم. قيل: نَجا مع موسى عليه السلام. ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: بفرعون وقومه، وعدمُ التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذِكره ضرورةَ أنّه أَولى منهم بذلك. وقيل: بِطَلَبَةِ المؤمن مِن قومه، لِما أنّه فرّ إلى جبل فاتّبعه طائفة ليأخذوه، فوجدوه يصلّي والوحوشُ صفوفٌ حولَه، فرجعوا رُعبًا، فقتلَهم فرعون. ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ الغرق والقتل والنار.

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان كيفيّة سوء العذاب. أو ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، كأنّ قائلًا قال: ما سوء العذاب؟ فقيل:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمران الجوني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

هو النار، و﴿يُعۡرَضُونَ﴾ استئناف للبيان. أو بدل[1] مِن ﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾، و﴿يُعۡرَضُونَ﴾ حال منها، أو مِن "الآل". ولا يُشترط في الحَيْق أن يكونَ الحائق ذلك السوءَ بعينه حتّى يَرِدَ أنّ آلَ فرعونَ لم يهمّوا بتعذيبه بالنار ليكون ابتلاؤهم بها مِن قَبيل رجوعِ ما همّوا به عليهم؛ بل يكفي في ذلك أن يكون[2] ممّا يُطلَق عليه اسم السوء.

وقُرئت منصوبة[3] على الاختصاص، أو بإضمار فِعل يفسّره ﴿يُعۡرَضُونَ﴾، مثل: يَصْلَوْنَ، فإنّ عَرْضهم على النار بإحراقهم بها، مِن قولهم: عُرِض الأسارى على السيف إذا قُتِلوا به. وذلك لأرواحهم، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه: «أنّ أرواحهم في أجواف طيرٍ سُودٍ تُعرض على النار بُكرةً وعَشِيًّا إلى يوم القيامة».[4] وذِكر الوقتين إمّا للتخصيص، وإمّا فيما بينهما، فالله تعالى أعلم بحالهم، وإمّا للتأبيد، هذا ما دامت الدنيا.

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقال للملائكة: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: عذابَ جهنّم، فإنّه أشدّ ممّا كانوا فيه، أو أشدَّ عذاب جهنّم، فإنّ عذابها ألوان، بعضها أشدّ مِن بعض. وقرئ: "ادْخُلُوا"[5] مِن الدخول، أي: يقال لهم: ادخُلُوا يا آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب.

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: واذكر لقومك وقتَ تخاصمهم فيها، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ وهم رؤساؤهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ أتْباعًا، كـ"خَدَم" في جمعِ خادم، أو ذَوِي تَبَعٍ، أي: اتّباعٍ، على إضمار المضاف، أو تَبَعًا

---

[1] السياق: أو ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر... أو بدل...

[2] وفي هامش م: أي: الحائق. «منه».

[3] أي: "النّارَ". قراءة شاذّة، جوّزها الكرماني ولم يذكر قارئًا لها. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

[4] التفسير الوسيط للواحدي، ١٦/٤؛ اللباب لابن عادل، ٦٣/١٧. وأخرجه الطبري في جامع البيان، ٣٣٨/٢٠، عن السدّي.

[5] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٦٥/٢.

[٣٠و] على الوصف / بالمصدر مبالغةً، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بالدفع أو بالحمل، و﴿نَصِيبًا﴾ منصوب بمضمر يدلّ عليه ﴿مُّغْنُونَ﴾، أي: دافعون عنّا نصيبًا... إلخ، أو بـ﴿مُّغْنُونَ﴾ على تضمينه معنى الحمل، أي: مغنون عنّا حاملين نصيبًا... إلخ، أو نصب على المصدريّة كـ﴿شَيْـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران، ١٠/٣]، فإنّه في موقع "غِنًى"، فكذلك ﴿نَصِيبًا﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: نحن وأنتم، فكيف نغني عنكم؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا. وقُرئ: "كُلًّا"[١] على التأكيد لاسم "إنّ"، بمعنى "كُلَّنا". وتنوينُه عوض عن المضاف إليه، ولا مساغَ لجَعله حالًا مِن المستكِنّ في الظرف، فإنّه لا يعمل في الحال المتقدّمة كما يعمل في الظرف المتقدّم، فإنّك تقول: كلَّ يوم لك ثوب، ولا تقول: جديدًا لك ثوب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ وقضى قضاءً مُتقنًا لا مردّ له، ولا معقِّبَ لحكمه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ مِن الضعفاء والمستكبرين جميعًا لمّا ضاقت حِيَلُهم وعيَّتْ بهم عِلَلُهم ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي: للقُوّام بتعذيب أهل النار. ووضع ﴿جَهَنَّمَ﴾ موضع الضمير للتهويل والتفظيع، أو لبيان محلِّهم فيها بأن تكون جهنّم أبعدَ دركات النار، وفيها أعتى الكفَرة وأطغاهم، أو لكون الملائكة الموكَّلينَ بعذاب أهلها أقدرَ على الشفاعة لمزيد قربهم مِن الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي: مقدار يوم، أو في يوم مّا مِن الأيّام، على أنّه ظرف لا معيارٌ، شيئًا ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ واقتصارُهم في الاستدعاء على ما ذُكر مِن تخفيف قَدر يسير مِن العذاب في مقدار قصير مِن الزمان دون رفعه رأسًا، أو تخفيفِ قَدر كثير منه في زمان مديد؛ لأنّ ذلك عندهم ممّا ليس في حيّز الإمكان، ولا يكاد يدخل تحت أمانيّهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

﴿قَالُوٓاْ أَوَ لَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ٥٠﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الخزنة ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: ألم تُنَبِّهُوا على هذا؟ وَلم تكُ تأتيكم رسلكم في الدنيا على الاستمرار بالحججِ الواضحة الدالّة على سُوء مَغَبَّةِ ما كنتم عليه مِن الكفر والمعاصي؟ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ [الزمر، ٧١/٣٩]، أرادوا بذلكَ إلزامهم وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء وتعطيل أسباب الإجابة.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي: أَتَوْنَا بها فكذَّبناهم، / كما نطق به قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك، ٩/٦٧]. والفاء في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾ فصيحة، كما في قول مَن قال: [٣٠ظ]

فـــقــــد جـِــئـــنـــا خُـــراســـانـــا[1]

أي: إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإنّ الدعاء لمَن يفعل ذلك ممّا يستحيل صدوره عنّا، وتعليل امتناعهم عن الدعاء بعدم الإذن فيه -مع عَرائه عن بيان أنّ سببه مِن قِبَلِهم كما يُفصح عنه الفاء- ربّما يوهم أنّ الإذن في حيّز الإمكان، وأنّهم لو أُذِن لهم فيه لفعلوا. ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء إطماعَهم في الإجابة؛ بل إقناطَهم منها وإظهارَ خَيبتهم حسبما صرّحوا به في قولهم: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي: ضياعٍ وبطلانٍ.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾... إلخ كلام مستأنَف مَسوق مِن جهته تعالى لبيان أنّ ما أصاب الكفَرة مِن العذاب المحكي مِن فروعِ حُكم كلّي

---

[1] تمامه:
قالوا خراسانُ أقصى ما يُراد بنا
ثمّ القفولُ فقد جئنا خُراسانا
وهو للعبّاس بن الأحنف حين خرج مع الرشيد إلى خراسان، وهو في ديوانه، ص ٢٧٩. | قال ابن الأثير: «وحقيقتها [أي: "الفاء" في "فقد"] أنّها في جواب شرط محذوف يدلّ عليه الكلام، كأنّه قال: إن صحّ ما قلتم: إنّ خراسان أقصى ما يُراد بنا، فقد جئنا خراسان، وآن لنا أن نخلص». المثل السائر لابن الأثير، ٢٤٩/٢.

يقتضيه الحكمة، وهو أنّ شأننا المستمرّ أنّا ننصر رسلنا وأتباعهم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالحجّة والظفر والانتقام لهم مِن الكفرة بالاستئصال والقتل والسبْي وغير ذلك مِن العقوبات، ولا يقدح في ذلك ما قد يتّفق لهم مِن صورة الغلبة امتحانًا؛ إذِ العبرة إنّما هي[1] بالعواقبِ وغالب الأمر.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي: يوم القيامة. عُبّر عنه بذلك للإشعار بكيفيّة النصرة، وأنّها تكون عند جمع الأوّلين والآخِرين بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدل مِن الأوّل، وعدمُ نفعِ المعذرة لأنّها باطلة. وقُرئ: "لَا تَنْفَعُ" بالتاء.[2] ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: البعد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: جهنّم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٤﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ما يُهتدَى به مِن المعجزات والصحف والشرائع، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وتركنا عليهم مِن بعده التوراة.

[٣١و] ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ هداية وتذكرة، أو هاديًا ومذكِّرًا / ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لذوي العقول السليمة العاملين بما في تضاعيفه.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٥٥﴾

﴿فَٱصْبِرْ﴾ على ما نالك مِن أذيّة المشركين، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: وعدَه الذي ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات، ٣٧/١٧١-١٧٣]. أو وعدَه الخاصّ بكَ،

---

[1] س - إنّما هي.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

أو جميعَ مواعيده التي مِن جملتها ذلك ﴿حَقٌّ﴾ لا يحتمل الإخلاف أصلًا، واستشهد بحال موسى وفرعون.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ تداركًا لِما فرَط منك مِن ترك الأَولى في بعض الأحايين، فإنّه تعالى كافيك في نصرة دينك وإظهارِه على الدّين كلِّه. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أي: ودُم على التسبيح ملتبِسًا بحمده تعالى. وقيل: صلِّ لهذين الوقتين؛ إذ كان الواجب بمكّة ركعتين بُكرة وركعتين عَشِيًّا. وقيل: صلِّ شُكرًا لِربّكَ بالعَشِيّ والإبكار. وقيل: هما صلاة العصر وصلاة الفجر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ٥٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ويجحدون بها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ في ذلك مِن جهته تعالى. وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيانه للإيذان بأنّ التكلّم في أمر الدين لا بدّ مِن استناده إلى سلطان مبين البتّةَ، وهذا عامّ لكلّ مجادِل مبطلٍ، وإن نزل في مشركي مكّة.

وقوله تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ خبر لـ﴿إِنَّ﴾، أي: ما فِي قلوبهم إلّا تكبّر عن الحقّ وتعظّم عن التفكّر والتعلّم، أو إلّا إرادةُ الرياسة والتقدّم على الإطلاق، أو إلّا إرادةُ أن يكون النبوّة لهم دونك حسدًا وبغيًا حسبما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ١١/٤٦]، ولذلك يجادلون فيها، لا أنّ فيها موقعَ جدالٍ مّا، أو أنّ لهم شيئًا يُتوهّم أن يصلح مدارًا لِمُجادلتهم في الجملة.

وقوله تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ صفة لـ﴿كِبْرٌ﴾. قال مجاهد: «ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكِبر، وهو ما أرادوه مِن الرياسة / أو النبوّة». وقيل: المجادلون [٣١ظ]
هم اليهود، وكانوا يقولون: «لست صاحبَنا المذكور في التوراة؛ بل هو المسيح بن داود -يريدون الدجّال- يخرج في آخر الزمان، ويبلغ سلطانه البرّ والبحر، وتسير معه الأنهار، وهو آية مِن آيات الله تعالى، فيرجع إلينا المُلك». فسمّى الله تعالى تمنّيهم ذلك كِبرًا، ونفى أن يبلغوا مُتمنّاهم.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: فالتجئ إليه مِن كيد مَن يحسدك ويبغي عليك، وفيه رمز إلى أنّه مِن همزات الشياطين. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ تحقيق للحقّ، وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه مِن أمر البعث، على منهاج قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس، ٣٦/٨١]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقصورهم في النظر والتأمّل لفرط غفلتهم واتّباعهم لأهوائهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الغافل والمستبصر، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ أي: والمحسِن والمسيء، فلا بدّ أن يكون لهم حال أُخرى يظهر فيها ما بين الفريقين مِن التفاوت، وهي فيما بعد البعث وزيادةِ، لا في المسيء، لتأكيد النفي لطول الكلام بالصلة، ولأنّ المقصود نفي مساواته للمُحسن فيما له مِن الفضل والكرامة، والعاطفُ الثاني عَطف الموصول بما عُطف عليه على ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ لتغاير الوصفين في المقصود أو الدلالة بالصراحة والتمثيل.

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ على الخطاب بطريق الالتفات، أي: تذكّرًا قليلًا تَتذكّرون. وقُرئ على الغيبة،[1] والضمير للناس أو الكفّار.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: في مجيئها لوضوحِ شواهدها وإجماعِ الرسل على الوعد بوقوعها. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدّقون بها لقصور أنظارهم على ظواهر ما يحسّون به.

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٥.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ﴾ أي: اعبدوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: أُثِبْكم، لقوله تعالى: / ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين أذِلّاء، وإن فسّر الدعاء بالسؤال كان الأمر الصارِف عنه منزّلًا منزلةَ الاستكبار عن العبادة للمبالغة، أو المرادُ بالعبادة الدعاء، فإنّه مِن أفضل أبوابها. وقُرئ: "سَيُدْخَلُونَ"[1] على صيغة المبنيّ للمفعول مِن الإدخال. [٣٢و]

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ بأن خلَقه باردًا مُظلِمًا ليُؤدّيَ إلى ضَعف المحرِّكات وهُدُوءِ الحواسّ لتستريحوا فيه. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول قد مرّ سرّه مرارًا. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُبصَرًا فيه أو به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيمٍ لا يوازيه ولا يدانيه فضل. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لجهلهم بالمُنعِم، وإغفالِهم مواضع النعم، وتكريرُ الناس لتخصيص الكُفران بهم.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٦٣﴾

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المتفرّد بالأفعال المقتضية للألوهيّة والربوبيّة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة تخصّص اللّاحقةُ منها السابقةَ وتُقرِّرها. وقُرئ: "خَالِقَ" بالنصب[2] على الاختصاص، فيكون ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافًا بما هو كالنتيجة للأوصاف المذكورة.

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر ورُويس عن يعقوب وشعبة عن عاصم بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف ومِن أيّ وجه تُصرَفون عن عبادته خاصّةً إلى عبادة غيره؟

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: مثل ذلك الإفك العجيب الذي لا وجه له ولا مصحِّح أصلًا يُؤفَك كلُّ مَن جحد بآياته تعالى أيَّ آية كانت، لا إفكًا آخر له وجهٌ ومصحِّح في الجملة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ بيان لفَضله تعالى المتعلِّق بالمكان بعد بيان فضله المتعلِّق بالزمان. وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بيان لفضله المتعلِّق بأنفسهم، والفاء في ﴿فَأَحْسَنَ﴾ تفسيريّة، فإنّ الإحسان عين التصوير، أي: صوّركم أحسنَ تصوير حيث خلَقكم منتصبَ القامة، باديَ البشرة،[1] متناسبَ الأعضاء والتخطيطات، متهيّئًا لمُزاولة الصنائعِ واكتساب الكمالات.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: اللذائذ. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي نُعت بما ذُكر مِن / النعوت الجليلة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ خبران لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: تعالى [٣٢ظ] بذاته ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مالكهم ومربّيهم، والكلّ تحت ملكوته مفتقر إليه في ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعًا بحيث لو انقطع فيضه عنه آنًا لَانعدم بالكلّيّة.

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ المتفرِّد بالحياة الذاتيّة الحقيقيّة. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجود يُدانيه في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبدوه خاصّةً، لاختصاص ما يوجبه[2] به تعالى، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطاعةَ مِن الشرك الجليّ والخفيّ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: قائلين ذلك، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «مَن قال: لا إله إلّا الله، فليقل على إثْرها: الحمد لله ربّ العالمين».[3]

---

[1] س: البشريّة.
[2] س: يوجب.
[3] **جامع البيان** للطبري، ٣٥٧/٢٠؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٠/٤؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٧٦/٤.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦٦﴾

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّي﴾ مِن الحُجج والآيات، أو مِن الآيات لكونها مؤيِّدة لأدلّة العقل منبِّهة عليها، فإنّ الآيات التنزيليّة مفسِّرات للآيات التكوينيّة الآفاقيّة والأنفُسيّة.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: بأن أنقادَ له وأُخلِص له ديني.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: في ضِمن خلق آدَم عليه السلام منه حسبما مرّ تحقيقه مرارًا. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثمّ خلقكم خلقًا تفصيليًّا مِن نطفة، أي: مَنيّ. ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالًا. والإفراد لإرادة الجنس، أو لإرادة كلّ واحد مِن أفراده. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ علّة لـ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ معطوفة على علّة أخرى له مناسِبةٍ لها، كأنّه قيل: ثمّ يخرجكم طِفلًا لِتكبُروا شيئًا فشيئًا، ثمّ لتبلغوا كمالكم في القوّة والعقل، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾، ويجوز عطفه على ﴿لِتَبْلُغُوٓا۟﴾. وقُرئ: "شَيْخًا"[1] كقوله تعالى: ﴿طِفْلًا﴾.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشدّ أو قبله أيضًا. ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾ متعلّق بفعل مقدّر بعده، أي: ولتبلغوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ هو وقت الموت أو يوم القيامة يفعل ذلك.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ / ولكي تعقلوا ما في ذلك مِن فنون الحِكَم والعِبَر. [٣٣و]

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ﴾ الأمواتَ ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياءَ، أو الذي يفعل الإحياء والإماتة، ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: أراد أمرًا مِن الأمور ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦٣/٥.

مِن غير توقّف على شيء مِن الأشياء أصلًا، وهذا تمثيل لتأثير قُدرته تعالى في المقدورات عند تعلّق إرادته بها، وتصوير لسرعة ترتّب المكوَّنات على تكوينه مِن غير أن يكون هناك أمر ومأمور.[١] والفاء الأولى للدلالة على أنّ ما بعدها مِن نتائج ما قبلها مِن اختصاص الإحياء والإماتة به سبحانه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ تعجيب مِن أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة، وتمهيد لِما يعقُبه مِن بيان تكذيبهم بكلّ القرآن وبسائر الكتب والشرائع، وترتيبِ الوعيد على ذلك، كما أنّ ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾...[٢] إلخ [غافر، ٥٦/٤٠] بيان لابتناء جدالهم على مبنًى فاسدٍ لا يكاد يدخل تحت الوجود، هو الأمنيّة الفارغة،[٣] فلا تكرير فيه، أي: انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يُصرَفون عنها مع تعاضدِ الدواعي إلى الإقبال عليها وانتفاءِ الصوارف عنها بالكلّيّة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: بكلّ القرآن، أو بجنس الكتب السماويّة، فإنّ تكذيبه تكذيبٌ لها. في محلّ الجرّ على أنّه بدل مِن الموصول الأوّل، أو في حيّز النصب أو الرفع على الذمّ، وإنّما وُصِل الموصول الثاني بالتكذيب دون المجادَلة لأنّ المعتاد وقوع المجادَلة في بعض الموادّ لا في الكلّ. وصيغة الماضي للدلالة / على التحقّق كما أنّ صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على تجدّد المجادَلة وتكرّرها. [٣٣ظ]

﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ مِن سائر الكتب أو مطلَق الوحي والشرائع، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ كُنْهَ ما فعلوا مِن الجدال والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته.

---

[١] س: ولا مأمور.
[٢] س - ٱللَّهِ.
[٣] س: الفارعة.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ ظرف لـ﴿يَعْلَمُونَ﴾،[١] إذ المعنى على الاستقبال، ولفظُ الماضي لتيقّنه. ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾. والجارّ في نيّة التأخير، وقيل: مبتدأ حُذف خبره لدلالة خبر الأوّل عليه. وقيل: قوله تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ بحذف العائد، أي: يسحبون بها، وهو على الأوّلَين حال مِن المستكِنّ في الظرف. وقيل: استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية حالهم، كأنّه قيل: فماذا يكون حالهم بعد ذلك؟ فقيل: يُسحبون.

﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ وقُرئ: "والسَّلَاسِلَ يَسْحَبُونَ" بالنصب وفتح الياء[٢] على تقديم المفعول وعطفِ الفعليّة على الاسميّة، و"السَّلَاسِلِ" بالجرّ[٣] حملًا على المعنى؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ في معنى: أعناقُهم في الأغلال، أو إضمارًا للباء، ويدلُّ عليه القراءة به.[٤]

﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي يُحرَقون، مِن "سَجَر التنّورَ" إذا ملأه بالوَقود، ومنه "السَّجِير" للصَّديق، كأنّه سُجِر بالحبّ، أي: مُلئ، والمراد بيانُ أنّهم يعذّبون بألوان العذاب ويُنقَلون مِن باب إلى باب.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: يقال لهم ويقولون. وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق، ومعنى ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾: غابوا عنّا، وذلك قبل أن يُقرَن بهم آلهتُهم، أو ضاعوا عنّا فلم نجد ما كنّا نتوقّع منهم.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧١/٩.

٤ أي: "وَبِالسَّلَاسِلِ". وهي قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٧٨/٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧٢/٩.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: بل تبيَّن لنا أنّا لم نكن نعبد شيئًا بعبادتهم لِما ظهَر لنا اليوم أنّهم لم يكونوا شيئًا يُعتدّ به، كقولك: حسبته شيئًا فلم يكن.

[٣٤و] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثل ذلك الضلال الفظيع ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ / حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم في الآخرة، أو كما ضلّ عنهم آلهتُهم يُضلّهم عن آلهتهم، حتّى لو تَطالَبوا لم يتصادفوا.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تَبطَرون وتتكبّرون ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الشرك والطغيان، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تتوسّعون في البِطَر والأَشَرِ. والالتفات للمبالغة في التوبيخ.

﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: أبوابَها السبعة المقسومة لكم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدَّرًا خلودكم فيها. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: عن الحقِّ جهنّمُ. والتعبير عن مَدخلهم بـ"المَثوى" لكون دخولهم بطريق الخلود.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فَٱصْبِرْ﴾ إلى أن يلاقوا ما أُعِدّ لهم مِن العذاب، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بتعذيبهم ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالةَ، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي: فإن نُرِك، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد الشرطيّة، ولذلك لحِقت النونُ الفعل، ولا تلحقه مع "إنْ" وحدَها. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ وهو القتل والأسر، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك، ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فنجازيهم بأعمالهم، وهو جواب ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوف، مثل: فذاك، ويجوز أن يكون جوابًا لهما، بمعنى: إن نُعَذِّبْهم في حياتك أو لم نُعَذِّبْهم فإنّا نعذِّبُهم في الآخرة أشدَّ العذاب وأفظعَه، كما يُنبئ عنه

الاقتصار على ذكر الرجوع في هذا المِعرَض.[١]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ إذ قيل: عدد الأنبياء عليهم السلام مائة ألفِ[٢] وأربعةٌ وعشرون ألفًا، والمذكور قَصصهم أفرادٌ معدودة. وقيل: أربعة آلاف مِن بني إسرائيل، وأربعة آلاف مِن سائر الناس.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ أي: وما صحّ وما استقام لرسول منهم ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنّ المعجزات على تشعّب فنونها عطايا مِن الله تعالى قسمَها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنيّة على الحِكَم / البالغة كسائر القِسَم، ليس لهم اختيار في إيثار بعضها والاستبدادِ بإتيان المقترَح بها. [٣٤ظ]

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ بإنجاء المُحِقّ وإثابته، وإهلاك المُبطل وتعذيبه، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت مجيء أمر الله، اسم مكان استعير للزمان. ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: المتمسّكون بالباطل على الإطلاق، فيدخل فيهم المعاندون المقترِحون دخولًا أوّليًّا.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾ قيل: هي الإبل خاصّة، أي: خلقها لأجلِكم ومصلحتكم. وقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ تفصيل لِما دلّ عليه اللام إجمالًا، و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، ومعناها ابتداءُ الركوب والأكل منها، أي: تعلّقُهما بها. وقيل: للتبعيض، أي: لتركبوا بعضَها وتأكلوا بعضَها، لا على أنّ كلًّا

---

١ كذا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٤/٥. وقال الشهاب الخفاجي: «المِعرض بكسر الميم، ووقع في شرح الشافية ضبطه بالفتح، والصحيح الأوّل، ومعناه: هذا القبيل». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٨٣/٧.

٢ س – ألف.

مِن الركوب والأكل مختصّ ببعض معيّن منها بحيث لا يجوز تعلّقه بما تعلّق به الآخر؛ بل على أنّ كلّ بعض منها صالح لكلّ منهما. وتغيير النظم الكريم في الجملة الثانية لمراعاة الفواصل مع الإشعار بأصالة الركوب.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أُخَر غير الركوب والأكل، كألبانها وأوبارها وجلودها، ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بحمل أثقالكم مِن بلد إلى بلد. ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ لعلّ المرادَ به حمل النساء والولدان عليها بالهَودج، وهو السرّ في فصله عن الركوب. والجمع بينها وبين الفُلك في الحمل لِما بينهما مِن المناسبة التامّة حتّى سمّيت سفائنَ البَرّ.

وقيل: هي الأزواج الثمانية، فمعنى الركوب والأكل منها تعلّقُهما بالكلّ، لكن لا على أنّ كلًّا منهما يجوز تعلّقه بكلّ منها، ولا على أنّ كلًّا منهما مختصّ ببعض معيّن منها بحيث لا يجوز تعلّقه بما تعلّق به الآخر؛ بل على أنّ بعضها يتعلّق به الأكل فقط كالغنم، وبعضَها يتعلّق به كلاهما كالإبل والبقر، والمَنافع تعمّ الكلّ، وبلوغ الحاجة عليها يعمّ البقر.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائله الدالّةَ على كمال قدرته وَوُفور رحمته، ﴿فَأَيَّ
[٣٥و] ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ / أي: فأيّ آية مِن تلك الآيات الباهرة ﴿تُنكِرُونَ﴾؟ فإنّ كلًّا منها مِن الظهورِ بحيثُ لا يكاد يَجترئ على إنكارها مَن له عقل في الجملة. وهو ناصب لـ﴿أَيَّ﴾، وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتربية المَهابة وتهويل إنكارها. وتذكير ﴿أَيَّ﴾ هو الشائع المستفيض، والتأنيث قليل؛ لأنّ التفرقة بين المذكّر والمؤنّث في الأسماء غيرِ الصفات -نحو: حِمار وحمارة- غريبٌ، وهي في ﴿أَيَّ﴾ أغرب لإبهامه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ أي: أقَعدوا فلم يسيروا ﴿فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المهلَكة؟ وقوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾... إلخ استئناف مَسوق لبيان مبادي أحوالهم وعواقبها. ﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ باقيةً بعدهم مِن الأبنية والقصور والمصانع. وقيل: هي آثار أقدامهم في الأرض لعِظَم أجرامهم.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ ﴿مَا﴾ الأولى نافية أو استفهاميّة منصوبة بـ﴿أَغْنَىٰ﴾، والثانية موصولة أو مصدريّة مرفوعة، أي: لم يُغنِ عنهم -أو أيَّ شيء أغنى عنهم- مكسوبُهم، أو كسبُهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات، أو بالآيات الواضحة ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: أظهروا الفرح بذلك، وهو ما لهم مِن العقائد الزائغة والشُّبَهِ الداحضة. وتسميتها عِلمًا للتهكّم بهم، أو عِلمُ الطبائع والتنجيم والصنائع ونحو ذلك، أو هو علمُ الأنبياء الذي أظهره رسلُهم على أنّ معنى فرحهم به ضحكُهم منه واستهزاؤهم بهِ، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. وقيل: الفرح أيضًا للرسل، فإنّهم لمّا شاهدوا تماديَ جهلِهم وسوءَ عاقبتهم فرحوا بما أُوتوا مِن العِلم المؤدّي إلى حسن العاقبة، وشكروا الله عليه، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائِهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ شدّةَ عذابنا، / ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ [الأعراف، ١٦٥/٧]. ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ يَعنون الأصنام. [٣٥ظ]

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: عندَ رؤية عذابنا لامتناعِ قبوله حينئذ، ولذلك قيل: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ بمعنى: لم يصحّ ولم يستقِم.

والفاء الأولى[١] بيان عاقبة كثرتهم وشدّة قوّتهم وما كانوا يكسبون بذلك زعمًا منهم أنّ ذلك يغني عنهم، فلم يترتّب عليه إلّا عدمُ الإغناء، فبهذا الاعتبار جرى مَجرى النتيجة، وإن كان عكسَ الغرض ونقيضَ المطلوب، كما في قولك: وعظتُه فلم يتّعظ. والثانية[٢] تفسير وتفصيل لِما أُبهِم وأُجمِل مِن عدم الإغناء، وقد كثر في الكلام مِثل هذه الفاء، ومبناها على أنّ التفسير بعد الإبهامِ والتفصيلَ بعد الإجمال. والثالثة[٣] لِمجرّد التعقيب وجعلِ ما بعدها تابعًا لِما قبلها واقعًا عقيبه؛ لأنّ مضمون قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾... إلخ[٤] هو أنّهم كفروا فصار مجموع الكلام بمنزلة أن يقال: فكفروا ثمّ لمّا رأَوا بأسنا آمنوا. والرابعة[٥] للعطف على "آمَنوا"، كأنّه قيل: فآمنوا فلم ينفعهم؛ لأنّ النافع هو الإيمان الاختياري.

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أي: سنّ الله[٦] ذلك سنّةً ماضية في العباد، وهو مِن المصادر المؤكِّدة. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: وقت رؤيتهم البأسَ، على أنّه اسم مكان قد استُعير للزمان كما سلف آنِفًا.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المؤمن لم يبقَ روح نبيّ ولا صِدّيق ولا شهيد ولا مؤمن إلّا صلّى عليه واستغفر له».[٧]

---

١ في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ [غافر، ٨٢/٤٠].
٢ في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ [غافر، ٨٣/٤٠].
٣ في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ في الآية السابقة.
٤ غافر، ٨٣/٤٠.
٥ في قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ في هذه الآية.
٦ س + تعالى.
٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٢/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٤٠

سورة غافر

مكية إلاّ «الذين يجادلون» الآيتين، خمسٌ وثمانون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿حم﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

٢ ـ ﴿تَنزِيلُ الكِتابِ﴾: القُرآنِ مبتدأٌ ﴿مِنَ اللهِ﴾: خبرُه، ﴿العَزِيزِ﴾ في مُلكه ﴿العَلِيمِ﴾ بخلقه، ٣ ـ ﴿غافِرِ الذَّنبِ﴾ للمؤمنين ﴿وقابِلِ التَّوبِ﴾ لهم: مصدرٌ،.........................

سورة غافر

قولُهُ: (اللهُ أَعلَمُ) قيل: الحيُّ الملكُ، وقيل: الحافظُ المقتدرُ هو اللهُ.

وقال سهلٌ: ﴿حم﴾ قضَى في اللَّوحِ المحفوظِ وكتبَ فيه ما هو كائنٌ[1].

ولعلَّهُ إشارةٌ إلى ما في اللُّغةِ: حُمَّ بالأمرِ ـ بالضَّمِّ ـ: قُضي، وله ذلكَ: قُدِّرَ[2].

وقيل: معَ ﴿الر﴾ و﴿ن﴾ يصيرُ الرَّحمن.

قولُهُ: (مُبتَدَأٌ) أو خبرُ مبتدأٍ مقدَّرٌ هو: هذا، والمصدرُ؛ بمعنى: المفعولِ.

قولُهُ: (خَبَرُهُ) أو خبرٌ آخرُ.

قولُهُ: (للمُؤمِنِينَ) ولو لم يَتوبوا.

قولُهُ: (لهُم) ولغيرِهِم.

قولُهُ: (مَصدَرٌ) كالتَّوبةِ.

---

(١) انظر: «تفسير التستري» (ص: ١٣٧).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٩٧).

﴿شَدِيدِ العِقابِ﴾ للكافرين أي: مُشدِّدِه، ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ أي: الإنعام الواسع ـ وهو موصوف على الدوام بكُلّ من هذه الصفات. فإضافة المُشتقّ منها للتعريف كالأخيرة ـ ﴿لا إلـٰـهَ إلاّ هُوَ إلَيهِ المَصِيرُ﴾: المَرجِع.

٤ ـ ﴿ما يُجادِلُ في آياتِ اللهِ﴾: القُرآن ﴿إلاّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة. ﴿فلا يَغرُرْكَ تَقَلُّبُهُم في البِلادِ﴾ للمعاش سالمين، فإنّ عاقبتهم النار. ٥ ـ ﴿كَذَّبَت قَبلَهُم قَومُ نُوحٍ والأحزابُ﴾ كعادٍ وثمودَ وغيرِهما ﴿مِن بَعدِهِم، وهَمَّتْ كُلُّ أُمّةٍ بِرَسُولِهِم، لِيأخُذُوهُ﴾: يقتلوه، ﴿وجادَلُوا بِالباطِلِ لِيُدحِضُوا﴾: يُزيلوا ﴿بِهِ الحَقَّ فأخَذتُهُم﴾ بالعِقاب. ﴿فكَيفَ كانَ عِقابِ﴾ لهم؟ أي: هو واقع موقعَه. ٦ ـ ﴿وكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمةُ رَبِّكَ﴾، أي: «لَأَملَأَنَّ جَهَنَّمَ» الآيَةَ، ﴿علَى الَّذِينَ كَفَرُوا، أنَّهُم أصحابُ النّارِ﴾: بدل من «كلمة».

٧ ـ ﴿الَّذِينَ يَحمِلُونَ العَرشَ﴾: مبتدأٌ ﴿ومَن حَولَهُ﴾: عطفٌ عليه ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: خبرُه ﴿بِحَمدِ رَبِّهِم﴾: مُلابسين للحمد، أي يقولون: سُبحانَ اللهِ وبحمده، ﴿ويُؤمِنُونَ بِهِ﴾ ـ تعالى ـ ببصائرهم أي: يُصدّقون بوحدانيّته، ....

قولُهُ: (للكَافِرِينَ) المصرِّين.

قولُهُ: (أي: مُشَدِّدُهُ) فسَّرَهُ به لأنَّ (شديداً) صفةٌ مشبَّهةٌ، فإضافتُه غيرُ محضةٍ بكلِّ حالٍ، بخلافِ اسمِ الفاعلِ إذا لم يُرَدْ به الحالُ والاستقبالُ كـ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوبِ﴾، فإنَّ إضافتَهُ محضةٌ فتفيدُ التَّعريفَ.

قولُهُ: (المَرجِعُ) فيُجازي المطيعَ والعاصِيَ، فيجبُ الإقبالُ الكلِّيُّ على عبادتِهِ.

قولُهُ: (القُرآنِ) بالطَّعنِ وإدحاضِ الحقِّ، فإنَّ الجدالَ فيه لحلِّ عُقَدِهِ واستنباطِ حقائقِهِ من أعظمِ الطَّاعاتِ، ولذا قالَ ﷺ: «إنَّ جدالاً في القُرآنِ كُفرٌ» بالتَّنكيرِ مع أنَّه ليسَ جدالًا فيه على الحقيقةِ، والحديثُ رواهُ البيهقيُّ وغيرُه[1].

قولُهُ: (أي: هُوَ وَاقِعٌ) يعني: أنَّه تقريرٌ فيه تعجيبٌ.

قولُهُ: (أي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾) أو: وعيدُه، أو: قضاؤُهُ بالعذابِ، ونافعٌ وشاميٌّ بالجمعِ[2].

قولُهُ: (يُصَدِّقُونَ) ويوحِّدونَ بألسنتِهم، أخبرَ عنهُم بالإيمانِ إظهارًا لفضلِهِ وتعظيماً لأهلِهِ، وإشعاراً بأنَّ حملةَ العرشِ وسكَّانَ الفرشِ في معرفتِهِ سواءٌ، ردًّا على المجسِّمةِ[3].

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٢٤٠٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٦١)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. ورواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٧/ ٣٧٣)، وأبو داود (٤٦٠٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظ أبي داود: «المراء في القرآن كفر». وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٣/ ٢١٦).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٧).

(٣) انظر: «الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية» للطوفي (١/ ٤٣٥).

﴿ويَستغفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقولون: ﴿رَبَّنا، وَسِعتَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمةً وعِلمًا﴾ أي: وسعَ رحمتُك كُلَّ شيءٍ وعِلمُك كُلَّ شيء. ﴿فاغفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا﴾ من الشِّرك، ﴿واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾: دِينَ الإسلام، ﴿وقِهِم عَذابَ الجَحِيمِ﴾: النارِ ـ ٨ ـ ﴿رَبَّنا ـ وأدخِلْهُم جَنّاتِ عَدنٍ﴾: إقامةٍ ﴿الَّتِي وَعدتَهُم، ومَن صَلَحَ﴾: عطفٌ على «هم» في «وأدخلهم» أو في «وعدتهم»، ﴿مِن آبائِهِم وأزواجِهِم وذُرِّيّاتِهِم ـ إنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ في صُنعه ـ ٩ ـ ﴿وقِهِم السَّيِّئاتِ﴾ أي: عذابَها. ﴿ومَن تَقِ السَّيِّئاتِ يَومَئِذٍ﴾: يومَ القيامة ﴿فقَد رَحِمتَهُ، وذلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ﴾.

١٠ ـ ١١ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَونَ﴾ مِن قِبَل الملائكة، وهم يمقتون أنفسَهم عِند دُخولهم النارَ: ﴿لَمَقتُ اللهِ﴾ إيّاكم ﴿أكبَرُ مِن مَقتِكُم أنفُسَكُم، إذ تُدعَونَ﴾ في الدنيا ﴿إلَى الإيمانِ فتكفُرُونَ. قالُوا: رَبَّنا، أمَتَّنا اثنَتَينِ﴾: إماتتَين، ﴿وأحيَيتَنا اثنَتَينِ﴾: إحياءتَين لأنهم، وكانوا نطفًا، أمواتٌ فأُحيُوا ثمّ أُمِيتوا ثمّ أُحيُوا للبعث، ﴿فاعترَفْنا بِذُنُوبِنا﴾: بكُفرنا بالبعث. ﴿فهَل إلَى خُرُوجٍ﴾ من النار والرجوع إلى الدنيا لنُطيع ربَّنا ﴿مِن سَبِيلٍ﴾: طريقٍ؟ وجوابُهم: لا.

قولُهُ: (يَقُولُونَ) وهو بيانٌ لـ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾، أو حالٌ.

قولُهُ: (وعِلمُكَ) إشارةٌ إلى أنَّهما تميزانِ محوَّلانِ عن الفاعلِ.

قولُهُ: (مِنَ الشِّركِ) استغفارُهُم: شفاعتُهُم، وحملُهُم على التَّوبةِ، وإلهامُهُم ما يوجِبُ المغفرَةَ.

قولُهُ: (عَطفٌ على «هم») الثَّاني لبيانِ عمومِ الوعدِ، أو الأوَّلِ؛ أي: أدخِلْهُم معهُم ليتمَّ سرورُهُم، وهذا أظهرُ لإفادةِ دخولِهِم.

قولُهُ: (أي: عَذَابَهَا) أي: جزاءَ السَّيِّئاتِ على حَذفِ مضافٍ، أو العقوباتِ أو المعاصي في الدُّنيا لقولِهِ: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: في الدُّنيا ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ في الآخرةِ، كأنَّهم طَلَبُوا السَّببَ بعد ما طَلبوا المسبَّبَ.

قولُهُ: (لأنَّهُم نُطَفٌ) كذا في النُّسخِ[1]، والصَّوابُ: لأنَّهم كانوا ـ أو: خُلِقوا ـ نُطَفاً، فإنَّ الإماتةَ: جَعْلُ الشَّيءِ عادمَ الحياةِ ابتداءً أو بتصييرٍ، والمعنى: خلقْتَنا أمواتاً [أولاً][2]، ثمَّ صيرَّتَنا أمواتاً عندَ انقضاءِ آجالِنا.

قولُهُ: (بكُفرِنَا) والجمعُ للجمعِ.

قولُهُ: (لنُطِيعَ) أي: فنسلكَهُ لنُطيعَ.

---

(١) أي: نسخه هو.

(٢) من البيضاوي.

١٢ ـ ﴿ذلِكُم﴾، أي: العذابُ الذي أنتم فيه، ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي: بسبب أنه في الدنيا ﴿إذا دُعِيَ اللهُ وَحدَهُ كَفَرتُم﴾ بتوحيده، ﴿وإن يُشرَكْ بِهِ﴾: يُجعل له شريك ﴿تُؤمِنُوا﴾: تُصدّقوا بالإشراك. ﴿فالحُكمُ﴾، في تعذيبكم، ﴿لِلهِ العَلِيِّ﴾ على خلقه ﴿الكَبِيرِ﴾: العظيم.

١٣ ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آياتِهِ﴾: دلائلَ توحيده، ﴿ويُنَزِلُ لَكُم مِنَ السَّماءِ رِزقًا﴾ بالمطر، ﴿وما يَتَذَكَّرُ﴾: يتّعظ ﴿إلاّ مَن يُنِيبُ﴾: يرجِع عن الشِّرك ـ ١٤ ـ ﴿فادعُوا اللهَ﴾: اعبدُوه ﴿مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشِّرك، ﴿ولَو كَرِهَ الكافِرُونَ﴾ إخلاصَكم فيه ـ ١٥ ـ ﴿رَفِيعُ الدَّرَجاتِ﴾ أيِ: اللهُ عظيمُ الصفات أو رافعُ درجات المؤمنين في الجنّة ﴿ذُو العَرشِ﴾: خالقُه، ﴿يُلقِي الرُّوحَ﴾: الوحيَ ﴿مِن أمرِهِ﴾ أي: قوله ﴿عَلَى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ لِيُنذِرَ﴾: يُخوِّفَ المُلقى عليه الناسَ ﴿يَومَ التَّلاقِ﴾، بحذف الياء وإثباتها: يومَ القيامة لتلاقي أهل السماء والأرض والعابد والمعبود والظالم والمظلوم فيه، ١٦ ـ ﴿يَومَ هُم بارِزُونَ﴾: خارجون من قُبورهم، ﴿لا يَخفَى عَلَى اللهِ مِنهُم شَيءٌ: لِمَنِ المُلكُ اليَومَ﴾؟ يقوله تعالى، ويُجيب نفسَه:

قولُهُ: (بالمَطَرِ) أي: أسبابَ رزقٍ كالمطرِ[1] مُرَاعَاةً لِمَعَاشِكُم كما أنَّ الأوَّلَ مراعاةٌ لمعادِكُم.

قولُهُ: (مِنْهُ) أي: (مِنَ الشِّركِ).

قولُهُ: (أي: اللهُ) أو هو مبتدأٌ مقدَّرٌ.

قولُهُ: (في الجَنَّةِ) وقيلَ: الدَّرجاتُ مراتِبُ المخلوقاتِ.

قولُهُ: (أي: قَولِهِ) و﴿مِنْ﴾ بيانيَّةٌ.

قولُهُ: (يُخَوِّفَ) غايَةُ الإلقاءِ.

قولُهُ: (المُلْقَى عَلَيهِ) يعني: المستكنُّ فيه لـ﴿مَن﴾، وقيل: للهِ، أو للرُّوحِ؛ أي: المُلْقِي أو المُلْقَى.

قولُهُ: (النَّاسَ) مفعولُ: ﴿يُنْذِرَ﴾.

قولُهُ: (وإثبَاتِهَا) للمكّيِّ مطلقاً، وللمدنيِّ وصلاً، بخلافٍ عن قالونَ إذ جاءَ الحذفُ عنه أيضاً[2].

قولُهُ: (والمَظلُومِ) والجسدِ والرُّوحِ والأعمالِ والعمَّالِ.

قولُهُ: (خَارِجُونَ) أو: ظاهِرونَ لا يسترُهم شيءٌ.

قولُهُ: (ويُجِيبُ) يعني: أنَّه حكايةٌ لِمَا دلَّ عليه ظاهرُ الحالِ في ذلك اليومِ من زوالِ الأسبابِ وارتفاعِ الوسائطِ، وأمَّا حقيقةُ الحالِ فناطقةٌ بذلك دائماً.

---

(١) بعدها في النسخ: «قوله»، ولعلها سهو أو خطأ من الناسخ.

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٢)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧٢).

﴿لِلهِ الواحِدِ القَهّارِ﴾ أي: لخلقه. ١٧ ـ ﴿اليَومَ تُجزَى كُلُّ نَفسٍ بِما كَسَبَتْ، لا ظُلْمَ اليَومَ. إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾: يُحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك.

١٨ ـ ﴿وأنذِرْهُم يَومَ الآزِفَةِ﴾: يومَ القيامة ـ أزِفَ الرحيلُ: قَرُبَ ـ ﴿إذِ القُلُوبُ﴾ ترتفعُ خوفًا ﴿لَدَى﴾: عِندَ ﴿الحَناجِرِ كاظِمِينَ﴾: مُمتلئين غمًّا، حالٌ من «القلوب» عُوملت بالجمع بالياء والنون مُعاملة أصحابها، ﴿ما لِلظّالِمِينَ مِن حَمِيمٍ﴾: مُحبّ ﴿ولا شَفِيعٍ يُطاعُ﴾. لا مفهومَ للوصف إذ لا شفيع لهم أصلاً: «فما لَنا مِن شافِعِينَ»، أوْ له مفهومٌ بناء على زعمهم أنّ لهم شُفعاءَ، أي: لو شفَعوا فرْضًا لم يُقبلوا.

١٩ ـ ﴿يَعلَمُ﴾ أي: اللهُ ﴿خائنةَ الأعيُنِ﴾ بمُسارقتها النظرَ إلى مُحرَّمٍ، ﴿وما تُخفِي الصُّدُورُ﴾: القُلوب، ٢٠ ـ ﴿واللهُ يَقضِي بِالحَقِّ، والَّذِينَ يَدعُونَ﴾: يعبدون أي: كُفّارُ مكّة ـ بالياء والتاء ـ ﴿مِن دُونِهِ﴾ ـ وهم الأصنام ـ ﴿لا يَقضُونَ بِشَيءٍ﴾. فكيف يكونون شُركاءَ لله؟ ﴿إنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿البَصِيرُ﴾ بأفعالهم.

٢١ ـ ﴿أوَلَم يَسِيرُوا في الأرضِ، فيَنظُرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبةُ الَّذِينَ كانُوا مِن قَبلِهِم؟ كانُوا هُم أشَدَّ مِنهُم﴾ ـ وفي قراءة: «مِنكُم» ـ ﴿قُوّةً وآثارًا في الأرضِ﴾ من مصانعَ وقُصورٍ، ﴿فأخَذَهُمُ اللهُ﴾: أهلكهم ﴿بِذُنُوبِهِم، وما كانَ لَهُم مِنَ اللهِ مِن واقٍ﴾ عذابَه........................

قولُهُ: (يَومَ القِيامَةِ) أو الموتِ.

قولُهُ: (قَرُبَ) سُمِّيَت بها لقُربها.

قولُهُ: (مُحِبٍّ) أو قريبٍ مشفقٍ.

قولُهُ: (بِمُسَارَقَتِهَا) أي: النَّظرةِ الخائنةِ، أو خيانةِ الأعينِ.

قولُهُ: (والتَّاءِ) الخطابُ: نافعٌ وهشامٌ[1].

قولُهُ: (فَكَيفَ) تهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ الجمادَ لا يُقالُ فيه: إنَّه يَقضي أو لا يَقضِي.

قولُهُ: (وفي قِرَاءَةٍ) للشَّاميِّ[2].

قولُهُ: (مِنْ مَصَانِعَ) للمارِّ تحتَ الأرضِ.

قولُهُ: (وقُصُورٍ) وقلاعٍ ومدائنَ حصينةٍ.

قولُهُ: (عَذَابَهُ) أي: مَن يمنَعُ عذابَ اللهِ عنهُم.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧١).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

٢٢ ـ ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُم كانَتْ تأتِيهِم رُسُلُهُم بِالبيِّناتِ﴾: بالمُعجزات الظاهرات، ﴿فكَفَرُوا فأخَذَهُمُ اللهُ. إنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقابِ﴾.

٢٣ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا مُوسَى بِآياتِنا وسُلطانٍ مُبِينٍ﴾: بُرهانٍ بيِّنٍ ظاهر ٢٤ ـ ٢٥ ـ ﴿إلَى فِرعَونَ وهامانَ وقارُونَ، فقالُوا﴾: هو ﴿ساحِرٌ كَذّابٌ. فلَمّا جاءَهُم بِالحَقِّ﴾: بالصِّدق ﴿مِن عِندِنا قالُوا: اقتُلُوا أبناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، واستَحيُوا﴾: استبْقُوا ﴿نِساءَهُم. وما كَيدُ الكافِرِينَ إلاّ في ضَلالٍ﴾: هلاك ـ ٢٦ ـ ﴿وقالَ فِرعَونُ: ذَرُونِيَ، أقتُلْ مُوسَى﴾ لأنهم كانوا يكفّونه عن قتله، ﴿ولْيَدعُ رَبَّهُ﴾ ليمنَعه منّي. ﴿إنِّيَ أخافُ أن يُبَدِّلَ دِينَكُم﴾ من عِبادتكم إياي فتتّبعونه ﴿وأن يُظهِرَ في الأرضِ الفَسادَ﴾ من قتل وغيره. وفي قراءة: «أوْ»، وفي أُخرى بفتح الياء والهاء وضمِّ الدال. ٢٧ ـ ﴿وقالَ مُوسَى﴾ لقومه وقد سمع ذلك: ﴿إنِّي عُذتُ بِرَبِّي ورَبِّكُم مِن كُلِّ مُتَكبِّرٍ، لا يُؤمِنُ بِيَومِ الحِسابِ﴾.

قولُهُ: (بالمُعْجِزَاتِ) أو الأحكامِ الواضِحاتِ.

قولُهُ: (بُرهَانٍ) ظاهرٍ، والعطفُ لتغايرِ الوصفينِ، أو لإفرادِ بعضِ المعجزاتِ كالعصا؛ تفخيماً لشأنِها.

قولُهُ: (هُو) مبتدأٌ مع خبرِه جملةُ مقولِ القولِ.

قولُهُ: (استَبْقُوا) أي: أَعِيدوا عليهم القتلَ والاستبقاءَ كي يمتَنِعوا عن مظاهَرةِ موسى.

قولُهُ: (هَلاكٍ) وضياعٍ.

قولُهُ: (يَكُفُّونَهُ) ويقولونَ: إنَّه ليسَ الَّذي تخافُهُ بل هو ساحرٌ.

قولُهُ: (فتتَّبِعُونَهُ) الظَّاهرُ: فتتَّبعُوهُ.

قولُهُ: (مِنْ قَتْلٍ) أي: ما يُفسدُ دُنياكُم من التَّحاربِ[١] والتَّهارجِ إن لم يَقدِرْ أن يُبطلَ دينكُم بالكلِّيَّةِ، وهذا على قراءةِ الكوفيِّ، وأمَّا على قراءةِ الحِرْميَّينِ والبصريِّ والشَّاميِّ بالواوِ على معنى الجمعِ[٢]، وهو أصلُ الشَّيخِ.

قولُهُ: (وَفِي أُخرَى) لغيرِ نافعٍ وبصريٍّ وحفصٍ[٣].

قولُهُ: (ذلِكَ) أي: كلامَ فرعونَ.

---

(١) في (م): «التمادي».

(٢) أي: ﴿وأن يظهر﴾ ـ وهو الذي في المتن ـ والمراد بالجمع: الجمع بين مضموني الجملتين: ما قبل الواو وما بعدها. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٦٩).

(٣) انظر المصدر السابق.

٢٨ ـ ﴿وقالَ رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِن آلِ فِرعَونَ﴾ قيل: هو ابن عمّه، ﴿يَكتُمُ إيمانَهُ: أتَقتُلُونَ رَجُلاً أنْ﴾ أي: لِأن ﴿يَقُولَ: رَبِّيَ اللهُ. وقَد جاءَكُم بِالبَيِّناتِ﴾: بالمُعجزات الظاهرات ﴿مِن رَبِّكُم، وإن يَكُ كاذِبًا فعلَيهِ كَذِبُهُ﴾ أي: ضررُ كذبه، ﴿وإن يَكُ صادِقًا يُصِبْكُم بَعضُ الَّذِي يَعِدُكُم﴾ به من العذاب عاجلاً؟ ﴿إنَّ اللهَ لا يَهدِي مَن هُوَ مُسرِفٌ﴾: مُشرك ﴿كَذّابٌ﴾: مُفترٍ. ٢٩ ـ ﴿يا قَومِ، لَكُمُ المُلكُ اليَومَ ظاهِرِينَ﴾: غالبين حالٌ ﴿في الأرضِ﴾ أرض مِصرَ. ﴿فمَن يَنصُرُنا مِن بأسِ اللهِ﴾: عذابه، إن قتلتم أولياءه، ﴿إن جاءَنا﴾؟ أي: لا ناصرَ لنا. ﴿قالَ فِرعَونُ: ما أُرِيكُم إلاّ ما أرَى﴾ أي: ما أُشيرُ عليكم إلاّ بما أُشير به على نفسي ـ وهو قتل مُوسى ـ ﴿وما أَهدِيكُم إلاّ سَبِيلَ الرَّشادِ﴾: طريقَ الصواب.

٣٠ ـ ﴿وقالَ الَّذِي آمَنَ: يا قَومِ، إنِّيَ أخافُ عَلَيكُم مِثلَ يَومِ الأحزابِ﴾ أي: يومِ حزب بعد حزب، ٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿مِثلَ دأْبِ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمُودَ، والَّذِينَ مِن بَعدِهِم﴾ ـ مِثلَ: بدل من «مِثلَ» قبله ـ أي: مِثلَ جزاءِ عادةِ مَن كفر قبلكم من تعذيبهم في الدنيا، ﴿وما اللهُ يُرِيدُ ظُلمًا لِلعِبادِ، ويا قَومِ إنِّيَ أخافُ عَلَيكُم يَومَ التَّنادِ﴾، بحذف الياء وإثباتها، أي: يومَ القيامة يكثُر فيه نداءُ أصحابِ الجنّة أصحابَ النار وبالعكس، والنداءُ بالسعادة لأهلها وبالشقاوة لأهلها،.........................

قولُهُ: (قِيلَ: ابنُ عَمِّهِ) وقيل: ﴿مِنْ﴾ متعلّقٌ بقولِه: ﴿يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ﴾، والرَّجلُ إسرائيليٌّ، أو غريبٌ موحِّدٌ.

قولُهُ: (أي: لأَنْ) أو: وقتَ أن يقولَ من غيرِ تفكُّرٍ في أمرِه وتأمُّلٍ في عاقبتِهِ.

قولُهُ: (بالمُعجِزَاتِ) والاستدلالاتِ.

قولُهُ: (عَاجِلاً) أو: فلا أقلَّ من أن يصيبَكُم بعضُهُ، وفيه مُبالغةٌ في التَّحذيرِ وإظهارٌ للإنصافِ وعدمِ التَّعصُّبِ.

قولُهُ: (مُفتَرٍ) وفيه تعريضٌ لفرعونَ.

قولُهُ: (حَالٌ) من المجرورِ.

قولُهُ: (أي: يَومِ حِزْبٍ) إشارَةٌ إلى أنَّ جمعَ ﴿الأحزابِ﴾ مع تفسيرِهِ ـ وهو ﴿مثلُ دأبِ... ﴾ إلخ ـ أغنى عن جمعِ اليومِ.

قولُهُ: (وإثبَاتِهَا) مكّيٌّ مطلقاً، ونافعٌ وصلاً بخلفٍ عن قالونَ[1].

قولُهُ: (والنِّدَاءُ) عطفٌ على: (نداءُ) يعني: من الملائكةِ.

(١) تقدم مثله في الآية رقم: (١٥) عند قوله: ﴿التلاق﴾.

وغيرُ ذلك، ٣٣ ـ ﴿يَومَ تُوَلُّونَ مُدبِرِينَ﴾ عن موقف الحِساب إلى النار، ﴿ما لَكُم مِنَ اللهِ﴾ أي: من عذابه ﴿مِن عاصِمٍ﴾: مانع. ﴿ومَن يُضلِلِ اللهُ فما لَهُ مِن هادٍ﴾.

٣٤ ـ ﴿ولَقَد جاءَكُم يُوسُفُ مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ مُوسى ـ وهو يُوسفُ بنُ يعقوبَ في قولٍ عُمِّر إلى زمن مُوسى، أو يُوسفُ بنُ إبراهيمَ بنِ يُوسفَ بنِ يعقوبَ في قولٍ ـ ﴿بِالبيِّناتِ﴾: بالمُعجزات الظاهرات، ﴿فما زِلتُم في شَكٍّ مِمّا جاءَكُم بِهِ. حَتّى إذا هَلَكَ قُلتُم﴾ من غير برهان: ﴿لَن يَبعَثَ اللهُ مِن بَعدِهِ رَسُولاً﴾، أي: فلن تزالوا كافرين بيُوسفَ وغيرِه. ﴿كَذلِكَ﴾ أي: مِثلَ إضلالكم ﴿يُضِلُّ اللهُ مَن هُوَ مُسرِفٌ﴾: مُشرك ﴿مُرتابٌ﴾: شاكٌّ فيما شهدتْ به البيِّناتُ. ٣٥ ـ ﴿الَّذِينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ﴾: مُعجزاته مُبتدأٌ ﴿بِغَيرِ سُلطانٍ﴾: بُرهانٍ ﴿أتاهُم كَبُرَ﴾ جِدالُهم، خبرُ المُبتدأ ﴿مَقتًا عِندَ اللهِ، وعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا! كَذلِكَ﴾ أي: مِثلَ إضلالهم ﴿يَطبَعُ﴾: يختِم ﴿اللهُ﴾ بالضلال ﴿على كُلِّ قَلبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ﴾..........

قولُهُ: (وغَيرُ ذلِكَ) ينادي فيه بعضُهم بعضاً للاستغاثةِ، أو يتصايَحونَ بالويلِ والثُّبورِ.

قولُهُ: (يُوسُفُ بنُ يَعقُوبَ) بعثَهُ اللهُ من قَبلِ موسى رسولاً يَدعو القِبْطَ إلى الطَّاعةِ للهِ وحدَهُ، فما أطاعوهُ تلك الطَّاعةِ، نعم أطاعوهُ لمجرَّدِ الوزارةِ والجاهِ الدُّنيويِّ، هذا هو الصَّحيحُ.

قولُهُ: (عُمِّرَ) ظاهرُ كلامِهِ أنَّه يعني يوسفَ، والصَّحيحُ أنَّ المعمَّرَ هو فرعونُ موسى؛ عُمِّرَ أربعَ مائةِ سنةٍ وأربعينَ سنةً[1].

قولُهُ: (في قَولٍ) آخرَ، وهو خلافُ الظَّاهرِ.

قولُهُ: (وغَيرِهِ) يعني: ضمُّوا إلى تكذيبِ رسالتِهِ تكذيبَ رسالةِ مَن بعدَهُ، أو جَزمُوا بأن لا يُبعَثَ بعدَهُ رسولٌ مع الشَّكِّ في رسالتِهِ.

قولُهُ: (أي: مِثلَ إضلالِكُم) الأظهرُ: مثلَ ذلكَ الإضلالِ.

قولُهُ: (بُرهَانٍ) حجَّةٍ ظاهرةٍ.

قولُهُ: (جِدَالُهم) على حذفِ مضافٍ: إمَّا في الخبرِ وهو ظاهرُ كلامِهِ، وإمَّا في المبتدأِ وهو قولُ البيضاويِّ[2].

قولُهُ: (خَبَرُ مُبتَدَأ) الظاهرُ: خبر المبتدأِ.

---

(١) قال ابن جزي في «تفسيره» (١/ ٣٨٧): هذا بعيد.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٥٧).

بتنوينِ «قلبِ» ودُونِه. ومتى تكبَّر القلب تكبَّر صاحبه وبالعكس. «وكُلّ» على القراءتين لعُموم الضلال جميعَ القلب لا لعُموم القلوب.

٣٦ ـ ٣٧ ـ ﴿وقالَ فِرعَونُ: يا هامانُ، ابنِ لِي صَرحًا﴾ بناءً عاليًا، ﴿لَعَلِّيَ أبلُغُ الأسبابَ، أسبابَ السَّماواتِ﴾: طُرُقَها المُوصلةَ إليها، ﴿فأطَّلِعُ﴾ ـ بالرفع عطفًا على «أبلغُ»، وبالنصب جوابًا لـ «ابنِ» ـ ﴿إلَى إلٰـهِ مُوسَى. وإنِّي لَأظُنُّهُ﴾ أي: مُوسى ﴿كاذِبًا﴾ في أنّ له إلـٰهًا غيري. قال فرعون ذلك تمويهًا. ﴿وكَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرعَونَ سُوءُ عَمَلِهِ، وصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾: طريق الهُدى ـ بفتح الصاد وضمِّها ـ ﴿وما كَيدُ فِرعَونَ إلاّ في تَبابٍ﴾: خسار.

٣٨ ـ ﴿وقالَ الَّذِي آمَنَ: يا قَومِ، اتَّبِعُونِيَ﴾، بإثباتِ الياء وحذفِها، ....

قولُهُ: (بتَنوِينِ ﴿قلبٍ﴾) بصريٌّ وابنُ ذكوانَ[1].

قولُهُ: (وبالعَكسِ) أي: أنَّهما متلازمانِ، وفيه: أنَّ قراءةَ التَّنوينِ على المجازِ والأخرى على الحقيقةِ، ولذا قيل: وصفَ القلبَ بالتَّكبُّرِ لأنَّهُ منبعُهُ، كقولِهِ: رأت عيني وسمعَتْ أُذُني، أو على حذفِ مضافٍ؛ أي: على كلِّ ذي قلبٍ متكبِّرٍ.

قولُهُ: (و﴿كلِّ﴾ إلخ) والأظهرُ: ما قالَ أبو البقاءِ[2]: وإضافةُ ﴿كلِّ﴾ إلى القلبِ يرادُ بها عمومُ القلبِ لا استيعابُ كلِّ قلبٍ بالطَّبعِ، وهو في المعنى كقراءةِ مَن قرأ: (على قلبِ كلِّ متكبِّرٍ)[3].

قولُهُ: (طُرُقَهَا) وفي إبهامِها ثمَّ إيضاحِها تفخيمٌ لشأنِها، وتشويقٌ للسَّامعِ إلى مَعرفتِها.

قولُهُ: (وبِالنَّصبِ) حفصٌ[4].

قولُهُ: (جَوَاباً لـ﴿ابنِ﴾) أو جواباً للتَّرجِّي.

قولُهُ: (في أَنَّ لَهُ إلهاً) أو في النُّبوَّةِ.

قولُهُ: (بِفَتحِ الصَّادِ) غيرُ الكوفيِّ[5]، والفاعلُ ضميرُ فرعونَ.

قولُهُ: (بِإِثبَاتِ اليَاءِ) مكِّيٌّ مُطلقاً، وقالونُ وبصريٌّ وصلاً[6].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧١).

(٢) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١١٢٠).

(٣) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن مسعود، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٣٣).

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧١).

(٥) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٣٣)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٣٦).

(٦) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٢)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٧٢).

﴿أهدِكُم سَبِيلَ الرَّشادِ﴾. تقدَّم. ٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿يا قَومِ، إنَّما هذِهِ الحَياةُ الدُّنيا مَتاعٌ﴾: تَمتُّعٌ يزول، ﴿وإنَّ الآخِرةَ هِيَ دارُ القَرارِ، مَن عَمِلَ سَيِّئةً فلا يُجزَى إلاَّ مِثلَها، ومَن عَمِلَ صالِحًا مِن ذَكَرٍ أو أُنثَى، وهُوَ مُؤمِنٌ، فأُولئِكَ يُدخَلُونَ الجَنَّةَ﴾ ـ بضمّ الياء وفتح الخاء وبالعكس ـ ﴿يُرزَقُونَ فِيها بِغَيرِ حِسابٍ﴾ رِزقًا واسعًا بلا تَبِعة، ٤١ ـ ٤٢ ـ ﴿ويا قَومِ، مالِيَ أدعُوكُم إلَى النَّجاةِ، وتَدعُونَنِيَ إلَى النَّارِ؟ تَدعُونَنِي لِأكفُرَ بِاللهِ، وأُشرِكَ بِهِ ما لَيسَ لِي بِهِ عِلمٌ، وأنا أدعُوكُم إلَى العَزِيزِ﴾: الغالب على أمره ﴿الغَفّارِ﴾ لمن تاب. ٤٣ ـ ٤٤ ـ ﴿لا جَرَمَ﴾: حقًّا ﴿أنَّ ما تَدعُونَنِيَ إلَيهِ﴾ لأعبدَه ﴿لَيسَ لَهُ دَعوةٌ في الدُّنيا﴾ أي: استجابةُ دعْوةٍ ﴿ولا في الآخِرةِ، وأنَّ مَرَدَّنا﴾: مَرجِعَنا ﴿إلَى اللهِ، وأنَّ المُسرِفِينَ﴾: الكافرين ﴿هُم أصحابُ النّارِ. فسَتَذكُرُونَ﴾ إذا عاينتم العذاب ﴿ما أقُولُ لَكُم، وأُفَوِّضُ أمرِيَ إلَى اللهِ. إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبادِ﴾. قال ذلك، لمّا توعّدوه بمُخالفته دِينَهم.

٤٥ ـ ﴿فوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا﴾ به من القتل، ﴿وحاقَ﴾: نزل ﴿بِآلِ فِرعَونَ﴾: قومِه معه ﴿سُوءُ العَذابِ﴾: الغرَقُ، ٤٦ ـ ثُمَّ ﴿النّارُ يُعرَضُونَ علَيها﴾.........

قولُهُ: (تَمَتُّعٌ) يسيرٌ.

قولُهُ: (يَزُولُ) سَريعاً.

قولُهُ: (بِضَمِّ اليَاءِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ وشعبةُ(١).

قولُهُ: (بِلا تَبِعَةٍ) أو: بغيرِ تقديرٍ وموازنةٍ بالعَمَلِ، بل أضعافاً مضاعفةً فضلاً منه.

قولُهُ: (لِمَن تَابَ) من الكفَّارِ وغيرِهِم، ولمن لم يَتُبْ ممَّن شاءَ من المؤمنينَ.

قولُهُ: (حَقًّا) أي: قطعاً.

قولُهُ: (أي: استِجَابَةُ دَعوَةٍ) أو: دعوَةٌ مستجابةٌ.

قولُهُ: (مَرجِعَنَا) بالموتِ والبعثِ، أو بكلِّ حالٍ.

قولُهُ: (بِهِ) أي: بالمؤمنِ، وقيلَ: بموسى.

قولُهُ: (مِن القَتلِ) وغيرِهِ من شَدائدِ مكرِهِم.

قولُهُ: (مَعَهُ) واستغنى بذكرِهِم عن ذكرِه للعِلمِ بأنَّهُ أولى بذلكَ.

قولُهُ: (ثُمَّ) أي: الغرَقُ في الدُّنيا، ثمَّ النَّقلةُ منه إلى النَّارِ في البرزخِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٩٧)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣١٥).

يُخوَّفون بها ﴿غُدُوًّا وعَشِيًّا﴾ صباحًا ومساءً، ﴿ويَومَ تَقُومُ السّاعةُ﴾ يقال: ﴿ادخُلُوا﴾ ـ يا ﴿آلَ فِرعَونَ﴾، وفي قراءة بفتح الهمزة وكسر الخاء: أمرٌ للملائكة ـ ﴿أشَدَّ العَذابِ﴾ عذابَ جهنّم.

٤٧ ـ ٤٨ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ يَتَحاجُّونَ﴾: يتخاصم الكُفّار ﴿في النّارِ، فيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ استَكبَرُوا: إنّا كُنّا لَكُم تَبَعًا﴾: جمعُ تابع. ﴿فهَل أنتُم مُغنُونَ﴾: دافعون ﴿عَنّا نَصِيبًا﴾: جُزءًا ﴿مِنَ النّارِ؟ قالَ الَّذِينَ استَكبَرُوا: إنّا كُلٌّ فِيها. إنَّ اللهَ قَد حَكَمَ بَينَ العِبادِ﴾ فأدخَلَ المؤمنين الجنّة والكافرين النار.

٤٩ ـ ٥٠ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ في النّارِ لِخَزَنةِ جَهَنَّمَ: ادعُوا رَبَّكُم، يُخَفِّفْ عَنّا يَومًا﴾ أي: قدْرَ يوم ﴿مِنَ العَذابِ. قالُوا﴾ أي: الخزنةُ تهكّمًا: ﴿أوَلَم تَكُ تأتِيكُم رُسُلُكُم بِالبَيِّناتِ﴾: بالمعجزات الظاهرات؟ ﴿قالُوا: بَلَى﴾، أي: فكفروا بهم. ﴿قالُوا: فادعُوا﴾ أنتم. فإنّا لا نشفع لكافر..........

قولُهُ: (يُخَوَّفُونَ بِهَا) من قولِهِم: «عُرِضَ الأُسارى على السَّيفِ» إذا قُتِلوا به، وذلك لأرواحِهِم، كما روى ابنُ مسعودٍ: أنَّ أرواحَهُم في أجوافِ طيرٍ سودٍ تُعرَضُ على النَّارِ بكرةً وعشيًّا إلى يومِ القيامةِ(١)، وفيهِ دليلٌ على عذابِ القبرِ.

قولُهُ: (صَبَاحاً ومَسَاءً) وفيمَا بين ذلك اللهُ أعلمُ بحالِهِم، فإمَّا أن يُعذَّبوا بنَوعٍ آخرَ من العذابِ، أو يُنَفَّسَ عنهم، ويمكنُ أن يرادَ بالغُدوِّ والعشيِّ الدَّوامُ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وحفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ(٢).

قولُهُ: (أَمْرٌ لِلمَلَائِكَةِ) و﴿آلَ فِرْعَونَ﴾ مفعولٌ أوَّلُ.

قولُهُ: (عَذَاب جَهَنَّمَ) فإنَّهُ أشدُّ ممَّا كانوا فيهِ، أو: أشدَّ عذابِ جهنَّمَ.

قولُهُ: (جَمْعُ: تَابِعٍ) كخَدَمٍ: جمعُ خادمٍ.

قولُهُ: (دَافِعُونَ) والأظهرُ: ﴿مغنُونَ عنَّا﴾ بالدَّفعِ أو الحملِ.

قولُهُ: (جُزْءًا) مفعولٌ.

قولُهُ: (أي: قَدْرَ يَومٍ) أو: وقتاً ما، والمفعولُ به: شيئاً من العذابِ، أو: عذابَ يومٍ من أنواعِ العذابِ.

قولُهُ: (تَهَكُّماً) الظَّاهرُ: توبيخاً.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢٦٨٠) بنحوه.

وروى ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٩٥) عن السدي قال بلغني ثم ساق نحوه.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٧٢).

قال تعالى: ﴿وما دُعاءُ الكافِرِينَ إلاّ في ضَلالٍ﴾: انعدام. ٥١ ـ ﴿إنّا لَنَنصُرُ رُسُلَنا والَّذِينَ آمَنُوا في الحَياةِ الدُّنيا ويَومَ يَقُومُ الأشهادُ﴾: جمع شاهد، وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكُفّار بالتكذيب، ٥٢ ـ ﴿يَومَ لا يَنفَعُ﴾ ـ بالياء والتاء ـ ﴿الظّالِمِينَ مَعذِرتُهم﴾: عُذرُهم لو اعتذروا، ﴿ولَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: البُعد من الرحمة ﴿ولَهم سُوءُ الدّارِ﴾ الآخرةِ، أي: شدّةُ عذابها.

٥٣ ـ ﴿ولَقَد آتَينا مُوسَى الهُدَى﴾: التوراةَ والمُعجزاتِ، ﴿وأورَثْنا بَنِي إسرائيلَ﴾ من بعد مُوسَى ﴿الكِتابَ﴾ التوراةَ ٥٤ ـ ﴿هُدًى﴾: هاديًا ﴿وذِكرَى لِأُولِي الألبابِ﴾: تذكرةً لأصحاب العُقول. ٥٥ ـ ﴿فاصبِرْ﴾ ـ يا مُحمّد. ﴿إنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بنصر أوليائه ﴿حَقٌّ﴾ وأنت ومَن تَبعك منهم ـ ﴿واستَغفِرْ لِذَنبِكَ﴾ لِيُستَنَّ بك، ﴿وسَبِّحْ﴾: صلِّ مُلتبسًا ﴿بِحَمدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ﴾ وهو من بعد الزوال ﴿والإبكارِ﴾ الصلواتِ الخمسَ.

قولُهُ: (انعِدَام) لا يجابُ؛ أي: في الآخرةِ، واختلفَ في وقوعِ إجابتِهم في الدُّنيا، والظَّاهرُ وقوعُها لقولِهِ تعالى: ﴿فإنَّكَ مِن المنظرينَ﴾ [الحجر: ٣٧].

قولُهُ: (وَهُمُ المَلائِكَةُ) أو النَّبيُّونَ والمؤمنونَ والأجسادُ.

قولُهُ: (بالتَّاءِ) التَّأنيثُ مكِّيٌّ وبصريٌّ وشاميٌّ[1].

قولُهُ: (لوِ اعتَذَرُوا) أو لأنَّها باطِلةٌ، أو لأنَّه لا يُؤذَنُ لهم فيعتذرونَ.

قولُهُ: (التَّورَاةَ) أي: ما يُهتدَى به في الدِّينِ.

قولُهُ: (التَّورَاةَ) أي: وترَكْنَا عليهم بعدَهُ من ذلك الهُدى التَّوراةَ.

قولُهُ: (تَذْكِرَةً) كأنَّ[2] حسْنَ المقابلةِ أن يقولَ: هادياً ومذكِّراً، أو: هدايةً وتذكرةً، والثَّاني تجوُّزٌ أو علَّةٌ.

قولُهُ: (العُقُولِ) السَّليمةِ.

قولُهُ: (لِيُستَنَّ) أو: تدارَكْ فرطاتِكَ، أو: من خطورِ السِّوى في حضورِ المولى، أو: من رؤيةِ الطَّاعةِ، أو: من التَّقصيرِ في العبادةِ بتركِ الأَولى والاهتمامِ بأمرِ العِدى بالاستغفارِ[3].

قولُهُ: (الصَّلواتِ الخَمْسِ) وقيل: صَلِّ بهذَينِ الوقتَينِ، إذ كانَ الواجبُ بمكَّةَ ركعتانِ بكرةً وركعتانِ عشيًّا، وقيل: دُمْ على التَّسبيحِ والتَّحميدِ لربِّكَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٧٢).

(٢) في (د): «كان».

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٦١)، وفيه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ وأقبل على أمر دينك وتدارك فرطاتك بترك الأولى والاهتمام بأمر العدا بالاستغفار.

٥٦ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ﴾: القُرآن ﴿بِغَيرِ سُلطانٍ﴾: بُرهان ﴿أتاهُم إنْ﴾: ما ﴿في صُدُورِهِم إلاّ كِبْرٌ﴾: تكبّر وطمع أن يعلوا عليك، ﴿ما هُم بِبالِغِيهِ. فاستَعِذْ﴾ من شرِّهم ﴿بِاللهِ. إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿البَصِيرُ﴾ بأحوالهم.

ونزل في مُنكري البعث: ٥٧ ـ ﴿لَخَلقُ السَّماواتِ والأرضِ﴾ ابتداءً ﴿أكبَرُ مِن خَلقِ النّاسِ﴾ مرّة ثانية ـ وهي الإعادة ـ ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ أي: الكُفّارَ ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ذلك. فهم كالأعمى ومن يعلمُه كالبصير، ٥٨ ـ ﴿وما يَستَوِي الأعمَى والبَصِيرُ، و﴾ لا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ﴾ ـ وهو المُحسن ـ ﴿ولا المُسِيءُ﴾. فيه زيادة «لا». ﴿قَلِيلاً ما يَتَذَكَّرُونَ﴾: يتّعظون، بالياء والتاء، أي: تذكُّرهم قليلٌ جدًّا. ٥٩ ـ ﴿إنَّ السّاعةَ لَآتِيةٌ لا رَيبَ﴾: شكّ ﴿فِيها، ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يُؤمِنُونَ﴾ بها.

٦٠ ـ ﴿وقالَ رَبُّكُمُ: ادعُونِيَ، أستَجِبْ لَكُم﴾ أي: اعبدوني أُثِبْكم، بقرينةِ: ﴿إنَّ الَّذِينَ يَستَكبِرُونَ عَن عِبادَتِي سَيَدخُلُونَ﴾ ـ بفتح الياء وضمّ الخاء وبالعكس ـ ﴿جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾: صاغرين.

قولُهُ: (القُرآنِ) عامٌّ في كلِّ مجادلٍ مبطِلٍ يردُّ الحججَ بالشُّبَهِ، وإن نزلَتْ في مُشركي مكّةَ أو اليهودِ.

قولُهُ: (تَكبُّرٌ) عن اتِّباعِ الحقِّ، وتعظُّمٌ عن التَّفكُّرِ والتَّعلُّمِ، أو: إرادةُ الرِّياسةِ[١].

قولُهُ: (أي: الكُفّارَ) منصوبٌ.

قولُهُ: (والتّاءِ) الخطابُ كوفيٌّ[٢].

قولُهُ: (جدًّا) أي: تذكُّراً ما قليلاً [يتذكرون][٣].

قولُهُ: (أي: اعْبُدُونِي) المشهورُ عندَ العلماءِ أنَّ ﴿ادْعونِي﴾ من الدُّعاءِ؛ وبمعنى السُّؤالِ، فلا بدَّ من تأويلِ عبادتي ـ واللهُ أعلمُ ـ بأن يُقالَ: ومن ملةِ العبادةِ الدُّعاءُ؛ لقولِهِ ﷺ: «الدُّعاءُ مخُّ العبادةِ»[٤]، أو يُقالَ: العبادةُ هي الدُّعاءَ ادِّعاءً للمبالغةِ، ولذا قالَ ﷺ: «الدُّعاءُ هو العبادةُ»، وقرأَ الآيةَ[٥] كما في «الحصن»[٦].

قولُهُ: (وبالعَكسِ) مكّيٌّ وشعبةُ[٧].

---

(١) قوله: (أو إرادة الرياسة) تفسير للكبر معطوف على قوله: (تكبر). انظر: «حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي» (٧/ ٣٧٧).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٧٢).

(٣) من «أنوار التنزيل» (٥/ ٦١).

(٤) رواه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس رضي الله عنه، هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

(٥) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣٧٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد في «مسنده» (١٨٣٥٢)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٦) انظر: «الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين» لابن الجزري (ص: ٤١).

(٧) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٢).

٦١ ـ ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَسكُنُوا فِيهِ والنَّهارَ مُبصِرًا﴾ إسنادُ الإبصار إليه مجازيّ لأنه يُبصَر فيه. ﴿إنَّ اللهَ لَذُو فَضلٍ علَى النّاسِ، ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يَشكُرُونَ﴾ اللهَ فلا يُؤمنون. ٦٢ ـ ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم، خالِقُ كُلِّ شَيءٍ، لا إلـٰـهَ إلاّ هُوَ. فأنّى تُؤفَكُونَ﴾: فكيف تُصرفون عن الإيمان مع قيام البُرهان؟ ٦٣ ـ ﴿كَذلِكَ يُؤفَكُ﴾ أي: مِثلَ أفْكِ هؤلاء أُفِكَ ﴿الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ﴾: مُعجزاته ﴿يَجحَدُونَ﴾.

٦٤ ـ ٦٥ ـ ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ قَرارًا والسَّماءَ﴾ سقفًا ﴿بِناءً، وصَوَّرَكُم فأحسَنَ صُوَرَكُم، ورَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّباتِ. ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم ـ فتَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ ـ! هُوَ الحَيُّ لا إلـٰـهَ إلاّ هُوَ. فادعُوهُ﴾: اعبدوه ﴿مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشِّرك: ﴿الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾.

٦٦ ـ ٦٧ ـ ﴿قُلْ: إنِّي نُهِيتُ أن أعبُدَ الَّذِينَ تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ، لَمّا جاءَنِيَ البَيِّناتُ﴾: دلائل التوحيد ﴿مِن رَبِّي، وأُمِرتُ أن أُسلِمَ لِرَبِّ العالَمِينَ. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن تُرابٍ﴾ بخلق أبيكم آدمَ منه ﴿ثُمَّ مِن نُطفَةٍ﴾: مَنِيٍّ ﴿ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ﴾: دم غليظ، ﴿ثُمَّ يُخرِجُكُم طِفلاً﴾ بمعنَى: أطفالاً، ﴿ثُمَّ﴾ يُبقيكم ﴿لِتَبلُغُوا أشُدَّكُم﴾: تكامُلَ قوّتكم من الثلاثين سنة إلى الأربعين، ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ ـ بضمّ الشين وكسرها..........................

قولُهُ: (مَجَازِيٌّ) فيهِ مبالغةٌ، ولذا عدلَ به عن التَّعليلِ إلى الحالِ.

قولُهُ: (يُبصَرُ فِيهِ) أو به.

قولُهُ: (فلا يُؤمِنُونَ) وتكريرُ ﴿النَّاسِ﴾ لتنصيصِ تخصيصِ الكفرانِ بهم.

قولُهُ: (فَكَيفَ) ومن أيِّ وجهٍ.

قولُهُ: (فاعْبُدُوهُ) أو: وحِّدوهُ بالدُّعاءِ.

قولُهُ: (مِنَ الشِّركِ) والرِّياءِ، وقائلينَ: الحمدُ للهِ، أو: الحمدُ للهِ حيث حصلَتِ النِّعمةُ وثبتَتِ الحجَّةُ.

قولُهُ: (بِمَعنَى: أَطفَالاً) والإفرادُ لإرادةِ الجنسِ، أو على تأويلِ: كلَّ واحدٍ منكم.

قولُهُ: (تَكَامُلَ) واللَّامُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُهُ: ثمَّ يبقيكُم لتبلُغوا.

قولُهُ: (بِضَمِّ الشِّينِ) نافعٌ وبصريٌّ وهشامٌ وحفصٌ[(١)].

قولُهُ: (وكَسرِهَا) الباقونَ[(٢)]، وفي البيضاويِّ: وقُرِئَ بالكسرِ[(٣)]، وهو سهوٌ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٩٢).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٦٣).

﴿ومنكُم مَن يُتَوفَّى مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ الأشُدّ والشيخوخة ـ فعلَ ذلك بكم لتعيشوا، ﴿ولِتبلُغُوا أجَلاً مُسمًّى﴾: وقتًا محدودًا ﴿ولعَلَّكُم تَعقِلُونَ﴾ دلائل التوحيد فتؤمنون. ٦٨ ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُحيِي ويُمِيتُ. فإذا قَضَى أمرًا﴾: أراد إيجادَ شيء ﴿فإنَّما يَقُولُ لَهُ: كُنْ. فيَكُونُ﴾ ـ بضمّ النون، وفتحها بتقدير «أن» ـ أي: يُوجَد عقبَ الإرادة التي هي معنى القول المذكور.

٦٩ ـ ﴿ألَم تَرَ إلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ﴾: القُرآن ﴿أنَّى﴾: كيف ﴿يُصرَفُونَ﴾ عن الإيمان، ٧٠ ـ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بالكِتابِ﴾ القرآن ﴿وبِما أرسَلْنا بِهِ رُسُلَنا﴾ من التوحيد والبعث. وهم كُفّار مكّة؟ ﴿فسَوفَ يَعلَمُونَ﴾ عُقوبة تكذيبهم، ٧١ ـ ﴿إذِ الأغلالُ في أعناقِهِم﴾ ـ إذ: بمعنى إذا ـ..........

قولُهُ: (والشَّيخُوخَةِ) الصَّوابُ: أو.

قولُهُ: (فَعَلَ ذَلِكَ) الأولى: يفعَلُ.

قولُهُ: (لِتَعِيشُوا) فيه أنَّ العيشَ مستفادٌ من: ﴿لِتَبْلُغُوا﴾، فالظَّاهرُ: لتعتَبِروا، مع أنَّ الاحتياجَ إنَّما هو إلى الفعلِ المعلَّلِ، فحقُّهُ أن يقدِّمَ الواوَ على (فَعَلَ).

قولُهُ: (وَقْتاً مَحدُوداً) هو وقتُ الموتِ، أو يومُ القيامةِ.

قولُهُ: (وفَتحِهَا) شاميٌّ[1].

قولُهُ: (المَذْكُورِ) فيه أنَّه يصيرُ المعنى: إذا أرادَ إيجادَ شيءٍ فإن يريد[2] فيكونُ، ولا يخفى ما فيهِ، فالظَّاهرُ: أنَّ القولَ على حقيقتِهِ؛ يعني: فلا يَحتاجُ في تكوينِهِ إلى عُدَّةٍ وتجشمِ كلفةٍ أو تمثيلٍ كما تقدَّمَ[3].

قولُهُ: (عَنِ الإِيمَانِ) وتكريرُ ذمِّ المجادلةِ لتعدُّدِ المجادِلِ أو المجادَلِ فيه، أو للتَّوكيدِ.

قولُهُ: (القُرآنِ) أو لجنسِ الكتبِ السَّماويَّةِ.

قولُهُ: (والبَعثِ) وغيرِهما.

قولُهُ: (عُقُوبَةَ تَكذِيبِهِم) أي: جزاءَهُ.

قولُهُ: (﴿إذ﴾ بِمَعْنَى: إذَا) والتَّحقيقُ ما قالَهُ القاضِي: أنَّهُ ظرفٌ لـ﴿يَعْلَمُونَ﴾، إذ المعنى على الاستقبالِ، والتعبيرُ بلفظِ المضيِّ لتيقُّنِهِ[4].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٧٦).

(٢) «فإن يريد» كذا في النسخ، ولعل الصواب: «فإنما يريده».

(٣) انظر الآية رقم: (٨٢) من سورة يس عند قوله: «على ﴿يقول﴾».

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٦٣).

﴿والسَّلاسِلُ﴾: عطف على «الأغلالُ» فتكون في الأعناق، أو مبتدأٌ خبرُه محذوف، أي: في أرجُلهم، أو خبرُه ﴿يُسحَبُونَ﴾ أي: يُجرّون بها ٧٢ ـ ﴿في الحَمِيمِ﴾ أي: جهنّم، ﴿ثُمَّ في النّارِ يُسجَرُونَ﴾: يُوقَدونَ.

٧٣ ـ ٧٤ ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُم﴾ تبكيتًا: ﴿أينَ ما كُنتُم تُشرِكُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ معه، وهي الأصنام؟ ﴿قالُوا: ضَلُّوا﴾: غابوا ﴿عَنّا﴾ فلا نراهم. ﴿بَل لَم نَكُنْ نَدعُو مِن قَبلُ شَيئًا﴾. أنكروا عِبادتهم إيّاها. ثمّ أُحضِرتْ، قال تعالى: «إنَّكُم وما تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» أي: وَقودُها ـ ﴿كَذلِكَ﴾ أي: مِثلَ إضلال هؤلاء المُكذّبين ﴿يُضِلُّ اللهُ الكافِرِينَ﴾ ـ ويقال لهم أيضًا: ٧٥ ـ ﴿ذلِكُم﴾ العذاب ﴿بِما كُنتُم تَفرَحُونَ في الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ﴾ من الإشراك وإنكار البعث، ﴿وبِما كُنتُم تَمرَحُونَ﴾: تتوسّعون في الفرح.

قولُهُ: (فَتَكُونُ في الأَعنَاقِ) هذا غيرُ لازمٍ لكنَّهُ ظاهرٌ.

قولُهُ: (أي: فِي أَرجُلِهِم) والأظهرُ: في أعناقِهِم، وحُذِفَ لدلالةِ الأوَّلِ عليه؛ إذِ المفهومُ من «القاموسِ» أنَّ الغُلَّ إنَّما يكونُ في اليدِ أو العنقِ[1]، وهذا التقديرُ ما ينافي عطفَهُ على: ﴿الأغلال﴾.

قولُهُ: (بِهَا) إشارةٌ إلى أنَّ العائدَ محذوفٌ، وهو على الأوَّلِ حالٌ من الضَّميرِ في الجارِّ، والأظهرُ: أنَّهُ مستأنَفٌ.

قولُهُ: (أي: جَهَنَّمَ) صوابُهُ: أي: الماءِ الحارِّ.

قولُهُ: (يُوقَدُونَ) ويحرقونَ، والمرادُ: أنَّهُم يعذَّبونَ بأنواعٍ من العذابِ وينتَقلونَ من بعضِها إلى بعضٍ، كذا قالَهُ القاضي[2]، والأظهرُ: أنَّهُ يُزادُ بعضُها فوقَ بعضٍ لقولِهِ تعالى: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، فـ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي في الرُّتبةِ.

قولُهُ: (غَابُوا) وذلكَ قبلَ أن يُقرنَ بهم آلهتُهُم، أو: ضاعوا عنَّا فلم نجِدْ ما كنَّا نتوقَّعُ منهم.

قولُهُ: (أَنكَرُوا عِبَادَتَهُم) والأظهرُ أنَّ معناهُ: بل تبيَّنَ لنا أنَّا لم نكُنْ نعبدُ شيئاً بعبادتِهِم، فإنَّهُم ليسوا شيئاً يعتدُّ به، كقولِكَ: حسبتُهُ شيئاً فلم يكُنْ.

قولُهُ: (مِثْلَ إِضلالِ) الصَّوابُ: مثلَ ذلك الضَّلالِ؛ إذ لم يتقدَّمْ إلَّا ﴿ضلُّوا﴾، والمكذِّبونَ همُ الكافرونَ.

قولُهُ: (العَذَابُ) أو الإضلالُ.

قولُهُ: (تَتَوَسَّعُونَ) بالطُّغيانِ والعدوانِ والعصيانِ.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٣٩).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٦٣).

٧٦ ـ ﴿ادخُلُوا أبوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها. فبِئسَ مَثوَى﴾: مأوى ﴿المُتَكَبِّرِينَ﴾!

٧٧ ـ ﴿فاصبِرْ. إنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بعذابهم ﴿حَقٌّ. فإمّا نُرِيَنَّكَ﴾ ـ فيه «إن» الشرطيّة مدغمة، وما: زائدة تؤكّد معنى الشرط أوّلَ الفعل، والنونُ تؤكّد آخرَه ـ ﴿بَعضَ الَّذِي نَعِدُهُم﴾ به من العذاب في حياتك، وجوابُ الشرط محذوف أي: فذاكَ، ﴿أو نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم ﴿فإلَينا يُرجَعُونَ﴾، فنُعذّبهم أشدّ العذاب. فالجواب المذكور للمعطوف فقط.

٧٨ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا رُسُلاً مِن قَبلِكَ، مِنهُم مَن قَصَصْنا علَيكَ، ومِنهُم مَن لَم نَقصُصْ علَيكَ﴾ ـ رُوي أنه تعالى بعث ثمانيةَ آلافِ نبيّ: أربعةَ آلافِ نبيّ من بني إسرائيلَ، وأربعةَ آلافٍ من سائر الناس ـ ﴿وما كانَ لِرَسُولٍ﴾ منهم ﴿أن يأتِيَ بِآيةٍ إلاّ بإذنِ اللهِ﴾ لأنهم عبيد مَربوبون، ﴿فإذا جاءَ أمرُ اللهِ﴾ بنُزول العذاب على الكُفّار ﴿قُضِيَ﴾ بين الرسل ومُكذّبيها ﴿بِالحَقِّ، وخَسِرَ هُنالِكَ المُبطِلُونَ﴾ أي: ظهر القضاء والخُسران للناس، وهم خاسرون في كُلّ وقت قبل ذلك.

قولُهُ: (و«ما» زَائِدَةٌ) الأظهرُ في «ما» زائدةٌ.

قولُهُ: (آخِرَهُ) كانَ حقَّهُ أن يقولَ: ولذلكَ لحقَتِ النُّونُ الفعلَ؛ إذ لا تلحقُ مع «إنْ» وَحدَها.

قولُهُ: (مِنَ العَذَابِ) وهو القتلُ والأسرُ؛ أي: فذاكَ هو المطلوبُ.

قولُهُ: (قَبلَ تَعذِيبِهِم) والأظهرُ: قبلَ أن تراهُ.

قولُهُ: (فَنُعَذِّبُهُم) أو: فنُجازيهِم بأعمالِهِم يومَ القيامةِ.

قولُهُ: (فالجَوَابُ المَذكُورُ) يعني: إذا قُدِّرَ الجوابُ للأوَّلِ فالجوابُ.. إلخ، وهذا ظاهرٌ لكنْ فيه إيماءٌ إلى قولِ القاضي: ويجوزُ أن يكونَ جواباً لهما، والمعنى: إن نعذِّبَهُم في حياتِكَ أو لم نعذِّبْهُم فإنَّا نعذِّبُهُم في الآخرةِ أشدَّ العذابِ[1].

قولُهُ: (رُوِيَ) ورويَ: أنَّ عددَ الأنبياءِ مئةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً، والرُّسلِ ثلاثُ مئةٍ وخمسةَ عشرَ[2]، والمذكورُ قصَّتُهم أشخاصٌ معدودةٌ، قيل: أربعةٌ وعشرونَ.

قولُهُ: (بنُزُولِ العَذَابِ) في الدُّنيا والعُقبى.

قولُهُ: (بَينَ الرُّسلِ) أو بإنجاءِ المحقِّ وتعذيبِ المبطِلِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٦٤).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٢٨٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢١٧) (٧٨٧١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٥٩): مداره على علي بن يزيد، وهو ضعيف.

٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ﴿اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأنعامَ﴾، قيل: الإبلُ خاصّةً هنا. والظاهر: والبقرُ والغنمُ، ﴿لِتَركَبُوا مِنها ـ ومِنها تأكُلُونَ، ولَكُم فِيها مَنافِعُ﴾ من الدَّرّ والنسل والوبر والصوف ـ ﴿ولِتَبلُغُوا علَيها حاجةً في صُدُورِكُم﴾ هي حمل الأثقال إلى البلاد ـ ﴿وعلَيها﴾ في البرّ ﴿وعلَى الفُلكِ﴾: السفن في البحر ﴿تُحمَلُونَ ـ ويُرِيكُم آياتِهِ. فأيَّ آياتِ اللهِ﴾ الدالّةِ على وحدانيّته ﴿تُنكِرُونَ﴾؟ استفهام توبيخ. وتذكير «أيّ» أشهرُ من تأنيثه.

٨٢ ـ ٨٣ ـ ﴿أفلَم يَسِيرُوا في الأرضِ، فيَنظرُوا: كَيفَ كانَ عاقِبةُ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم؟ كانُوا أكثَرَ مِنهُم وأشَدَّ قُوّةً، وآثارًا في الأرضِ﴾ من مصانعَ وقصور، ﴿فما أغنَى عَنهُم ما كانُوا يَكسِبُونَ. فلَمّا جاءَتْهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ﴾: المُعجزات الظاهرات ﴿فَرِحُوا﴾ أي: الكُفّارُ ﴿بِما عِندَهُم﴾ أي: الرسلِ ﴿مِنَ العِلمِ﴾ فَرَحَ استهزاء وضحك منكرين له، ﴿وحاقَ﴾: نزل ﴿بِهِم ما كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾ أي: العذابُ، ٨٤ ـ ٨٥ ـ ﴿فلَمّا رأَوا بأسَنا﴾ أي: شِدّة عذابنا ﴿قالُوا: آمَنّا بِاللهِ وَحدَهُ وكَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشرِكِينَ. فلَم يَكُ يَنفَعُهُم إيمانُهُم لَمّا رأَوا بأسَنا، سُنّةَ اللهِ﴾ ـ نصبُه على المصدر بفعل مقدَّر من لفظه ـ ﴿الَّتِي قَد خَلَتْ في عِبادِهِ﴾ في الأُمم، ألاّ ينفعَهم الإيمان وقت نزول العذاب، ﴿وخَسِرَ هُنالِكَ الكافِرُونَ﴾: تَبيّنَ خُسرانُهم لكُلّ أحد، وهم خاسرون في كُلّ وقت قبل ذلك.

قولُهُ: (هُنَا) لأنَّها هي: الجامعَةُ للأوصافِ المذكورةِ من الرُّكوبِ والأكلِ والمنافعِ والبلوغِ والحملِ، وهذا هو الظَّاهرُ، وعلى تقديرِ إرادةِ جنسِ الأنعامِ الشَّاملِ للإبلِ والبقرِ والغنمِ لا بدَّ من تأويلٍ بأن يُقالَ: فإنَّ من جِنسِها ما يُؤكَلُ كالغنمِ والبقرِ، ومنها ما يُركَبُ ويبلِّغُ ويَحملُ كالإبلِ، فتأمَّل ليظهرَ لك ظهوراً كاملاً.

قولُهُ: (والصُّوفِ) والشَّعرِ والجلدِ.

قولُهُ: (السُّفُنِ) إنَّما لم يقُل: في الفُلكِ؛ للمُزاوجةِ.

قولُهُ: (وقُصُورٍ) ونحوِها.

قولُهُ: (المُعجِزَاتِ) أو الآياتِ الواضِحاتِ.

قولُهُ: (أي: العَذَابُ) وهو جزاءُ جهلِهم واستهزائِهم.

قولُهُ: (مِنْ لَفْظِهِ) أي: سنَّ اللهُ ذلك سنَّةً ماضيةً في العبادِ، وهي من المصادرِ المؤكِّدةِ.

قولُهُ: (قَبلَ ذَلِكَ) الوقتِ، وهو وقتُ رؤيتِهمُ البأسَ، اسمُ مكانٍ استُعيرَ للزَّمانِ، واللهُ أعلمُ.

***

سورة المؤمن

وتُسمَّى سورةَ غافر وسورةَ الطَّول، وهي كما روي عن ابن عباس وابن الزبير ومسروق وسمرة بن جندب مكيةٌ، وحَكَى أبو حيان الإجماعَ على ذلك[1].

وعن الحسن أنها مكيةٌ إلا قولَه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الآية: ٥٥]؛ لأنَّ الصلوات نزلت بالمدينة، وكانت الصلاة بمكةَ ركعتين من غير توقيتٍ[2]. وأنت تعلم أنَّ الحقَّ قولُ الأكثرين: إنَّ الخمسَ نزلت بمكة، على أنَّه لا يتعيَّن إرادةُ الصلاة بالتسبيح في الآية.

وقيل: هي مكيةٌ إلا قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ﴾ [الآية: ٥٦] فإنها مدنيةٌ؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية وغيرِه أنَّها نزلت في اليهود لَمَّا ذكروا الدجَّال[3].

وهذا ليس بنصٍّ على أنها نزلت بالمدينة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقولهم: نزلت الآية في كذا، يراد به تارةً سببُ النزول، ويراد به تارةً أنَّ ذلك داخلٌ في الآية وإن لم يكن السببَ، كما تقول: عُنِيَ بهذه الآية كذا[4].

وقال الزركشيُّ في «البرهان»: قد عُرف مِن عادةِ الصحابة والتابعين أنَّ أحدَهم إذا قال: نزلت الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أنَّها تتضمَّنُ هذا الحكمَ، لا أنَّ هذا كان السببَ في نزولها، فهو مِن جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٤٦، وأخرج قول ابن عباس ابنُ الضريس في فضائل القرآن ص٣٤، والنحاسُ في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦١١.

(٢) الكشاف ٣/ ٤١٢، ومجمع البيان ٥/ ١٧٨.

(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ٣٤٤.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٣٣٩.

لِمَا وقع[(١)]. نعم سيأتي إن شاء الله تعالى عن أبي العالية ما هو كالنصِّ على ذلك.

وآيُها خمسٌ وثمانون في الكوفيِّ والشاميِّ، وأربع في الحجازيِّ، واثنتان في البصريِّ. وقيل: ستٌّ وثمانون، وقيل: ثمان وثمانون.

ووجهُ مناسبةِ أولها لآخرِ «الزمر» أنَّه تعالى لَمَّا ذَكَر سبحانه هناك ما يَؤُول إليه حالُ الكافر وحالُ المؤمن ذَكَر جلَّ وعلا أنَّه تعالى غافرُ الذنب وقابلُ التوب؛ ليكون ذلك استدعاءً للكافر إلى الإيمان والإقلاع عما هو فيه.

وبين السورتين أنفسِهما أَوْجُهٌ من المناسبة، ويكفي فيها أنه ذُكر في كلٍّ من أحوالِ يوم القيامة وأحوالِ الكَفَرة فيه وهم في المحشر وفي النار ما ذكر، وقد فُصِّل في هذه من ذلك ما لم يفصَّلْ منه في تلك.

وفي «تناسق الدرر»[(٢)]: وجهُ إيلاء الحواميم السبع لسورة الزمر تواخي المَطالع في الافتتاح بـ «تنزيل الكتاب»، وفي مصحف أُبَيِّ بنِ كعب[(٣)] أولُ الزمر «حم»، وتلك مناسبةٌ جليَّةٌ. ثم إنَّ الحواميم ترتَّبتْ لاشتراكها في الافتتاح بـ «حم»، وبذكر الكتاب، وأنها مكية، بل ورد عن ابن عباس وجابر بن زيد أنها نزلت عقبَ الزمر متتالياتٍ كترتيبها في المصحف.

وورد في فضلها أخبارٌ كثيرة؛ أخرج أبو عبيد في «فضائله» عن ابن عباس قال: إنَّ لكلِّ شيء لُباباً وإنَّ لُبابَ القرآن الحواميمُ[(٤)].

وأخرج هو وابن الضُّرَيس وابن المنذر والحاكم والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود قال: الحواميمُ ديباج القرآن[(٥)].

---

(١) البرهان ١/ ٣١-٣٢.

(٢) ص٧٧.

(٣) في الأصل و(م): وفي مصحف ابن مسعود. والمثبت من تناسق الدرر، ومثله في الإتقان ١/ ٢٠١ نقلاً عن ابن أبي أشتة.

(٤) فضائل القرآن ص١٣٧.

(٥) فضائل القرآن لأبي عبيد ص١٣٧، ولابن الضريس (٣٢٨)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٤٣٧، وشعب الإيمان (٢٤٧١). وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٤.

وأخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم والديلميُّ عن أنس ﷺ مرفوعاً[1].

وأخرج الديلميُّ وابن مردويه عن سمرةَ بن جندب مرفوعاً: «الحواميمُ روضةٌ من رياض الجنة»[2].

وأخرج محمد بن نصر والدارميُّ عن سعد بن إبراهيم قال: كُنَّ الحواميمُ يُسَمَّيْنَ العرائسَ[3].

وأخرج ابن نصر وابن مردويه عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى أعطاني السبعَ الطوال مكانَ التوراة، وأعطاني الراءات إلى الطواسين مكان الإنجيل، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضَّلني بالحواميم والمفصَّل ما قرأهنَّ نبيٌّ قبلي»[4].

وأخرج البيهقيُّ في «الشعب» عن الخليل بن مرَّة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الحواميم سبعٌ وأبوابُ جهنم سبعٌ، تجيء كلُّ «حم» منها فتَقِفُ على بابٍ من هذه الأبواب تقول: اللهم لا تُدخِلْ من هذا الباب مَن كان يؤْمِنُ بي ويقرؤني»[5].

وجاء في خُصوص بعض آياتِ هذه السورة ما يدلُّ على فضله؛ أخرج الترمذيُّ

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٣٤٤، وأخرجه أيضاً الثعلبي في تفسيره ٨/ ٢٦١، وفي إسناده عبد القدوس بن حبيب، قال الفلّاس: أجمعوا على ترك حديثه. وقال ابن عدي: أحاديثه منكرة الإسناد والمتن. الميزان ٢/ ٦٤٣.

(٢) مسند الفردوس (٢٨١٦). وذكره ملا علي القاري في الفوائد المجموعة ص٤٩٠ وقال: فيه طلحة بن زيد ويزيد بن محمد الرهاوي منكران.

(٣) مسند الدارمي (٣٤٦٥)، وعزاه لمحمد بن نصر السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٤، وسعد بن إبراهيم تابعي رأى ابن عمر، ثقة كثير الحديث، روى له الجماعة، توفي (١٢٧هـ). تهذيب الكمال ١٠/ ٢٤٠.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ وإسناده ضعيف، كما في فيض القدير ٢/ ٢١٣.

(٥) شعب الإيمان (٢٤٧٩)، والإسناد منقطع كما صرح به البيهقي، والخليل بن مرة الضُّبَعي البصري اختلف فيه، وقال ابن عدي: يكتب حديثه، وقال ابن شاهين: هو عندي إلى الثقة أقرب. توفي سنة (١٦٠هـ). تهذيب التهذيب ١/ ٥٥٥، وتهذيب الكمال ٨/ ٣٤٢-٣٤٥.

والبزَّار ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقيُّ في «الشعب» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حمٓ) إلى: (إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ) وآيةَ الكرسيِّ حينَ يُصبح حُفِظ بهما حتى يُمْسِيَ، ومَن قرأهما حين يُمْسِي حُفِظ بهما حتى يُصبحَ»[(١)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ①﴾ بتَفْخيم الألف وتسكين الميم، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوانَ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر بالإمالة الصريحة، ونافعٌ برواية ورش وأبو عمرو بالإمالة بين بين[(٢)].

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بفتح الميم على التحريك لالتقاء الساكنين بالفتحة للخفَّة كما في «أين» و«كيف»[(٣)]. وجوِّز أن يكونَ ذلك نصباً بإضمارِ «اقرأ» ومُنع مِن الصرف للعَلَمية والتأنيث لأنَّه بمعنى السورة، أو للعَلَمية وشَبَهِ العُجمة لأنَّ «فاعيل» ليس من أوزان أبنية العرب، وإنَّما وُجد ذلك في لغة العجم كقابيل وهابيل، ونقل هذا عن سيبويه[(٤)].

وفي «الكشف» أنَّ الأَولى أن يعلَّل بالتعريف والتركيب.

وقرأ أبو السَّمَّال: بكسر الميم، على أصلِ التقاء الساكنين كما في «جَيْرِ»[(٥)]، والزهريُّ برفعها، والظاهرُ أنه إعرابٌ فهو إما مبتدأ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ. والكلام في المراد به كالكلام في نظائره.

---

(١) سنن الترمذي (٢٨٧٩)، وشعب الإيمان (٢٤٧٤)، قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي مليكة (أحد رجال الإسناد) من قِبَل حفظه.

(٢) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٧٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٥، والبحر ٧/ ٤٤٦.

(٤) الكتاب ٣/ ٢٥٧.

(٥) البحر ٧/ ٤٤٦، قوله: جَيْرِ، قال في اللسان (جير): بمعنى أجل، وبمعنى يمين، وقال سيبويه: حرَّكوه لالتقاء الساكنين، وإلّا فحكمه السكونُ لأنه كالصوت.

ويُجمَعُ على حواميم وحاميمات، أما الثاني فقد أنشد فيه ابن عساكر في «تاريخه»:

هــذا رســولُ الله فــي الــخــيــرات جــاء بــيــاســيــنَ وحَــامِــيــمــاتِ(١)

وأما الأول فقد تقدَّم عدَّةُ أخبارٍ فيه، ولا أظنُّ أنَّ أحداً يُنكِرُ صحَّةَ جميعها، أو يزعم أنَّ لفظَ «حواميم» فيها من تحريف الرواة الأعاجم؛ وأيضاً أنشد أبو عبيدة:

حــلــفــتُ بــالــســبــع الأُلَــى تــطــوَّلَــتْ
وبــمــئــيــنٍ بــعــدَهــا قــد أُمــئــيــت
وبــثــمــانٍ ثُــنِّــيَــتْ وكُــرِّرَت
وبــالــطــواســيــن الــلــواتــي ثُــلــيــت
وبــالــحــوامــيــم الــلــواتــي سُــبِّــعــت
وبــالــمــفــصَّــل الــتــي قــد فــصِّــلــت(٢)

وذهب الجواليقيُّ والحريريُّ وابن الجوزي إلى أنه لا يقال: حواميم(٣).

وفي «الصحاح» عن الفراء: إنَّ قولَ العامة: الحواميم، ليس من كلام العرب(٤).

وحكى صاحبُ «زاد المسير» عن شيخه أبي منصور اللغويِّ أنَّ مِن الخطأ أن تقول: قرأتُ الحواميم، والصوابُ أن تقول: قرأت آل حم(٥).

وفي حديث ابن مسعود: إذا وقعتُ في آل حم فقد وقعتُ في روضاتٍ دَمِثاتٍ أتأنَّقُ فيهنَّ(٦). وعلى هذا قولُ الكُميت بن زيد في «الهاشميات»:

---

(١) تاريخ دمشق ١٦/ ٣٥٠.
(٢) مجاز القرآن ١/ ٧. مع اختلاف في اللفظ.
(٣) درة الغواص للحريري ص٢٠، ونقله المصنف من حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٦.
(٤) الصحاح (حمم).
(٥) زاد المسير ٧/ ٢٠٥.
(٦) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٣٧.

وجدْنا لكم في آلِ حم آيةً تأوَّلها منَّا تقيٌّ ومُعْرِبُ[1]

والطواسين والطواسيم بالميم بدلَ النون كذلك عندهم، وما سمعتَ يكفي في ردِّهم. نعم ما قالوه مسموعٌ مقبولٌ كالذي قلناه، لكن ينبغي أن يُعلم أنَّ «آل» في قولهم: آل حم ـ كما قال الخفاجي ـ ليس بمعنى الآل المشهور وهو الأهل، بل هو لفظٌ يُذكر قبلَ ما لا يصحُّ تثنيتُه وجمعُه من الأسماء المركَّبة ونحوها كـ «تأبَّط شرًّا»، فإذا أرادوا تثنيتَه أو جمعَه ـ وهو جملةٌ لا يتأتَّى فيها ذلك إذ لم يُعهدْ مثلُه في كلام العرب ـ زادوا قبلَه لفظةَ «آل» أو «ذوا» فيقال: جاءني آلُ تأبَّط شرًّا، أو: ذوا تأبط شراً، أي: الرجلان أو الرجال المسمَّون بهذا الاسم، فآل حم بمعنى الحواميم، و«آل» بمعنى «ذو»، والمُرادُ به ما يطلَق عليه ويستعمَلُ فيه هذا اللفظ، وهو مجازٌ عن الصُّحبة المعنوية، وفي كلام الرضيِّ وغيرِه إشارةٌ إلى هذا، إلَّا أنَّهم لم يصرِّحوا بتفسيره فعليك بحفظه.

وحكى في «الكشف» أنَّ الأولى أن يُجمع بذوات حم، أي: دون حواميم أو حاميمات، ومعناه: السوَرُ المصحوباتُ بهذا اللفظ، أعني: حم.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ الكلامُ فيه إعراباً كالكلام في مطلع سورة الزمر، بيدَ أنَّه يجوزُ هنا أن يكونَ «تنزيل» خبراً عن «حم». ولعلَّ تخصيصَ الوصفين لِما في القرآنِ الجليل من الإعجاز وأنواعِ العلوم التي يَضيق عن الإحاطة بها نِطاقُ الأفهام، أو هو على نحوِ تخصيص الوصفين فيما سبق، فإنَّ شأنَ البليغ علمُه بالأشياء أن يكونَ حكيماً إلا أنه قيل: «العليم» دون: الحكيم؛ تفنُّناً.

وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ صفاتٌ للاسم الجليل كالعزيز العليم، وذِكْرُ «غافر الذنب» و«قابل التوب» و«ذي الطَّول» للترغيب، وذكرُ «شديد العقاب» للترهيب، والمجموعُ للحثِّ على المقصود من «تنزيل الكتاب» وهو المذكورُ بعدُ من التوحيد والإيمان بالبعث المستلزم للإيمان بما سواهما والإقبال على الله تعالى، والأوَّلان منها وإن كانا اسمَي فاعلٍ إلَّا أنَّهما لم يُرَدْ بهما التجدُّدُ ولا التقييدُ بزمانٍ، بل أريدَ بهما الثبوتُ والاستمرارُ، فإضافتُهما

---

(١) ديوان الكميت ص٥٢١، والهاشميات: قصائده التي أنشدها في مدح بني هاشم.

للمعرِفة بعدَهما مَحْضَةٌ أكسبتْهما تعريفاً، فصحَّ أن يوصَفَ بهما أعرفُ المعارف.

والأمر في «ذي الطول» ظاهرٌ جدًّا. نعم الأمرُ في «شديد العقاب» مشكلٌ؛ فإنَّ شديداً صفةٌ مشبَّهةٌ، وقد نصَّ سيبويه على أنَّ كلَّ ما إضافتُه غيرُ محضةٍ إذا أضيف إلى معرفةٍ جاز أن يُنْوَى بإضافته التمحُّضُ فيتعرَّف ويُنْعَت به المعرفةُ إلا ما كان من باب الصفة المشبَّهة فإنَّه لا يتعرَّفُ[١].

ومِن هنا ذهب الزجَّاجُ إلى أنَّ «شديد العقاب» بدلٌ[٢]. ويَرِدُ عليه أنَّ في توسيط البدل بين الصفات تنافراً بيِّناً؛ لأنَّ الوصف يؤذِنُ بأنَّ الموصوفَ مقصودٌ، والبدلُ بخلافه، فيكون بمنزلةِ استئنافِ القصد بعدَ ما جُعل غيرَ مقصود.

والجوابُ أنَّه إنما يشكِلُ ظاهراً على مذهب سيبويه وسائر البصريين القائلين بأنَّ الصفةَ المشبَّهةَ لا تتعرَّفُ أصلاً بالإضافة إلى المعرِفة، وأمَّا على مذهب الكوفيين القائلين بأنَّها كغيرها من الصفات قد تتعرَّفُ بالإضافة، ويجوز وصفُ المعرِفة بها نحوُ: مررتُ بزيد حسنِ الوجه = فلا.

ويقال فيما ذُكر على المذهب الأول: إنَّ «شديداً» مؤوَّلٌ بـ: مُشِدّ[٣]، اسمِ فاعلٍ مِن أَشَدَّه: جعلَه شديداً، كـ: أَذِين بمعنى مُؤْذِن، فيُعطَى حكمَه.

أو يقال: إنَّه معرَّفٌ بـ«أل»، والأصلُ: الشديدِ عقابُه، لكن حُذفت لأمْنِ اللبس بغير الصفة لوقوعه بين الصفات ـ واحتمالُ كونه بدلاً وحدَه لا يُلتفَتُ على ما سمعتَ إليه ـ ورعايةً لمشاكلةِ ما معه من الأوصاف المجرَّدة منها، والمقدَّرُ في حكم الموجود. وقد غيَّروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل المشاكلةِ حتى قالوا: ما يَعْرِف سُحادِلَيه من عُنادِلَيه[٤]، أرادوا: ما يَعرِفُ ذَكَرَه من أُنْثَيَيْه، فثنَّوا ما هو وِترٌ لأجلِ ما هو شَفْع.

---

(١) الكتاب ١/ ١٩٩-٢٠٠، ونقله المصنف من البحر ٧/ ٤٤٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٦٦.

(٣) في الأصل و(م): مشدد، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٧.

(٤) قال في القاموس (سحدل): السُّحادِل، كعُلابِط: الذَّكَر، وهو لا يَعرِف سُحادِلَيه من عُنادِلَيه، ثُني لمكان عُنادِليه، وهما الخصيتان.

وجوِّز كونُ جميع التوابع المذكورات أبدالاً، وتعمُّدُ تنكيرِ «شديد العقاب» وإبهامِه للدلالة على فرط الشدَّة وعلى ما لا شيءَ أدهى منه وأمرُّ لزيادة الإنذار.

وفي «الكشف»: جَعْلُ كلِّها أبدالاً فيه تنافُرٌ عظيمٌ لاسيما في إبدالِ «العزيز» من «الله» الاسم الجامعِ لسائر الصفات العَلَم النصِّ، وأين هذا من بَراعة الاستهلال؟

وذهب مكي[(١)] إلى جوازِ كونِ «غافر الذنب وقابل التوب» دونَ ما قبلهما بدلين، وأنَّهما حينئذٍ نكِرتان. وقد علمتَ ما فيه مما تقدَّم.

وقال أبو حيان: إنَّ بدلَ البداءِ عندَ من أثبَتَه قد يتكرَّر، وأمَّا بدلُ كلٍّ من كلٍّ، وبدلُ بعضٍ من كلٍّ، وبدلُ اشتمالٍ، فلا نصَّ عن أحدٍ من النحويين أعرفه في جواز التكرار فيها أو منْعِه، إلا أنَّ في كلامِ بعض أصحابنا ما يدلُّ على أنَّ البدلَ من البدل جائزٌ، دون تعدُّد البدل واتحاد المبدَل منه[(٢)].

وظاهرُ كلام الخفاجيِّ أنَّ النحاةَ صرَّحوا بجواز تعدُّده حيثُ قال: لا يرِدُ على القول بالإبدال قلَّةُ البدل في المشتقَّات، ولا أنَّ النكرةَ لا تُبدَل من المعرفة ما لم توصف، ولا أنَّ تعدُّدَ البدل لم يذكره النحاة كما قيل؛ لأنَّ النحاةَ صرَّحوا بخلافه في الجميع، وللدمامينيِّ فيه كلامٌ طويلُ الذيلِ في أول «شرح الخزرجية» لا يسعُه هذا المقامُ فإنْ أردتَه فانظُرْ فيه[(٣)]. انتهى.

وعندي أنَّ الإبدالَ هنا ليس بشيء كلًّا أو بعضاً.

و«التوب» يحتمِلُ أن يكون مصدراً كالأوب بمعنى الرجوع، ويحتمل أن يكونَ اسمَ جمعٍ لتوبةٍ كتَمْرٍ وتمرةٍ.

و«الطَّول» الفضلُ بالثواب والإنعام، أو بذلك وبترك العقاب المستحَقِّ كما قيل، وهو أولى من تخصيصه بتركِ العقاب وإنْ وقع بعد «شديد العقاب». وكونُ الثواب

---

(١) كما في البحر ٧/ ٤٤٨.

(٢) البحر ٧/ ٤٤٨.

(٣) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٧/ ٣٥٧.

موعوداً فصار كالواجب فلا يكون فضلاً = ليس بشيء؛ فإنَّ الوعدَ به ليس بواجب. وفسَّره ابن عباس بالسَّعةِ والغنى، وقتادةُ بالنِّعَم، وابنُ زيد بالقدرة(١).

وتوسيط الواو بين «غافر الذنب وقابل التوب» لإفادة الجمع للمذنِب التائب بين رحمتين: بين أن يقبلَ سبحانه تَوبتَه فيكتبها له طاعةً من الطاعات، وأن يجعلَها محَّاءةً للذنب كأنه لم يُذنب، كأنه قيل: جامع المغفرة والقبول. قاله الزمخشريُّ(٢)، ووجْهُه كما في «الكشف» أنَّها صفاتٌ متعاقبةٌ بدون الواو دالَّةٌ على معنى الجمع المطلَق من مجرَّد الإجراء، فإذا خُصَّت بالواو إحدى القرائن دلَّ على أنَّ المرادَ المعتبرُ فيها وفيما تقدَّمها خاصَّةً صوناً لكلامِ البليغ عن الإلغاء، ففي الواو هنا الدلالةُ على أنه سبحانه جامعٌ بين الغفران وقَبول التوب للتائب خاصَّةً، ولا ينافي ذلك أنه عزَّ وجلَّ قد يغفِر لمن لم يتُبْ.

وما قيل: إن التوسيطَ يدلُّ على أنَّ المعنى كما أخرج أبو الشيخ في «العظمة» عن الحسن: غافرُ الذنب لمن لم يتب، وقابلُ التوب لمن تاب(٣) = فغيرُ مسلَّم.

والتغايُرُ الذي يذكرونه بين موقِع الفعلين وهما غفرانُ الذنب وقبولُ التوبة عنه المقتضِي لكون الغفران بالنسبة إلى قومٍ والقبول بالنسبة إلى آخرين؛ إذ جعلوا موقعَ الأول الذنبَ الباقي في الصحائف من غير مؤاخذةٍ، وموقعَ الثاني الذنبَ الزائل الممحُوَّ عنها = حاصلٌ مع الإجراء، فلا مدخل للواو.

ثم ما ذُكر من الوجه السابق جارٍ على أصلَي أهل السنة والمعتزلة فلا وجهَ لردِّه بما ليس بقادحٍ وإيثارِ ما هو مرجوحٌ. وتقديمُ الغافر على القابل من باب تقديم التخلية على التحلية. فافهم.

وفي القطع بقبول توبة العاصي قولان لأهل السنة؛ وفي «البحر»: الظاهرُ من

---

(١) الأقوال الثلاثة في تفسير الطبري ٢٠/ ٢٧٨-٢٧٩.
(٢) في الكشاف ٣/ ٤١٣.
(٣) العظمة ص٩٨.

الآية أنَّ توبةَ العاصي بغير الكفر كتوبة العاصي به مقطوعٌ بقبولها[1].

وفي توحيدِ صفةِ العذاب مغمورةً بصفاته تعالى الدالَّةِ على الرحمة دليلٌ على زيادة الرحمة وسبقها فسبحانه مِن إلهٍ ما أرحمه وأكرمَه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجب الإقبالُ الكليُّ على طاعته في أوامره ونواهيه ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ فحسبُ، لا إلى غيره تعالى لا استقلالاً ولا اشتراكاً، فيجازي كلًّا مِن المطيع والعاصي. وجملةُ: «لا إله إلا هو» مستأنفةٌ أو حاليةٌ، وقيل: صفةٌ لله تعالى، أو لـ «شديد العقاب».

وفي الآيات مما يقتضي الاتعاظَ ما فيها؛ أخرج عبد بن حميد عن يزيد بن الأصمِّ أنَّ رجلاً كان ذا بأسٍ، وكان من أهل الشام، وأنَّ عمرَ رضي الله عنه فقده فسأل عنه فقيل له: تتايع[2] في الشراب، فدعا عمرُ كاتبَه فقال له: اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلامٌ عليكم، فإنِّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، بسم الله الرحمن الرحيم (حمٓ) إلى قوله تعالى: (إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ) وختم الكتاب، وقال لرسوله: لا تدفعْه إليه حتى تجدَه صاحياً، ثم أمر مَن عندَه بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفةُ جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني ربي أن يغفِرَ لي وحذَّرني عقابَه، فلم يبرحْ يردِّدها على نفسه حتى بكى، ثم نَزَع فأحسن النزوعَ، فلما بلغ عمرَ توبتُه قال: هكذا فافعلوا إذا رأيتم أخاكم قد زلَّ زلَّة فسدِّدوه ووفِّقوه وادعوا الله تعالى أن يتوبَ عليه ولا تكونوا أعواناً للشياطينِ عليه[3].

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ نزلت على ما قال أبو العالية: في الحارث بن قيس السلميِّ أحدِ المستهزئين[4]. والمرادُ بالجدالِ الجدالُ بالباطل من الطعن في الآيات والقصدِ إلى إدحاض الحقِّ وإطفاءِ نور الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٤٩.

(٢) في (م): تتابع، بالباء الموحدة، والتتايع بالمثناة: الوقوع في الشر من غير فكرةٍ ولا رَوِيَّة، والمتابعة عليه. النهاية (تيع).

(٣) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٥.

(٤) البحر ٧/ ٤٤٩.

بعدُ: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ فإنَّه مذكورٌ تشبيهاً لحال كفَّارِ مكةَ بكفَّار الأحزاب من قبلُ، وإلَّا فالجِدالُ فيها لإيضاح ملتبِسِها وحلِّ مشكِلها ومقادحةِ أهل العلم في استنباط معانيها وردِّ أهل الزيغ عنها = أعظمُ جهادٍ في سبيل الله تعالى.

وفي قوله ﷺ ـ وقد أخرجه عبد بن حميد عن أبي هريرة مرفوعاً ـ: «إنَّ جدالاً في القرآن كفرٌ»(١) إيماءٌ إلى ذلك، حيثُ ذَكَر فيه «جدالاً» منكَّراً للتنويع، فأشْعَر أنَّ نوعاً منه كفرٌ وضلالٌ ونوعاً آخرَ ليس كذلك.

والتحقيقُ كما في «الكشف» أنَّ المجادلةَ في الشيء تقتضِي أن يكونَ ذلك الشيءُ إمَّا مشكوكاً عند المجادِلَين أو أحدِهما، أو منكَراً كذلك، وأيًّا ما كان فهو مذمومٌ، اللهمَّ إلَّا إذا كان مِن موحِّدٍ لخارجٍ عن الملَّة، أو مِن محقِّقٍ لزائغٍ إلى البدعة، فهو محمودٌ بالنسبة إلى أحدِ الطرفين.

وأما ما قيل: إنَّ البحثَ فيها لإيضاح المُلْتَبِس ونحوِه جدالٌ عنها، لا فيها، فإنَّ الجدالَ يتعدَّى بـ «عن» إذا كان للمنع والذبِّ عن الشيء، وبـ «في» لخلافه كما ذكره الإمام(٢)، وبالباء أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] = ففيه بحثٌ.

وفي قوله تعالى: ﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دونَ: فيه، بالضمير العائد إلى الكتاب دلالةٌ على أنَّ كلَّ آيةٍ منه يكفي كفراً لمجادِله فكيف بِمَن يُنكِره كلَّه ويقول فيه ما يقول؟ وفيه أنَّ كلَّ آيةٍ منه آيةٌ أنَّه مِن الله تعالى الموصوفِ بتلك الصفات فيدلُّ على شدَّة شكيمة المجادِل في الكفر، وأنَّه جادَل في الواضح الذي لا خَفاءَ به.

ومما ذُكر يظهر اتصالُ هذه الآية بما قبلَها، وارتباطُ قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾ بها، أي: إذا علمتَ أنَّ هؤلاء شديدو الشكائم في الكفر قد خسِروا الدنيا والآخرةَ حيثُ جادلوا في آيات الله العزيز العليم وأصرُّوا على ذلك، فلا تلتفِتْ لاستدراجهم بتوْسعةِ الرزق عليهم وإمهالِهم، فإنَّ عاقبتَهم الهلاكُ

---

(١) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٤٦.

(٢) في التفسير الكبير ٢٧/ ٢٩.

كما فُعِل بِمَن قبلَهم مِن أمثالهم مما أُشيرَ إليه بقوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلخ.

والتقلُّبُ الخروجُ من أرضٍ إلى أخرى. والمرادُ بـ «البلاد» بلادُ الشام واليمن، فإنَّ الآيةَ في كفَّارِ قريشٍ، وهم كانوا يتقلَّبون بالتجارة في هاتيك البلاد، ولهم رحلةُ الشتاء لليمن، ورحلةُ الصيف للشام. ولا بأسَ في إرادةِ ما يعمُّ ذلك وغيرَه.

وقرأ زيد بن عليٍّ وعبيد بن عمير: «فلا يغُرَّك» بالإدغام مفتوحَ الراء[1]، وهي لغةُ تميم، والفكُّ لغةُ الحجازيين.

وبدأ بقوم نوح؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ـ على ما في «البحر» ـ أولُ رسولٍ في الأرض[2]، أو لأنَّهم أولُ قومٍ كذَّبوا رسولَهم وعتَوا عُتُوًّا شديداً.

﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: والذين تحزَّبوا واجتمعوا على معاداة الرسل عليهم السلام من بعد قوم نوح كعادٍ وثمودَ وقومِ فرعون.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من تلك الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾. وقرأ عبد الله: «برسولها» رعايةً للفظ الأمة[3].

﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكَّنوا من إيقاع ما يريدون به من حبسٍ وتعذيبٍ وقتلٍ وغيرِه، فالأخذُ كنايةٌ عن التمكُّن المذكور، وبعضُهم فسَّره بالأسْر، وهو قريبٌ مما ذكر.

وقال قتادة: أي: ليقتلوه[4].

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بما لا حقيقةَ له، قيل: هو قولهم: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٥].

والأولى أن يقال: هو كلُّ ما يَذكرونه لنفْي الرسالة وتحسينِ ما هم عليه. وتفسيرُه بالشيطان ليس بشيء.

---

(١) البحر ٧/ ٤٤٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير الطبري ٢/ ٢٨١، والبحر المحيط ٧/ ٤٤٩.

(٤) تفسير الصنعاني ٢/ ١٧٨.

﴿لِيُدْحِضُوا﴾ ليُزيلوا ﴿بِهِ﴾ أي: بالباطل، وقيل: أي: بجدالهم بالباطل ﴿الْحَقَّ﴾ الأمرَ الثابتَ الذي لا محيدَ عنه ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك المستأصِلِ لهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ فإنَّكم تمرُّون على ديارِهم وترون أثرَه. وهذا تقريرٌ فيه تعجيبٌ للسامعين مما وقعَ بهم، وجوِّز أن يكونَ مِن عدمِ اعتبار هؤلاء. واكتُفي بالكسرة عن ياء الإضافة في «عقاب» لأنه فاصِلةٌ.

واختُلِف في المسبَّب عنه الأخذُ المذكورُ؛ فقيل: مجموع التكذيب، والهمّ بالأخذِ، والجِدال بالباطل.

واختارَ الزمخشريُّ كونَه الهمَّ بالأخذ[1]، قال في «الكشف»: وذلك لأنَّ قولَه تعالى: (وَجَٰدَلُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا) هو التكذيبُ بعينه، والأخذُ يشاكِلُ الأخذَ، وإنَّما التكذيبُ موجِبُ استحقاقِ العذاب الأخرَوِيِّ المشارِ إليه بعدُ، ولا يُنْكَر أنَّ كلَيهما يقتضِي كلَيهما، لكنْ لَمَّا كان ملاءمةُ الأخذِ للأخذ أتمَّ، والتكذيبُ للعذاب الأخروِيِّ = أظهرَ أنه متعلِّقٌ بالأخذِ تنبيهاً على كمال الملاءمة، ثم المجادلةُ العنادِيةُ ليس الغرضُ منها إلا الإيذاءَ، فهي تؤكِّد الهمَّ من هذا الوجهِ، بل التكذيبُ أيضاً يؤكِّدُه، والغرضُ من تمهيد قوله تعالى: (مَا يُجَٰدِلُ) وذكرِ الأحزاب الإلمامُ بهذا المعنى، ثم التصريحُ بقوله سبحانه: (وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ) يدلُّ على ما اختاره دلالةً بيِّنةً، فلا حاجةَ إلى أن يُعتَذَرَ بأنَّه إنما اعتبرَ هذا ـ لا ما سيق له الكلامُ من المجادلةِ الباطلةِ ـ مزيداً[2] للتسلِّي. انتهى.

والإنصاف أنَّ فيما صنعه جارُ الله رعايةَ جانبِ المعنى ومناسبةً لفظيةً، إلَّا أنَّ الظاهرَ هو التفريعُ على المجموع كما لا يخفى.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: كما وجب حكمه تعالى بالإهلاك على هؤلاء المتحزِّبين على الأنبياء وجب حكمُه سبحانه بالإهلاك على هؤلاء المتحزِّبين عليك أيضاً وهم كفَّارُ قريش.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤١٥.

(٢) كلمة «مزيداً» ليست في (م).

﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ أي: لأنَّهم أصحابُ النار، أي: لأنَّ العلَّةَ متَّحدةٌ، وهي أنَّهم كفَّارٌ معاندون مهتمُّون[1] بقتل النبيِّ مِثْلَهم، فوُضِع «أصحاب النار» موضعَ ما ذُكر لأنَّه آخِرُ أوصافهم وشرُّها والدالُّ على الباقي.

و«أنهم» إلخ في حيِّزِ النصب بحذفِ لام التعليل كما أشرْنا إليه، وجوِّز أن يكون في محلِّ رفعٍ على أنه بدلٌ من «كلمة ربك» بدلَ كلٍّ من كلٍّ إنْ أريد بالكلمة قولُه تعالى أو حكمُه سبحانه بأنَّهم من أصحاب النار، وبدلَ اشتمالٍ إن أريد بها الأعمُّ. ويراد بـ «الذين كفروا» أولئك المتحزِّبون، والمعنى: كما وجب إهلاكُهم بالعذاب المستأصِل في الدنيا وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة أيضاً لكُفْرهم.

والوجهُ الأوَّل أظهرُ بالمساق والتعبيرِ بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ، وفسِّرت «كلمة ربك» عليه بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] ونحوه.

وفي مصحف عبد الله: «وكذلك سبقت» وهو على ما قيل: تفسيرُ معنًى لا قراءة[2].

وقرأ ابن هرمز وشيبة وابن القعقاع ونافع وابن عامر: «كلمات» على الجمع[3].

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ وهو جسمٌ عظيمٌ له قوائمُ، الكرسيُّ وما تحته بالنسبة إليه كحلقةٍ في فلاةٍ.

وفي بعض الآثار: خلق الله تعالى العرشَ من جوهرةٍ خضراءَ، وبين القائمتين من قوائمه خَفَقانُ الطير المسرِع ثمانينَ ألف عام[4].

---

(١) في الأصل: مهمون

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٤٧، والبحر ٧/ ٤٥٠.

(٣) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٦٢ عن نافع وابن عامر وأبي جعفر، والكلام من البحر ٧/ ٤٥٠.

(٤) عرائس المجالس ص١٦، والكشاف ٣/ ٤١٥.

وذكر بعضُهم في سعته أنَّه لو مُسح مقعَّرُه بجميع مياه الدنيا مسحاً خفيفاً لقصرت عن استيعابه.

ويزعم أهل الهيئة ومَن وافقهم أنه كُريٌّ، وأنه المحدَّد وفلكُ الأفلاك، وأنه كسائر الأفلاك لا يوصَف بثقلٍ ولا خفَّةٍ[١]. وليس لهم في ذلك خبرٌ يعوَّلُ عليه، بل الأخبار ظاهرةٌ في خلافه.

والظاهر أنَّ الحمل على حقيقته وحَمَلَتُه ملائكةٌ عظامٌ؛ أخرج أبو يعلى وابن مردويه بسندٍ صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذن لي أن أُحَدِّثَ عن ملكٍ قد مَرَقَتْ رجلاه الأرضَ السابعة السفلى، والعرشُ على منكبيه، وهو يقول: سبحانك أين كنتَ وأين تكون»[٢].

وأخرج أبو داود وجماعةٌ بسندٍ صحيح عن جابر بلفظ: «أُذِن لي أن أحدِّثَ عن ملَكٍ من ملائكة الله تعالى من حَمَلةِ العرش ما بينَ شحْمةِ أُذنه إلى عاتقه مسيرةُ سبع مئة عامٍ»[٣].

وهم على ما في بعض الآثار ثمانية؛ أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن هارون بن رياب[٤] قال: حَمَلَةُ العرش ثمانيةٌ يتجاوَبون بصوتٍ رخيم، يقول أربعةٌ منهم: سبحانك وبحمدك على حِلْمك بعدَ علمك[٥]،

---

(١) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

(٢) مسند أبي يعلى (٦٦١٩)، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٦. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٠: رجاله رجال الصحيح. وقوله: مَرَقت، قال في الصحاح (مرق): مرق السهم من الرميَّة: خرج من الجانب الآخر.

(٣) سنن أبي داود (٤٧٢٧)، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٢١٢، وأبو الشيخ في العظمة ص٢١٨، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٤٦). قال ابن كثير: هذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات.

(٤) هارون بن رياب تابعي بصري، أخرج له مسلم وأبو داود والنسائي، وقد تصحف في الأصل و(م) ومطبوع الدر المنثور ٥/ ٣٤٦ إلى رباب، بالباء الموحدة. والخبر في كتاب العظمة ص٢٢٠، وشعب الإيمان ١/ ٣٢٧، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٦.

(٥) في الأصل و(م): عفوك. والمثبت من المصادر.

وأربعةٌ منهم: سبحانك وبحمدك على عفوِك بعد قدرتك.

وأخرج أبو الشيخ وابن أبي حاتم من طريق أبي قبيل أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول: حَمَلَةُ العرش ثمانيةٌ، ما بين موقِ أحدهم إلى مؤخَّر عينيه مسيرةُ خمس مئة عام(١).

وفي بعض الآثار أنهم اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية؛ أخرج أبو الشيخ عن وهب قال: حَمَلَةُ العرش أربعةٌ، فإذا كان يومُ القيامة أُيِّدوا بأربعةٍ آخَرين، ملكٌ منهم في صورة إنسانٍ يشفَعُ لبني آدم في أرزاقهم، وملكٌ منهم في صورة نسرٍ يشفع للطير في أرزاقهم، وملكٌ منهم في صورة ثورٍ يشفَعُ للبهائم في أرزاقهم، وملكٌ منهم في صورة أسدٍ يشفَع للسباع في أرزاقهم، فلمَّا حَمَلوا العرشَ وقَعوا على رُكَبِهم من عظمة الله تعالى، فلُقِّنوا: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، فاستوَوا قياماً على أرجُلهم(٢).

وجاء روايةٌ عن وهب أيضاً أنهم يحملون العرش على أكتافهم(٣)، وهو الذي يُشعِر به ظاهرُ خبر أبي هريرة السابق.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن حسان بن عطية قال: حملة العرش ثمانية، أقدامُهم مثبَّتةٌ في الأرض السابعةِ، ورؤوسُهم قد جاوزت السماءَ السابعةَ، وقرونُهم مثلُ طولهم، عليها العرشُ(٤).

وفي بعض الآثار أنهم خُشُوع لا يرفعون طرفهم، وفي بعضها لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارَهم من شُعاع النور(٥).

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٢١٢، والعظمة ص٢١٩، ونقله المصنف من الدر المنثور ٥/ ٣٤٦. وأبو قَبيل: هو حُيَي بن هانئ المصري، من رجال التهذيب.

(٢) العظمة ص٢٢١-٢٢٢، فيه عبد المنعم بن إدريس، قصاص لا يعتمد عليه. لسان الميزان ٥/ ٢٨٠.

(٣) العظمة ص١١٥.

(٤) العظمة ص٢١٩.

(٥) الأثران أخرجهما عبد بن حميد عن ميسرة كما في الدر المنثور ٥/ ٣٤٧.

وهم على ما أخرج ابن أبي شيبة عن أبي أمامة: يتكلَّمون بالفارسية[(١)]. أي: إذا تكلَّموا بغير التسبيح، وإلَّا فالظاهرُ أنهم يسبِّحون بالعربية، على أنَّ الخبرَ الله تعالى أعلمُ بصحَّته.

وفي بعض الآثار عن وهب أنَّهم ليس لهم كلامٌ إلَّا أن يقولوا: قُدُّوس الله القويُّ، ملأت عظمتُه السماواتِ والأرضَ[(٢)]. وما سيأتي إن شاء الله تعالى بُعيدَ هذا في الآية يأبى ظاهرَ الحصر.

﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ أي: والذين مِن حولِ العرش، وهم ملائكةٌ في غاية الكثرة لا يعلم عدَّتَهم إلا اللهُ تعالى.

وقيل: حولَ العرش سبعون ألفَ صفٌّ من الملائكة، يطوفون به مهلِّلين مكبِّرين، ومن ورائهم سبعون ألفَ صفٌّ قيامٌ، قد وضعوا أيديَهم على عواتقهم، رافعين أصواتَهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مئةُ ألفِ صفٌّ قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحدٌ إلَّا وهو يسبِّح بما لا يسبِّح به الآخَر[(٣)].

وذُكِر في كثرتهم أنَّ مخلوقاتِ البرِّ عُشْرُ مخلوقاتِ البحر، والمجموعُ عُشْرُ مخلوقاتِ الجوِّ، والمجموعُ عُشْر ملائكة السماء الدنيا، والمجموعُ عُشْرُ ملائكة السماء الثانية، وهكذا إلى السماء السابعة، والمجموعُ عُشْر ملائكة الكرسيِّ، والمجموعُ عُشْرُ الملائكة الحافِّين بالعرش، ولا نسبةَ بين مجموع المذكور وما يعلمه الله تعالى من جنوده سبحانه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١][(٤)].

ويقال لحملة العرش والحافِّين به: الكَرُوْبِيُّون، جمعُ: كروبيٍّ، بفتح الكاف وضمِّ الراء المهملة المخفَّفة، وتشديدُها خطأٌ، ثم واو، بعدَها باء موحَّدة، ثم ياءٌ مشدَّدة، من كَرَب بمعنى قَرُب، وقد توقَّف بعضُهم في سماعه من العرب، وأثبته أبو عليٍّ الفارسيُّ واستشهد له بقوله:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «جزء العرش»، كما في الدر ٥/ ٣٤٧.
(٢) العظمة ص١١٥.
(٣) أخرجه أبو الشيخ في كتاب العظمة عن وهب عن كعب ص١٠٢.
(٤) لم نقف عليه.

كَـرُوبـيـة مـنـهـم رُكـوعٌ وسُـجَّـد[١]

وفيه دلالةٌ على المبالغة في القرب؛ لصيغة فَعُول، والياءِ التي تزاد للمبالغة.

وقيل: من الكَرْبِ بمعنى الشدَّة والحُزْن، وكأنَّ وصفَهم بذلك لأنهم أشدُّ الملائكة خوفاً.

وزعم بعضهم أنَّ الكروبيِّين حملةُ العرش، وأنهم أوَّلُ الملائكة وجوداً. ومثلُه لا يُعرف إلَّا بسماع.

وعن البيهقيِّ أنَّهم ملائكةُ العذاب[٢]. وكأنَّ ذلك إطلاقٌ آخرُ من الكرْب بمعنى الشدَّة والحزن.

وقال ابن سينا في «رسالة الملائكة»: الكَروبِيُّون هم العامرون لعَرَصاتِ التِّيْه الأعلى، الواقفون في الموقف الأكرم زمراً، الناظرون إلى المنظر الأبهى نظراً، وهم الملائكة المقرَّبون والأرواحُ المبرَّؤون، وأما الملائكةُ العاملون فهم حَمَلَةُ العرش والكرسيِّ وعُمّارُ السماوات[٣]. انتهى.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ حمْلَ العرشِ مجازٌ عن تدبيره وحفظه مِن أن يَعرِضَ له ما يُخلُّ به أو بشيءٍ من أحواله التي لا يعلمها إلا اللهُ عزَّ وجلَّ، وجعلوا القرينةَ عقليةً؛ لأنَّ العرشَ كُريٌّ في حيِّزه الطبيعي فلا يحتاج إلى حملٍ. ونُسب ذلك إلى الحكماء وأكثرِ المتكلِّمين، وكذا ذهبوا إلى أنَّ الحفيفَ والطوافَ بالعرش كنايةٌ أو مجازٌ عن القرب من ذي العرش سبحانه ومكانتِهم عنده تعالى وتوسُّطِهم في نفاذِ أمره عزَّ وجلَّ. والحقُّ الحقيقةُ في الموضعين؛ وما ذُكر من القرينة العقلية في حيِّز المنع.

---

(١) عجز بيت لأمية بن أبي الصلت، وهو في ديوانه ص٤٠، وصدره: ملائكةٌ لا يفْتُرُون عبادَةً.

(٢) شعب الإيمان ١/ ١٧١.

(٣) نقله المصنف من حاشية الشهاب ٧/ ٣٥٩.

وقرأ ابن عباس وفرقةٌ: «العُرْش» بضمِّ العين[١]؛ فقيل: هو جمعُ: عَرْش، كسَقْف وسُقف، أو لغةٌ في العرش.

والموصول الأول مبتدأٌ والثاني عطفٌ عليه، والخبرُ قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لتسليةِ رسول الله ﷺ ببيانِ أنَّ الملائكة الذين هم في المحلِّ الأعلى مُثابِرون على ولاية مَن معه من المؤمنين ونُصرتهم واستدعاءِ ما يُسعِدُهم في الدارَين. أي: ينزِّهونه تعالى عن كلِّ ما لا يليق بشأنه الجليل كالجسميَّة وكونِ العرش حاملاً له عزَّ وجلَّ، ملتبِسين بحمده جلَّ شأنه على نعمائه التي لا تتناهى.

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إيماناً حقيقيًّا كاملاً، والتصريحُ بذلك مع الغنى عن ذكره رأساً؛ لإظهارِ فضيلة الإيمان، وإبرازِ شرَفِ أهله، والإشعار بعلَّة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطِق به قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فإنَّ المشاركةَ في الإيمان أقوى المناسبات وأتمُّها وأدْعى الدواعي إلى النُّصح والشفقة وإن تخالفَت الأجناسُ وتباعدت الأماكنُ، وفيه على ما قيل: إشعارٌ بأنَّ حَمَلةَ العرش وسكَّانَ الفرش سواءٌ في الإيمان بالغيب إذ لو كان هناك مشاهدةٌ لِلُزومها من الحمل بناءً على العادة الغالبة، أو على أنَّ العرشَ جسمٌ شفَّافٌ لا يمنع الأبصارَ ألبتةَ = لم يقل: «يؤمنون»؛ لأنَّ الإيمان هو التصديقُ القلبيُّ - أعني العلمَ أو ما يقوم مقامه - مع اعترافٍ، وإنَّما يكونُ في الخبر ومضمونِه، من معتقَدٍ علميٍّ أو ظنيٍّ ناشئٍ من البرهان أو قولِ الصادق، كأنه اعترفَ بصدق المخبِر أو البرهان، وأمَّا العيانُ فيُغْني عن البيان، ففي ذلك رمزٌ إلى الردِّ على المجسِّمة، ونظيرُه في ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا تفضِّلوني على ابن متى»[٢]، كذا قيل.

وينبغي أن يُعلَم أنَّ كونَ حَمَلةِ العرش لا يَرَوْنه عزَّ وجلَّ بالحاسَّة لا يلزم منه عدمُ رؤية المؤمنين إياه تعالى في الدار الآخرة.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحرر الوجيز ٤/٥٤٨، والبحر ٧/٤٥١، والكلام منه.
(٢) سلف عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ على إرادةِ القول، أي: يقولون: ربَّنا. . إلخ، والجملة لا محلَّ لها من الإعراب على أنها تفسيرٌ لـ «يستغفرون». أو في محلِّ رفعٍ على أنها عطفُ بيانٍ على تلك الجملة بناءً على جوازه في الجمل. أو في محلِّ نصبٍ على الحالية من الضمير في «يستغفرون». وفسَّر استغفارُهم على هذا الوجه بشفاعتهم للمؤمنين وحملِهم على التوبة بما يُفيضون على سرائرهم. وجوَّز أن يكون الاستغفارَ في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] المفسَّرَ بترك معاجلةِ العقاب وإدرارِ الرزق والارتفاق بما خلق من المنافع الجمَّة ونحوِ ذلك، وهو وإن لم يَخُصَّ المؤمنين لكنهم أصلٌ فيه، فتخصيصُهم هنا بالذكر للإشارة إلى ذلك. والأظهرُ كونُ الجملة تفسيراً.

ونصْب «رحمةً وعلماً» على التميز، وهو محوَّلٌ عن الفاعل، والأصلُ: وسعتْ رحمتُك وعلمك كلَّ شيءٍ، وحوِّل إلى ما في النظم الجليل للمبالغة في وصفه عزَّ وجلَّ بالرحمةِ والعلمِ حيثُ جُعلت ذاتُه سبحانه كأنها عينُ الرحمة والعلم مع التلويح إلى عمومها؛ لأنَّ نسبةَ جميع الأشياءِ إليه تعالى مستويةٌ فتقتضي استواءَها في شمولهما. ووصفه تعالى بكمال الرحمة والعلم كالتمهيد لقوله سبحانه: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ إلخ، وتسبُّبُ المغفرة عن الرحمة ظاهرٌ، وأما تسبُّبها عن العلم فلأنَّ المعنى: فاغفر للذين علمتَ منهم التوبةَ - أي: من الذنوب مطلقاً، بناءً على أنه المتبادرُ من الإطلاق - واتباعَ سبيلك، وهو سبيلُ الحقِّ التي نهجَها الله تعالى لعباده ودعا إليها الإسلامُ[1]، أي: علمُك الشاملُ المحيط بما خفي وما عَلَنَ يقتَضِي ذلك، وفيه تنبيهٌ على طهارتهم من كُدورات الرياء والهوى، فإنَّ ذلك لا يعلمه إلا اللهُ تعالى وحدَه.

ويتضمَّنُ التمهيدُ المذكورُ الإشارةَ إلى أنَّ الرحمةَ الواسعةَ والعلمَ الشاملَ يقتضيان أن ينالَ هؤلاء الفوزَ العظيم والقسطَ الأعلى من الرضوان، وفيه إيماءٌ إلى معنى:

---

(١) قوله: الإسلام، ليس في الأصل.

إن تـغـفِـر الـلـهـمَّ تـغْـفِـرْ جـمَّـا وأيُّ عـبـدٍ لـك لا ألَـمَّـا[(١)]

فإنَّ العبدَ وإن بالغ حقَّ المبالغة في أداء حقوقه تعالى فهو مقصِّر، وإليه الإشارةُ بقوله ﷺ: «ولا أنا، إلَّا أن يتغمَّدَني الله تعالى برحمته»[(٢)].

وتقديمُ الرحمة لأنها المقصودةُ بالذات هاهنا. وفي تصدير الدعاء بـ«ربنا» من الاستعطاف ما لا يخفى، ولذا كثُر تصديرُ الدعاء به.

وقوله تعالى: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧﴾ أي: واحفظهم عنه، تصريحٌ بعد تلويحٍ للتأكيد، فإنَّ الدعاءَ بالمغفرة يستلزم ذلك، وفيه دلالةٌ على شدَّة العذاب.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ أي: وَعَدْتَهم إياها، فالمفعولُ الآخَرُ مقدَّرٌ، والمراد: وعدتَهم دخولَها. وتكريرُ النداء لزيادة الاستعطاف.

وقرأ زيد بن عليٍّ والأعمش: «جنَّةَ عدن» بالإفراد، وكذا في مصحف عبد الله[(٣)].

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ عطفٌ على الضمير المنصوبِ في «أدخلهم»، أي: وأَدْخِلْ معهم هؤلاء ليتمَّ سرورهم ويتضاعفَ ابتهاجُهم.

وجوَّز الفراء والزجَّاج العطفَ على الضمير في «وعدتهم»، أي: وعدتَهم ووعدتَ مَن صلح.. إلخ[(٤)]. فقيل: المرادُ بذلك الوعدُ العامُّ. وتعقِّب بأنَّه لا يبقى على هذا للعطف وجهٌ، فالمرادُ الوعدُ الخاصُّ بهم بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

والظاهرُ العطفُ على الأول، والدعاءُ بالإدخال فيه صريحٌ، وفي الثاني ضمنيٌّ.

---

(١) الشطر الأول لم يرد في الأصل، والبيت لأمية بن أبي الصلت، أنشده عند موته. وهو في ديوانه ص١١٤. ونسب لأبي خراش الهذلي كما في شرح أشعار الهذليين ٣/ ١٣٤٦، وقال في خزانة الأدب ٢/ ٢٩٥: هذا خطأ.

(٢) سلف ١/ ٢١١.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥، والقراءات الشاذة ص١٣٢، والبحر ٧/ ٤٥٢.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥، وللزجاج ٤/ ٣٦٨.

والظاهرُ أنَّ المرادَ بالصلاحِ الصلاحُ المصحِّحُ لدخول الجنة وإن كان دونَ صلاحِ المتبوعين.

وقرأ ابن أبي عبلة: «صلُح» بضمِّ اللام، يقال: صلُح فهو صَليح، وصلَح فهو صالح[1].

وقرأ عيسى: «ذريتَهم» بالإفراد[2].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالبُ الذي لا يمتنع عليه مقدورٌ ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٨﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمةُ الباهرةُ من الأمور التي من جملتها إدخالُ من طُلب إدخالُهم الجناتِ، فالجملةُ تعليلٌ لِمَا قبلها.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: العقوباتِ على ما روي عن قتادة، وإطلاقُ السيئة على العقوبة لأنَّها سيئة في نفسها. وجوِّز أن يرادَ بها المعنى المشهورُ وهو المعاصي، والكلامُ على تقدير مضافٍ، أي: وقِهم جزاءَ السيئات. أو تُجُوِّز بالسبب عن المسبَّب. وأيَّاما كان فلا يتكرَّرُ هذا مع: «وقهم عذاب الجحيم»، بل هو تعميمٌ بعد تخصيصٍ لشموله العقوبةَ الدنيويةَ والأخرويةَ مطلقاً، أو الدعاءُ الأول للمتبوعين وهذا للتابعين.

وجوِّز أن يرادَ بـ «السيئات» المعنى المشهورُ بدون تقديرِ مضافٍ ولا تجوُّزٍ، أي: المعاصي، أي: وقهم المعاصيَ في الدنيا، ووقايتُهم منها حفظُهم عن ارتكابِها، وهو دعاءٌ بالحفظ عن سبب العذاب بعد الدعاء بالحفظ عن المسبَّب وهو العذاب. وتعقِّب بأنَّ الأنسبَ على هذا تقديمُ هذا الدعاء على ذاك.

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ المؤاخذة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾، ويقال على الوجه الأخير: ومَن تقِ السيئات يومَ العمل، أي: في الدنيا فقد رحمتَه في الآخرة، وأيِّد هذا الوجهُ بأنَّ المتبادرَ مِن «يومئذ» الدنيا، لأنَّ «إذ» تدلُّ على المُضِيِّ، وفيه منعٌ ظاهرٌ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤١٧، والبحر ٧/ ٤٥٢.

(٢) البحر ٧/ ٤٥٢.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الرحمة المفهومة مِن «رَحِمْتَه»، أو إلى الوقاية المفهومة من فِعْلِها، أو إلى مجموعهما، وأمرُ التذكير على الاحتمالين الأولين وكذا أمر الإفراد على الاحتمال الأخير، ظاهرٌ.

﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ أي: الظفر ﴿ٱلْعَظِيمُ ۝﴾ الذي لا مطمعَ وراءه لطامع.

هذا، وإلى كونِ المراد بـ «الذين تابوا» الذين تابوا من الذنوب مطلقاً ذهب الزمخشريُّ، وقال في «السيئات» على تقدير حذفِ المضاف: هي الصغائرُ أو الكبائرُ المتوبُ عنها، وذَكر أنَّ الوقايةَ منها التكفيرُ أو قبولُ التوبة، وأنَّ هؤلاء المستغفَرَ لهم تائبون صالحون مثل الملائكة في الطهارة، وأنَّ الاستغفارَ لهم بمنزلة الشفاعة، وفائدتُه زيادةُ الكرامة والثواب فلا يضُرُّ كونهم موعودين المغفرةَ، والله تعالى لا يخلف الميعاد(١).

وتعقِّب بأنه لا فائدةَ في ذكر الرحمة والمبالغةِ فيها إذا كان المغفورُ له مثلَ الملائكة عليهم السلام في الطهارة، وأيُّ حاجةٍ إلى الاستغفار فضلاً عن المبالغة؟ وأنَّ ما قاله في «السيئات» لا يجوز؛ فإنَّ إسقاطَ عقوبة الكبيرة بعدَ التوبة واجبٌ في مذهبه، وما كان فعله واجباً كان طلبُه بالدعاء عبثاً قبيحاً عند المعتزلة، وكذا إسقاطُ عقوبة الصغيرة فلا يحسُن طلبُه بالدعاء، ولا يجوز أن يكونَ ذلك لزيادة منفعةٍ؛ لأنَّ ذلك لا يسمَّى مغفرةً. حكى هذا الطيبيُّ عن الإمام(٢)، ثم قال: فحينئذٍ يجب القولُ بأنَّ المرادَ بالتوبة التوبةُ عن الشرك كما قال الواحديُّ: (فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا) عن الشرك (وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ) أي: دينَك الإسلامَ(٣).

فإن قلت: لو لم يكن التوبةُ من المعاصي مراداً لكان يكفي أن يقولوا: فاغفر للذين آمنوا، ليطابقَ السابقَ؟

قلتُ، والله تعالى أعلم: هو قريبٌ من وضع المظهر موضعَ المضمَر من غيرِ اللفظ السابق، وبيانُه أنَّ قولَه تعالى: (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ

(١) الكشاف ٣/٤١٧.
(٢) التفسير الكبير ٢٧/٣٤.
(٣) الوسيط ٤/٥.

﴿لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ الآيةَ جاء مفصولاً عن قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فالآيةُ بيانٌ لكيفية الاستغفار، لا لحالِ المستغفَرِ لهم، ووصفُهم المميَّزُ يعرَفُ بالذوق.

وأما فائدةُ العدول عن المضمَر وأنَّه لم يقل: فاغفر لهم، بل قيل: «للذين تابوا» فهي أنَّ الملائكةَ كما علَّلوا الغفرانَ في حقِّ مُفيضِ الخيرات جلَّ شأنه بالعلمِ الشاملِ والرحمةِ الواسعة علَّلوا قابلَ الفَيض أيضاً بالتوبة عن الشرك واتِّباع سبيل الإسلام.

فإن قلتَ: هذه التوبةُ إنما تصحُّ في حقِّ مَن سَبق شركُه على إسلامه، دونَ مَن وُلد مسلماً ودام عليه.

قلتُ: الآيةُ نازلةٌ في زمن الصحابة وجلُّهم انتقلوا مِن الشرك إلى الإسلام، ولو قيل: فاغفر، لمن لم يُشرك لخَرجوا، فغُلِّب الصحابةُ ﷺ على سَنن جميع الأحكام. انتهى. ولعمري إنَّ للبحث فيه مجالاً أيَّ مجالٍ.

وفي «الكشف»: إنَّما اختارَ الزمخشريُّ ما اختاره على ما قال الواحديُّ من أنَّ التوبةَ عن الشرك؛ لأنَّ التوبةَ عند الإطلاق تنصرِف إلى التوبة من الذنوب مطلقاً، على أنَّ فيه تكراراً إذ ذاك؛ لأنَّ التائبَ عن الشرك هو المسلِمُ، وقد فسَّر متَّبِعُ السبيل في هذا القول به، وإذا شَرط حَمَلةُ العرش ومَن حوله عليهم السلام صلاحَ التابع، وهو الذريةُ، مع ما ورد مِن قوله تعالى: ﴿بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] فما بالُ المتبوع؟ وأنت تعلم أنَّ الصلاحَ مِن أخصِّ أوصاف المؤمن، وكفاك دعاءُ إبراهيمَ ويوسفَ عليهما السلام في الإلحاق بالصالحين شاهداً، وأمَّا أنَّهم غيرُ محتاجين إلى الدعاء فجوابُه أنَّه لا يجب أن يكونَ للحاجة، ألا ترى إلى قولنا: اللَّهمَّ صلِّ على سيِّدنا محمد، وما ورد فيه من الفضائل، والمعلومُ حصولُه منه تعالى، يَحْسُن طلبُه، فإنَّ الدعاءَ في نفسه عبادةٌ ويُوجب للداعي والمدعوِّ له من الشرَف ما لا يتقاعَدُ عن حصولِ أصلِ الثواب.

ثمَّ إنَّ الوقايةَ عن السيئات إن كانَت بمعنى التكفير وقع الكلامُ في أنَّ السيئاتِ المكفَّرةَ ما هي؟ ولا خفاءَ أنَّ النصوصَ دالَّةٌ على تكفير التوبة للسيئات كلِّها، وأنَّ الصغائر مكفَّرات ما اجتُنِبَت الكبائرُ، فلا بدَّ من تخصيصها به كما ذُكر.

وإن كان معناها أن يُعفى عنها ولا يُؤَاخذ بها كما هو قولُ الواحدي ومختارُ الإمام[١] ومَن ائتمَّ به، فينبغي أن يُنظر أنَّ الوقايةَ في أيِّ المعنيَيْنِ أظهرُ، وأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ وما يفيده من المبالغة على نحو: من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك[٢]، وتعقيبُه بقوله سبحانه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ في شأن المقصِّرين أظهرُ أو شأن المكفَّرين.

ومن هذا التقرير قد لاح أنَّ هذا الوجهَ ظاهرُ هذا السياق، وأنَّه يوافِق أصلَ الفريقينِ، وليس فيه أنَّه سبحانه يعفو عن الكبائر بلا توبةٍ أو لا يعفو، فلا ينافي جوازَه من أدلةٍ أُخرى، إلى آخر ما قال، وهو كلامٌ حَسَنٌ وإن كان في بعضه ـ كحديثِ التكرار، وكونِ الصلاح في الآية ما هو مِن أخصِّ أوصافِ المؤمن ـ نوعُ مناقشةٍ، وقد يرجَّح كونُ المراد بالتوبة التوبةَ من الذنوب مطلقاً دونَ التوبة عن الشرك فقط بأنَّ المتبادِرَ من «وقِهِم عذابَ الجحيم»: وَقِ كلَّ واحدٍ منهم ذلك، ومن المعلوم أنه لا بدَّ من نفوذ الوعيد في طائفة من المؤمنين العاصين وتعذيبِهم في النار، فيكونُ الدعاءُ بحفظِ كلٍّ من المؤمنين من العذاب محرَّماً.

وقد نصُّوا على حرمةِ أن يقال: اللَّهمَّ اغفر لجميع المؤمنين جميعَ ذنوبهم، لذلك، ولا يلزمُ ذلك على كون الدعاء للتائبين الصالحين.

وحملُ الإضافة على العهد بأن يرادَ بـ «عذاب الجحيم» ما كان على سبيل الخلود لا يخفى حالُه.

والاعتراضُ بلزوم الدعاء بمعلوم الحصول على كون المراد بالتوبة ذلك بخلاف ما إذا أُريد بها التوبةُ عن الشرك فإنَّه لا يلزم ذلك، إذ المعنى عليه: فاغفر للذين تابوا عن الشرك ذنوبَهم التي لم يتوبوا عنها، وغفرانُ تلك الذنوب غيرُ معلوم الحصول = قد عُلم جوابُه مما في «الكشف»، على أنَّ في كون الغفران للتائب معلومَ الحصول خلافاً أشرنا إليه أولَ السورة.

نعم، هذا اللزومُ ظاهرٌ في قولهم: «وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم»،

---

(١) الوسيط ٤/ ٥، والتفسير الكبير ٢٧/ ٣٤.
(٢) ينظر ما سلف ١٠/١٠٦.

ونظيرُ ذلك ما ورد في الدعاء إثْرَ الأذان: «وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته»[١]. وقد أجيب عن ذلك بغيرِ ما أشير إليه أيضاً وهو أنَّ سبقَ الوعد لا يستدعي حصولَ الموعود بلا توسُّطِ دعاءٍ.

وبالجملة لا بأسَ بحملِ التوبة على التوبة من الذنوب مطلقاً، ولا يلزم من القولِ به القولُ بشيء من أصول المعتزلة، فتأمَّل وأنصف.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ شروعٌ في بيانِ أحوال الكفَّار بعدَ دخول النار ﴿يُنَادَوْنَ﴾ وهم في النار، وقد مقَتوا أنفسَهم الأمَّارة بالسوء، التي وقعوا فيما وقعوا باتِّباع هواها، حتى أكلوا أناملَهم من المقت كما أخرج ذلك عبد بن حميد عن الحسن[٢].

وفي بعض الآثار أنَّهم يمقُتون أنفسَهم حين يقول لهم الشيطان: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[٣] [إبراهيم: ٢٢].

وقيل: يمقُتونها حين يعلمون أنهم من أصحابِ النار[٤].

والمنادي الخزنةُ أو المؤمنون، يقولون لهم إعظاماً لحسرتهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ وهذا معمولٌ للنداء لتضمُّنِه معنى القول، كأنه قيل: ينادَون مقولاً لهم: لمَقْتُ.. إلخ، أو معمولٌ لقولٍ مقدَّرٍ بفاء التفسير، أي: ينادَون فيقال لهم: لمَقْتُ.. إلخ. وجَعْلُه معمولاً للنداء على حذف الجارِّ وإيصال الفعل بالجملة ليس بشيء.

و«مَقْت» مصدرٌ مضافٌ إلى الاسم الجليل إضافةَ المصدر لفاعله، وكذا إضافةُ المَقْت الثاني إلى ضمير الخطاب.

وفي الكلام تنازُعٌ، أو حذفُ معمولِ الأول من غير تنازُعٍ، أي: لمقتُ الله إيَّاكم أو أنفسَكم أكبرُ من مقتكم أنفسَكم. واللام للابتداء أو للقَسَم.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٨١٧)، والبخاري (٦١٤) من حديث جابر بن عبد الله ﵄.

(٢) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٧.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣١-٦٣٢ عن محمد بن كعب القرظي، ونقله المصنف من البحر ٧/ ٤٥٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٤٥.

والمقتُ: أشدُّ البغض؛ والخلَفُ يؤوِّلونه مسنَداً إليه تعالى بأشدِّ الإنكار.

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي: إذ يدعوكم الأنبياء ونوَّابُهم ﴿إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ فتأبَون قبولَه ﴿فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ وهذا تعليلٌ للحكم أو للمحكوم به، فـ «إذ» متعلقةٌ بـ «أكبر»، وكأنَّ التعبير بالمضارع للإشارة إلى الاستمرار التجدُّديِّ، كأنه قيل: لمقتُ الله تعالى أنفسَكم أكبرُ من مقتكم إياها، لأنّكم دُعيتم مرَّةً بعدَ مرَّةٍ إلى الإيمان فتكرَّرَ منكم الكفر. وزمان المقتَينِ واحدٌ على ما هو المتبادِرُ، وهو زمانُ مقتِهم أنفسَهم الذي حكيناه آنفاً.

ويجوزُ أن يكون تعليلاً لمقتهم أنفسهم، و«إذ» متعلقة بـ «مقت» الثاني، فهم مقَتوا أنفسَهم لأنَّهم دُعُوا مِراراً إلى الإيمان فكَفروا، والتعبيرُ بالمضارع كما في الوجْهِ السابق، وزمانُ المقتَين كذلك، والعلة في الحقيقة إصرارُهم على الكفر مع تكرُّرِ دعائهم إلى الإيمان.

وجوَّز أن يكونَ تعليلاً «المقت الله»، و«إذ» متعلِّقةٌ به، ويُعلم مما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما عليه وما له.

وظاهر صنيع جماعةٍ من الأجلَّة اختيارُ كونِ «إذ» ظرفيةً لا تعليليةً، فقيل: هي ظرفٌ لـ «مقت» الأول، والمعنى: لمقتُ الله تعالى أنفسَكم في الدنيا إذ تُدعَون إلى الإيمان فتكفرون أشدُّ من مقتكم إياها اليومَ وأنتم في النار، أو: وأنتم متحقِّقُون أنكم من أصحابها، فزمانُ المقْتَينِ مختلِفٌ، وكونُ زمانِ الأول الدنيا وزمانِ الثاني الآخرةَ مرويٌّ عن الحسن؛ وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد[١]. واعترَض عليه غيرُ واحدٍ بلزوم الفصل بين المصدر وما في صلته بأجنبيٍّ هو الخبرُ، وفي «أمالي ابن الحاجب»: لا بأسَ بذلك؛ لأنَّ الظروفَ متَّسَعٌ فيها[٢].

وقيل: هي ظرفٌ لمصدرٍ آخرَ يدلُّ عليه الأول، أو لفعلٍ يدلُّ عليه ذلك، كما في «البحر»[٣].

---

(١) عزاه لهما السيوطي في الدر ٥/ ٣٤٧.
(٢) أمالي ابن الحاجب ١/ ١٤١.
(٣) ٧/ ٤٥٣.

وفي «الكشف»: فيه أنَّ المقدَّرَ لا بدَّ له من خبرٍ آتٍ[1] إن استقلَّ ويتَّسِع الخرق، وإن جُعل بدلاً فحذفُه وإعمالُ المصدرِ المحذوف لا يتقاعَدُ عن الفصل بالخبر وليس أجنبيًّا من كلِّ وجهٍ.

وتقديرُ الفعل، أي: مقتَكم الله إذ تدعون، أبعدُ وأبعدُ.

وقيل: هي ظرفٌ لـ «مقت» الثاني.

واعتُرض بأنهم لم يمقتوا أنفسَهم وقتَ الدعوة، بل في القيامة.

وأجيب بأنَّ الكلامَ على هذا الوجه من قبيلِ قول الأمير كرَّم الله تعالى وجهه: إنما أُكِلْتُ يومَ أُكِلَ الثورُ الأحمر[2]. وقولِ عَمرو بن عُدَس التميميِّ لمطلَّقته دَخْتَنوس بنتِ لقيط وقد سألتْه لبناً وكانت مُقفِرةً من الزاد: الصيفَ ضيَّعْتِ اللبنَ[3]. وذلك بأن يكون مجازاً بتنزيل وقوع السبب وهو كفرُهم وقتَ الدعوة منزلةَ وقوع المسبَّب وهو مقتُهم لأنفسهم حينَ معاينتِهم ما حلَّ بهم بسببه.

وقيل: إنَّ المرادَ عليه: إذ تبيَّن أنكم دُعيتم إلى الإيمان المنجِي والحقِّ الحقيقِ بالقبول فأبَيْتم. أو أنَّ المرادَ بأنفسهم جنسُهم من المؤمنين فإنهم كانوا يمقُتون المؤمنين في الدنيا إذ يدعون إلى الإيمان، وهو أبعدُ التأويلات.

وقال مكي: «إذ» معمولةٌ لـ «اذكروا» مضمَراً[4]، والمرادُ التحسير[5] والتنديمُ. واستحسنه بعضُهم، وأراه خلافَ المتبادِر.

---

(١) في (م): جزاآت.

(٢) أراد علي ﷺ أن أمره وَهِنَ يومَ قتل عثمان ﷺ. وفي المثل قصة، ينظر مجمع الأمثال ١/ ٢٥، والمستقصى ١/ ٤١٧.

(٣) يضرب هذا المثل للرجل يضيع الأمر، ثم يطلبه بعد فواته. وأصله أن عمرو بن عمرو بن عدس كانت تحته دختنوس بنت لقيط بن زرارة، وكان مسنًّا ولكنه متموِّل، فسألته الطلاق فطلقها، فتزوجت عمرو بن معبد بن زرارة وكان شابًّا فقيراً، فلما أجدبوا أرسلت إلى عمرو تستقيه لبناً، فقال: الصيفَ ضيعْتِ اللبن. يعني أن سؤالكِ الطلاق كان في الصيف فيومئذٍ ضيَّعْتِ اللبن. المستقصى ١/ ٣٢٩، وجمهرة الأمثال ١/ ٥٧٥، وحاشية الشهاب ٧/ ٣٦١.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٣٤.

(٥) وقع في (م): التحير، وهو تحريف.

وادَّعى صاحبُ «الكشف» أنَّ فيه تنافراً بَيِّناً، وعلَّله بما لم يظهر لي وجهُه. فتأمَّل.

وتفسيرُ: «مَقْتكم أنفسَكم» بمقتِ كلِّ واحدٍ نفسَه هو الظاهر، وجُوِّز أن يرادَ به مقتُ بعضِهم بعضاً، فقيل: إنَّ الأتباعَ يمقُتون الرؤساءَ لِمَا ورَّطوهم فيه من الكفر، والرؤساءُ يمقُتون الأتْباعَ لِمَا أنهم اتَّبعوهم فحملوا أوزاراً مثلَ أوزارِهم. فلا تغفل.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ صفتانِ لمصدرَي الفعلين، والتقديرُ: أمتَّنا إماتَتَيْنِ اثنتين وأحييتَنا إحياءَتَيْنِ اثنتين.

وجوِّز كونُ المصدرَيْنِ موتَتَيْنِ وحياتَيْنِ، وهما إمَّا مصدران للفعلين المذكورين أيضاً بحذف الزوائد، أو مصدران لفعلَيْن آخرَيْن يدلُّ عليهما المذكوران، فإنَّ الإماتة والإحياءَ ينبئان عن الموت والحياة حتماً، فكأنَّه: أمتَّنا فمُتْنا موتَتَيْنِ اثنتين وأحييتَنا فحَيِيْنا حياتَيْنِ اثنتين، على طرز قوله:

وعضُّ زمانٍ يا ابنَ مروان لم يَدَعْ ... من المال إلَّا مُسْحَتٌ أو مجلَّفُ[1]

أي: لم يَدَعْ فلم يبق إلَّا مُسْحَتٌ. . إلخ.

واختُلِف في المراد بذلك فقيل: أرادوا بالإماتة الأولى خلْقَهم أمواتاً، وبالثانية إماتتَهم عند انقضاءِ آجالهم، وبالإحياءَةِ الأولى إحياءتَهم بنفخ الروح فيهم وهم في الأرحام، وبالثانية إحياءتَهم بإعادةِ أرواحهم إلى أبدانهم للبعث؛ وأخرج هذا ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس[2]. وجماعة منهم الحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود[3]. وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة[4].

ورُوي أيضاً عن الضحَّاك وأبي مالك، وجعلوا ذلك نظيرَ آية «البقرة»: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

---

(١) البيت للفرزدق، وقد سلف ٣/ ٣٧٠ و١٣/ ٩٢.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٩١، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٤٧.

(٣) مستدرك الحاكم ٢/ ٤٣٧ والأثر عند الطبري في تفسيره ٢٠/ ٢٩١، والطبراني في المعجم الكبير (٩٠٤٤).

(٤) عزاه لهما السيوطيُّ في الدر ٥/ ٣٤٨.

والإماتة إن كانت حقيقةً في جَعْلِ الشيء عادمَ الحياة سُبِقَ بحياةٍ أم لا، فالأمرُ ظاهرٌ، وإن كانت حقيقةً في تصيير الحياة معدومةً بعدَ أن كانت موجودةً كما هو ظاهرُ كلامهم حيثُ قالوا: إنَّ صيغةَ الإفعال وصيغةَ التفعيل موضوعتَان للتصيير، أي: النقلِ من حالٍ إلى حالٍ، ففي إطلاقها على ما عُدَّ إماتةً أُولى خفاءٌ؛ لاقتضاء ذلك سبقَ الحياةِ، ولا سبق فيما ذُكر.

ووُجِّه بأنَّ ذلك من باب المجاز، كما قرَّروه في: ضَيِّقْ فمَ الرَّكِيَّةِ ووَسِّعْ أسفلَها، قالوا: إنَّ الصانعَ إذا اختارَ أحدَ الجائزَيْنِ وهو متمكِّنٌ منهما على السواء، فقد صَرَف المصنوعَ الجائزَ عن الآخر، فجُعِل صرفُه عنه كنَقْلِه منه، يعني أنه تجوّز بالإفعال أو التفعيل الدالِّ على التصيير ـ وهو النقلُ من حالٍ إلى حالٍ أخرى ـ عن لازمه، وهو الصرفُ عمَّا في حيِّز الإمكان، ويتْبَعُه جعلُ الممكن الذي تَجُوز إرادتُه بمنزلة الواقع، وكذا جعلُ الأمر في: ضيِّقْ فمَ الرَّكِيَّةِ مثلاً، بإنشائه على الحالِ الثانية بمنزلةِ أمره بنقله[1] عن غيرها، ولذا جعله بعضُ الأجلَّة بمنزلةِ الاستعارة بالكناية، فيكون مجازاً مرسلاً مستتبِعاً للاستعارة بالكناية، فالمرادُ بالإماتة هناك الصرفُ لا النقل.

وذكر بعضُهم أنَّه لا بدَّ من القول بعموم المجاز لئلا يلزم الجمعُ بين الحقيقة والمجاز في الآية، أو استعمالُ المشتَرَك في معنيَيْه بناءً على زعمِ أنَّ الصيغةَ مشتَركةٌ بين الصرف والنقل، ومَن أجاز ما ذُكر لم يحتَجْ للقول بذلك.

وفي «الكشف»: آثَرَ جارُ الله أنَّ إحدى الإماتتَيْن ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، وإطلاقُها عليه من باب المجاز، وهو مجازٌ مستعمَلٌ في القرآن، وقد ذَكر وجْهَ التجوُّز، وتحقيقُ ذلك يبتَني على حرفٍ واحدٍ، وهو أنَّ الإحياءَ معناه جعلُ الشيء حيًّا، فالمادَّةُ الترابيةُ أو النُّطْفيَّةُ إذا أُفيضت عليها الحياةُ صَدَق أنها صارتْ ذاتَ حياةٍ على الحقيقة؛ إذ لا يحتاجُ إلى

(١) وقع في الأصل: ينقله، بصيغة المضارع، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٣٦٢، والكلام منه.

سبْق موتٍ على الحقيقة، بل إلى سبق عدمِ الحياة، فهناك إحياءٌ حقيقةً، وأما الإماتةُ فإن جُعل بين الموت والحياة التقابلُ المشهوريُّ استدعَى المسبوقيةَ بالحياة، فلا تصحُّ الإماتةُ قبلَها حقيقةً، وإن جُعل التقابلُ الحقيقيُّ صحَّت، لكنَّ الظاهرَ في الاستعمال بحسب عرفَي العربِ والعجم أنه مشهوريٌّ. انتهى.

وأراد بالمشهوريِّ والحقيقيِّ ما ذَكَروه في التقابل بالعدم والمَلَكَة، فإنَّهم قالوا: المتقابلان بالعدم والمَلَكَة وهما أمران يكون أحدُهما وجوديًّا والآخرُ عدمَ ذلك الوجوديِّ في موضوعٍ قابلٍ له إن اعتُبِر قبولُه بحسب شخْصِه في وقتِ اتصافه بالأمر العدميِّ فهو العدمُ والمَلَكَةُ المشهوران، كالكَوسجيَّة فإنَّها عدمُ اللحية عمَّا مِن شأنِه في ذلك الوقت أن يكون ملتحياً، فإنَّ الصبيَّ لا يقال له: كَوسج، وإن اعتُبر قبولُه أعمَّ من ذلك بأن لا يقيّد بذلك الوقت كعدم اللحية عن الطفل، أو يُعتبرَ قبولُه بحسب نوعِه كالعَمَى للأكمهِ، أو جنسِه القريب كالعَمَى للعقرب، أو البعيدِ كعدم الحركة الإرادية عن الجبل، فإنَّ جنسَه البعيد ـ أعني الجسمَ الذي هو فوقَ الجماد ـ قابلٌ للحركة الإرادية فهو العدمُ والمَلَكَة الحقيقيَّان، لكن في بناءِ اقتضاء المسبوقية بالحياة وعدمه على ذلك خفاءٌ وإن ضُمَّ إليه التعبيرُ بصيغة الماضي كما لا يخفى على المتدبِّر.

ثم وجهُ تسبُّبِ الإماتة مرَّتين والإحياء كذلك لقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ أنَّهم قد أنكروا البعثَ فكفروا، وتَبِع ذلك من الذنوب ما لا يُحْصى؛ لأنَّ مَن لم يخشَ العاقبةَ تخرَّقَ في المعاصي، فلمَّا رأوا الإماتةَ والإحياءَ قد تكرَّر عليهم علموا بأن الله تعالى قادرٌ على الإعادة قدرتَه على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تَبِعه من معاصيهم.

وقال السديُّ: أرادوا بالإماتة الأولى إماتتَهم عند انقضاء آجالهم، وبالإحياءةِ الأولى إحياءتَهم في القبر للسؤال، وبالإماتةِ الثانية إماتتَهم بعدَ هذه الإحياءة إلى قيام الساعة، وبالإحياءة الثانية إحياءتَهم للبعث[1].

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٩٢.

واعتُرض عليه بأنه يلزم هذا القائلَ ثلاثُ إحياءاتٍ، فكان ينبغي أن يكون المُنزلُ: أحييتَنا ثلاثاً، فإن ادُّعِيَ عدمُ الاعتداد بالإحياءةِ المعروفة وهي التي كانت في الدنيا؛ لسرعة انصرامِها وانقطاعِ آثارها وأحكامِها، لزِمَه أن لا يعتَدَّ بالإماتة بعدَها.

وقال بعضُ المحققِّين في الانتصار له: إن مرادَ الكفَّار مِن هذا القول اعترافُهم بما كانوا يُنكرُونه في الدنيا ويكذبون الأنبياءَ حين كانوا يدعُونهم إلى الإيمان بالله تعالى واليومِ الآخر؛ لأنَّ قولَهم هذا كالجواب عن النداء في قوله تعالى: ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾، كأنَّهم أجابوا: إنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دعَوْنا، وكنَّا نعتقِد أن لا حياةَ بعد الموت، فالآنَ نعترفُ بالموتين والحياتين لِما قاسَيْنا من شدائدِهما وأحوالهما. فالذنبُ المعتَرَفُ به تكذيبُ البعث، ولهذا جُعل مرتَّباً على القول، وإنما ذَكروا الإماتَتَيْن ليذكروا الإحياءَيْن، إذ كلتا الحياتين كانتا منكَرَتين عندهم دون الحياة المعروفة، ومقامُ هذه الآية غيرُ مقام قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فإنَّ هذه كما سمعتَ لبيان الإقرار والاعترافِ منهم في الآخرة بما أنكروه في الدنيا، وتلك لبيانِ الامتنان الذي يستدعي شكرَ المنعم، أو لبيانِ الدلائل لتصرُّفهم عن الكفر. ويرجِّح هذا القولَ أنَّ أمرَ إطلاقِ الإماتة على كلتا الإماتتين ظاهرٌ.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّه لا قرينةَ في اللفظ تدلُّ على خروج الإحياء الأوَّلِ، مع أنَّ الإطلاقَ عليه أظهرُ، والمقابلةُ تُنادِي على دخوله. ويكفي في الاعترافِ إثباتُ إحياءٍ واحدٍ منهما غير الأول.

وقيل: إنما قالوا: «أحييتنا اثنتين» لأنَّهما نوعان: إحياءُ البعث وإحياءٌ قبلَه، ثم إحياء البعث قسمان: إحياءٌ في القبر وإحياءٌ عند القيام، ولم يُذكر تقسيمُه لأنَّهم كانوا منكِرين لقسمَيه.

وتعقِّب بأنَّ ذكرَ الإماتةِ الثانية التي في القبر دليلٌ على أنَّ التقسيمَ ملحوظٌ، والمرادُ التعدُّدُ الشخصيُّ لا النوعيُّ، نعم هذا يصلُح تأييداً لِمَا اختارَه جارُ الله، وروي عن جمعٍ من السلف، مِن أنَّ الإحياءات وإن كانت ثلاثاً إنما سكت عن

الثانية؛ لأنَّها داخلةٌ في إحياءةِ البعث. قاله صاحبُ «الكشف»، ثم قال: وعلى هذا فالإماتةُ على مختارِ جار الله إماتةٌ قبلَ الحياة وإماتةٌ بعدَها، وطُوِيت إماتةُ القبر كما طُوِيت إحياءتُه، ولكَ أن تقول: إنَّ الإماتةَ نوعٌ واحدٌ بخلافِ الإحياء، فرُوعيَ التعدُّد فيها شخصاً بخلافه، وذكر الإماتة الثانية لأنَّها منكَرة عندهم كالحياتين ويجب الاعترافُ بها، لا للدلالة على أنَّ التعدُّدَ في الإحياء شخصيٌّ، والحقُّ أنَّ ذلك وجهٌ، لكنَّ قولَه تعالى: «اثنتين» ظاهرٌ في المرَّة، فلذا آثر مَن آثر الوجهَ الأول - وإن كانت الإماتةُ فيه غيرَ ظاهرةٍ - ذهاباً إلى أنَّ ذلك مجازٌ مستعمَل في القرآن، فتأمَّل.

وقال الإمام: إنَّ أكثرَ العلماء احتجُّوا بهذه الآية في إثبات عذاب القبر، وذلك أنَّهم أثبتوا لأنفسِهم موتتَيْن، فإحدى الموتتَيْن مشاهَدٌ في الدنيا، فلا بدَّ من إثبات حياةٍ أُخرى في القبر حتى يصيرَ الموتُ الذي عقيبَها موتاً ثانياً، وذلك يدلُّ على حصول حياةٍ في القبر[1]. وأطال الكلامَ في تحقيق ذلك والانتصارِ له، والمنصِف يرى أنَّ عذاب القبر ثابتٌ بالأحاديث الصحيحة دونَ هذه الآية لقيام الوجه المرويِّ عمَّن سمعتَ أولاً فيها، وقد قيل: إنه الوجه، لكنِّي أظنُّ أنَّ اختيارَ الزمخشريِّ له لدسيسةٍ اعتزالية.

وقال ابنُ زيد في الآية: أريد إحياؤُهم نَسَماً عند أخذ العهدِ عليهم من صُلْب آدم، ثم إماتتُهم بعدُ، ثم إحياؤُهم في الدنيا، ثم إماتتُهم، ثم إحياؤُهم[2].

وهذا صريحٌ في أنَّ الإحياءاتِ ثلاثٌ، وقد أطلَقَ فيه الإحياءَ الثالثَ، والأغلبُ على الظنِّ أنه عنَى به إحياءَ البعث.

وقيل: التثنيةُ في كلامهم مثلُها في قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] مرادٌ بها التكريرُ والتكثير، فكأنهم قالوا: أمتَّنا مرةً بعد مرة، وأحييتَنا مرةً بعد مرة، فعلِمْنا عظيمَ قُدرتك، وأنَّه لا يتعاصاها الإعادةُ كما لا يتعاصاها غيرُها، فاعترفْنا

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٣٩.
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٤٦.

بذنوبنا التي اقترفناها من إنكار ذلك، وحينئذٍ فلا عليك أن تعتبرَ الموتَ في صلب آدم، ثم الإحياءَ لأخذِ العهد، ثم الإماتةَ، ثم الإحياءَ بنفخ الروح في الأرحام، ثم الإماتةَ عند انقضاء الأجل في الدنيا، ثم الإحياءَ في القبر للسؤال أو لغيره، ثم الإماتةَ فيه، ثم الإحياءَ للبعث.

ولا يخفى أنَّه على ما فيه إنَّما يتمُّ لو كان المقول: أمتَّنا إماتتين أو كرَّتين، وأحييتَنا إحياءتَين أو كرَّتين، مثلاً، دونَ ما في المنزَّل، فإنَّ «اثنتين» فيه وصفٌ لإماتتين ولإحياءتين، وهو دافعٌ لاحتمال إرادةِ التكثير كما قيل في ﴿إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [النحل: ٥١]، وبناءُ الأمر على أنَّ العددَ لا مفهومَ له لا يخلو عن بحث.

ومن غرائب ما قيل في ذلك ما روي عن محمد بن كعب: إنَّ الكافرَ في الدنيا حيُّ الجسد ميِّتُ القلب فاعتُبرت الحالتان، فهناك إماتةٌ وإحياءٌ للقلب والجسدِ في الدنيا، ثم إماتتُهم عند انقضاء الآجال، ثم إحياؤُهم للبعث. ومثلُ هذا يُحكى ليُطَّلعَ على حاله.

﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ﴾ أي: إلى نوعِ خروجٍ من النار، أي: فهل إلى خروجٍ سريعٍ أو بطيءٍ، أو من مكانٍ منها إلى آخر، أو إلى الدنيا، أو غيرها، ﴿مِّن سَبِيلٖ ۝١١﴾ طريقٍ من الطرُق فنسلكَه. ومثلُ هذا التركيب يستعمَل عند اليأس، وليس المقصودُ به الاستفهامَ، وإنَّما قالوه من فرط قنوطهم تعلُّلاً أو تحيُّراً، ولذلك أُجيبوا بذكرِ ما أوقَعَهم في الهلاك وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾ إلخ، من غير جوابٍ عن الخروج نفياً أو إثباتاً. ولو[1] كان الاستفهامُ على ظاهره، والمراد طلبُ الخروج نظيرَ: ﴿أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧] ونحوِه = لقيل: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] أو نحو ذلك. كذا قيل.

وجوِّز أن يكونوا طلبوا الرجعةَ ليعمَلوا بموجَب ذلك الاعتراف لكن مع استبعادٍ لها واستشعارِ يأسٍ منها، والجوابُ إقناطٌ لهم ببيانِ أنَّهم كانُوا مستمرِّينَ على

---

(١) في الأصل و(م): وإن، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٣٦٣، وهو الجادة؛ لكون جوابه جاء مقترناً باللام.

الشركِ فجُوِّزوا باستمرار العقاب والخلود في النار كما يقتضيه حكمُه تعالى، وذلك جوابٌ بنفي السبيل إلى الخروج على أبلغ وجهٍ.

ولا أرى في هذا الوجه بأساً، ويوشك أن يكون المتبادرَ، والمعنى: ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ أي: بسببِ أنَّ الشأنَ ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: عُبِد سبحانه في الدنيا ﴿وَحْدَهُۥ﴾ أي: متَّحِداً منفرداً، فهو نصبٌ على الحالِ مؤوَّل بمشتقٍّ منكَّر، أو: يوحَّدُ وحدَه؛ على أنه مفعولٌ مطلَقٌ لفعل مقدَّرٍ على حدِّ: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] والجملة بتمامها حالٌ أيضاً، حُذفت وأقيم المصدرُ مقامَها، وفيه كلامٌ آخر(١) مفصَّلٌ في الوفدة وقد تقدَّم بعضُه. ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده تعالى، أي: جحدتم وأنكرتم ذلك.

﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ بالإشراك، أي: تذعِنُوا وَتقرُّوا به، وفي إيراد «إذا» وصيغةِ الماضي في الشرطية الأولى؛ و«إن» وصيغةِ المضارع في الثانية، ما لا يخفى من الدلالة على سوء حالهم، وحيث كان كذلك ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ الذي لا يحكمُ إلَّا بالحقِّ، ولا يقضي إلَّا بما تقتضيه الحكمةُ. ﴿ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ المتصفِ بغاية العلوِّ ونهاية الكبرياء، فليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله، ولذا اشتدَّت سطوتُه بمن أشرك به، واقتضت حكمتُه خلودَه في النار، فلا سبيلَ لخروجكم منها أبداً إذ كنتم مشركين.

واستدلالُ الحَرورية بهذه الآية على زعمهم الفاسدِ في غاية السقوط، ويكفي في الردِّ عليهم قولُه تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] الآية، وقولُه تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالَّةَ على شؤونه العظيمةِ، الموجبةَ لتفرُّده بالألوهية، لتستدلُّوا بها على ذلك وتعملوا بموجَبها، فإذا دُعي سبحانه وحدَه تؤمنوا، وإن يُشرَكْ به تكفُروا، وهذه الآياتُ ما يشاهَد من آثار قدرته عزَّ وجلَّ:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ   تدلُّ على أنَّه واحدُ(٢)

---

(١) كلمة «آخر» ليست في الأصل.
(٢) سلف ١/ ٢٧١.

﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد، وقرئ بالتخفيف من الإنزال[1]. ﴿لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أي: سببَ رزقٍ وهو المطرُ. وإفرادُه بالذكر مع كونه من جملةِ تلك الآيات؛ لتفرُّدِه بعنوانِ كونِه من آثار رحمته وجلائلِ نعمته الموجِبةِ للشكر.

وصيغةُ المضارع في الفعلين للدلالة على تجدُّد الإراءة والتنزيل واستمرارهما، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول لِما مرَّ غيرَ مرة.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات التي هي كالمركوزة في العقول لظهورها، المغفولِ عنها للانهماك في التقليد واتباع الهوى.

﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ يَرجع عن الإنكار بالإقبال عليها والتفكُّر فيها، فإنَّ الجازمَ بشيء لا ينظُر فيما ينافيه، فمن لا يُنيب بمعزلٍ عن التذكُّر.

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اعبدوه عزَّ وجلَّ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ إخلاصَكم وشقَّ عليهم.

وظاهرُ كلام «الكشاف» أنَّ «ادعوا» إلخ مسبَّب عن الإنابة، وأنَّ فيه التفاتاً حيث قال: ثم قال للمنيبين[2]. والأصل: فليدْعُ ذلك المنيبُ، على معنى: إن صحَّت الإنابة، على نحو: فقد جِئنا خراسانا[3]، وقد وافَقَ على كونه خطاباً لمن ذُكر غيرُ واحد.

وفي «الكشف»: التحقيقُ أنَّ قولَه تعالى: «وما يتذكر» إلخ اعتراضٌ، وقولُه سبحانه: «فادعوا الله» مسبَّبٌ عن قوله تعالى: «هو الذي يريكم» على أنَّه خطابٌ يعمُّ المؤمنَ والكافرَ لسبق ذكرهما، لا للكفَّارِ وحدَهم على نحو: «من مقتكم أنفسكم» إذ ليس مما نُودوا به يومَ القيامة، والمعنى: فادعوه، فوُضِع الظاهرُ موضعَ المضمَرِ ليتمكَّنَ فضلَ تمكُّنٍ، وليُشْعِرَ بأنَّ كونَه تعالى هو المعبودُ بحقٍّ، هو الذي يقتضي أن يُعبدَ وحدَه. وفائدةُ الاعتراض أنَّ هذه الآياتِ ودلالتَها على اختصاصه

---

(١) التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨، عن ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب.

(٢) الكشاف ٣/ ٤١٩.

(٣) قطعة من بيت للعباس بن أحنف، وسلف ٢/ ٢٧٠.

سبحانه وحدَه بالعبادة بالنسبة إلى مَنْ يُنيب لا المعانِدِ. وقولُه في «الكشاف»: ثم قال للمنيبين، إشارةٌ إلى أنَّ فائدةَ تقديم الاعتراض أنَّ الانتفاعَ بالآيات على هذا التقدير، فكأنَّه مسبَّبٌ عن الإنابة معنًى لَمَّا كان تسبُّبُ السابق للَّاحقِ الإنابة، فهذا هو الوجهُ، ولا يأباه تفسيرُ «ولو كره الكافرون» بقوله(١): وإن غاظ ذلك أعداءَكم، فإنَّه للتنبيهِ على أنَّ امتثالَ ذلك الأمرِ إنَّما يكونُ بعدَ إنابتهم، وكأنْ قد حصل ذلك وحصل التضادُّ بينهم وبين الكافرين. وهو تحقيقٌ حقيقٌ بالقبول، لكن في توجيه كلام «الكشاف» تكلُّفٌ ظاهرٌ.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ صفةٌ مشبَّهة أُضيفت إلى فاعلها من: رفُع الشيءُ، بالضمِّ: إذا علا. وجوِّز أن يكون صيغةَ مبالغةٍ من باب أسماء الفاعلين وأُضيف إلى المفعول، وفيه بعدٌ.

و«الدرجات»: مصاعدُ الملائكة عليهم السلام إلى أن يبلغوا العرشَ، أي: رفيعُ درجاتِ ملائكته ومعارجِهم إلى عرشه.

وفسَّرها ابن جبير بالسماوات، ولا بأسَ بذلك، فإنَّ الملائكة يعرُجون من سماءٍ إلى سماء حتى يبلغوا العرشَ، إلا أنه جَعَلَ «رفيعاً» اسمَ فاعلٍ مضافاً إلى المفعول، فقال: أي: رفع سماءً فوقَ سماءٍ والعرش فوقَهنَّ(٢)، وقد سمعتَ آنفاً أنَّ فيه بُعداً. ووصفُه عزَّ وجلَّ بذلك للدلالة ـ على سبيل الإدماج ـ على عزَّته سبحانه وملكوته جلَّ شأنه.

ويجوز أن يكونَ كنايةً عن رِفعةِ شأنِه وسلطانِه ـ عزَّ شأنُه وسلطانُه ـ كما أنَّ قولَه تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ كنايةٌ عن ملكِه جلَّ جلاله، ولا نظرَ في ذلك إلى أنَّ له سبحانه عرشاً أو لا، فالكنايةُ وإن لم تُنافِ إرادةَ الحقيقة لكن لا تَقتضي وجوبَ إرادتها، فقد وقد. وعن ابن زيد أنه قال: أي: عظيم الصفات(٣). وكأنه بيانٌ لحاصل المعنى الكنائيِّ.

---

(١) أي: قول الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤١٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٤١٩، والبحر المحيط ٧/ ٤٥٥.

(٣) البحر ٧/ ٤٥٥، ونسبه في النكت والعيون ٥/ ١٤٧ لابن زياد.

وقيل: هي درجاتُ ثوابه التي ينزِّلها أولياءَه تعالى يوم القيامة. وروي ذلك عن ابن عباس وابن سلَّام[١]، وهذا أنسبُ بقوله تعالى: (فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ)، والمعنى الأول أنسبُ بقوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ لتضمُّنه ذكرَ الملائكة عليهم السلام وهم المنزَّلون بالروح كما قال سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢].

وأيًّاما كان ف «رفيع الدرجات» و«ذو العرش» وجملةُ «يُلْقي» أخبارٌ ثلاثة قيل: ل «هو» السابقِ في قوله تعالى: (هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ) إلخ، واستبعَده أبو حيان[٢] بطول الفصل. وقيل: ل «هو» محذوفاً.

والجملةُ كالتعليل لتخصيصِ العبادة وإخلاص الدين له تعالى، وهي متضمِّنةٌ بيان إنزال الرزق الروحانيِّ بعد بيانِ إنزال الرزق الجسمانيِّ في «ينزل لكم من السماء رزقاً» فإن المرادَ بالروح على ما روي عن قتادة الوحيُ، وعلى ما روي عن ابن عباس القرآنُ، وذلك جارٍ من القلوب مجرى الروح من الأجساد، وفسَّره الضحَّاك بجبريل عليه السلام، وهو عليه السلام حياةُ القلوب باعتبارِ ما يَنزِل به من العلم[٣].

وجوَّز ابنُ عطية أن يرادَ به كلُّ ما يُنعم الله تعالى به على عباده المهتدين في تفهيم الإيمان والمعقولات الشريفة[٤]، وهو كما ترى.

وقوله تعالى: «من أمره» قيل: بيانٌ للروح، وفسِّر بما يتناول الأمر والنهْيَ، وأُوثِر على لفظ الوحي للإشارة إلى أنَّ اختصاصَ حياة القلوب بالوحي من جهتَي التخلِّي والتحلِّي الحاصلَين بالامتثال والانتهاء.

وعن ابن عباسٍ تفسيرُ الأمر بالقضاء[٥]، فجُعلت «من» ابتدائيةً متعلِّقةً بمحذوفٍ

---

(١) هو يحيى بن سلَّام كما في تفسير القرطبي ١٨/ ٣٣٨، والنكت والعيون ٥/ ١٤٧.
(٢) في البحر ٧/ ٤٥٤.
(٣) النكت والعيون ٥/ ١٤٧-١٤٨، وزاد المسير ٧/ ٢١٠، والبحر ٧/ ٤٥٥.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٠.
(٥) الوسيط ٤/ ٧.

وقع حالاً من «الروح»، أي: ناشئاً من أمره، أو صفةً له على رأي مَن يجوِّزُ حذف الموصول مع بعض صلته، أي: الكائنِ من أمره.

وفسَّره بعضُهم بالمَلَك، وجَعل «من» ابتدائيةً متعلِّقةً بمحذوفٍ وقع حالاً، أو صفةً على ما ذُكر آنفاً، وكونُ الملك مبدأً للوحي لتلقِّيه عنه، ومن فسَّر الروحَ بجبريل عليه الصلاة والسلام قال: «من» سببيَّةٌ متعلِّقةٌ بـ «يُلقي»، والمعنى: ينزِّل الروحَ من أجلِ تبليغِ أمره.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ وهو الذي اصطفاه سبحانه لرسالته وتبليغ أحكامه إليهم، والاستمرارُ التجدُّديُّ المفهومُ من «يُلقي» ظاهرٌ، فإنَّ الإلقاءَ لم يَزل من لدُنْ آدم عليه السلام إلى انتهاء زمانِ نبيِّنا ﷺ، وهو في حكم المتَّصل إلى قيام الساعة بإقامة مَن يقوم بالدعوة على ما رَوى أبو داود عن أبي هريرة عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مئةِ سنةٍ مَن يجدِّدُ لها دينَها»(١)، أي: بإحياءِ ما اندَرس من العمل بالكتاب والسنة والأمرِ بمقتضاهما، وأمرُ ذلك التجدُّدِ على ما جوَّزه ابن عطية(٢) لا يحتاج إلى ما ذكر.

وقرئ: «رفيعَ» بالنصب على المدح(٣).

﴿لِيُنذِرَ﴾ علَّةٌ للإلقاء، وضميرُه المستتر لله تعالى، أو لـ «مَن» وهو الملقَى إليه، أو لـ «الروح»، أو للأمر، وعودُه على الملقَى إليه وهو الرسولُ أقربُ لفظاً ومعنًى؛ لقُربِ المرجع وقوَّة الإسناد، فإنَّه الذي يُنذِر الناسَ حقيقةً بلا واسِطةٍ، واستظهر أبو حيان رجوعَه إليه تعالى لأنَّه سبحانه المحدَّثُ عنه(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ مفعولٌ لـ «ينذر»، أو ظرفٌ والمنذَر به محذوفٌ، أي: لينذِرَ العذابَ ـ أو نحوه ـ يومَ التلاق.

---

(١) سنن أبي داود (٤٢٩١)، وهو في مستدرك الحاكم ٤/ ٥٢٢.
(٢) يريد به تفسير ابن عطية للروح، وقد مرّ قريباً.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢، والبحر ٧/ ٤٥٤.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٥٥.

وقولُه سبحانه: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ بدلٌ من «يوم التلاق»، و«هم» مبتدأٌ و«بارزون» خبرٌ، والجملةُ في محلِّ جرٍّ بإضافةِ «يوم» إليها، قيل: وهذا تخريجٌ على مذهب أبي الحسن من جوازِ إضافةِ الظرف المستقبل كـ «إذا» إلى الجملة الاسمية نحو: أجيئك إذا زيدٌ ذاهب. وسيبويه لا يجوِّز ذلك ويوجِبُ تقديرَ فعلٍ بعدَ الظرف يكون الاسمُ مرتفعاً به.

وجوِّز أن يكون «يوم» ظرفاً لقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ﴾ والظاهرُ البدليةُ، وهذه الجملةُ استئنافٌ لبيانِ بروزهم، وتقريرٌ له وإزاحةٌ لِمَا كان يتوهَّمه بعضُ المتوهِّمين في الدنيا من الاستتار توهُّماً باطلاً.

وجوِّز أن تكونَ خبراً ثانياً لـ «هم». وقيل: هي حالٌ من ضمير «بارزون».

و«يوم التلاق» يومُ القيامة، سمِّي بذلك؛ قال ابن عباس: لالتقاءِ الخلائق فيه. وقال مقاتل: لالتقاء الخالق والمخلوق فيه. وحكاه الطبرسيُّ عن ابن عباس(١). وقال السديُّ: لالتقاء أهل السماء وأهل الأرض. وقال ميمون بن مهران: لالتقاء الظالم والمظلوم. وحكى الثعلبيُّ أنَّ ذلك لالتقاءِ كلِّ امرئٍ وعملِه(٢).

واختار بعضُ الأجلَّةِ ما قال مقاتل وقال: هو أَولى الوجوه؛ لِما فيه مِن حمل المطلَق على ما ورد في كثيرٍ من المواضع نحو: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [يونس: ٧]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال صاحب «الكشف»: القولُ الأول ـ وهو ما نُقِل عن ابن عبَّاس أوَّلاً ـ أشبهُ؛ لجَرَيان الكلامِ فيه على الحقيقة، ونفي ما يُتوهَّم من المساواة بين الخالق والمخلوق، واستقلالِ كلٍّ من البدلَين بفائدةٍ في التهويل لِما في الأول مِن تصويرِ

---

(١) مجمع البيان ٥/ ١٨٧.

(٢) تفسير الثعلبي ٨/ ٢٧٠، وتنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٢٩٦-٢٩٧، وتفسير البغوي ٤/ ٩٤، وزاد المسير ٧/ ٣١١، والبحر ٧/ ٤٥٥.

تلاقي الخلائق على اختلاف أنواعها، وفي الثاني من البروز لمالكِ أمرِها بروزاً لا يبقى لأحدٍ فيه شبهةٌ، وأمَّا نحوُ قوله تعالى: ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠] فمسوقٌ بمعنًى آخر.

و«بارزون» مِن بَرَزَ، وأصلُه: حصل في بَراز، أي: فضاء، والمراد: ظاهرون لا يستُرهم شيءٌ من جبلٍ أو أَكَمَةٍ أو بناءٍ، لأنَّ الأرضَ يومئذٍ قاعٌ صفْصَفٌ، وليس عليهم ثيابٌ، إنما هم عراةٌ مكشوفون كما جاء في الصحيحين عن ابن عباس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنكم ملاقو اللهِ حُفاةً عراةً غُرلاً»[(١)].

وقيل: المرادُ: خارجون من قبورهم، أو ظاهرةٌ أعمالُهم وسرائرُهم.

وقيل: ظاهرةٌ نفوسُهم لا تُحجَب بغواشِي الأبدان مع تعلُّقِها بها. ولا يقبلُ هذا بدون ثبتٍ من المعصوم.

والمراد بقوله تعالى: «منهم» على ما قيل: من أحوالهم وأعمالهم. وقيل: من أعيانهم. واختِيرَ التعميمُ، أي: لا يخفى عليه عزَّ شأنُه شيءٌ مّا من أعيانِهم وأعمالِهم وأحوالِهم الجليةِ والخفيةِ، السابقةِ واللاحقةِ.

وقرأ أُبيٌّ: «ليُنْذِرَ يومُ» ببناءِ «يُنْذِرَ» للفاعل ورفع «يوم» على الفاعلية مجازاً[(٢)].

وقرأ اليماني فيما ذكر صاحبُ «اللوامح»: «ليُنْذَرَ» مبنياً للمفعول «يومُ» بالرفع على النيابة عن الفاعل[(٣)].

وقرأ الحسن واليماني فيما ذكر ابن خالويه: «لتُنذِرَ» بالتاء الفوقية[(٤)]، فقيل: الفاعلُ فيه ضميرُ الخطاب للرسول ﷺ. وقيل: ضميرُ الرُّوح لأنها تؤنَّث.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ حكايةٌ لِما يُسأَلُ عنه في ذلك اليوم ولِما يُجاب به بتقدير قولٍ معطوفٍ على ما قبله من الجملة المنفية

(١) صحيح البخاري (٦٥٢٤)، وصحيح مسلم (٢٨٦٠)، وهو في مسند أحمد (١٩١٣).
(٢) البحر ٧/ ٤٥٥.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥١، ونقله المصنف من البحر ٧/ ٤٥٥.
(٤) القراءات الشاذة ص١٣٢، وهي قراءة روح وزيد عن يعقوب كما في مجمع البيان ٥/ ١٨٥.

المستأنَفة، أو مستأنَفٍ يقع جواباً عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ بروزهم وظهورِ أحوالهم، كأنه قيل: فما يكون حينئذٍ؟ فقيل: يقال: «لمن الملك» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: مِن النفوس البَرَّةِ والفاجرة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: من خيرٍ أو شرٍّ ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بنقص الثواب وزيادةِ العقاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٧﴾ أي: سريعٌ حسابُه؛ إذ لا يشغله سبحانه شأنٌ عن شأنٍ، فيصل إلى المحاسَب من النفوس ما يستحقُّه سريعاً؛ روي عن ابن عباس أنه تعالى إذا أخذ في حسابهم لم يقل: أهلُ الجنة، إلا فيها، ولا: أهلُ النار، إلَّا فيها = من تتمَّةِ[1] الجواب جيء به لبيانِ إجمالٍ فيه، والتذييلُ لتعليلِ ما قبلَه[2].

والمنادِي بذلك سؤالاً وجواباً واحدٌ؛ أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال: يجمعُ الله تعالى الخلقَ يوم القيامة بصعيدٍ واحدٍ بأرضٍ بيضاء كأنها سبيكة فضَّةٍ لم يُعص اللهُ تعالى فيها قطُّ ولم يُخطأ فيها، فأوَّلُ ما يتكلَّمُ أن ينادِي منادٍ: (لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ * ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ)، فأولُ ما يبدؤون به من الخصومات الدماءُ... الحديث[3].

وهو عند الحسن: اللهُ نفسُه عزَّ وجلَّ، وقيل: مَلَكٌ.

وقيل: السائلُ هو الله تعالى أو ملكٌ، والمجيبُ الناس.

وذكر الطيبيُّ تقريراً لعبارة «الكشاف»[4] أنَّ قوله تعالى: «اليوم تجزى» إلخ تعليلٌ، فيجب أن يكونَ السائلُ والمجيبُ هو الله عزَّ وجلَّ، فإنَّه سبحانه لَمَّا سأل «لمن الملك اليوم» وأجاب هو سبحانه بنفسه «لله الواحد القهار» كان المقامُ موقعَ السؤال وطلبِ التعليل فأُوقع «اليوم تجزى» جواباً عنه، يعني إنَّما اختَصَّ المُلْكَ به

---

(١) قوله: من تتمة...، هو خبرٌ لقوله: وقوله تعالى... إلخ.
(٢) يعني جملة «إن الله سريع الحساب» تعليل لجملة «اليوم تجزى» إلخ؛ فإن كون ذلك اليوم بعينه يوم التلاقي ويوم البروز ربما يوهم استبعاد وقوع الكل فيه. تفسير أبي السعود ٧/ ٢٧١.
(٣) الدر المنثور ٥/ ٣٤٨، وهو في الزهد لابن المبارك (٣٨٨ - زوائد نعيم بن حماد).
(٤) ينظر الكشاف ٣/ ٤٢٠.

تعالى لأنه وحدَه يقدِر على مجازاة كلِّ نفسٍ بما كسبت، وله العدلُ التامُّ فلا يظلم أحداً، وله التصرُّفُ فلا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ فيُسرِع الحسابَ. ولو أُوقع «لله الواحد القهار» جواباً عن أهل المحشر لم يحسُنْ هذا الاستئنافُ. انتهى، وفيه ما فيه.

والحقُّ أنَّ قولَه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ﴾ إلخ إن كان من كلامِ المجيبِ كما هو ظاهرُ حديث ابن مسعود بَعُدَ أن يكونَ من الناس.

وجوِّز فيه أن لا يكونَ من تتمَّة الجواب بل هو حكايةٌ لِما سيقوله تعالى في ذلك اليوم عقيبَ السؤال والجواب.

وأيَّاما كان فتخصيصُ المُلكِ به تعالى في ذلك اليوم إنما هو بالنظر إلى ظاهرِ الحال من زوالِ الأسباب وارتفاعِ الوسائط وظهورِ ذلك للكَفَرَة والجَهَلة، وأمَّا حقيقةُ الحال فناطقةٌ بذلك دائماً.

وذهب محمدُ بن كعب القرظيُّ إلى أنَّ السؤالَ والجواب منه تعالى، ويكونان بين النفختَيْن حينَ يُفْني عزَّ وجلَّ الخلائقَ[(١)].

وروي نحوه عن ابن عباس؛ أخرج عبد الله بن أحمد[(٢)] في زوائد «الزهد»، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، وأبو نعيم في «الحلية» عنه رضي الله عنه قال: ينادي منادٍ بين يدَي الساعة: يا أيها الناسُ، أتتكم الساعةُ، فيسمَعُها الأحياءُ والأمواتُ، وينزِل الله سبحانه إلى السماء الدنيا فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[(٣)].

والسياق ظاهرٌ في أنَّ ذلك يوم القيامة، فلعلَّه على تقدير صحَّةِ الحديث يكون مرَّتَين.

ومعنى جزاءِ النفوس بما كسبت أنَّها تُجزى خيراً إن كسبت خيراً، وشرًّا إن كسبَتْ شرًّا.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٤٨.

(٢) تصحف في الأصل و(م) ومطبوع الدر المنثور ٥/ ٣٤٨ (والكلام منه) إلى: عبد بن حميد.

(٣) السنة لعبد الله بن أحمد ص٤٢، وتفسير ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٧/ ١٣٦، والمستدرك ٢/ ٤٣٧، والحلية ١/ ٣٢٤.

وقيل: إنَّ النفوسَ تكتسب بالعقائد والأعمالِ هيئاتٍ تُوجب لذَّتها وألمها لكنَّها لا تَشعُر بها في الدنيا، فإذا قامت قيامتُها وزالت العوائقُ أدركت ألَمَها ولذَّتَها. والظاهرُ أنَّ هذا قولٌ باللذَّة والألم الروحانيَّيْنِ، ونحن لا نُنْكِر حصولَهما يومئذٍ لكن نقول: إنَّ الجزاءَ لا ينحصر بهما، بل يكونُ أيضاً بلذَّةٍ وألمٍ جسمانيَّيْنِ. فالاقتصارُ في تفسير الآية على ذلك قصورٌ.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ يومَ القيامة، كما قال مجاهد وقتادة وابن زيد[1]. ومعنى «الآزفة»: القريبةُ، يقال: أزِف الشخوصُ: إذا قرُب وضاق وقتُه، فهي في الأصل اسمُ فاعل، ثم نُقلت منه وجُعلت اسماً للقيامة؛ لقُربها بالإضافة لِمَا مضى من مدَّة الدنيا، أو لِمَا بقي، فإنَّ كلَّ آتٍ قريبٌ.

ويجوز أن تكونَ باقيةً على الأصل، فتكونُ صفةً لمحذوفٍ، أي: الساعة الآزفة، وقدَّر بعضُهم الموصوفةَ: الخُطَّة، بضمِّ الخاء المعجمةِ وتشديد الطاء المهملة، وهي القصَّة والأمرُ العظيمُ الذي يستحقُّ أن يُخَطَّ ويُكتب لغرابته، ويراد بذلك ما يقع يومَ القيامة من الأمور الصعبة، وقربُها لأنَّ كلَّ آتٍ قريبٌ.

والمراد باليوم الوقتُ مطلقاً، أو هو يومُ القيامة، وقال أبو مسلم: «يوم الآزفة» يومُ المَنِيَّة وحضورِ الأجل[2]. ورجِّح بأنَّه أبعدُ عن التكرار وأنسبُ بما بعده، ووصفُ القرب فيه أظهر.

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ بدلٌ مِن «يوم الآزفة»، و«الحناجر» جمعُ: حَنْجَرةٍ أو حَنجُورٍ كحُلقوم لفظاً ومعنًى؛ وهي كما قال الراغب: رأس الغَلْصَمَة من خارجٍ[3]، وهي لحمةٌ بين الرأس والعنق، والكلامُ كنايةٌ عن شدّةِ الخوف أو فرْطِ التألُّم.

وجوِّز أن يكونَ على حقيقته، وتبلغ قلوبُ الكفَّار حناجرَهم يوم القيامة، ولا يموتون كما لو كان ذلك في الدنيا.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٠٠-٣٠١.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٥٦.

(٣) المفردات (حنجر).

﴿كَظِمِينَۚ﴾ حالٌ من أصحاب القلوب على المعنى، فإنَّ ذكرَ القلوب يدلُّ على ذكرِ أصحابها، فهو من بابِ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣] فكأنه قيل: إذ قلوبُهم لدى الحناجر كاظمين عليها، وهو من كظَم القِرْبَةَ: إذا ملأها وسدَّ فاها، فالمعنى: مُمْسِكين أنفسَهم على قلوبهم لئلا تخرجَ مع النَّفَس، فإنَّ كاظمَ القِربةِ كاظمٌ على الماءِ مُمْسِكُها عليه لئلا يخرجَ امتلاءً، وفيه مبالغةٌ عظيمةٌ.

وجوَّز كونُه حالاً من ضميرِ «القلوب» المستترِ في الخبر، أعني: «لدى الحناجر»، وعلى رأي من يجوِّز مجيءَ الحال من المبتدأ كونُه حالاً من «القلوب» نفسِها. وجُمِع جمْعَ العقلاء؛ لتنزيلِها منزلتَهم لوصفِها بصفتِهم كما في قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] والمعنى: حالَ كون القلوب كاظمةً على الغمِّ والكرب، ومنه يُعلم أنه لا يجوز أن يكونَ «لدى الحناجر» ظرفَ «كاظمين» لفساد المعنى، والحاجةِ إلى تقديرِ محذوفٍ مع الغنَى عنه، وكذلك على قراءة «كاظمون»[(١)] للأول فقط، فيتعيَّنُ كونُ «لدى الحناجر» خبراً، و«كاظمون» خبراً آخرَ، وبذلك يترجَّحُ كونُ الحال من القلوب. وقدَّر الكواشي: هم كاظمون، ليوافقَ وجهَ الحالية من الأصحاب.

وجوِّز كونُه حالاً من مفعول: «أنذرهم»، أي: أنذرهم مقدَّراً كظمُهم، أو مشارفين الكظمَ.

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: قريبٍ مشفقٍ، مِن احتمَّ فلانٌ لفلانٍ: احتدَّ، فكأنَّه الذي يحتدُّ حمايةً لذويه، ويقال لخاصَّةِ الرجل: حامَّتُه، ومن هنا فسِّر الحميمُ بالصديق.

﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ أي: ولا شفيع يُشفَّع، فالجملةُ في محلِّ جرٍّ أو رفعٍ صفة «شفيع»، والمرادُ نفْيُ الصفة والموصوفِ، لا الصفةِ فقط، ليدلَّ على أنَّ ثَمَّ شفيعاً لكن لا يُطاع، فالكلامُ من بابِ:

ولا ترى الضبَّ بها ينجحر[(٢)]

(١) البحر ٧/ ٤٥٦.
(٢) وصدره: لا تُفْزِعُ الأرنبَ أهوالها، وسلف ٣/ ٢٣٧.

ولم يقتصرْ على نفع الشفيع بل ضمَّ إليه ما ضمَّ ليُقامَ انتفاءُ الموصوف مقامَ الشاهد على انتفاء الصفة فيكون ذلك الضمُّ إزالةً لتوهُّمِ وجودِ الموصوف حيثُ جُعل انتفاؤُه أمراً مسلَّماً مشهوراً لا نزاعَ فيه لأنَّ الدليلَ ينبغي أن يكونَ أوضحَ من المدلول، وهذا كما تقول لمن عاتبك على القعود عن الغزو: ما لي فرسٌ أركَبه، وما معي سلاحٌ أحارب به، فليُفْهَم.

والضمائرُ المذكورةُ من قوله تعالى: «وأنذرهم» إلى هنا إن كانت للكفَّار كما هو الظاهرُ فوَضعُ «الظالمين» موضعَ ضميرهم للتسجيلِ عليهم بالظلم وتعليلِ الحكم، وإن كانت عامةً لهم ولغيرهم فليس هذا من باب وضع الظاهر موضعَ الضمير، وإنما هو بيانُ حكمٍ للظالمين بخصوصِهم، والمرادُ بهم الكاملون في الظلم، وهم الكافرون لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي: النظرةَ الخائنةَ، كالنظرة إلى غير المحرَم واستراقِ النظر إليه وغير ذلك، فـ «خائنة» صفةٌ لموصوفٍ مقدَّرٍ، وجَعل النظرةِ خائنةً إسنادٌ مجازيٌّ، أو استعارةٌ مصرِّحةٌ أو مكنيةٌ وتخييليةٌ بِجَعل النظر بمنزلة شيء يسرق من المنظور إليه، ولذا عبَّر فيه بالاستراق.

ويجوز أن يكونَ «خائنة» مصدراً كالكاذبة والعاقبة والعافية، أي: يَعلم سبحانه خيانةَ الأعين.

وقيل: هو وصفٌ مضافٌ إلى موصوفه كما في قوله:

وإن سَقيتِ كرامَ الناسِ فاسْقِينا[1]

أي: يَعلم سبحانه الأعينَ الخائنةَ. ولا يحسُن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِى

---

(١) الشطر وقع في بيتين أحدهما للمرقش الأكبر كما في شرح اختيارات المفضل ٢/ ١٠٧٠، والخزانة ٨/ ٣٠١ وتمامه:

يا ذات أجوارنا قولي فحيينا   وإن سقيتِ كرامَ الناس فاسقينا

وثانيهما لبعض بني قيس بن ثعلبة، وقيل: لبشامة بن حزْن النهشلي كما في شرح ديوان الحماسة ١/ ٥٠، والتذكرة السعدية ص٣٤، والخزانة ٨/ ٣٠٢، وتمامه:

إنا محيُّوك يا سلمى فحيينا   وإن سقيتِ كرامَ الناس فاسقينا

ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ أي: والذي تُخفيه الصدورُ من الضمائر، أو إخفاءَ الصدور لِما تُخفيه من ذلك؛ لأنَّ الملاءمةَ واجبةُ الرعاية في علم البيان، وملائِمُ الأعيُنِ الخائنةِ الصدورُ المُخْفيةُ. وما قيل في عدمِ حُسنِ ذلك من أنَّ مقامَ المبالغة يقتضي أن يُرادَ استراقُ العين ضُمَّ إليه هذه القرينة أوْ لا = فغيرُ قادحٍ في التعليل المذكور؛ إذ لا مانعَ من أن يكونَ على مطلوبٍ دلائلُ، ثم لولا القرينةُ لجاز أن تُجعلَ الأعينُ تمهيداً للوصف، فالقرينةُ هي المانِعة.

وهذه الجملةُ على ما في «الكشاف»(١) متصلةٌ بأول الكلام، خبرٌ من أخبارِ «هو» في قوله تعالى: «هو الذي يريكم» على معنى: هو الذي يريكم.. إلخ، وهو يعلم خائنةَ الأعين. ولم يجعله تعليلاً لنفي الشفاعة على معنى: ما لَهم من شفيعٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يعلم منهم الخيانةَ سرًّا وعلانيةً = قيل: لأنَّه لا يصلُح تعليلاً لنفيِها، بل لنفْي قبولها؛ فإنَّ الله تعالى هو العالِم لا الشفيع، والمقصودُ نفْيُ الشفاعة.

ووجهُ تقريرِ هذا الخبر في هذا الموضع ما فيه من التخلُّص إلى ذمِّ آلهتهم، مع أنَّ تقديمَه على «الذي يريكم» لا وجهَ له؛ لتعلُّقه بما قبله أشدَّ التعلُّق كما أُشيرَ إليه، وكذلك على «رفيع الدرجات» لاتصاله بالسابق، وأمر المنيبين بالإخلاص، ولِما فيه من النُّبْو من توسيط المنكَّر الفعليِّ بين المبتدأ وخبره المعرَّفِ الاسميِّ. وأما توسيطُه بين القرائنِ الثلاث فبَين العصا ولحائها، فلا موضعَ له أحقُّ من هذا، ولا يَضُرُّ البُعدُ اللفظيُّ في مثل ذلك كما لا يخفى.

وظنَّ بعضُهم ضررَه، فمنهم من قال: الجملةُ متصلةٌ بمجموعِ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ إلى آخره، وذلك أنه سبحانه لَمَّا أمر بإنذارِ ذلك اليومِ وما يُعرض فيه من شدَّةِ الكرب والغمِّ، وذَكَر تعالى أنَّ الظالمَ لا يجد مَن يحميه مِن ذلك ولا مَن يَشفَعُ له = ذَكَر جلَّ وعلا اطِّلاعَه على جميع ما يصدُر من العبد وأنَّه مُجازًى بما عمِل ليكون على حذَرٍ من ذلك اليوم إذا علِم أنَّ الله تعالى مطَّلعٌ على أعماله. وإلى هذا ذهب أبو حيان(٢).

(١) ٣/ ٤٢١.

(٢) في البحر ٧/ ٤٥٧.

وقال ابن عطية: هي متصلةٌ بقوله تعالى: (سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ)؛ لأنَّ سرعةَ حسابِه تعالى للخَلْق إنما هي لعلمِه تعالى الذي لا يحتاج معه إلى رويَّةٍ وفكرٍ، ولا لشيء مما يحتاجه المحاسِبون، وحَكى رحمه الله تعالى عن فرقةٍ أنها متصلةٌ بقوله تعالى: (لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ) ثم قال: وهذا قولٌ حَسَنٌ يقوِّيه تناسُبُ المعنيَيْنِ ويضعِّفُه البعدُ وكثرةُ الحائل[1].

وجعلها بعضٌ متصلةً بنفْي قبولِ الشفاعة الذي تضمَّنَه قولُه تعالى: (وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ) ـ فإنَّ «يطاع» المنفيَّ بمعنى: تُقبل شفاعتُه ـ على أنها تعليلٌ لذلك، أي: لا تقبل شفاعةُ شفيعٍ لهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى يعلم منه الخيانةَ سرًّا وعلانيةً، وليست تعليلاً لنفْي الشفاعة ليرِدَ ما قيل. ولا يخفى ما فيه، ولعمري إنَّ جارَ الله في مثل هذا المقام لا يُجارى.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي: والذي هذه صفاتُه يقضي قضاءً ملتبساً بالحقِّ لا بالباطل؛ لاستغنائه سبحانه عن الظلم. وتقديمُ المسنَد إليه للتقوِّي، وجوِّز أن يكونَ للحصر. وفائدةُ العدول عن المضمَر إلى المظهَر والإتيانِ بالاسم الجامع عقيبَ ذكر الأوصاف = ما أشير إليه من إرادة الموصوف بتلك الصفات.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ تهكُّمٌ بآلهتِهم؛ لأنَّ الجمادَ لا يقال فيه: يقضِي أو لا يقضِي، وجَعَلَه بعضُهم من باب المشاكلة، وأصلُه: لا يقدرون على شيء. واختِيْرَ الأولُ، قيل: لأنَّ التهكُّمَ أبلغُ؛ لأنَّه ليس المقصودُ الاستدلالَ على عدم صلاحيتهم للإلهية.

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بخلافٍ عنه وهشام: «تَدعون» بتاء الخطاب على الالتفات[2]، وجوِّز أن يكونَ على إضمار «قل»، فلا يكون التفاتاً وإن عبِّر عنه بالغَيبة قبله؛ لأنَّه ليس على خلافِ مقتضَى الظاهرِ إذ هو ابتداءُ كلامٍ مبنيٍّ على خطابهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ تقريرٌ لعلمه تعالى بخائنةِ الأعيُن وما تخفي

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٢-٥٥٣.

(٢) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٤ عن نافع وهشام، والكلام من البحر ٧/ ٤٥٧.

الصدورُ، وقضائِه سبحانه بالحقِّ، ووعيدٌ لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريضٌ بحالِ ما يَدْعون من دونه عزَّ وجلَّ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ القاضيَ ينبغي أن يكونَ سميعاً بصيراً.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مآلُ حالِ الذين كذبوا الرسلَ عليهم السلام قبلهم كعادٍ وثمودَ. و«ينظروا» مجزومٌ على أنه معطوفٌ على «يسيروا»، وجوَّز أبو حيان(١) كونَه منصوباً في جواب النفْي، كما في قوله:

ألـم تَـسْـألْ فـتُـخْـبِـرَكَ الـرسـومُ(٢)

وتعقِّب بأنه لا يصحُّ تقديرُه بـ: إنْ لم يسيروا ينظروا. وأجيب بأنَّ الاستفهامَ إنكاريٌّ، وهو في معنى النفْي، فيكونُ جوابَ نفْيِ النفْي.

﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرةً وتمكُّناً من التصرُّفات، والضميرُ المنفصل تأكيدٌ للضميرِ المتصلِ قبلَه. وجوِّز كونُه ضميرَ فصلٍ، ولا يتعيَّن وقوعُه بين معرفتين، فقد أجاز الجرجانيُّ وقوعَ المضارع بعدَه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣]، نعم الأصل الأكثر فيه ذلك، على أنَّ أفعل التفضيل الواقعَ بعدَه «مِن» الداخلةُ على المفضَّل عليه مضارعٌ(٣) للمعرفة لفظاً في عدم دخول «أل» عليه ومعنًى لأنَّ المرادَ به الأفضلُ باعتبارِ أفضليةٍ معيَّنةٍ.

وجملة «كانوا» إلخ مستأنَفةٌ في جوابِ: كيف صارت أمورُهم؟.

---

(١) في البحر ٧/ ٤٥٧.

(٢) عجزه:

عـلـى فِـرْتـاجَ والـطَّـلَـلُ الـقـديـمُ

وهو في الكتاب ٣/ ٣٤، والبحر ٧/ ٤٥٧، واللسان (فرتج)، وتاج العروس (فرتج) دون نسبة، وعزاه في منتهى الطلب ٨/ ٧٦ لعمرو بن شأس، وعزاه السيرافي في شرح أبيات سيبويه ٢/ ١٥٢ للبُرج بن مُسهر، ورواية منتهى الطلب والسيرافي: ألم تربع، بدل: ألم تسأل، ورواية اللسان: ألم تَسَلي، وفِرتاج: موضع في بلاد طيِّئ كما في اللسان.

(٣) أي: مشابه، والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ٣٦٧.

وقرأ ابن عامر: «منكم»[1] بضمير الخطاب على الالتفات.

﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عطفٌ على «قوة»، أي: وأشدَّ آثاراً في الأرض مثلَ القِلاعِ المحكمَةِ والمدائنِ الحصينة. وقد حَكَى الله تعالى عن قومٍ منهم أنَّهم كانوا ينحِتون من الجبال بيوتاً.

وجوِّز كونُه عطفاً على «أشدَّ» بتقدير محذوفٍ، أي: وأكثرَ آثاراً، فتشمل الآثارَ القويةَ وغيرَها، وهو ارتكابُ خلافِ المتبادر من غير حاجةٍ يُعتَدُّ بها.

وقيل: المرادُ بهذه الآثار آثارُ أقدامهم في الأرض لعظَم أجرامهم. وليس بشيء أصلاً.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: وليس لهم واقٍ من الله تعالى يقيهم ويمنعُ عنهم عذابَه تعالى أبداً، فـ «كان» للاستمرار، والمرادُ استمرارُ النفْي، لا نفْيُ الاستمرار، و«من» الثانيةُ زائدةٌ، و«من» الأولى متعلِّقةٌ بـ «واقٍ»، وقدِّم الجارُّ والمجرورُ للاهتمام والفاصلةِ؛ لأنَّ اسمَ الله تعالى قيل: لم يقع مقطعاً للفواصل.

وجوِّز أن تكونَ «مِنْ» الأولى للبدلية، أي: ما كان لهم بدلاً مِن المتَّصفِ بصفات الكمال واقٍ، وأُريدَ بذلك شركاؤُهم، وأن تكونَ ابتدائيةً؛ تنبيهاً على أنَّ الأخذَ في غاية العُنف؛ لأنه إذا لم يبتدئ من جهته سبحانه واقيةٌ لم يكن لهم باقيةٌ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذُ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسببِ أنَّهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ والأحكامِ الواضحة ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ رَيْثَما أتَتْهم رسلُهم بذلك ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ متمكِّنٌ مما يريده عزَّ وجلَّ غايةَ التمكُّن ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ لا يُعتَدُّ بعقابٍ عند عقابِه سبحانه، وهذا بيانٌ للإجمال في قوله تعالى: (فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ) إن كانت الباءُ هناك سببيةً، وبيانٌ لسببِ الأخذ إن كانت للملابَسة، أي: أَخذَهم ملابِسين لذنوبهم غيرَ تائبين عنها، فتأمل.

---

(١) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٥.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهي معجزاتُه عليه السلام ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾ حجَّةٍ قاهرةٍ ظاهرةٍ، والمرادُ بذلك قيل: ما أُريدَ بالآيات، ونزِّل تغايرُ الوصفين منزلةَ تغايُرِ الذاتَيْنِ، فعُطف الثاني على الأول.

وقيل: المرادُ به بعضٌ مِن آياته له شأنٌ كالعصا، وعُطِف عليها تفخيماً لشأنه كما عُطف جبريلُ وميكال عليهما السلام على الملائكة[1].

وتعقِّب بأنَّ مثلَه إنَّما يكونُ إذا غُيِّر الثاني بعلمٍ أو نحوه، أما مع إبهامه ففيه نظرٌ.

وحكى الطبرسيُّ أنَّ المرادَ بالآيات حُجَجُ التوحيد، وبالسلطان المعجزاتُ الدالَّةُ على نبوَّتِه عليه السلام[2].

وقيل: الآياتُ: المعجزاتُ، والسلطانُ: ما أوتيه عليه السلام من القوَّة القدسية، وظهورُها باعتبارِ ظهورِ آثارها من الإقدامِ على الدعوة من غيرِ اكتراثٍ.

وقرأ عيسى: «سُلُطان» بضمِّ اللام[3].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيرُ فرعون، وزَعْمُ اليهود أنَّه لم يكن لفرعونَ وزيرٌ يُدْعى: هامان، وإنما هامان ظالمٌ جاء بعد فرعون بزمان مديدٍ ودهرٍ داهرٍ = نَفْيٌ جاءهم من اختلال أمرِ كتبِهم وتواريخِ فرعون؛ لطولِ العهد وكثرة المِحَن التي ابْتُلُوا بها، فاضمحلَّت منها أنفسُهم وكتبُهم.

﴿وَقَٰرُونَ﴾ قيل: هو الذي كان من قوم موسى عليه السلام، وقيل: هو غيرُه، وكان مقدَّم جنودِ فرعون، وذِكْرُهما من بين أتباع فرعون؛ لمكانَتِهما في الكفر وكونِهما أشهرَ الأتباع.

وفي ذكرِ قصة الإرسال إلى فرعون ومَن معه وتفصيلِ ما جرى تسليةٌ لرسول الله ﷺ وبيانٌ لعاقبةِ مَن هو أشدُّ الذين كانوا من قبلُ وأقربُهم زماناً، ولذا خُصَّ ذلك بالذكر، ولا بُعدَ في كونِ فرعونَ وجنودِه أشدَّ من عادٍ.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ الآية [البقرة: ٩٨].
(٢) مجمع البيان ٥/ ١٩٢.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٤، والبحر المحيط ٧/ ٤٥٩.

﴿فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ﴾ أي: هو - يَعْنُون موسى عليه السلام - ساحرٌ فيما أظهرَ مِن المعجزاتِ ﴿كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ في دعواه أنه رسولٌ مِن ربِّ العالمين.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وبلَّغهم أمرَ الله تعالى غيرَ مكترثٍ بقولهم: ساحرٌ كذابٌ ﴿قَالُواْ﴾ غيظاً وحَنَقاً وعَجْزاً عن المعارضة: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: أَعِيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه بهم أولاً كَي تصدُّوهم عن مظاهَرةِ موسى عليه السلام، فالأمرُ بالقتل والاستحياءِ وقع مرَّتين: المرَّةُ الأولى حين أخبَرَت الكَهَنةُ والمنجِّمون في قولِ فرعونَ بمولودٍ من بني إسرائيل يسلبُه ملكَه، والمرَّةُ الثانية هذه، وضميرُ «قالوا» لفرعونَ ومَن معه.

وقيل: إنَّ قارونَ لم يصدُرْ منه مثلُ هذه المقالةِ لكنَّهم غلَّبوا عليه.

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ في ضَياعٍ، مِن ضَلَّت الدابةُ: إذا ضَاعت، والمرادُ أنه لا يفيدُهم شيئاً، فالعاقبةُ للمتقين.

واللامُ إمَّا للعهد والإظهارُ في موضع الإضمار لذمِّهم بالكفر والإشعارِ بعلَّة الحكم، أو للجنس والمذكورون داخلون فيه دخولاً أوليًّا.

والجملةُ اعتراضٌ جيء به في تضاعيفِ ما حُكي عنهم من الأباطيلِ للمسارَعةِ إلى بيانِ بُطلانِ ما أظهروه من الإبراق والإرعاد، واضمحلالِه بالمرَّة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كان إذا همَّ بقتله كَفُّوه بقولهم: ليس بالذي تخافه، وهو أقلُّ من ذلك وأضعفُ، وما هو إلا ساحرٌ يقاومه ساحرٌ مثلُه، وإنَّك إذا قتلتَه أدخلتَ الشبهةَ على الناس، واعتقدوا أنك عجزتَ عن مظاهَرته بالحجَّة.

والظاهرُ أنه لعنه الله تعالى استيقن أنه عليه السلام نبيٌّ، ولكن كان فيه خبٌّ وجَرْبَزَة[1]، وكان قتَّالاً سفَّاكاً للدماء في أهون شيءٍ، فكيف لا يقتُل مَن أحسَّ منه بأنَّه الذي يُثلُّ عرشَه ويهدِمُ ملكَه؟ ولكنَّه يخاف إن همَّ بقتله أن يعاجَل بالهلاك، فقوله: «ذروني» إلخ كان تمويهاً على قومه وإيهاماً أنَّهم هم الذين يكفُّونه، وما كان يكُفُّه إلا ما في نفسه من هول الفزَع، ويُرشد إلى ذلك قولُه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ لأنَّ

(١) الجَرْبَزَة: الخبث. القاموس (جربز).

ظاهرَه الاستهانةُ بموسى عليه السلام بدعائه ربَّه سبحانه كما يقال: ادْعُ ناصرَك فإني منتقِمٌ منك، وباطنُه أنَّه كان تُرعَدُ فرائصُه من دعاء ربِّه، فلهذا تكلَّم به أوَّلَ ما تكلَّم وأظهرَ أنه لا يبالي بدعاءِ ربِّه، وما هو إلَّا كمن قال: ذروني أفعلْ كذا وما كان فليكن، وإلَّا فما لمن يدَّعي أنه ربُّهم الأعلى أن يجعلَ لِما يدَّعيه موسى عليه السلام وزناً، فيتفوَّهَ به تهكُّماً أو حقيقةً.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتلْه ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغيِّر حالَكم الذي أنتم عليه من عبادتي وعبادةِ الأصنام، وكان عليه اللعنة قد أمَرَهم بنحتِها، وأن تُجعلَ شفعاءَ لهم عندَه كما كان كفَّارُ مكة يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ولهذا المعنى أضافوا الآلهةَ إليه في قولهم: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧] فهي إضافةُ تشريفٍ واختصاصٍ، وهذا ما ذهب إليه بعضُ المفسرين.

وقال ابن عطية(١): الدين: السلطانُ، ومنه قولُ زهير:

لئن حَلَلْتَ بحيٍّ من بني أسدٍ   في دِين عمرٍو وحالت بينَنا فَدَكُ(٢)

أي: إني أخاف أن يغيِّرَ سلطانَكم ويستذلَّكم ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ﴾ إن لم يقدرْ على تغييرِ دينكم بالكلية ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ وذلك بالتهارُجِ الذي يذهب معه الأمن وتتعطَّلُ المزارعُ والمكاسبُ ويهلك الناسُ قتلاً وضَياعاً، فالفسادُ الذي عناه فسادُ دنياهم، فيكون حاصلُ المعنى على ما قرِّر أولاً: إني أخاف أن يفسدَ عليكم أمرَ دينِكم بالتبديل، أو يفسدَ عليكم أمرَ دنياكم بالتعطيل، وهما أمران كلٌّ منهما مُرٌّ، ونحو هذا يقال على المعنى الثاني للدين.

وعن قتادة أنَّ اللعين عنى بالفساد طاعةَ الله تعالى(٣).

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٥.

(٢) ديوان زهير ص١٨٣، ورواية الديوان، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٥٥، والبحر ٧/ ٤٥٩، واللسان (فدك)، والتاج (فدك): حللت بجوٍّ، وأورده في اللسان (خوو)، والتاج (خوو) بلفظ: حللت بخوٍّ، بالخاء الفوقية. قوله: فَدَك، قرية بخيبر، فيها عين ونخل، أفاءها الله على نبيه ﷺ.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٨٠، وتفسير الطبري ٢٠/ ٣١٠.

وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو: «وأن» بالواو الواصلة[(١)].

وقرأ الأعرج والأعمش وابن وثاب وعيسى وابن كثير وابن عامر والكوفيون غير حفص: «يَظْهَر» بفتح الياء والهاء، «الفسادُ» بالرفع[(٢)].

وقرأ مجاهد: «يَظَّهَّر» بتشديد الظاء والهاء، «الفسادُ» بالرفع.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «يُظْهَر» بضم الياء وفتح الهاء مبنيًّا للمفعول، «الفسادُ» بالرفع[(٣)].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لَمَّا سمع بما أجراه اللعينُ من حديثِ قتله: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٢٧﴾ قاله عليه السلام مخاطِباً به قومَه على ما ذهب إليه غيرُ واحد، وذلك أنَّه لَمَّا كان القولُ السابقُ من فرعون خطاباً لقومه على سبيلِ الاستشارة وإجالة الرأي، لا بمحضَرٍ منه عليه السلام، كان الظاهرُ أنَّ موسى عليه السلام أيضاً خاطبَ قومَه لا فرعونَ وحاضريه بذلك، ويؤيِّده قولُه تعالى في الأعراف: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟﴾ [الآية: ١٢٨] في هذه القصة بعينها، وقولُه تعالى هنا: «وربِّكم»، فإنَّ فرعون ومَن معه لا يعتقدون ربوبيتَه تعالى، وإرادةُ أنَّه تعالى كذلك في نفس الأمر لا يضُرُّ في كونه مؤيّداً؛ لأنَّ التأييدَ مدارُه الظاهرُ.

وصدِّر الكلام بـ «إنَّ» تأكيداً وتنبيهاً على أنَّ السببَ المؤكَّد في دفع الشرِّ هو العياذُ بالله تعالى، وخُصَّ اسمُ الربِّ لأنَّ المطلوبَ هو الحفظُ والتربيةُ، وأضافه إليه وإليهم حثًّا لهم على موافَقتِه في العياذِ به سبحانه والتوجُّهِ التامِّ بالروح إليه جلَّ شأنُه، لِما في تظاهُرِ الأرواح مِن استجلابِ الإجابة، وهذا هو الحكمةُ في مشروعية الجماعة في العبادات.

و«من كلٍّ» على معنى: من شرِّ كلّ، وأراد بالتكبُّرِ الاستكبارَ عن الإذعان

---

(١) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٥، والبحر ٧/ ٤٦٠، وزادوا: ابن عامر وابن كثير.
(٢) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٥ عن ابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣٢، والبحر ٧/ ٤٦٠.

للحقِّ، وهو أقبحُ استكبارٍ وأدلُّه على دناءةِ ومهانةِ نفسِه وعلى فرطِ ظلمه وعَسْفِهِ، وضَمَّ إليه عدمَ الإيمان بيوم الجزاء ليكونَ أدلَّ وأدلَّ، فمن اجتمع فيه التكبُّرُ والتكذيبُ بالجزاء وقلَّةُ المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسبابَ القسْوةِ والجراءةِ على الله تعالى وعبادِه، ولم يترك عظيمةً إلا ارتكبها.

واختير المنزَّل دون: منه، سلوكاً لطريقِ التعريض؛ لأنَّه كلامٌ واردٌ في عرضهم فلا يلبسون جلدَ النمر[1] إذا عُرض عليهم، مع ما في ذلك من الدلالة على علَّة الاستعاذة، ورعايةِ حقِّ تربية اللعين له عليه السلام في الجملة.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائيُّ: «عُتُّ» بإدغام الذال المعجمة في التاء بعدَ قلبِها تاءً[2].

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قيل: كان قبطيًّا ابنَ عمِّ فرعون، وكان يجري مَجرى وليِّ العهد ومَجرى صاحب الشرطة.

وقيل: كان إسرائيليًّا. وقيل: كان غريباً ليس من الفئتَين. ووصفُه على هذين القولين بكونه من آلِ فرعون باعتبارِ دخوله في زمرتهم وإظهارِ أنَّه على دينهم وملَّتهم تقيةً وخوفاً، ويقال نحو هذا في الإضافة في «مؤمن آل فرعون» الواقع في عدَّة أخبار[3].

وقيل: «من آل فرعون» على القولين متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ والتقديمُ للتخصيص، أي: رجلٌ مؤمن يكتُم إيمانَه من آل فرعون دونَ موسى عليه السلام ومَن اتبعَه؛ ولا بأس على هذا في الوقف على «مؤمن».

واعتُرِض بأنَّ «كتم» يتعدَّى بنفسه دونَ «من»، فيقال: كتمت فلاناً كذا، دون: كتمت مِن فلانٍ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وقال الشاعر:

---

(١) مثل يضرب في إظهار العداوة وكشفها، يقال: لبست له جلد النمر، إذا أظهرت له العداوة الشديدة. جمهرة الأمثال ٢/ ١٩٩، ومجمع الأمثال ٢/ ١٨٠.

(٢) النشر ٢/ ١٦.

(٣) منها ما في مسند البزار (٧٦١)، ومسند الفردوس (٣٨٦٦).

كـتَـمْـتُـك لـيـلاً بـالـجَـمُـومَـيْـن سـاهِـرا وهـمَّـيْـن هـمَّـا مُـسـتـكِـنًّـا وظـاهِـرا
أحـاديـثَ نـفْـسٍ تـشْـتـكِـي مـا يَـريـبُـهـا وَوِردَ هُـمـومٍ لـن يَـجِـدْن مَـصـادِرا[1]

وأراد على ما في «البحر»: كتمتُكَ أحاديثَ نفسٍ وهمَّيْن[2].

وفيه أنه صرَّح بعضُ اللغويين بتعدِّيه بـ «من» أيضاً، قال في «المصباح»: كَتَم من بابِ قَتَل يتعدَّى إلى مفعولين، ويجوز زيادةُ «مِن» في المفعول الأول فيقال: كتمتُ من زيدٍ الحديثَ كما يقال: بعتُه الدار وبعتُها منه[3].

نعم تعلُّقه بذلك خلاف الظاهر، بل الظاهرُ تعلُّقه بمحذوفٍ وقع صفةً ثانيةً لـ «رجل»، والظاهرُ على هذا كونُه مِن آلِ فرعونَ حقيقةً، وفي كلامه المحكيِّ عنه بعدُ ما هو ظاهرٌ في ذلك.

واسمه: قيل: شمعان، بشينٍ معجمة. وقيل: خِرْبِيل، بخاء معجمة مكسورة وراء مهملة ساكنة. وقيل: حِزْبيل، بحاء مهملة وزاي معجمة. وقيل: حبيب.

وقرأ عيسى وعبد الوارث وعبيد بن عقيل وحمزة بن القاسم عن أبي عمرو: «رجْلٌ» بسكون الجيم، وهي لغةُ تميمٍ ونجد[4].

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أي: أتقصدون قتلَه، فهو مجازٌ ذُكر فيه المسبَّبُ وأريد السببُ، وكونُ الإنكار لا يقتضي الوقوعَ لا يصحِّحه من غير تجوُّزٍ.

﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي: لأن يقولَ ذلك ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الشاهدةِ على صدقه، من المعجزات والاستدلالاتِ الكثيرةِ، وجمعُ المؤنَّث السالم ـ وإن شاع أنَّه للقلَّة ـ لكنَّه إذا دخلت عليه «أل» يفيد الكثرةَ بِمَعُونة المقام.

---

(١) البيتان للنابغة الذبياني، وهما في ديوانه ص٦٣، والجَمُومَيْن: قال في اللسان (جمم): الجَموم: البئر الكثيرة الماء، وقوله: كتمتك ليلاً بالجمومين، يجوز أن يعني رَكِيَّتَيْن قد غلبت هذه الصفة عليهما، ويجوز أن يكونا موضعين.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٦٠.

(٣) المصباح المنير (كتم).

(٤) البحر ٧/ ٤٦٠.

والجملة حاليةٌ من الفاعل أو المفعول، وهذا إنكارٌ من ذلك الرجُل عظيمٌ، وتبكيتٌ لهم شديدٌ، كأنه قال: أترتكبون الفعلةَ الشنعاءَ التي هي قتلُ نفسٍ محرَّمةٍ، وما لكم عليه في ارتكابها إلَّا كلمةُ الحقِّ التي نطق بها وهي قوله: «ربي الله»، مع أنه قد جاءكم بالبيناتِ ﴿مِن رَّبِّكُمْۖ﴾ أي: من عند مَن نسب إليه الربوبية، وهو ربُّكم لا ربُّه وحده، وهذا استدراجٌ إلى الاعتراف.

وفي «أن يقولَ ربي الله» إلى «من ربكم» نكتةٌ جليلةٌ، وهي أنَّ مَن يقول: ربي اللهُ أو فلانٌ، لا يقتضي أن يقابَلَ بالقتل، كما لا تقابَلون بالقتل إذا قُلتم: ربُّنا فرعون، كيف وقد جعل ربَّه مَن هو ربُّكم، فكان عليكم بأن تعزِّرُوه وتوقِّروه، لا أن تخذُلوه وتقتُلوه.

وجوَّز الزمخشريُّ[1] كونَ «أن يقول» على تقديرِ مضافٍ، أي: وقتَ أن يقول، فحُذِف الظرفُ فانتصب المضافُ إليه على الظرفية لقيامِه مقامَه، والمعنى: أتقتلونه ساعةَ سمِعتم منه هذا القولَ من غير رويَّةٍ ولا فكرٍ في أمره.

وردَّه أبو حيان[2] بأنَّ القائمَ مقامَ الظرف لا يكون إلا المصدرَ الصريحَ، كـ: جئت صياحَ الديك، أو ما كان بـ «ما» الدوامية، دون الغير الصريح، كـ: جئت أن صاح ـ أو أن يصيحَ ـ الديك.

وفيه أنَّ ابنَ جنيٍّ كالزمخشريِّ صرَّح بالجواز[3]، وكلٌّ إمامٌ.

ثم إنَّ الرجلَ احتاط لنفسه خشيةَ أن يعرفَ اللعينُ حقيقةَ أمره فيبطش به، فتلطَّف في الاحتجاج فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ﴾ لا يتخطَّاه وبالُ كذبه فيحتاج في دفعه إلى قتله ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ﴾ فلا أقلَّ من أن يصيبَكم بعضُ الذي يعدكم أو يَعِدُكموه، وفيه مبالغةٌ في التحذير، فإنَّه إذا حذَّرهم من إصابة البعض أفاد أنَّه مُهلكٌ مَخوفٌ، فما بالُ الكلِّ؟ وإظهارٌ للإنصاف وعدم التعصُّبِ، ولذا قدَّم احتمالَ كونه كاذباً.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٤٢٤.

(٢) في البحر ٧/ ٤٦٠.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٣٦٨.

وقيل: المراد: يصبكم ما يعدُكم من عذاب الدنيا وهو بعضُ مواعيدِه، كأنه خوَّفهم بما هو أظهرُ احتمالاً عندَهم.

وقيل: «بعض» بمعنى «كلٍّ»، وأنشدوا لذلك قولَ عمرو القطاميِّ:

قد يُدْرِكُ المتأنِّي بعضَ حاجته وقد يكونُ معَ المستَعْجِل الزَّلَلُ[1]

وذهب الزجَّاجُ[2] إلى أنَّ «بعض» فيه على ظاهره، والمراد إلزام الحجَّة وإبانةُ فضلِ المتأنِّي على المستعجل بما لا يقدر الخصمُ أن يدفعَه، فالبيت كالآية على الوجه الأول، وأنشدوا لمجيء «بعض» بمعنى «كل» قولَ الشاعر:

إنَّ الأمورَ إذا الأحداثُ دبَّرها دونَ الشيوخِ ترى في بعضِها خَلَلا[3]

ولا يتعيَّن فيه ذلك كما لا يخفى.

وعن أبي عبيدة أنَّه فسَّر البعضَ بالكلِّ أيضاً، وأنشدَ قول لبيد:

تـرَّاكُ أمْكِنَةٍ إذا لم أرْضَها أو يَرْتَبِطْ بعضَ النُّفُوسِ حمامُها[4]

حَمَل البيتَ على معنى: لا أزال أنْتَقِل في البلاد إلى أن لا يبقى أحدٌ أقصدُه من العباد. والمحقِّقون على أنَّ البعضَ فيه على ظاهرِه والمرادُ به نفسُه، والمعنى: لا أزال أترُكُ ما لم أرضَه من الأمكنةِ إلا أن أموتَ.

وقال الزمخشريُّ: إن صحَّت الروايةُ عن أبي عبيدة في ذلك فقد حقَّ فيه قولُ المازني في مسألة العَلْقى: كان أجفى من أن يفقهَ ما أقولُ له[5]. وفيه مبالغةٌ في الردِّ.

---

(١) قائله القطامي، وهو في ديوانه ص٢٥.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٢.

(٣) البيت في بهجة المجالس ٣/ ٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٤٦١ دون نسبة، ونسبه في طبقات الشعراء ص٤٤٣ لإسحاق بن خلف وهو الخريمي.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٩٤، والبيت فيه وفي شرح ديوان لبيد ص٣١٣ برواية: أو يعتلق بعض النفوس. . .، وقد سلف البيت ٧/ ٢٣٩.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٢٥. وأشار الزمخشري بذلك إلى خبر أبي عبيدة مع المازني، حيث قال أبو عثمان المازني: قال لي أبو عبيدة: ما أكذبَ النحويين! فقلتُ له: لم قلتَ ذلك؟ قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨﴾ احتجاجٌ آخَرُ ذو وجهين: أحدهما أنَّه لو كان مُسرِفاً كذَّاباً لَمَا هداه الله تعالى إلى البيِّنات، ولَمَا عَضَده بتلك المعجزات، وثانيهما إن كان كذلك خَذَلَه الله تعالى وأهْلَكَه فلا حاجةَ لكم إلى قتله. ولعلَّه أراد به المعنى الأولَ، وأوهَمَهم أنه أراد الثانيَ لِتَلِيْنَ شكيمتُهم؛ وعرَّض لفرعون بأنه مُسْرِفٌ، أي: في القتل والفسادِ، كذَّابٌ في ادِّعاء الربوبيةَّ، لا يهديه الله تعالى سبيلَ الصواب ومنهاجَ النجاة، فالجملةُ مستأنَفةٌ متعلِّقةٌ معنًى بالشرطية الأولى، أو بالثانية، أو بهما.

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين عالِين على بني إسرائيل ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أرض مصرَ، لا يقاومكم أحدٌ في هذا الوقت ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ مِن أخْذِه وعذابه سبحانه ﴿إِن جَآءَنَاۚ﴾ أي: فلا تُفسِدوا أمرَكم ولا تتعرَّضُوا لبأسِ الله تعالى بقتلِه، فإنَّه إن جاءنا لم يمنعَنا منه أحدٌ، فالفاء في «فمن» إلخ فصيحةٌ، والاستفهامُ إنكاريٌّ، وإنما نَسَب ما يَسُرُّهم من المُلك والظهورِ في الأرض إليهم خاصَّةً، ونَظَم نفسَه في سلكهم فيما يسوءُهم من مجيء بأسِ الله تعالى؛ تطييباً لقلوبهم وإيذاناً بأنه مُناصِحٌ لهم ساعٍ في تحصيلِ ما يُجدِيهم ودَفْعِ ما يُردِيهم سعيَه في حقِّ نفسه ليتأثَّروا بنُصْحِه.

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ بعدَما سمِع ذلك ﴿مَآ أُرِيكُمۡ﴾ أي: ما أُشيرُ عليكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ إلا الذي أَراه وأستَصْوِبه مِن قتلِه، يعني: لا أستَصْوِبُ إلا قتلَه، وهذا الذي تقولونه غيرُ صواب.

= يقولون: إنَّ هاء التأنيث لا تدخل على ألف التأنيث، وإن الألف التي في «عَلْقى» ملحقة ليست للتأنيث. قال: فقلتُ: وما أنكرتَ من ذاك؟ قال سمعتُ رؤبة يُنْشد:

فَحَطَّ في عَلْقَى وفي مُكُورِ

فقلت له: ما واحد العلقى؟ فقال: عَلقاة. قال أبو عثمان: فَلَمْ أفسِّر له؛ لأنه كان أغلظ من أن يفهمَ مثلَ ذلك. إنباه الرواة على أنباه النحاة ١/٢٥٣-٢٥٤، والبرهان ٢/٢٦٨.

والعلقى: شجر تدوم خضرته في القيظ، ولها أفنان طوال دقاق، وورقٌ لطاف. اللسان (علق).

﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ طريقَ الصواب والصلاح، أو ما أُعلمُكم إلا ما أعلَمُ من الصواب، ولا أدَّخِرُ منه شيئاً، ولا أُسِرُّ عنكم خلافَ ما أُظهِر، يعني أنَّ لسانَه وقلبَه متواطِئان على ما يقول، وقد كذب عدوُّ الله، فقد كان مستشعِراً للخوفِ الشديد من جهةِ موسى عليه السلام، لكنَّه كان يتجلَّدُ، ولولا استشعارُه لم يستَشِرْ أحداً.

وعن معاذ بن جبل والحسن أنهما قرأا: «الرَّشَّاد» بشدِّ الشين[(١)]، على أنه فعَّالٌ للمبالغة مِن رَشِد بالكسر كعلَّام من عَلِم، أو من رشَد بالفتح كعبَّاد مِن عَبَد.

وقيل: هو مِن أَرْشَدَ المَزيدِ كجبَّار من أَجْبَرَ. وتعقِّب بأن فعَّالاً لم يجئ من المزيد إلا في عدَّةِ أحرُفٍ نحو: جبَّار ودرَّاك وقصَّار وسآَّر، ولا يحسُن القياسُ على القليل، مع أنَّه ثبت في بعضه كجبَّار سماعُ الثلاثي فلا يتعيَّنُ كونُه من المزيد، فقد جاء: جَبَره على كذا، ك : أَجْبَره، وقصَّار كجبَّار عندَ بعضٍ لا يتعيَّن كونُه من: أَقْصَرَ، لمجيءِ: قَصَر عن الشيء، ك : أَقْصَرَ عنه، وحُكي عن الجوهريِّ أنَّ الإقصارَ كفٌّ مع قدرةٍ، والقَصْر كفٌّ مع عَجْزٍ[(٢)]، فلا يتمُّ هذا عليه.

وأمَّا: درَّاك وسآَّر، فقد خُرِّجا على حذف الزيادة تقديراً لا استعمالاً، كما قالوا: أبقل المكان فهو باقل، وأوْرَسَ الرِّمْثُ فهو وَارِس[(٣)]، قال ابن جنِّي: وعلى هذا خُرِّج «الرشَّاد»، فيكون من رَشَد بمعنى أَرْشَد تقديراً لا استعمالاً؛ فإنَّ المعنى على ذلك، ثم قال: فإن قيل: إذا كان المعنى على أرشد، فكيف أجزتَ أن يكون من رَشِد المكسورِ، أو من رَشَد المفتوح؟ قيل: المعنى راجعٌ إلى أنه مُرشِدٌ، لأنَّه إذا رَشِد أرشد؛ لأنَّ الإرشاد من الرشَد، فهو من باب الاكتفاء بذكر السبب عن المسبَّب[(٤)]. انتهى.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٤١، والبحر ٧/ ٤٦٢.
(٢) الصحاح (قصر).
(٣) أي: اصفرَّ ورقه. والرِّمْث: شجر يشبه الغضى. القاموس (ورس) و(رمث).
(٤) المحتسب ٢/ ٢٤١-٢٤٢.

وقيل: أُجيزَ ذلك لأنَّ المبالغةَ في الرَّشَد تكون بالإرشاد كما قرَّرُوا في قيُّومٍ وطَهُورٍ.

وقال بعض المحقِّقين: إنَّ رَشَد بمعنى اهتدى، فالمعنى: ما أَهديكم إلَّا سبيلَ مَن اهتدى وعظُم رُشْدُه، فلا حاجةَ إلى ما سمعتَ، وإنما يُحتاج إليه لو وَجَب كونُ المعنى: ما أهديكم إلا سبيلَ مَن كثُر إرشادُه، ومن أين وجب ذلك؟!

وجوِّز كونُ فعَّال في هذه القراءة للنسبة كما قالوا: عوَّاج، لبيَّاع العاج، وبتَّات، لبيَّاع البتِّ، وهو كساءٌ غليظ، وقيل: طيلسانٌ من خزٍّ أو صُوفٍ.

وأنكر بعضُهم كونَ القراءة على صيغة فعَّال في كلام فرعون، وإنَّما هي في قول الذي آمن: (يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ)، فإنَّ معاذَ بن جبل كان ـ كما قال أبو الفضل الرازي وأبو حاتم[1] ـ يفسِّرُ «سبيل الرشاد» على قراءته بسبيل الله تعالى، وهو لا يتسنَّى في كلام فرعون كما لا يخفى، وستعلم إن شاء الله تعالى أنَّ معاذاً قرأ كذلك في قول المؤمن، فلعلَّ التفسيرَ بسبيل الله عزَّ وجلَّ كان فيه، دونَ كلام فرعون، والله تعالى أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ الجمهورُ على أنه الرجلُ المؤمنُ الكاتمُ إيمانَه القائلُ: «أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله»، قوَّى اللهُ تعالى نفسَه وثبَّت قلبَه فلم يَهَبْ فرعونَ ولم يعْبَأ به، فأتى بنوعٍ آخَرَ من التهديدِ والتخويفِ فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠﴾ إلى آخره.

وقالت فرقةٌ: كلامُ ذلك المؤمن قد تمَّ، والمرادُ بـ «الذي آمن» هنا هو موسى عليه السلام، واحتجَّتْ بقوَّةِ كلامه. وعلى الأول المعوَّلُ، أي: قال ناصحاً لقومه: يا قوم إني أخاف عليكم في تكذيب موسى عليه السلام والتعرُّضِ له بالسوء أن يَحُلَّ بكم مثلُ ما حلَّ بالذين تحزَّبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية.

واليوم: واحدُ الأيام بمعنى الوقائع، وقد كثُر استعمالُها بذلك حتى صار حقيقةً

(١) كما في البحر ٧/ ٤٦٢.

عُرفيَّةً، أو بمعناها المعروف لغةً، والكلام عليه على حذفِ مضافٍ، أي: مثلُ حادثِ يومِ الأحزاب.

وأيًّا ما كان فالظاهرُ جمعُ اليوم، لكن جَمْعُ «الأحزاب» المضافِ هو إليه مع التفسير بما بعدُ أغنى عن جمعه، والمعنى عليه، ورجِّح الإفراد بالخفَّة والاختصار.

وقال الزجَّاج(١): المرادُ: يومُ حزبٍ حزبٍ، بمعنى أنَّ جمعَ حزبٍ مرادٌ به شمولُ أفرادِه على طريق البدل. وهو تأويلٌ في الثاني، وما تقدَّم أظهرُ.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: مثلَ جزاءِ دأبِهم، أي: عادتِهم الدائمةِ من الكفر وإيذاءِ الرسل، وقُدِّر المضافُ؛ لأنَّ المَخُوفَ في الحقيقة جزاءُ العملِ لا هو، وجاء هذا من نصب «مثل» الثاني على أنه عطفُ بيانٍ لـ «مثل» الأول؛ لأنَّ آخِرَ ما تناولتْه الإضافةُ قومُ نوح، ولو قلتَ: أهلك اللهُ الأحزابَ: قومَ نوح وعاد وثمودَ، لم يكن إلَّا عطفَ بيانٍ لإضافةِ قومٍ إلى أعلامٍ، فسَرَى ذلك الحكمُ إلى أوَّلِ ما تناولتْه الإضافةُ.

وقال ابنُ عطية: هو بدلٌ من «مثل» الأول(٢)، والاحتياجُ إلى تقديرِ المضاف على حاله.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١)﴾ أي: فما فعل سبحانه بهؤلاء الأحزاب لم يكن ظلماً، بل كان عدلاً وقسطاً؛ لأنه عزَّ وجلَّ أرسل إليهم رسلَهم بالبينات فكذَّبوهم وتحزَّبوا عليهم، فاقتضى ذلك إهلاكَهم، وهذا أبلغ من قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] من حيثُ جعل المنفيّ فيه إرادةَ الظلم؛ لأنَّ مَن كان عن إرادةِ الظلم بعيداً كان عن الظلم نفسِه أبعدَ، وحيثُ نكَّر الظلمُ كأنه نَفى أن يُريدَ ظلماً مَّا لعباده.

وجوَّز الزمخشريُّ أن يكونَ معناه كمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] أي: لا يريد سبحانه لهم أن يَظْلِمُوا، يعني أنَّه عزَّ وجلَّ دمَّرهم؛ لأنهم

(١) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٢.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٨.

كانوا ظالمين[١]. ولا يخفى أنَّ هذا المعنى مرجوحٌ لفظاً ومعنًى.

ثم لا حجَّة للمعتزلة لثبوتِ الفرقِ بين: أراده منه، وأراده له، فلو سلِّم أنَّه سبحانه لا يريد لهم أن يَظْلِموا لم يَلْزَم أن لا يريدَه منهم، والممتَنِعُ عند أهلِ السنة هو هذا، فلا احتياجَ إلى صرْفِ الآية عن الظاهرِ عندَهم أيضاً.

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ خوَّفهم بالعذاب الأخرويِّ بعد تَخْوِيفهم بالعذاب الدنيوِيِّ. و«التناد» مصدَرُ تَنَادَى القومُ، أي: نادَى بعضُهم بعضاً، و«يومُ التناد» يومُ القيامة، سمِّي بذلك؛ لأنَّه يُنادِي فيه بعضُهم بعضاً للاستغاثة، أو يتَصَايَحُون فيه بالويل والثُّبور، أو لتنادِي أهلِ الجنة وأهلِ النار كما حُكي في سورة الأعراف، أو لأنَّ الخلقَ يُنادَون إلى المحشر، أو لنداء المؤمن: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] والكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

وعن ابن عباس أنَّ هذا التنادي هو التنادي الذي يكونُ بين الناس عندَ النفْخِ في الصورِ ونفخة الفَزَعِ في الدنيا، وأنَّهم يَفِرُّون على وجوهِهم للفَزَعِ الذي نالَهم، ويُنادِي بعضُهم بعضاً[٢]، وروي هذا عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ[٣].

وقال ابن عطية: يحتمل أن يرادَ التذكيرُ بكلِّ نداءٍ في القيامة فيه مشقَّةٌ على الكفَّارِ والعُصاة[٤].

وقرأت فرقة: «التنادْ» بسكون الدال في الوصل إجراءً له مُجرى الوقف[٥].

وقرأ ابن عباس والضحَّاكُ وأبو صالح والكلبيُّ والزعفرانيُّ وابن مقسم: «التنادّ»

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٢٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٨.

(٣) يريد به ما جاء في حديث الصور: يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع...، إلى أن قال: ويولّي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۞ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾. وقد تقدم تخريجه ٢٣/ ٥٠١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥٨.

(٥) تفسير القرطبي ١٨/ ٣٥٥، والبحر ٧/ ٤٦٤.

بتشديد الدال[١]. من ندَّ البعيرُ: إذا هَرب، أي: يوم الهرَبِ والفِرارِ؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الآيةَ [عبس: ٣٤]، وفي الحديث: «إنَّ للناسِ جَولةً يومَ القيامة يندُّون يظنُّون أنَّهم يجدُون مهرباً»[٢].

وقيل: المرادُ به يومُ الاجتماعِ، مِن نَدا: إذا اجتمع، ومنه النادي.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ بدلٌ من «يوم التناد» أي: يومَ تُولُّون عن الموقِفِ منصرِفين عنه إلى النار. وقيل: فارِّين من النار، فقد رُوي أنهم إذا سمِعوا زَفيرَ النارِ هَرَبوا فلا يأتون قطراً من الأقطار إلَّا وجدوا ملائكةً صفوفاً فلا ينفعهم الهرَبُ[٣]، ورُجِّح هذا القول بأنَّه أتمُّ فائدةً وأظهرُ ارتباطاً بقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: يعصِمُكم في فِرارِكم حتى لا تعذَّبُوا في النار، قاله السديُّ. وقال قتادة: أي: ما لكم في الانطلاق إلى النار من مانعٍ يمنعكم منها أو ناصرٍ[٤]، وهذا ما يقال على المعنى الأول لـ «يوم تولُّون مُدْبِرين» وأيًّا ما كان فالجملةُ حالٌ أخرى من ضميرِ «تولون».

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ يَهديه إلى طريقِ النجاة أصلاً، وكأنَّ الرجلَ يئِسَ من قبولهم نُصْحَه فقال ذلك، ثم وبَّخهم على تكذيبِ الرُّسُلِ السالفين فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوبَ عليهما السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ موسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الأمورِ الظاهرةِ الدالَّةِ على صِدْقه ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ من الدين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ بالموتِ ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ غايةٌ لقوله: «فما زلتم»، وأرادوا بقولهم: «لن يبعث الله من بعده رسولا» تكذيبَ رسالتِه ورسالةِ غيرِه، أي: لا رسولَ فَيُبْعَثَ، فهم بعدَ الشكِّ بتُّوا بهذا التكذيب، ويكون ذلك ترقِّياً.

ويجوز أن يكونَ الشكُّ في رسالتِه على حاله وبَتُّهم إنَّما هو بتكذيبِ رسالةِ غيرِه مِن بعدِه.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٤٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٥٨، والبحر ٧/ ٤٦٤.
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٥٥ دون نسبة.
(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٣١٩ عن الضحاك بن مزاحم.
(٤) البحر ٧/ ٤٦٤.

وقيل: يحتمل أن يكونوا أظهروا الشكَّ في حياتِه حسداً وعِناداً، فلمَّا مات عليه السلام أقرُّوا بها وأنكروا أن يَبْعَثَ اللهُ تعالى مِن بعده رسولاً. وهو خلافُ الظاهر.

ومجيء يوسفَ بنِ يعقوبَ عليهما السلام المخاطبين بالبيناتِ قيل: من بابِ نسبةِ أحوالِ الآباء إلى الأولادِ، وكذلك نسبةُ الأفعالِ الباقيةِ إليهم.

وجوِّز كونُ بعضِ الذين جاءهم يوسفُ عليه السلام حقيقةً حيًّا؛ ففي بعضِ التواريخ أنَّ وفاةَ يوسفَ عليه السلام قبلَ مولدِ موسى عليه السلام بأربعٍ وستين سنةً، فيكونُ مِن نسبة حالِ البعض إلى الكلِّ.

واستظهر في «البحر» أنَّ فرعونَ يوسفَ عليه السلام هو فرعونُ موسى عليه السلام، وذَكر عن أشهب عن مالك أنه بلغه أنه عُمِّر أربعَ مئةٍ وأربعين سنةً[1]. والذي ذكره أغلبُ المؤرِّخين أنَّ فرعونَ موسى اسمُه: الريَّان، وفرعونَ يوسف اسمُه: الوليد.

وذكر القرطبيُّ أنَّ فرعونَ الأول من العمالقة، وهذا قبطيٌّ، وفرعون يوسف عليه السلام مات في زمنه[2]. وأختار القولَ بتغايُرِهما، وأمْرُ المجيءِ وما معه من الأفعال على ما سمعتَ.

وقيل: المراد بيوسف المذكور هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف الصدِّيق، أرسله الله تعالى نبيًّا فأقام فيهم عشرين سنةً، وكان من أمرهم ما قصَّ الله عزَّ وجلَّ.

ومن الغريب جدًّا ما حكاه النقَّاش والماورديُّ أنَّ يوسفَ المذكور في هذه السورة من الجنِّ بعثه الله تعالى رسولاً إليهم، نقله الجلال السيوطيُّ في «الإتقان»[3]، ولا يقبله مَن له أدنى إتقان، نعم القولُ بأنَّ للجنِّ نبياً منهم اسمه يوسف أيضاً مما عسى أن يُقْبل كما لا يخفى.

---

(١) البحر ٧/ ٤٦٤.
(٢) نقله المصنف من حاشية الشهاب ٧/ ٣٧١.
(٣) ٢/ ١٠٦٥، وكلام الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٥٥.

وقرئ: «ألن يبعث» بإدخالِ همزةِ الاستفهام على حرفِ النفْي[1]، كأنَّ بعضَهم يقرِّرُ بعضاً على نفْي البعثة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإضلال الفظيع ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في العصيان ﴿مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ في دينهِ شاكٌّ فيما تشهَدُ به البيناتُ لغلبةِ الوهم والانهماكِ في التقليد.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ من الموصول الأول أعني «مَن»، أو بيانٌ، أو صفةٌ له باعتبارِ معناه، كأنه قيل: كلَّ مُسرِفٍ مرتابٍ، أو المسرفين المرتابين. وجُوِّز نصبُه بـ «أعني» مقدَّراً.

وقولُه تعالى شأنه: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ على الأوْجُهِ المذكورةِ متعلِّق بـ «يجادلون»، وقولُه سبحانه: ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ صفةُ «سلطان»، والمرادُ بإتيانِه إتيانُه مِن جهتِه سبحانَه وتعالى؛ إمَّا على أيدي الرسُل عليهم السلام فيكونُ ذاك إشارةً إلى الدليل النقليِّ، وإمَّا بطريقِ الإفاضةِ على عُقولهم فيكونُ ذاك إشارةً إلى الدليل العقليِّ، وقد يُعمَّم فيكون المعنى: يُجادِلون بغير حجَّةٍ صالحةٍ للتمسُّك بها أصلاً، لا عقليةٍ ولا نقليةٍ.

وقولُه سبحانه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تقريرٌ لِما أَشْعَر به الكلامُ مِن ذمِّهم، وفيه ضربٌ من التعجُّب والاستعظامِ، وفاعلُ «كَبُر» ضميرٌ راجعٌ إلى الجدال الدالُّ عليه «يجادلون» على نحوِ: مَن كَذَب كان شرًّا له، أي: كبُر الجِدالُ في آياتِ الله بغيرِ حجَّةٍ مقتاً عند الله.. إلخ، أو إلى الموصول الأولِ وأُفْرِد رعايةً للفظهِ، واعتُرِض عليه بأنَّه حملٌ على اللفظ من بَعدِ الحمل على المعنى، وأهلُ العربية يَجْتَنِبونه.

وقال صاحب «الكشف»: هذا شيءٌ نقله ابنُ الحاجب ولم يساعدْه غيرُه وهو غير مسلَّم، أي: كبُر المسرفُ المرتابُ المجادِلُ في آيات الله بغير حجَّةٍ مقتاً، أي: كبُر مقتُه وعظُم عند الله تعالى وعند المؤمنين.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٢٧، والبحر ٧/ ٤٦٤.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الطبع الفظيع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ فيصدُر عنه أمثالُ ما ذُكر من الإسراف والارتيابِ والمجادَلةِ بغير حقٍّ.

وجوَّز أن يكونَ «الذين» مبتدأً، وجملةُ «كَبُر» خبره، لكن على حذفِ مضافٍ هو المخبَرُ عنه حقيقةً، أي: جدالُ الذين يجادِلون كبُر مقتاً، وأن يكونَ «الذين» مبتدأً على حذفِ المضاف، و«بغير سلطان» خبرُ المضافِ المقدَّرِ، أي: جدالُ الذين يجادِلون في آيات الله تعالى كائنٌ بغيرِ سلطانٍ.

وظاهرُ كلام البعض أنَّ «الذين» مبتدأٌ مِن غيرِ حذفِ مضافٍ، و«بغير سلطان» خبرُه ـ وفيه الإخبار عن الذات والجُثَّةِ بالظرف ـ وفاعلُ «كَبُر»: «كذلك» على مذهبِ مَن يرى اسميَّةَ الكاف كالأخفش(١)، أي: كبُر مقتاً مثلُ ذلك الجدالِ، فيكون قولُه تعالى: (يَطْبَعُ) إلخ استئنافاً للدلالة على الموجِب لجدالهم، ولا يخفى ما في ذلك من العدول عن الظاهر.

وفي «البحر»(٢): الأولى في إعرابِ هذا الكلامِ أن يكونَ «الذين» مبتدأً، وخبرُه «كَبُر»، والفاعلُ ضميرُ المصدر المفهومِ من «يجادلون»، أي: الذين يجادلون كبُر جدالُهم مقتاً، فتأمَّل.

وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والأعرج بخلافٍ عنه «قلبٍ» بالتنوين(٣)، فما بعدَه صفتُه، ووصْفُه بالكبر والتجبُّر؛ لأنه منبعُهما، كقولهم: رأتْ عيني وسمعتْ أذني. وجوِّز أن يكونَ ذاك على حذفِ مضافٍ، أي: كلِّ ذي قلبٍ متكبِّرٍ جبَّارٍ، وجَعْلِ الصفتَيْن لصاحبِ القلب لتَتَوافَقَ القراءتان هذه وقراءة باقي السبعة بلا تنوين.

وعن مقاتل: المتكبِّرُ: المعاندُ في تعظيم أمر الله تعالى، والجبَّارُ: المتسلِّطُ على خلق الله تعالى(٤). والظاهرُ أنَّ عمومَ كلِّ منسحِبٌ على المتكبِّرِ والجبَّارِ أيضاً، فكأنَّه اعتُبِرَ أولاً إضافةُ «قلب» إلى ما بعده، ثم اعتُبرت إضافتُه إلى المجموع.

(١) ينظر ما سلف ٢/ ٣٩٤-٣٩٥.
(٢) ٧/ ٤٦٥.
(٣) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٥ عن أبي عمرو وابن ذكوان، والكلام من البحر ٧/ ٤٦٥.
(٤) البحر ٧/ ٤٦٥.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ بناءً مكشوفاً عالياً، مِن: صرَح الشيء: إذا ظهر. ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: الطرُق، كما روي عن السديِّ، وقال قتادة: الأبواب[1]. وهي جمعُ سببٍ، ويُطْلَق على كلِّ ما يُتَوَصَّلُ به إلى شيءٍ.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بيانٌ لها، وفي إبهامها ثمَّ إيضاحِها تفخيمٌ لشأنها وتشويقٌ للسامعِ إلى معرفتها.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بالنصب على جوابِ الترجِّي عند الكوفيين، فإنَّهم يجوِّزون النصبَ بعد الفاء في جواب الترجِّي كالتمنِّي؛ ومنع ذلك البصريون، وخرَّجوا النصب هنا على أنه في جواب الأمر وهو «ابنِ» كما في قوله:

يا ناقُ سِيْرِي عَنَقاً فسيحا ... إلى سليمانَ فنَسْتَرِيْحا[2]

وجوِّز أن يكونَ بالعطف على خبرِ «لعل» بتوهُّمِ «أن» فيه، لأنَّه كثيراً ما جاءنا مقروناً بها، أو على «الأسباب» على حدِّ:

ولُبْسُ عَباءةٍ وتَقَرَّ عيني[3]

وقال بعض: إنَّ هذا الترجِّي تمنٍّ في الحقيقة، لكن أخرجه اللعينُ هذا المخرجَ تمويهاً على سامعيه، فكان النصبُ في جواب التمنِّي، والظاهرُ أنَّ البصريين لا يفرِّقون بين ترجٍّ وترجٍّ.

وقرأ الجمهورُ بالرفع عطفاً على «أبلغ»[4].

قيل: ولعلَّه أراد أن يَبنيَ له رَصَداً في موضعٍ عالٍ يرصُد منه أحوالَ الكواكب التي هي أسبابٌ سماوية تدلُّ على الحوادثِ الأرضية، فيرى هل فيها ما يدلُّ على

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٢٥.

(٢) البيت في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٧، وسر صناعة الإعراب ١/ ٢٧٠، وشرح المفصل ٧/ ٢٦، وشرح قطر الندى ص١٣٤، وشرح شذور الذهب ص٣٩٤ دون نسبة، ونسبه في الكتاب ٣/ ٣٤، واللسان (عنق) لأبي النجم العجلي. والعَنَق: نوع من السير، وسليمان: هو سليمان بن عبد الملك.

(٣) البيت لميسون بنت بحدل الكلبية، وسلف ٤/ ٣١٢.

(٤) التيسير ص١٩١، والنشر ٢/ ٣٦٥، ولم يقرأ بالنصب سوى حفص عن عاصم.

إرسال الله تعالى إياه، وهذا يدلُّ على أنه مُقِرٌّ بالله عزَّ وجلَّ، وإنَّما طلب ما يُزِيل شكَّه في الرسالة، وكان للَّعين وأهلِ عصرِه اعتناءٌ بالنجوم وأحكامِها على ما قيل. وهذا الاحتمالُ في غايةِ البُعد عندي.

وقيل: أرادَ أن يُعْلِم الناسَ بفسادِ قولِ موسى عليه السلام: إني رسولٌ مِن ربِّ السماوات[1]، بأنَّه إن كان رسولاً منه فهو ممن يصل إليه، وذلك بالصعودِ للسماء، وهو محالٌ، فما بُني عليه مثلُه.

ومنشأ ذلك جهلُه بالله تعالى، وظنُّه أنَّه سبحانه مستقِرٌّ في السماء، وأنَّ رسلَه كرُسُلِ الملوك يُلاقونه ويَصِلون إلى مقرِّه، وهو عزَّ وجلَّ منزَّهٌ عن صفاتِ المحدَثات والأجسام، ولا تحتاج إلى ما تحتاج إليه رُسُل الملوك رسُلُه الكرامُ عليهم الصلاة والسلام، وهذا نفيٌ لرسالتِه مِن الله تعالى ولا تعرُّضَ فيه لنفي الصانع المرسل له.

وقال الإمام[2]: الذي عندي في تفسير الآية أنَّ فرعونَ كان من الدهريَّة، وغرضُه من هذا الكلام إيرادُ شبهةٍ في نفْي الصانع، وتقريرُه أنه قال: إنَّا لا نرى شيئاً نحكم عليه بأنَّه إله العالَم، فلم يَجُزْ إثباتُ هذا الإله، أمَّا أنَّه لا نراه، فلأنَّه لو كان موجوداً لكان في السماء، ونحن لا سبيلَ لنا إلى صعودِ السماوات فكيف يُمكنُنا أن نراه؟ وللمبالغة في بيان عدم الإمكان قال: «يا هامان ابْنِ لي صرحاً» فما هو إلا لإظهارِ عدم إمكانِ ما ذكر لكلِّ أحدٍ. و«لعلي» لا تأبى ذلك لأنَّها للتهكُّم على هذا.

وهي شبهةٌ في غاية الفساد، إذ لا يلزم من انتفاء أحدِ طُرُقِ العلم بالشيء انتفاءُ ذلك الشيء. ورأيتُ لبعض السلفيِّين أنَّ اللعين ما قال ذلك إلَّا لأنه سمع من موسى عليه السلام أو من أحدٍ من المؤمنين وصفَ الله تعالى بالعلوِّ، أو بأنَّه سبحانه في السماء، فحمله على معنًى مستحيلٍ في حقِّه تعالى لم يُرِده موسى عليه السلام ولا أحدٌ من المؤمنين، فقال ما قال تهكُّماً وتمويهاً على قومه.

وللإمام في هذا المقام كلامٌ ردَّ به على القائلين بأنَّ الله تعالى في السماء، وردَّ

(١) ينظر الآيات (١٦-٢٤) من سورة الشعراء.

(٢) في التفسير الكبير ٢٧/ ٦٥.

احتجاجَهم بما أشعرتْ به الآيةُ على ذلك، وسمَّاهم: المشبِّهة[1]. والبحثُ في ذلك طويلُ المجال، والحقُّ مع السلف عليهم رحمةُ الملِك المتعال، وحاشاهم ثم حاشاهم من التشبيه.

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ يحتمل أن يكونَ عنى به: كاذباً في دعوى الرسالة، وأن يكونَ عنى به: كاذباً في دعوى أنَّ له إلهاً غيري؛ لقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ ذلك التزيين البليغ المُفْرِط ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فانهَمَك فيه انهماكاً لا يَرْعوِي عنه بحالٍ ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: عن سبيلِ الرشاد، فالتعريف للعهد، والفعلان مبنيَّان للمفعول، والفاعلُ في الحقيقة هو الله تعالى، ولم يفعل سبحانه كُلًّا من التزيين والصدِّ إلَّا لأنَّ فرعونَ طلبَه بلسانِ استعداده، واقتضى ذلك سوءُ اختيارِه، ويدلُّ على هذا أنه قرئ: «زَيَّن» مبنيًّا للفاعل[2]، ولم يسبق سوى ذكرِه تعالى دونَ الشيطان.

وجوِّز أن يكون الفاعلُ الشيطان، ونسبةُ الفعل إليه بواسطةِ الوسوسة.

وقرأ الحجازيان والشاميُّ وأبو عمرو: «وصَدَّ» بالبناء للفاعل[3] - وهو ضميرُ «فرعون» - على أنَّ المعنى: وصَدَّ فرعونُ الناسَ عن سبيل الرشاد بأمثالِ هذه التمويهات والشبهات، ويؤيِّدُه: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۝٣٧﴾ أي: في خَسارٍ لأنه يُشعر بتقدُّمِ ذكرٍ للكيد، وهو في هذه القراءة أظهر.

وقرأ ابن وثاب: «وصِدَّ» بكسر الصاد[4]، أصلُه: صُدِد، نُقِلت الحركةُ إلى الصاد بعد توهُّم حذفها.

وابنُ أبي إسحاق وعبد الرحمن بن أبي بكرة: «وصَدٌّ» بفتح الصاد وضمِّ الدال منونةً عطفاً على «سوءُ عمله»[5].

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٦٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٢٨، والبحر ٧/ ٤٦٦.

(٣) التيسير ص١٣٣، والنشر ٢/ ٢٩٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠، والبحر ٧/ ٤٦٦ والكلام منه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٣٣-٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٦٠، والبحر ٧/ ٤٦٦، ونُسِبت =

وقرئ: «وصُدُّوا» بواو الجمع، أي: هو وقومُه[1].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ هو مؤمنُ آلِ فرعون، وقيل فيه نظيرُ ما قيل في سابقه أنَّه موسى عليه السلام، وهو ضعيفٌ كما لا يخفى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ فيما دلَلْتُكم عليه ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ سبيلاً يصل به سالكُه إلى المقصود، وفيه تعريضٌ بأنَّ ما عليه فرعونُ وقومُه سبيلُ الغيِّ.

وقرأ معاذ بن جبل كما في «البحر»: «الرشَّاد» بشدِّ الشين[2]، وتقدَّم الكلامُ في ذلك، فلا تغفل.

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ أي: تمتُّعٌ، أو متمتَّعٌ به يسيرٌ لسُرعةِ زواله ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ لخلودِها ودوامِ ما فيها.

﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ﴾ في الدنيا ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ عدلاً من الله عزَّ وجلَّ، واستُدِلَّ به على أنَّ الجناياتِ تُغرَّم بمثلها، أي: بوِزَانِها من غيرِ مضاعَفةٍ ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين عمِلوا ذلك ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾﴾ بغيرِ تقديرٍ وموازَنةٍ بالعمل، بل أضعافاً مضاعفةً، فضلاً منه تعالى ورحمةً.

وقَسْمُ العُمَّالِ إلى ذكرٍ وأنثى؛ للاهتمام والاحتياط في الشمول لاحتمالِ نقص الإناث، وجَعْلُ الجزاءِ في جزاءِ أعمالهم جملةً اسميةً مصدَّرةً باسم الإشارة مع تفضيلِ الثواب وتفصيلِهِ؛ تغليباً للرحمة وترغيباً فيما عندَ الله عزَّ وجلَّ، وجَعْلُ العمل عُمدةً وركناً من القضية الشرطية والإيمانِ حالاً للدلالة على أنَّ الإيمانَ شرطٌ في اعتبار العمل والاعتدادِ به والثوابِ عليه؛ لأنَّ الأحوالَ قيودٌ وشروطٌ للحُكم التي وقعت فيه، ويتضمَّنُ ذلك الإشارةَ إلى عظيمِ شرَفِه ومزيد ثوابه.

= هذه القراءة في القراءات الشاذَّة ص١٣٢ لعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه.

(١) الكشاف ٣/ ٤٢٨.

(٢) البحر ٧/ ٤٦٦، وهي في القراءات الشاذة ص١٣٢.

وقرأ الأعرج والحسن وأبو جعفر وعيسى وغيرُ واحد من السبعة: «يُدْخَلون» مبنيًّا للمفعول[1].

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ كرَّر نداءَهم؛ إيقاظاً لهم عن سِنة الغفلة، واهتماماً بالمنادَى له، ومبالغةً في توبيخهم على ما يقابِلون به دعوتَه.

وتُرِك العطفُ في النداء الثاني وهو «يا قوم إنما الحياة الدنيا» إلخ؛ لأنه تفسيرٌ لِما أُجمِل في النداء قبلَه من الهداية إلى سبيل الرشاد، فإنَّها التحذيرُ من الإخلاد إلى الدنيا والترغيبُ في إيثار الآخرة على الأولى، وقد أدَّى ذلك فيه على أتمِّ وجهٍ وأحسنِه، ولم يُترَكْ في هذا النداء، لأنه ليس بتلك المثابة، وذلك لأنَّه للموازنة بين الدعوتين: دعوتِه إلى دين الله الذي ثمرتُه النجاةُ، ودعوتِهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبتُه النار، وليس ذلك من تفسيرِ الهداية في شيء، بل ذلك لتحقيقِ أنه هادٍ وأنَّهم مُضِلُّون، وأنَّ ما عليه هو الهدى، وما هم عليه هو الضلال، فهو عطفٌ على النداء الأولِ أو المجموع.

وقيل: هو عطفٌ على النداء الثاني داخلٌ معه في التفسير لِما أُجمِل في النداء الأول تصريحاً وتعريضاً. ولكلٍّ وجهٌ، وفي الترجيح كلامٌ.

﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بدلٌ من «تدعونني إلى النار»، أو عطفُ بيانٍ له بناءً على أنَّه يَجْري في الجُمَلِ كالمفردات، أو جملةٌ مستأنَفةٌ مفسِّرة لذلك، والدعاءُ كالهداية في التعدية بـ «إلى» واللام.

﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ﴾ أي: بكونه شريكاً له تعالى في المعبوديَّة أو بربوبيَّته وألوهيَّته ﴿عِلۡمٞ﴾ ونفْيُ العلم هنا كنايةٌ عن نفْي المعلوم، وفي إنكارِه للدعوة إلى ما لا يعلمه إشعارٌ بأنَّ الألوهيَّةَ لا بدَّ لها مِن برهانٍ موجبٍ للعلم بها.

---

(١) التيسير ص٩٧، والنشر ٢/ ٣٥٢، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر عن عاصم من السبعة، والكلام من البحر ٧/ ٤٦٦.

﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢﴾ المستجمِع لصفاتِ الألوهيَّة من كمال القدرة والغلبة وما يتوقَّفُ عليه من العلم والإرادة والتمكُّن من المجازاة والقدرةِ على التعذيب والغفرانِ، وخُصَّ هذان الوصفان بالذكر وإن كانا كنايةً عن جميع الصفات لاستلزامِهما ذلك ـ كما أُشير إليه ـ لِما فيهما من الدلالة على الخوفِ والرجاء المناسِب لحاله وحالهم.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ سياقُه على مذهب البصريين أنَّ «لا» ردٌّ لكلامٍ سابقٍ، وهو ما يدعونه إليه هاهنا من الكفر بالله سبحانه، وشركِ الآلهة الباطلةِ به عزَّ وجلَّ[(١)].

و«جَرَمَ» فعلٌ ماضٍ بمعنى: ثَبَتَ وحقَّ، كما في قوله:

ولقد طعنتُ أبا عُبيدةَ طعنةً جَرَمَتْ فَزارةُ بعدَها أن يغْضَبُوا[(٢)]

و«أنَّ» مع ما في حيِّزها فاعلُه، أي: ثَبَتَ وحقَّ عدمُ دعوةٍ للذي تدعونني إليه من الأصنام إلى نفسه أصلاً، يعني: إنَّ مِن حقِّ المعبود بالحقِّ أن يَدْعُوَ العبادَ المكرَمين كالأنبياء والملائكةِ إلى نفسِه ويأمُرهم بعبادته، ثم يدعو العبادُ بعضُهم بعضاً إليه تعالى وإلى طاعته سبحانه إظهاراً لدعوةِ ربِّهم عزَّ وجلَّ، وما تدعون إليه وإلى عبادته من الأصنام لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدَّعي الربوبيَّةَ أصلاً، لا في الدنيا؛ لأنه جمادٌ فيها لا يستطيع شيئاً من دعاءٍ وغيره، ولا في الآخرة؛ لأنه إذا أنشأه الله تعالى فيها حيواناً تبرَّأ من الدُّعاةِ إليه ومِن عَبَدته، وحاصله: حقَّ أنْ ليس لآلهتكم دعوةٌ أصلاً فليست بآلهةٍ حقَّةٍ.

أو بمعنى: كَسَب، وفاعلُه ضميرُ الدعاء السابقِ الذي دعاه قومُه، و«أن» مع ما في حيِّزها مفعولُه، أي: كَسَب دعاؤكم إياي إلى آلهتِكم أنْ لا دعوةَ لها، أي: ما حصلَ مِن ذلك إلَّا ظهورُ بطلانِ دعوتها وذهابُها ضَياعاً.

وقيل: «جَرَمَ» اسمُ «لا» وهو مصدَرٌ مبنيٌّ على الفتح بمعنى القطع، والخبرُ

---

(١) وقع في (م) كلمة «به» بعد قوله: عز وجلّ. وهو خطأ.

(٢) سلف ٧/ ٢٤.

«أنَّ» مع ما في حيِّزها، على معنى: لا قَطْعَ لبطلانِ دعوة ألوهيَّة الأصنام، أي: لا ينقطع ذلك البطلانُ في وقتٍ من الأوقات فينقلب حقًّا، وهذا البطلان هو معنى النفْي الذي يُفْهم من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ إلخ، و«لا جَرَمَ» على هذا مثلُ «لا بُدَّ»، فإنَّه من التبديدِ وهو التفريقُ وانقطاعُ بعضِ الشيء من بعضٍ، ومن ثَمَّ قيل: المعنى: لا بدَّ مِن بطلان دعوةِ الأصنام، أي: بطلانُها أمرٌ ظاهرٌ مقرَّرٌ، ونقل هذا القولُ عن الفراء، وعنه أنَّ ذلك هو أصلُ «لا جرم»، لكنه كثر استعماله حتى صار بمعنى حقاً، فلهذا يجاب بما يجاب به القسم في مثل: لا جَرَمَ لآتينَّك[1].

وفي «الكشاف»: ورُوي عن العرب: لا جُرْمَ أنه يفعل، بضمِّ الجيم وسكون الراء، أي: لا بدَّ، وفُعْل وفَعَل أخوان، كرُشْد ورَشَد، وعُدْم وعَدَم[2]. وهذه اللغةُ تؤيِّد القولَ بالاسميَّة في اللغة الأخرى ولا تُعيِّنها كما لا يخفى، وقد تقدَّم شيءٌ من الكلام في «لا جَرَم» أيضاً، فليتذكَّر[3].

ولامُ «له» في جميع هذه الأوجه لنسبة الدعوة إلى الفاعل على ما سمعتَ من المعنى، وجوِّز أن يكونَ لنسبتها إلى المفعول، فإنَّ الكفَّارَ كانوا يَدْعُون آلهتَهم، فنَفَى في الآية دعاءَهم إياها على معنى نَفْي الاستجابةِ منها لدُعائهم إياها، فالمعنى: إنَّ ما تدعونَني إليه من الأصنامِ ليس له استجابةُ دعوةٍ لمن يَدعوه أصلاً، أو: ليس له دعوةٌ مستجابةٌ، أي: لا يُدْعَى دعاء يستجيبه لداعيه، فالكلامُ إمَّا على حذفِ المضافِ، أو على حذفِ الموصوف.

وجوِّز التجوُّزُ فيه بالدعوة عن استجابتها التي تترتَّبُ عليها، وهذا كما سُمِّي الفعلُ المجازَى عليه باسم الجزاء في قولهم: كما تدين تدان، وهو من باب المشاكلة عندَ بعضٍ.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مَرْجعَنا إليه تعالى بالموت، وهذا عطفٌ على

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/٨.

(٢) الكشاف ٣/٤٢٩.

(٣) ينظر ١٢/٣٣.

«أنما تدعونني» داخلٌ في حكمه، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾، وفسَّر ابنُ مسعود ومجاهد «المسرفين» هنا بالسفَّاكين للدماء بغير حِلِّها[1]، فيكونُ المؤمنُ قد خَتَم تعريضاً بما افتتح به تصريحاً في قوله: «أتقتلون رجلاً».

وعن قتادةَ أنهم المشركون، فإنَّ الإشراكَ إسرافٌ في الضلالة، وعن عكرمة أنهم الجبَّارون المتكبِّرون[2]. وقيل: كلُّ مَن غلب شرُّه خيرَه فهو مُسرف.

والمراد بـ «أصحاب النار» ملازموها، فإن أريد بـ «المسرفين» ما يدخُل فيه المؤمن العاصي أريد بالملازمةِ العرفيةُ الشاملةُ للمُكث الطويل، وإن أريد بهم ما يَخُصُّ الكَفَرَة فهي بمعنى الخلود.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ وقرئ: «فستَذَكَّرون» بالتشديد[3]، أي: فسَيُذَكِّر بعضُكم بعضاً عند معايَنةِ العذاب ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النصائح ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليعصِمَني مِن كلِّ سوءٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ فيَحرُس مَن يلوذُ به سبحانه منهم مِن المكارِه، وهذا يحتمل أن يكونَ جوابَ توعُّدِهم المفهوم من قوله تعالى: (وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ)، أو من قوله سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾، ويحتمل أن يكونَ متارَكةً، والتفريعُ في «فستذكرون» على قوله الأخير: «يا قوم ما لي أدعوكم» إلخ، وجَعَله من جعَل ذلك معطوفاً على «يا قوم» الثاني تفريعاً على جملة الكلام.

و«ما» في «ما مكروا» مصدريةٌ، و«السيئات»: الشدائدُ، أي: فوقاه الله تعالى شدائدَ مكرِهم.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٦٢، والبحر ٧/ ٤٦٨.

(٢) قول قتادة في تفسير الطبري ٢٠/ ٣٣٤، والنكت والعيون ٥/ ١٥٨، وقول عكرمة في البحر ٧/ ٤٦٨.

(٣) أي: بتشديد الكاف وفتحها مع فتح الذال وتخفيفها، ونُسبت لابن مسعود وأبي عمران الجوني وأبي العالية وابي رجاء، وروي عن أُبي وأيوب السختياني: «فستذَّكَّرون» بفتح الذال والكاف وتشديدهما جميعاً. زاد المسير ٧/ ٢٢٥-٢٢٦.

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: بفرعونَ وقومه، فاستغنى بذكرهم عن ذكره ضرورةَ أنه أولى منهم بذلك، ويجوز أن يكونَ آلُ فرعونَ شاملاً له عليه اللعنة بأن يرادَ بهم مطلقُ كَفرةِ القبط كما قيل في قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]: إنَّه شاملٌ لداودَ عليه السلام، وكانوا على ما حكى الأوزاعيُّ - ولا أعتقد صحته - ألفَي ألفٍ وستّ مئة ألفٍ.

وعن ابن عباس: إنَّ هذا المؤمنَ لَمَّا أظهرَ إيمانَه قصد فرعون قتلَه، فهرب إلى جبلٍ، فبعث في طلبه ألفَ رجلٍ، فمنهم مَن أدركه يُصلِّي والسباعُ حولَه، فلمَّا همُّوا ليأخذوه ذبَّت عنه فأكلَتْهم، ومنهم من مات في الجبل عطَشاً، ومنهم من رَجع إلى فرعون خائباً فاتَّهمه وقتله وصلبه، فالمراد بـ «آل فرعون» هؤلاء الألف الذين بعثهم إلى قتله[١].

أي: فنزل بهم وأصابهم ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥﴾ الغَرَقُ على الأول، وأكلُ السباع، والموتُ عطشاً، والقتلُ والصلبُ، على ما روي عن ابن عباس، والنارُ عليهما، ولعلَّه الأولى، وإضافة «سوء» إلى «العذاب» لاميةٌ، أو مِن إضافةِ الصفة للموصوف.

وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾ مبتدأ، وجملةُ قولهِ تعالى: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ خبرُه، والجملةُ تفسيرٌ لقوله تعالى: «وحاق» إلخ.

وجوِّز أن تكونَ «النار» بدلاً مِن «سوء العذاب»، و«يعرضون» في موضع الحال منها، أو من الآل، وأن تكونَ «النارُ» خبرَ مبتدأ محذوفٍ هو ضميرُ «سوء العذاب»، كأنه قيل: ما سوءُ العذاب؟ فقيل: هو النار، وجملةُ «يعرضون» تفسيرٌ على ما مرَّ، وفي الوجه الأول مِن تعظيم أمرِ النار وتهويلِ عذابها ما ليس في هذا الوجه كما ذكره صاحبُ «الكشاف»[٢]، ومنشأُ التعظيم على ما في «الكشف» الإجمالُ والتفسيرُ في كيفية تعذيبهم، وإفادةُ كلٍّ مِن الجملتَيْن نوعاً من التهويل: الأولى الإحاطةُ بعذابٍ يستحقُّ أن يسمَّى سوءَ العذاب، والثانيةُ النارُ المعروضُ هم عليها غدوًّا وعشيًّا.

---

(١) البحر ٧/ ٤٦٨.
(٢) ٣/ ٤٣٠.

والسرُّ في إفادةِ تعظيم النارِ في هذا الوجه دونَ ما تضمَّنَ تفسير «سوء العذاب» وبيان كيفيةِ التعذيب = أنَّك إذا فسَّرتَ «سوء العذاب» بالنار فقد بالغت في تعظيم سوء العذاب، ثم استأنفتَ بـ «يعرضون عليها» تتميماً لقوله تعالى: «وحاق بآل فرعون» من غيرِ مدخلٍ للنار فيما سيق له الكلام، وإذا جئتَ بالجملتَين من غيرِ نظرٍ إلى المفردَين وأنَّ أحدَهما تفسيرٌ للآخر فقد قصدتَ بالنار قصدَ الاستقلال حيثُ جعلتَها معتمَدَ الكلام وجئتَ بالجملة بياناً وإيضاحاً للأولى، كأنك قد آذنتَ بأنَّها أوضحُ لاشتمالِها على ما لا أسوأَ منه، أعني النارَ؛ على أنَّ مِن موجباتِ تقديم المسنَد إليه إنباؤُه عن التعظيم مع اقتضاءِ المقام له، وهاهنا كذلك على ما لا يخفى، والتركيبُ أيضاً يفيد التقوِّي على نحو: زيدٌ ضربته.

ومن هنا قال صاحبُ «الكشف»: هذا هو الوجهُ، وأُيِّد بقراءةِ مَن نَصَبَ «النارَ»[1] بناءً على أنها ليست منصوبة بـ : أخصُّ أو أعني، بل بإضمارِ فعلٍ يفسِّره «يُعرَضون» مثل: يُصْلَوْنَ، فإنَّ عرضَهم على النار إحراقُهم بها مِن قولهم: عُرِض الأسارى على السيف؛ قُتِلوا به، وهو من بابِ الاستعارةِ التمثيلية بتشبيهِ حالِهم بحالِ متاعٍ يُبْرَز لمن يريد أخذَه، وفي ذلك جعلُ النار كالطالبِ الراغبِ فيهم لشدَّةِ استحقاقِهم الهلاكَ.

وهذا العرضُ لأرواحهم؛ أخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد عن هذيل بن شرحبيل أنَّ أرواحَ آلِ فرعون في أجوافِ طيرٍ سودٍ تغدو وتَروحُ على النار، فذلك عَرْضُها[2].

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن مسعود نحو ذلك[3].

وهذه الطيرُ صُوَرٌ تُخلَق لهم من صُوَرِ أعمالهم، وقيل: ذاك من بابِ التمثيل. وليس بذاك.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٣٠، والبحر ٧/ ٤٦٨.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٦٥-١٦٦، والزهد لهناد بن السري (٣٦٦)، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٥١. ووقع في (م): «هزيل» بالزاي، وهو تصحيف.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٨٢، وعزاه لابن أبي حاتم ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

وذكرُ الوقتين ظاهرٌ في التخصيص، بمعنى أنَّهم يُعْرَضُون على النارِ صباحاً مرَّةً ومساءً مرَّةً، أي: فيما هو صباحٌ ومساءٌ بالنسبة إلينا، ويشهَدُ له ما أخرجه ابن المنذر والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» وغيرُهما عن أبي هريرةَ أنه كان له صرختان في كلِّ يوم غدوةً وعشيَّةً، كان يقولُ أوَّلَ النهار: ذهبَ الليل وجاء النهار وعُرِض آلُ فرعون على النار، ويقول أولَ الليل: ذهب النهارُ وجاء الليلُ وعُرِض آلُ فرعون على النار. فلا يسمعُ أحدٌ صوتَه إلا استعاذَ بالله تعالى من النار[1].

والفصلُ بين الوقتين إمَّا بتركِ العذاب أو بتعذيبِهم بنوعٍ آخرَ غيرِ النار. وجوِّز أن يكونَ المرادُ التأبيدَ؛ اكتفاءً بالطرفَيْن المحيطَيْن عن الجميع.

وأيًّا ما كان ففي الآية دليلٌ ظاهرٌ على بقاء النفس وعذابِ البرزخ؛ لأنه تعالى بعدَ أن ذَكَر ذلك العرضَ قال جلَّ شأنه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ وهو ظاهرٌ في المغايرة فيتعيَّنُ كونُ ذلك في البرزخ، ولا قائلَ بالفرق بينَهم وبين غيرهم، فيتمُّ الاستدلالُ على العموم، وفي الصحيحين وغيرِهما عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِض عليه مقعدُه بالغداة والعَشِيِّ، إن كان مِن أهْلِ الجنة فَمِنْ أهلِ الجنة، وإنْ كانَ مِن أهلِ النارِ فمِن أهلِ النار، فيقال: هذا مقعدُك حتى يبعثك الله تعالى»[2].

و«يوم» على ما استظهره أبو حيان[3] معمولٌ لقولٍ مضمَرٍ، والجملةُ عطفٌ على ما قبلَها، أي: ويومَ تقومُ الساعةُ يُقال للملائكة: أَدْخِلوا آلَ فرعون أشدَّ العذاب، أي: عذابَ جهنَّمَ، فإنَّه أشدُّ مما كانوا فيه، أو أشدَّ عذابِ جهنَّمَ، فإنَّ عذابَها ألوانٌ بعضُها أشدُّ من بعضٍ.

وعن بعضٍ: أشدُّ العذابِ هو عذابُ الهاوية.

وقيل: هو معمولُ: «أدخلوا». وقيل: هو عطفٌ على «عشيًّا»، فالعاملُ فيه «يُعرَضون»، و«أدخلوا» على إضمارِ القول. وهو كما ترى.

---

(١) شعب الإيمان (٤٠٠)، وعزاه لابن المنذر وعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٢.
(٢) صحيح البخاري (٦٥١٥)، وصحيح مسلم (٢٨٦٦)، وهو عند أحمد (٤٦٥٨).
(٣) في البحر المحيط ٧/ ٤٦٨.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله وجهه والحسن وقتادة وابن كثير والعربيان وأبو بكر: «ادْخُلوا» على أنَّه أمرٌ لآلِ فرعون بالدخول[١]، أي: ادْخُلوا يا آلَ فرعون.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ معمولٌ لـ: اذكر، محذوفاً، أي: واذكُرْ وقتَ تخاصُمِهم في النار، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها عطفَ القصَّةِ على القصَّةِ، لا على مقدَّرٍ تقديرُه: اذكُرْ ما تُلِيَ عليك من قصَّةِ موسى عليه السلام وفرعونَ ومؤمنِ آل فرعون، ولا على قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، أو على قوله سبحانه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ [غافر: ١٨] لعدم الحاجةِ إلى التقدير في الأول، وبُعد المعطوفِ عليه في الأخيرَيْن.

وزعم الطبريُّ أنَّ «إذ» معطوفةٌ على ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: ١٨][٢]، وهو مع بُعدِه فيه ما فيه.

وجوَّز أن تكونَ معطوفةً على «غدوًّا»، وجملةُ «يوم تقوم» اعتراضٌ بينَهما، وهو مع كونه خلافَ الظاهر قليلُ الفائدة.

وضميرُ «يتحاجُّون» على ما اختاره ابن عطية[٣] وغيرُه لجميعِ كفَّارِ الأمَم. ويتراءى من كلام بعضِهم أنه لكفَّارِ قُريش. وقيل: هو لآل فرعون.

وقوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ تفصيلٌ للمُحاجَّة والتخاصُمِ في النار، أي: يقول المرؤوسون لرؤسائهم: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ تِباعاً، فهو كخَدَم في جمعِ خادم.

وذهب جمعٌ ـ لقلَّةِ هذا الجمع ـ إلى أنَّ «تَبعاً» مصدرٌ، إمَّا بتقديرِ مضافٍ، أي: إنا كنَّا لكم ذَوي تَبَعٍ، أي: أتباعاً، أو على التجوُّزِ في الطرفِ أو الإسناد للمبالغة بجعلهم لشدَّةِ تبعيَّتِهم كأنهم عينُ التبعية.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧﴾ بدفعِ بعضِ عذابها أو بتحمُّلِه

---

(١) التيسير ص١٩٢، والنشر ٢/ ٣٦٥ عن ابن كثير وأبي بكر والعربيين، وهما أبو عمرو وابن عامر.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٤١.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٣.

عنا، و«مغنون» مِن الغَناءِ بالفتح بمعنى الفائدة، و«نصيباً» بمعنى حِصَّةٍ مفعولٌ لِما دلَّ عليه من الدفع أو الحمل، أو له بتضمينِ أحدِهما، أي: دافعين أو حاملين عنَّا نصيباً، ويجوز أن يكونَ «نصيباً» قائماً مقامَ المصدرِ كـ «شيئاً» في قوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المجادلة: ١٧]، و«من النار» على هذا متعلِّقٌ بـ «مُغْنونَ»، وعلى ما قبلَه ظرفٌ مستقِرٌّ بيانٌ لـ «نصيباً».

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ للضعفاءِ: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ نحن وأنتم، فكيف نُغْني عنكم؟! ولو قدَرْنا لدفَعْنا عن أنفسنا شيئاً من العذاب، ورفع «كلٌّ» على الابتداء، وهو مضافٌ تقديراً لأنَّ المراد: كلُّنا، و«فيها» خبرُه، والجملةُ خبرُ «إنَّ».

وقرأ ابنُ السميفع وعيسى بن عمر: «كلًّا» بالنصب، وخرَّجه ابنُ عطية والزمخشريُّ على أنه توكيدٌ لاسم «إنَّ»[(١)]، وكونُ «كل» المقطوعِ عن الإضافة يقعُ تأكيداً اكتفاءً بأنَّ المعنى عليها مذهبُ الفراء، ونقله أبو حيان عن الكوفيين[(٢)]. وردَّه ابن مالك في شرحه لـ «التسهيل».

وقيل: هو حالٌ من المستكَنِّ في الظرف.

وتعقِّب بأنه في معنى المضاف ولذا جاز الابتداءُ به، فكيف يكون حالاً؟ وإذا سلِّم كفايةُ هذا المقدار من التنكير في الحالية فالظرفُ لا يعمل في الحال المتقدِّمةِ كما يعمل في الظرف المتقدِّم نحو: كلَّ يوم لك ثوبٌ.

وأجيب عن أمرِ العمل بأنَّ الأخفش أجازَ عملَ الظرف في الحال إذا توسَّطت بينَه وبين المبتدأ، نحو: زيدٌ قائماً في الدار عندك، وما في الآية الكريمة كذلك، على أنَّ بعضَهم أجاز ذلك ولو تقدَّمت الحالُ على المبتدأ أو الظرف؛ نعم منَعَه بعضُهم مطلقاً لكن المخرِّجَ لم يقلِّده.

وابنُ الحاجب جوَّزه في بعض كتبه ومنعه في بعض، قيل: وقد يوفَّق بينهما بأنَّ المنعَ على تقديرِ عمل الظرف لنيابته عن متعلَّقه، والجوازُ على جعل العاملِ متعلَّقه

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٦٣، والبحر ٧/ ٤٦٩.

(٢) البحر ٧/ ٤٦٩. والكلام وما بعده منه.

المقدَّر فيكونُ لفظيًّا لا معنويًّا، وإلى هذا التخريج ذهب ابن مالك، وأنْشد له قول بعض الطائيين:

دَعـا فَـأَجَـبْـنـا وَهْـوَ بـاديَ ذِلَّـةٍ   لَـدَيكم فكـانَ النصرُ غيرَ قريب[1]

وحُمل قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] في قراءة النصب على ذلك.

وقال أبو حيان: الذي أختاره في تخريج هذه القراءة أنَّ «كلًّا» بدلٌ من اسم «إنَّ»؛ لأنَّ «كلًّا» يُتصرَّف فيها بالابتداءِ ونواسخِه وغيرِ ذلك، فكأنه قيل: إنَّ كلًّا فيها. وإذا كانوا قد تأوَّلوا: حولاً أكتعاً، ويوماً أجمعاً، على البدل مع أنَّهما لا يليان العواملَ، فَأَن يُدَّعَى في «كلّ» البدلُ أولى، وأيضاً فتنكير «كلّ» ونصبُه حالاً في غاية الشذوذ نحو: مررتُ بهم كلًّا، أي: جميعاً.

ثم قال: فإن قلتَ: كيف تجعله بدلاً وهو بدلُ كلٍّ من كلٍّ من ضمير المتكلِّم، وهو لا يجوز على مذهب جمهور البصريين[2]؟ قلتُ: مذهب الأخفش والكوفيين جوازُه، وهو الصحيح، على أنَّ هذا ليس مما وقع فيه الخلافُ، بل إذا كان البدلُ يفيد الإحاطةَ جاز أن يُبدَل من ضميرِ المتكلِّم وضميرِ المخاطَب لا نعلم خلافاً في ذلك كقوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ [المائدة: ١١٤] وكقولك: مررتُ بكم صغيرِكم وكبيرِكم، معناه: مررتُ بكم كلِّكم، و: تكونُ لنا عيداً كلِّنا، فإذا جاز ذلك فيما هو بمعنى الإحاطة فجوازُه فيما دلَّ على الإحاطة وهو «كلّ» أولى، ولا التفات لمنع المبرِّد البدلَ فيه لأنَّه بدلٌ من ضمير المتكلِّم؛ لأنه لم يحقِّق[3] مناط الخلاف. انتهى.

ولعلَّ القولَ بالتوكيد أحسنُ من هذا وأقربُ، وردُّ ابن مالك له لا يعوَّل عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ فأدخلَ أهلَ الجنةِ الجنةَ وأهلَ النارِ النارَ، وقدَّر لكلٍّ منا ومنكم عذاباً لا يُدفع عنه ولا يتحمَّله عنه غيرُه.

---

(١) البحر ٧/ ٤٦٩.

(٢) وقع في الأصل: جمهور المتكلمين، وفي (م): جمهور النحويين. وفي مطبوع البحر: البصريين، وكلمة جمهور ساقطة منه، والمثبت من النهر الماد لأبي حيان على هامش البحر ٧/ ٤٦٩.

(٣) في النهر والبحر: يتحقق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ من الضعفاء والمستكبرين جميعاً لَمَّا ضاقت بهم الحِيَلُ وَعيَّت بهم العِلَلُ ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي: للقُوَّام بتعذيبِ أهل النار، وكان الظاهرُ «لخزنتها» بضميرِ النار، لكن وُضع الظاهرُ موضعَه للتهويل، فإنَّ جهنَّمَ أخصُّ من النار بحسب الظاهرِ؛ لإطلاقِها على ما في الدنيا، أو لأنَّها محلٌّ لأشدِّ العذابِ الشاملِ للنار وغيرِها.

وجوِّز أن يكونَ ذلك لبيانِ محلِّ الكَفَرةِ في النار بأنْ تكونَ جهنَّمُ أبعدَ دَرَكاتِها، من قولهم: بئرٌ جِهِنَّامٌ: بعيدةُ القعر، وفيها أعتى الكَفَرةِ وأطغاهم، فلعلَّ الملائكةَ الموكَّلين بعذابِ أولئك أجْوَبُ دعوةً لزيادة قربهم من الله عزَّ وجلَّ فلهذا تعمَّدهم أهلُ النار بطلب الدعوة منهم، وقالوا لهم: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي: مقدارَ يوم من أيام الدنيا ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ أي: شيئاً من العذاب، فمفعولُ «يخفِّف» محذوفٌ، و«مِن» تحتمل البيانَ والتبعيضَ، ويجوز أن يكونَ المفعولُ «يوماً» بحذف المضافِ نحو: أَلَمَ يومٍ، و«من العذاب» بيانه، والمرادُ: يَدْفَع عنا يوماً من أيام العذاب.

﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: أَلَم تُنبَّهُوا على هذا ولم تَكُ تأتيكم رسلُكم في الدنيا على الاستمرار بالحجَج الواضحة الدالَّة على سُوءِ مغبَّةِ ما كنتم عليه من الكفر والمعاصي، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١]، وأرادوا بذلك إلزامَهم وتوبيخَهم على إضاعة أوقاتِ الدعاء وتعطيلِ أسبابِ الإجابة.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: أتَوْنا بها فكذَّبناهم، كما نطق به قولُه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٩].

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾ فصيحةٌ، أي: إذا كان الأمرُ كذلك فادعوا أنتم، فإنَّ الدعاءَ لمن يَفْعَل فعلَكم ذلك مستحيل صدوره عنا.

وقيل في تعليلِ امتناع الخَزَنة عن الدعاء: لأنَّا لم نُؤذَن في الدعاء لأمثالكم.

وتعقِّب بأنَّه مع عَرائِه عن بيانِ أنَّ سببَه من قِبَل الكَفَرة كما يُفْصح عنه الفاءُ ربَّما يُوهِم أنَّ الإذنَ في حيِّزِ الإمكان، وأنَّهم لو أُذِن لهم لفَعَلوا، فالتعليلُ الأوَّلُ أولى.

ولم يُرِيدوا بأمرِهم بالدعاءِ إطماعَهم في الإجابة، بل إقناطَهم منها وإظهارَ خَيْبَتِهم حَسْبَما[1] صرَّحوا به في قولهم: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ۝٥٠﴾ أي: في ضَياعٍ وبطلانٍ، أي: لا يُجاب، فهذه الجملةُ مِن كلام الخَزَنة، وقيل: هي من كلامه تعالى إخباراً منه سبحانه لرسوله محمد ﷺ.

واستدلَّ بها مطلقاً مَن قال: إنَّ دعاءَ الكافر لا يُستجاب، وأنَّه لا يمكَّن مِن الخروج في الاستسقاء. والحقُّ أنَّ الآيةَ في دُعاءِ الكُفَّار يومَ القيامة، وأنَّ الكافرَ قد يقع في الدنيا ما يدعو به ويطلبه من الله تعالى إثرَ دعائه، كما يشهَدُ بذلك آياتٌ كثيرةٌ، وأمَّا أنَّه هل يقال لذلك إجابةٌ أم لا؟ فبحثٌ لا جدوى له.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ، كلامٌ مستأنَفٌ مسوقٌ مِن جهتِه تعالى لبيانِ أنَّ ما أصاب الكَفَرةَ من العذابِ المحكيِّ مِن فروعِ حُكْم كليٍّ تقتضيه الحكمةُ، هو: إنَّ شأنَنا المستمِرَّ أنَّنا نَنصُر رُسُلَنا وأتباعَهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالحُجّة والظفر والانتقامِ لهم من الكَفَرةِ بالاستئصالِ والقتلِ والسَّبْي وغيرِ ذلك من العقوبات. ولا يقدَحُ في ذلك ما قد يتَّفِق للكَفَرة من صُورةِ الغلبة امتحاناً، إذ العبرةُ إنَّما هي بالعواقب وغالبِ الأمر، وقد تقدَّم تمامُ الكلام في ذلك، فتذكَّر.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١﴾ أي: ويومَ القيامة، عبَّر عنه بذلك للإشعار بكيفيةِ النُّصْرة، وأنَّها تكونُ عندَ جَمْع الأوَّلين والآخِرين، وشهادةِ الأشهادِ للرسل بالتبليغ وعلى الكَفَرةِ بالتكذيب، فالأشهادُ جمعُ شهيدٍ بمعنى شاهدٍ كـ: أشراف جمع شَريف، وقيل: جَمْع شاهدٍ، بناءً على أنَّ فاعلاً قد يُجْمَع على أفعال، وبعضُ مَن لم يجوِّزْ يقول: هو جمعُ شَهْدٍ بالسكون اسم جمعٍ لشاهدٍ، كما قالوا في صَحْبٍ بالسكون: اسم جمعٍ لصاحب. وفسَّر بعضُهم «الأشهاد» بالجوارحِ، وليس بذاك. وهو عليهما من الشهادة، وقيل: هو من المشاهَدة بمعنى الحُضُور.

وفي «الحواشي الخفاجية» أنَّ النصرةَ في الآخرة لا تتخلَّفُ أصلاً، بخلافها في الدنيا فإنَّ الحربَ فيها سِجَالٌ وإن كانت العاقبةُ للمتَّقين، ولذا دخلت «في» على

---

(١) في الأصل و(م): حيثما، والمثبت من تفسير أبي السعود ٧/ ٢٨٠، والكلام منه.

«الحياة الدنيا» دونَ قرينِه، لأنَّ الظرفَ المجرورَ بـ «في» لا يُستَوْعَب كالمنصوب على الظرفية كما ذكره الأصوليون[١]. انتهى، وفيه بحث.

وقرأ ابن هرمز، وإسماعيل، وهي رواية عن أبي عمرو: «تقوم» بتاء التأنيث[٢]، على معنى جماعةِ الأشهاد.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدلٌ من «يوم يقوم»، و«لا» قيل: تحتمل أن تكونَ لنفْيِ النفع فقط على معنى أنَّهم يعتذِرُون ولا ينفعهم معذرتُهم لبطلانها، وتحتمل أن تكونَ لنفْيِ النفع والمعذرةِ على معنى: لا تقع معذرةٌ لتنفع، وفي «الكشاف»: يحتمل أنَّهم يعتَذِرون بمعذرةٍ ولكنَّها لا تنفَعُ لأنها باطلةٌ، وأنَّهم لو جاؤوا بمعذرةٍ لم تكن مقبولةً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦][٣].

وأراد ـ على ما في «الكشف» ـ أنَّ عدمَ النفعِ إمَّا لأمرٍ راجعٍ إلى المعذرة الكائنة وهو بطلانها، وإما لأمرٍ راجع إلى مَن يقبل العُذْرَ، ولا نظرَ فيه إلى وقوع العذر.

والحاصل أنَّ المقصودَ بالنفْيِ الصفة، ولا نظرَ فيه إلى الموصوفِ نفياً أو إثباتاً، وليس في كلامه إشارةٌ إلى إرادةِ نفْيِهما جميعاً، فتدبَّر.

وقرأ غيرُ الكوفيين ونافع: «لا تنفع» بالتاء الفوقية[٤]، ووجهُها ظاهرٌ. وأما قراءةُ الياء فلأنَّ المعذرةَ مصدرٌ وتأنيثه غيرُ حقيقيٍّ مع أنَّه فُصِل عن الفعل بالمفعول.

﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: البعد من الرحمة. ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ هي جهنم، وسوءُها ما يسوءُ فيها من العذاب، فإضافتُه لاميةٌ، أو هي من إضافةِ الصفةِ للموصوف، أي: الدار السُّوْأى.

ولا يخفى ما في الجملتين من إهانتِهم والتهكُّم بهم.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٧٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٤، والبحر ٧/ ٤٧٠.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٣٢.

(٤) التيسير ص١٩٢، والنشر ٢/ ٣٦٥.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ما يهتدى به من المعجزات والصُّحُفِ والشرائع، فهو مصدرٌ تُجوِّزَ به عمَّا ذُكِر، أو جُعل عينَ الهدى مبالغةً فيه.

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾﴾ تركْنا عليهم بعدَ وفاتِه عليه السلام من ذلك التوراة، فالإيراثُ مجازٌ مرسلٌ عن الترك، أو هو استعارةٌ تبعيَّةٌ له. ويجوز أن يكونَ المعنى: جعلنا بني إسرائيلَ آخذين الكتابَ عنه عليه السلام بلا كسبٍ، فيشملُ مَن في حياته عليه السلام كما يقال: «العلماءُ ورثة الأنبياء»[1]، وهو وجهٌ، إلا أنَّ اعتبارَ: بعد الموت، أوْفَقُ في الإيراث، والعلاقةُ عليه أتمُّ.

وإرادةُ التوراةِ من «الكتاب» هو الظاهرُ، وجوِّز أن يكونَ المرادُ به جنس ما أُنزِل على أنبيائهم فيشمل التوراةَ والزبورَ والإنجيلَ.

﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ هدايةً وتذكرةً، أي: لأجلِهما، أو هادياً ومذكِّراً، فهما مصدران في موضع الحال ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ لذَوِي العقول السليمة الخالصة من شوائبِ الوهم، وخُصُّوا لأنَّهم المنتفعون به.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ أي: إذا عرفتَ ما قصَصْناه عليك للتأسِّي فاصْبِر على ما نالك من أذيَّةِ المشركين ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ إياكَ والمؤمنين بالنصرِ المشارِ إليه بقوله سبحانه: «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا» أو جميعَ مواعيده تعالى - ويدخل فيه وعدُه سبحانه بالنصر دخولاً أوليًّا - ﴿حَقٌّ﴾ لا يُخلِفه سبحانه أصلاً، فلا بدَّ من وقوع نصرِه جلَّ شأنُه لك وللمؤمنين، واستشهد بحالِ موسى ومَن معه وفرعونَ ومَن تبعه.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أقبِلْ على أمرِ الدين، وتَلافَ ما ربَّما يَفْرُطُ مِمَّا يُعَدُّ بالنسبة إليك ذنباً وإن لم يكُنْه، ولعلَّ ذلك هو الاهتمامُ بأمرِ العِدَا بالاستغفار، فإنَّ الله تعالى كافيك في النصر وإظهارِ الأمر.

وقيل: «لذنبك»: لذنبِ أمَّتِك في حقِّك، قيل: فإضافةُ المصدر للمفعول.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: ودُم على التسبيح والتحميدِ لربِّك، على أنَّه عُبِّر بالطرفين وأُريد جميعُ الأوقات. وجوِّز أن يرادَ خصوصُ الوقتين.

---

(١) سلف ١٩/ ٣٧٧.

والمراد بالتسبيح معناه الحقيقيُّ كما في الوجه الأول، أو الصلاةُ؛ قال قتادة: أريد صلاةُ الغداة وصلاةُ العصر. وعن الحسن: أريد ركعتان بكرةً وركعتان عشيًّا. قيل: لأنَّ الواجبَ بمكة كان ذلك، وقد قدَّمْنا أنَّ الحسنَ لا يقول بفرضية الصلوات الخمس بمكة، فقيل: كان يقول بفرضية ركعتين بكرةً وركعتين عشيًّا[1].

وقيل: إنه يقول: كان الواجبُ ركعتين في أيِّ وقتٍ اتفق. والكلُّ مخالفٌ للصريح المشهور.

وجوِّز على إرادةِ الدوام أن يرادَ بالتسبيح الصلاةُ، ويراد بذلك الصلواتُ الخمسُ، وحَكَى ذلك في «البحر» عن ابن عباس رضي الله عنهما[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دلائلِه سبحانه التي نَصَبها على توحيده وكُتُبِه المنزَّلة، وما أظهر على أيدي رُسُله من المعجزات ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ أي: بغير حجَّةٍ في ذلك أتَتْهم من جهتِه تعالى، والجارُّ متعلِّق بـ «يجادلون»، وتقييدُ المجادَلةِ بذلك مع استحالةِ إتيانِ الحُجَّة؛ للإيذان بأنَّ المتكلِّمَ في أمرِ الدين لا بدَّ من استنادِه إلى حُجَّةٍ واضحة وبُرهانٍ مُبِيْنٍ، وهذا عامٌّ في كلِّ مجادِلٍ مُبطلٍ وإن نزل في قومٍ مخصوصين، وهم على الأصحِّ مشركو مكة.

وقولُه تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ﴾ خبرٌ لـ «إنَّ»، و«إنْ» نافيةٌ، والمرادُ بالصدور القلوبُ، أُطلِقَت عليها للمجاوَرةِ والملابَسةِ، والكِبْرُ: التكبُّرُ والتعاظمُ، أي: ما في قلوبِهم إلَّا تكبُّرٌ عن الحقِّ وتعاظُمٌ عن التفكُّر والتعلُّم، أو هو مجازٌ عن إرادةِ الرياسةِ والتقدُّمِ على الإطلاق، أو إرادةِ أن تكونَ النبوَّةُ لهم، أي: ما في قلوبِهم إلا إرادةُ الرياسة، أو أن تكونَ النبوَّةُ لهم دونَك حسداً وبغياً حسبَما قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقالوا: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. ولذلك يُجادِلون في آياته تعالى، لا أنَّ فيها موقعَ جدال ما، أو أنَّ لهم شيئاً يُتَوَهَّمُ صلاحيتُه لأن يكونَ مداراً لمجادَلتِهم في الجملة.

---

(١) ينظر ٢٠/ ٤٢٧-٤٢٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٧١.

وقوله تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ صفةٌ لـ «كِبْر»، أي: ما هم ببالغي موجِبِ الكِبْر ومقتضِيه، وهو متعلَّقُ إرادتِهم من دفع الآياتِ، أو مِن الرياسة، أو النبوَّة.

وقال الزجَّاج: المعنى: ما يحملهم على تكذيبك إلَّا ما في صدورهم من الكِبْر عليك، وما هم ببالِغي مقتضى ذلك الكبر؛ لأنَّ الله تعالى أذلَّهم[(١)].

وقيل: الجملةُ مستأنَفةٌ، وضميرُ «بالغيه» لدفع الآياتِ المفهومِ من المجادَلة. وما تقدَّم أظهرُ.

وقال مقاتل: المجادِلون الذين نزلت فيهم الآية اليهودُ؛ عظَّموا أمر الدجَّال فنزلت[(٢)]. وإلى هذا ذهب أبو العالية؛ أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم بسندٍ صحيح عنه قال: إنَّ اليهودَ أَتَوا النبيَّ ﷺ فقالوا: إنَّ الدجالَ يكون منَّا في آخر الزمانِ، ويكونُ من أمره ما يكون. فعظَّموا أمرَه وقالوا: يصنَعُ كذا وكذا، فأنزل الله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ) إلخ[(٣)]، وهذا كالنصِّ في أنَّ أمرَ اليهود كان السببَ في نزولِها، وعليه تكونُ الآيةُ مدنيةً، وقد مرَّ الكلام في ذلك، فتذكَّر.

وفي روايةٍ أنَّ اليهودَ كانوا يقولون: يخرج صاحبُنا المسيحُ بن داود ـ يريدون الدجَّالَ ـ ويبلغ سلطانُه البرَّ والبحرَ، وتسير معه الأنهارُ، وهو آيةٌ من آيات الله، فيرجع إلينا المُلْكُ. حكاها في «الكشاف»، ثم قال: فسمَّى الله تعالى تمنِّيهم ذلك كِبْراً، ونفَى سبحانه أن يبلغوا متمنَّاهم[(٤)].

ويخطر لي على هذا القولِ أنَّ اليهودَ لم يُريدوا من تعظيم أمرِ الدجَّالِ سوى نفْي أن يكونَ نبيُّنا ﷺ النبيَّ المبعوثَ في آخر الزمان، الذي بشَّر به أنبياؤُهم، وزعْمِ أنَّ المبشَّر به هو ذلك اللعينُ، ففي بعضِ الروايات أنَّهم قالوا للنبيِّ عليه الصلاة والسلام: لستَ صاحبَنا ـ يعنونَ النبيَّ المبشَّر به أنبياؤُهم، فالإضافة لأدنى ملابسةٍ ـ بل هو المسيحُ بن داود، يبلغ سلطانُه البَرَّ والبحرَ، ويسير معه

(١) معاني القرآن ٤/ ٣٧٧، ونقله المصنف من البحر ٧/ ٤٧١.

(٢) زاد المسير ٧/ ٢٣٤، والبحر ٧/ ٤٧٢.

(٣) عزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٣.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٣٢.

الأنهارُ[١]. وفي ذلك بزعمهم دفعُ الآيات الدالَّةِ على نبوَّةِ النبيِّ ﷺ، والداعي لهم إلى ذلك الكِبْرُ والحسدُ وحبُّ أن لا تخرُجَ النبوَّةُ من بني إسرائيل، فمعنى الآية عليه نحوُ معناها على القول بكون المجادِلين مشركي مكة.

ثم إنَّ اليهودَ عليهم اللعنةُ كذَبوا أولاً بقولهم للنبيِّ عليه الصلاة والسلام: لستَ صاحبَنا. وثانياً بقولهم: بل هو المسيح بن داود. يعنون الدجَّالَ، أما الكَذِب الأولُ فظاهرٌ، وأما الثاني فلأنَّه لم يُبْعَث نبيٌّ إلَّا وقد حذَّر أمتَه الدجَّالَ وأنذرهم إياه، كما نطقت بذلك الأخبارُ[٢]، وهم قالوا: هو صاحبُنا. يعنون المبشَّرَ ببعثتِه آخرَ الزمان، وكلُّ ذلك من الجدال في آيات الله تعالى بغيرِ سلطان.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: فالْتَجِئْ إليه تعالى مِن كيدِ من يحسُدك ويبغي عليك، وفيه رمزٌ إلى أنَّه من هَمَزات الشياطين، وقال أبو العالية: هذا أمرٌ للنبيِّ ﷺ أن يتعوَّذَ من فتنةِ الدجَّال بالله عزَّ وجلَّ[٣].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ أي: لأقوالِكم وأفعالِكم، والجملةُ لتعليلِ الأمرِ قبلَها.

وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ تحقيقٌ للحقِّ، وتبيينٌ لأشهَرِ ما يجادِلون فيه من أمر البعث الذي هو كالتوحيد في وجوبِ الإيمان به، على منهاجِ قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]، وإضافةُ «خلق» إلى ما بعده من إضافة المصدر إلى مفعوله[٤]، أي: لخَلْقُ الله تعالى السماواتِ والأرضَ أعظمُ مِن خَلْقِه سبحانه الناسَ لأنَّ الناسَ بالنسبة إلى تلك الأجرام العظيمةِ كلا شيء، والمراد أنَّ مَن قدر على خلقِ ذلك فهو سبحانه على خلقِ ما لا يُعَدُّ شيئاً بالنسبة إليه بدءاً وإعادةً أقدرُ وأقدرُ.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٠١، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٧٨.
(٢) منها ما أخرجه البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣)، وأحمد (١٢٠٠٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٣) البحر ٧/ ٤٧٢.
(٤) ورد في هامش الأصل ما نصه: وحكى في «البحر» عن النقَّاش أن الإضافة في «خلق الناس» من إضافة المصدر إلى فاعله، فتأمَّل فيه. اهـ.

وقال أبو العالية: الناسُ: الدجَّال[1]، وهو بناءً على ما روي عنه في المجادلين.

ولعمري إن تطبيقَ هذا ونحوِه على ذلك في غاية البُعد، وأنا لا أقول به.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وهم الكَفَرة، ولَمَّا كان ما قبلُ لإثباتِ البعث الذي يشهَدُ له العقلُ وتقتضيه الحكمةُ اقتضاءً ظاهراً ناسَبَ نفْيَ العلم عمَّن كَفَر به؛ لأنَّهم لو كانوا من العقلاء الذين من شأنهم التدبُّرُ والتفكُّر فيما يدلُّ عليه لم يصدُرْ عنهم إنكارُه، ولم يَذْكر للعلم مفعولاً؛ لأنَّ المناسبَ للمقام تنزيلُه منزلةَ اللازم.

وقيل: المراد: لا يعلمون أنَّ خلقَ السماوات والأرض أكبرُ من خلق الناس، أي: لا يَجْرُون على موجبِ العلم بذلك من الإقرار بالبعث، ومَن لا يجرِي على موجب علمه، هو والجاهلُ سواءٌ.

وفي «البحر»[2] أنه تعالى نبَّه على أنَّه لا ينبغي أن يجادِلَ في آيات الله ولا يتكبَّرَ الإنسانُ بقوله سبحانه: «لخَلْقُ» إلخ، أي: إنَّ مخلوقاتِه تعالى أكبرُ وأجلُّ مِن خلق البشر، فما لأحدِهم يجادِلُ ويتكبَّرُ على خالقه سبحانه وتعالى، «ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون»: لا يتأمَّلون لغلبةِ الغفلةِ عليهم، ولذلك جادلوا وتكبَّروا. ولا يخفى أنه تفسيرٌ قليلُ الجدْوَى.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الغافلُ عن معرفة الحقِّ في مبدئه ومعادِه، ومَن كانت له بصيرةٌ في معرفتهما. وتفسيرُ «البصير» بالله تعالى، و«الأعمى» بالصنم، غيرُ مناسب هنا.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: المُحسِن، ولذا قُوبل بقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾، وعُدل عن التقابُلِ الظاهر كما في «الأعمى والبصير» إلى ما في النظم الجليل إشارةً إلى أنَّ المؤمنين عَلَمٌ في الإحسان، وقدَّم «الأعمى» لمناسبةِ العَمَى ما قبله من نفْي العِلم، وقدَّم «الذين آمنوا» بعدُ لمجاوَرة «البصير» ولشَرَفهم، وفي مثله طرُقٌ: أن يجاوِرَ كلٌّ ما يناسبه كما هنا، وأن يقدَّم ما يقابِلُ الأولَ ويؤخَّرَ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٦٢.

(٢) ٧/ ٤٧٢.

ما يقابِل الآخَرَ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر: ١٩-٢١]، وأن يؤخَّر المتقابلان كـ: الأعمى والأصمّ والسميع والبصير، وكلُّ ذلك من بابِ التفنُّنِ في البلاغة وأساليبِ الكلام.

والمقصودُ من نفْي استواءِ مَن ذُكر بيانُ أنَّ هذا التفاوُتَ مما يُرشِد إلى البعث، كأنه قيل: ما يستوي الغافلُ والمستبصِرُ، والمحسنُ والمسيء، فلا بدَّ أن يكونَ لهم حالٌ أخرى يظهَرُ فيها ما بين الفريقَيْن من التفاوُت وهي فيما بعدَ البعث.

وأعيدت «لا» في «المسيء» تذكيراً للنفْي السابق، لِما بينَهما من الفصل بطول الصلة، ولأنَّ المقصودَ بالنفْي أنَّ الكافرَ المسيءَ لا يساوِي المؤمنَ المُحسِن، وذِكرُ عدمِ مساواة الأعمى للبصير توطئةٌ له، ولو لم يُعَدِ النفْيُ فيه فربَّما ذُهل عنه وظُنَّ أنه ابتداءُ كلامٍ، ولو قيل: ولا الذين آمنوا والمسيءُ، لم يكن نصًّا فيه أيضاً؛ لاحتمال أنه مبتدأٌ، و«قليلاً ما تتذكرون» خبرُه، وجُمِع على المعنى. قاله الخفاجي(١)، وهو إن تمَّ فعلى القراءةِ بياء الغيبة(٢).

وقيل: لم يقل: ولا الذين آمنوا والمسيء؛ لأنَّ المقصودَ نفْيُ مساواة المسيء للمحسن، لا نفْيُ مساواة المحسن له، إذ المرادُ بيانُ خسارتِه. ولا يصفو عن كَدَرٍ، فتدبَّر.

والموصول مع ما عُطف عليه معطوفٌ على «الأعمى» مع ما عُطِف عليه عَطْفَ المجموع على المجموع، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] ولم يُترك العطفُ بينهما ـ بناءً على أنَّ الأول مشبَّهٌ به، والثاني مشبَّه، وهما متَّحدان مآلاً ـ لأنَّ كلًّا من الوصفَيْن الأوَّلَيْنِ مغايِرٌ لكلٍّ من الوصفين الأخِيرَين، وتغايُرُ الصفاتِ كتغايُرِ الذوات في صحة التعاطُف.

ووجهُ التغاير أنَّ الغافلَ والمستبصرَ والمحسنَ والمسيءَ صفاتٌ متغايِرةُ المفهوم بقطع النظر عن اتحادِ ما صدقهما وعَدَمِه.

وقيل: التغايُرُ بين الوصفين الأوَّلين والوصفين الأخِيرَين من جهةِ أنَّ القصدَ في

(١) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٧/ ٣٧٩.
(٢) سترد قريباً.

الأوَّلَين إلى العِلْم، وفي الأخيرين إلى العمل. وهو وجهٌ لا بأسَ به.

وقيل: هما وإن اتحدا ذاتاً متغايِران اعتباراً من حيث إنَّ الثاني صريحٌ والأولَ مذكورٌ على طريق التمثيل. ونُظِر فيه بأنَّه لو اكتُفِي بمجرَّدِ هذه المغايرة لزم جوازُ عطفِ المشبَّه على المشبَّه به وعكسُه.

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: تذكُّراً قليلاً تتذكرون.

وقرأ الجمهور والأعرج والحسن وأبو جعفر وشيبة بياء الغيبة(١). والضميرُ للناس أو الكُفَّار.

قال الزمخشريُّ: والتاء أعمُّ(٢). وعلَّله صاحب «التقريب» بأنَّ فيه تغليبَ الخطاب على الغيبة.

وقال القاضي: إنَّ التاء للتغليب أو الالتفات، أو أَمْرِ الرسول ﷺ بالمخاطبة(٣). أي: بتقدير «قُل» قبلَه.

وآثر العلامةُ الطيبيُّ الالتفاتَ؛ لأنَّ العدولَ من الغيبة إلى الخطاب في مقام التوبيخ يدلُّ على العُنفِ الشديدِ والإنكارِ البليغ، فهذه الآية متصلة بـ «خلق السماوات» وهو كلامٌ مع المجادِلين.

وتعقَّبه صاحبُ «الكشف» بأنَّه يجوز أن يُجْعَل ما ذُكِر نكتةَ التغليب فيكونُ أولى لفائدةِ التعميم أيضاً، فليُفْهَم.

والظاهرُ أنَّ التغليبَ جارٍ على احتمال كونِ الضمير للناس واحتمالِ كونِه للكفَّار؛ لأنَّ بعضَ الناس أو الكفارَ مخاطَبٌ هنا؛ والتقليلُ أيضاً يصِحُّ إجراؤُه على ظاهره لأنَّ منهم مَن يتذكَّر ويهتدي.

وقال الجلبي: الضميرُ إذا كان للناس فالتقليلُ على معناه الحقيقيِّ، والمستثنى هم المؤمنون، وإذا كان للكفَّار فهو بمعنى النفْي.

---

(١) التيسير ص١٩٢، والنشر ٢/ ٣٦٥ عن نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٤٧٢-٤٧٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٣٣.

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٧٩.

ثم الظاهرُ أنَّ المخاطَبَ مَن خاطبه ﷺ من قريشٍ، فمَن قال: المخاطَبُ هو النبيُّ عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى: «فاصبر» ولا يناسِبُ إدخاله فيمن لم يتذكَّر = فقد سها ولم يتذكَّرْ.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: في مجيئها، أي: لا بدَّ مِن مجيئها ولا محالةَ؛ لوضوح الدلالة على جوازِها وإجماع الأنبياء على الوعد الصادق بوقوعها. ويجوز أن يكونَ المعنى أنها آتية وأنها ليست محلًّا للريب، أي: لوضوحِ الدلالة.. إلى آخرِ ما مرَّ، والفرقُ أنَّ متعلَّق الريب على الأول المجيءُ، وعلى هذا الساعةُ، والحمل عليه أولى.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ لا يصدِّقون بها لقصورِ نظرهم على ما يُدرِكونه بالحواسِّ الظاهرة واستيلاءِ الأوهام على عقولهم.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: اعبدوني أُثِبْكم، على ما رُوي عن ابن عباس والضحَّاك ومجاهد وجماعة.

وعن الثوريِّ أنه قيل له: ادْعُ الله تعالى، فقال: إنَّ تركَ الذنوب هو الدعاء[1].
يعني أنَّ الدعاءَ باللسان ترجمةٌ عن طلب الباطن، وأنَّه إنَّما يصحُّ لصحَّةِ التوجُّهِ وتَرْكِ المخالفة، فمن تَرَكَ الذنوبَ فقد سأل الحقَّ بلسانِ الاستعداد وهو الدعاءُ الذي يلزمه الإجابةُ، ومَن لا يتركها فليس بسائلٍ وإنْ دعاه سبحانه ألفَ مرَّةٍ، وما ذَكَر مؤيِّدٌ لتفسيرِ الدعاء بالعبادة ومحقِّقٌ له[2]، فإنَّ تركَ الذنوب من أجلِّ العبادات، وينطبِق على ذلك كمالَ الانطباق قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: صاغرين أذِلَّاء.

وجوَّز أن يكونَ المعنى: اسألوني أُعْطِكم، وهو المرويُّ عن السديِّ[3]، فمعنى

(١) قول ابن عباس في زاد المسير ٧/ ٢٣٤، وقول الضحاك في البحر ٧/ ٤٧٣ بلفظ: آتكم، وقول مجاهد في الكشاف ٣/ ٤٣٣، وقول الثوري في تفسير الطبري ٢٠/ ٣٥٤.
(٢) ورد في هامش الأصل ما نصه: وإطلاق الدعاء على العبادة مجازٌ، وجَعْلُ الإثابة لتَرَتُّبِها عليها استجابةً، مجاز أو مشاكلة. اهـ. وينظر حاشية الشهاب ٧/ ٣٧٩، وما سيأتي ص٩٧-٩٨.
(٣) النكت والعيون ٥/ ١٦٢.

قوله تعالى: (يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي) يستكبِرُون عن دُعائي؛ لأنَّ الدعاءَ نوعٌ من العبادة ومِن أفضلِ أنواعِها، بل روى ابن المنذر والحاكم وصحَّحه عن ابن عباس أنه قال: أفضلُ العبادة الدعاءُ، وقرأ الآيةَ[1].

والتوعُّد على الاستكبار عنه؛ لأنَّ ذلك عادةُ المترفين المسرِفين، وإنما المؤمنُ يتضرَّعُ إلى الله تعالى في كلِّ تقلُّباتِه. وفي إيقاع العبادةِ صلةَ الاستكبار ما يُؤذِن بأنَّ الدعاءَ بابٌ من أبوابِ الخضوع؛ لأنَّ العبادةَ خُضوعٌ، ولأنَّ المرادَ بالعبادة الدعاءُ، والاستكبارُ إنما يكون عن شيء إذا أتى به لم يكن مستكْبِراً.

قال في «الكشف»: وهذا الوجهُ أظهرُ بحسب اللفظ وأنسبُ إلى السياق؛ لأنه لَمَّا جعل المجادلةَ في آيات الله تعالى من الكِبْر جَعَل الدعاءَ وتسليمَ آياتِه من الخضوع، لأنَّ الداعيَ له تعالى الملتجِئَ إليه عزَّ وجلَّ لا يجادِل في آياته بغيرِ سلطانٍ منه ألبتَّةَ.

والعطفُ في قوله تعالى: «وقال» مِن عطفِ مجموع قصَّةٍ على مجموعِ أخرى لاستوائهما في الغرض، ولهذا لَمَّا تَمَّم هذه القصَّةَ أعني قولَه سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨] صرَّح بالغرض في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٦٩]، كما بنى القصَّةَ أولاً على ذلك في قولِه تبارك وتعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ) ولو تُؤُمِّلَ في هذه السورة الكريمة حقَّ التأمُّل وُجِد جلُّ الكلام فيها مبنيًّا على ردِّ المجادلين في آيات الله المشتملةِ على التوحيدِ والبعثِ وتبيينِ وجهِ الردِّ في ذلك بفنونٍ مختلفةٍ، ثم انظُرْ إلى ما ختم به السورة كيف يُطابقِ ما بُدِئَت مِن قوله سبحانه: (فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ)، وكيف صرّح آخِراً بما رمز إليه أولاً لتقْضِي منه العجبَ، فهذا وجهُ العطف. انتهى.

وما ذَكَره مِن أظهريَّة هذا الوجهِ بحسب اللفظ ظاهرٌ جدًّا، لِمَا في الأُولى من ارتكابِ خلافِ الظاهر قبلَ الحاجةِ إليه في موضعَيْن: في الدعاء حيث

(١) المستدرك ١/ ٤٩١، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٦.

تُجُوِّز به عن العبادة لتضمُّنِها له، أو لأنه عبادةٌ خاصَّةٌ أُرِيد به المطلقُ، وفي الاستجابة حيث جُعلت الإثابةُ على العبادة لترتُّبِها عليها استجابةً مجازاً أو مشاكلةً، بخلافِ الثاني فإنَّ فيه ارتكاب خلاف الظاهر ـ وهو التجوُّزُ ـ في موضعٍ واحدٍ وهو «عن عبادتي»، ومع هذا هو بَعد الحاجةِ، فلم يكن كنزع الخفِّ قبلَ الوصول إلى الماء، بل قيل: لا حاجةَ إلى التجوُّز فيه؛ لأنَّ الإضافةَ مرادٌ بها العهدُ هنا فتفيد ما تقدَّم، لكنَّ كونَه أنسبَ بالسياق أيضاً مما لا يتمُّ في نظري.

وأيًّاما كان فـ «أَسْتَجب» جزمٌ في جواب الأمر، أي: إنْ تدعوني أستجِبْ لكم، والاستجابةُ على الوجهين مشروطةٌ بالمشيئة حسبَما تقتضيه أصولُنا، وقد صرَّح بذلك في استجابة الدعاء؛ قال سبحانه: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

والاستكبارُ عن عبادةِ الله تعالى ـ دعاءً كانت أو غيرَه ـ كفرٌ يترتَّبُ عليه ما ذُكر في الآية الكريمة. وأما تركُ ذلك لا عن استكبارٍ فتفصيلُ الكلام فيه لا يخفى.

والمقاماتُ في ترك الدعاء فقيل: متفاوتةٌ، فقد لا يحسُن، كما يدلُّ عليه قولُه ﷺ: «مَن لم يَدْعُ اللهَ تعالى يغْضَبْ عليه»، أخرجه أحمد وابن أبي شيبة والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً(١). وقد يحسُن كما يدلُّ عليه ما رُوي مِن تَرْكِ الخليل عليه السلام الدعاءَ يومَ أُلْقي في النار، وقوله: عِلمُه بحالي يغْني عن سؤالي(٢). وربَّما يقال: تركُ الدعاء اكتفاءً بعلم الله عزَّ وجلَّ دعاءٌ. والله تعالى أعلم.

وقرأ ابن كثير وأبو بكر وزيد بن عليٍّ وأبو جعفر: «سيُدْخَلُون» مبنيًّا للمفعول من الإدخال، واختلفتِ الروايةُ عن عاصم وأبي عمرو(٣).

---

(١) مسند أحمد (٩٧١٩)، ومصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٠٠، والمستدرك ١/ ٤٩١. وإسناده ضعيف من أجل أبي صالح الخوزي، ينظر: ميزان الاعتدال ٤/ ٥٤٨.

(٢) سلف ١١/ ٢٥٢.

(٣) التيسير ص٩٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٦٦، والبحر ٧/ ٤٧٣، والنشر ٢/ ٢٥٢.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ لتستريحوا فيه، بأنْ أغابَ سبحانه فيه الشمسَ فجعله جلَّ شأنُه بارِداً مُظلِماً، وجَعَل عزَّ وجلَّ بردَه سبباً لضَعْفِ القُوَى المحرِّكة وظلمتَه سبباً لهُدُوء الحواسِّ الظاهرة، إلى أشياءَ أُخْرى جَعَلها أسباباً للسكونِ والراحة.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ يُبْصَر فيه، أو به، فالنهارُ إمَّا ظرفُ زمانٍ للإبصار أو سببٌ له. وأيًّا ما كان فإسنادُ الإبصار له بجعلِه مُبْصِراً إسنادٌ مجازِيٌّ لِما بينَهما من الملابسة، وفيه مبالغةٌ، وأنَّه بلغ الإبصارُ إلى حدٍّ سَرَى في نهارِ المُبصِر، ولذا لم يقل: لتُبصِروا فيه، على طِرْز ما وقع في قرينه[1].

فإن قيل: لِمَ لَمْ يقلْ: جعل لكم الليلَ ساكناً، ليكونَ فيه المبالغةُ المذكورةُ، وتَخرُج القرينتان مَخْرجاً واحداً في المبالغة؟

قلت: أُجِيبَ عن ذلك بأنَّ نعمةَ النهار أتمُّ وأعظمُ من نعمةِ الليل فسُلِكَ مسلكَ المبالغة فيها، وتُركت الأخرى على الظاهر تنبيهاً على ذلك.

وقيل: إنَّ النعمتين فَرَسَا رِهانٍ، فدلَّ على فضلِ الأولى بالتقديم وعلى فضل الأُخْرى بالمبالغة. وهو كما ترى.

وقيل: لم يقلْ ذلك؛ لأنَّ الليلَ يُوصَفُ على الحقيقةِ بالسكون، فيقال: ليلٌ ساكنٌ، أي: لا ريحَ فيه، ولا يبْعُد أن يكونَ السكونُ بهذا المعنى حقيقةً عُرفيَّةً، فلو قيل: ساكناً، لم يتميَّز المرادُ نظراً إلى الإطلاق، وإن تميَّزَ نظراً إلى قرينةِ التقابُل.

وكأنَّ رجحانَ هذا الأسلوبِ؛ لأنَّ الكلامَ المحكَمَ الواضحَ بنفسه من أوَّلِ الأمرِ هو الأصل، لاسيَّما في خطابٍ وَرَدَ في معرضِ الامتنان للخاصَّة والعامَّةِ، وهم متفاوِتون في الفهم والدراية الناقصة والتامَّة.

وفي «الكشف»: لمَّا لم يكن الإبصارُ علَّةً غائيَّةً في نفسه، بل العلَّةُ ابتغاء الفضل كما وَرَد مصرَّحاً به في سورة القصص[2]، بخلافِ السكون والدَّعَةِ في

(١) في الأصل: قرينته.
(٢) الآية: (٧٣).

الليل = صُرِّح بذلك في الأول ورُمِز في الثاني مع إفادةِ نكتةٍ سَرِيَّةٍ في الإسناد المجازيِّ.

وقال الجلبي: إذا حُمِلت الآيةُ على الاحتباكِ(١)، وقيل: المراد: جَعَل لكم الليلَ مظلِماً لتسكُنوا فيه، والنهارَ مُبصِراً لتنتَشِرُوا فيه ولتَبْتَغوا من فضل الله تعالى، فحُذِف من الأوَّلِ بقرينةِ الثاني، ومن الثاني بقرينة الأوَّلِ = لم يحْتَجْ إلى ما ذُكِر في تعليل تركِ المبالَغةِ في القرينةِ الأولى، وهذا هو المشهورُ في الآية والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ لا يُوازِيه فضلٌ، ولقَصْدِ الإشعارِ به لم يقل: لَمُفْضِل(٢).

﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بَرِّهم وفاجِرِهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ لجهلِهم بالمُنْعِم وإغفالِهم مواقعَ النِّعَم، وتكريرُ الناس لتخصيصِ الكُفْرانِ بهم، وذلك من إيقاعه على صريحِ اسمِهم الظاهرِ الموضوعِ موضعَ الضمير الدالِّ على أنَّه من شأنِهم وخاصَّتِهم في الغالب.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المتصِفُ بالصفاتِ المذكورةِ المقتضيةِ للألوهيَّة والربوبيَّةِ ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبارٌ مترادِفةٌ تخصِّصُ اللاحقةُ السابقةَ وتقلِّل اشتراكَها في المفهوم نظراً إلى أصل الوضع وتُقَرِّرُها، وجوِّز في بعضها الوصفيَّةُ والبدليَّةُ، وأُخِّر: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ عن ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في آية سورة الأنعام [الآية: ١٠٢] وقدِّم هنا؛ لِما أنَّ المقصودَ هاهنا ـ على ما قيل ـ الردُّ على منكري البعثِ فناسَبَ تقديمَ ما يدلُّ عليه، وهو أنَّه منه سبحانه وتعالى مبدأُ كلِّ شيء، فكذا إعادتُه.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «خالقَ» بالنصب على الاختصاص(٣)، أي: أعني، أو:

---

(١) الاحتباك: من أنواع البديع، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول. الإتقان ٢/ ٨٣١.

(٢) في الأصل و(م): المفضل، والمثبت هو الصواب. ينظر الكشاف ٣/ ٤٣٤، وتفسير البيضاوي ٧/ ٣٨٠.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٤٧٣.

أَخُصُّ خالقَ كلِّ شيء، فيكون «لا إله إلا هو» استئنافاً مما هو كالنتيجةِ للأوصافِ المذكورة، فكأنه قيل: الله تعالى متَّصِفٌ بما ذُكر من الصفاتِ ولا إله إلَّا مَن اتصَفَ بها، فلا إله إلا هو ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فكيف ومِن أيِّ جهةٍ تُصْرَفون من عبادته سبحانه إلى عبادةِ غيره عزَّ وجلَّ.

وقرأ طلحة في رواية: «يؤفكون» بياءِ الغَيبة[1].

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: مِثْلَ ذلك الإفْكِ العجيب الذي لا وجهَ له ولا مصحِّحَ أصلاً، يُؤفكُ كلُّ مَن جَحَد بآياتِه تعالى أيَّ آيةٍ كانت، لا إفْكاً آخَرَ له وجهٌ ومصحِّحٌ في الجملة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: مستقَرًّا ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: قُبَّةً، ومنه أبنيةُ العرب لِقبابِهم التي تُضْرَب، وإطلاقُ ذلك على السماء على سبيلِ التشبيه، وهو تشبيهٌ بليغٌ، وفيه إشارةٌ لكُرِيَّتِها، وهذا بيانٌ لفضْلِه تعالى المتعلِّق بالمكان بعدَ بيانِ فضلِه المتعلِّق بالزمان.

وقوله سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بيانٌ لفضله تعالى المتعلِّق بأنفسهم، والفاءُ في «فأحسَنَ» تفسيريَّةٌ، فالمرادُ: صوَّركم أحسنَ تصويرٍ حيثُ خَلَق كلًّا منكم منتَصِبَ القامةِ، بادي البَشَرَةِ، متناسِبَ الأعضاء والتخطيطات، متهيِّئاً لمزاوَلةِ الصنائِع واكتسابِ الكمالات.

وقرأ الأعمش وأبو رزين: «صِوَرَكم» بكسر الصاد[2] فراراً من الضمَّةِ قبلَ الواو، وجَمْعُ فُعْلَةٍ بضمِّ الفاء على فِعَل بكسرها شاذٌّ، ومنه: قُوَّةٌ وقِوًى بكسر القاف في الجمع.

وقرأت فرقة: «صُوْرَكم» بضمِّ الصاد وإسكان الواو، على نحو: بُسْرَةٍ وبُسْرٍ[3].

(١) المصدر السابق.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٦٧، والبحر ٧/ ٤٧٣، والكلام وما بعده منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٧، والبحر ٧/ ٤٧٣.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ أي: المستلَذَّاتِ طعماً ولباساً وغيرَهما، وقيل: الحلالِ.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي نُعِت بما ذُكِر من النُّعوت الجليلة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ﴾ خبران لـ «ذلكم» ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ تعالى بذاته ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: مالكُهم ومربِّيهم، والكلُّ تحتَ ملكوته مفتقرٌ إليه تعالى في ذاتِه ووجودِه وسائرِ أحوالِه جميعِها، بحيثُ لو انقطع فيضُه جلَّ شأنُه عنه آناً لعُدِم بالكلية.

﴿هُوَ ٱلْحَيُّ﴾ المنفرِدُ بالحياة الذاتية الحقيقيَّة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجودَ يُدانيه في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه عزَّ وجلَّ ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبُدُوه خاصَّةً لاختصاصِ ما يُوجِب ذلك به تعالى.

وتفسيرُ الدعاء بالعبادة هو الذي يقتضيه قولُه تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ أي: الطاعةَ من الشرك الخَفِيِّ والجَلِيِّ، وأنَّه الأليقُ بالترتُّبِ على ما ذُكر من أوصافِ الربوبيَّة والألوهيَّة، وإنما ذُكِرت بعنوانِ الدعاء؛ لأنَّ اللائقَ هو العبادةُ على وجهِ التضرُّعِ والانكسارِ والخضوع.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: قائلين ذلك؛ أخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصحَّحه والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس قال: مَن قال: لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: الحمد لله ربِّ العالمين، وذلك قولُه تعالى: (فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ) إلخ[1].

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير نحو ذلك[2]. وعلى هذا فـ «الحمد لله» إلخ من كلام المأمورين بالعبادة قبلَه.

وجوِّز كونُه من كلام الله تعالى على أنه إنشاءٌ لِحَمْدِ[3] ذاته سبحانه بذاتِه جلَّ شأنُه.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٥٨، والمستدرك ٢/ ٤٣٨، والأسماء والصفات (١٩٤)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٧.

(٢) عزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٧.

(٣) في الأصل و(م): حمد، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٣٨١.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ من الحُجَجِ والآياتِ، أو من الآياتِ لكونِها مؤيِّدةً لأدلَّةِ العقل منبِّهةً عليها، فإنَّ الآياتِ التنزيليةَ مفسِّراتٌ للآياتِ التكوينيَّةِ الآفاقيَّةِ والأنفُسيَّةِ.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: بأن أنقادَ له تعالى، وأُخلِصَ له عزَّ وجلَّ ديني.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ في ضمنِ خَلْقِ آدم عليه السلام منه حسبَما مرَّ تحقيقُه ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم خَلَقكم خلقاً تفصِيليًّا من نطفةٍ، أي: من منيٍّ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قطعةِ دمٍ جامدٍ ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً، وهو اسمُ جنسٍ صادقٌ على القليلِ والكثيرِ.

وفي «المصباح»: قال ابن الأنباري: يكونُ الطفلُ بلفظٍ واحدٍ للمذكَّرِ والمؤنَّثِ والجمع، ويجوز فيه المطابقةُ أيضاً[1].

وقيل: إنه أُفرِد بتأويلِ: خَلقَ كلَّ فردٍ من هذا النوع، ثمَّ يُخرِج كلَّ فردٍ منه طفلاً.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ اللام فيه متعلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُه: ثم يُبْقِيكم لتبلغوا، وذلك المحذوفُ عطفٌ على «يخرجكم»، وجوِّز أن يكونَ «لتبلغوا» عطفاً على علَّةٍ مقدَّرةٍ لـ «يُخْرِجكم» كأنه قيل: ثم يخرجكم لتكبَرُوا شيئاً فشيئاً ثمَّ لتبلغوا أَشُدَّكم وكمالَكم في القوَّةِ والعقل، وكذا الكلامُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾، ويجوزُ عطفُه على «لتبلغوا».

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائيُّ: «شِيوخا» بكسر الشين[2].

وقرئ: «شيخاً» كقوله تعالى: «طفلاً»[3].

---

(١) المصباح المنير (طفل).

(٢) التيسير ص١٩٢، والنشر ٢/٢٢٦.

(٣) الكشاف ٣/٤٣٦.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ الشيخوخة بعدَ بلوغ الأشُدِّ، أو قبله أيضاً.

﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ﴾ متعلِّقٌ بفعلٍ مقدَّرٍ بعده، أي: ولتبلغوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ هو يومُ القيامة يَفْعَلُ ذلك الخَلْقَ من ترابٍ وما بعده من الأطوار، وهو عطفٌ على «خلقكم»، والمرادُ من يوم القيامة ما فيه من الجزاءِ، فإنَّ الخَلْقَ ما خُلِقُوا إلا ليَعْبُدُوا ثم يَبْلُغوا الجزاءَ.

وتفسيرُ الأجل المسمَّى بذلك مرويٌّ عن الحسن[١]. وقال بعضٌ: هو يومُ الموت. وتُعقِّب بأنَّ وقتَ الموت فُهِم مِن ذِكْر التوَفِّي قبلَه، فالأولى تفسيرُه بما تقدَّم، وظاهرُ صنيع الزمخشريِّ ترجيح هذا[٢] على ما بُيِّن في «الكشف».

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ ولكي تَعقِلوا ما في ذلك التنقُّلِ في الأطوار من فنونِ الحِكَم والعِبَر. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال: أي: ولعلَّكم تعقِلُون عن ربِّكم أنه يُحْيِيكم كما أماتكم[٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ﴾ الأموات ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياءَ، أو: الذي يفعل الإحياءَ والإماتةَ ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أرادَ بُروزَ أمرٍ من الأمورِ إلى الوجود الخارجيِّ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾ من غير توقُّفٍ على شيءٍ من الأشياء أصلاً.

وهذا عند الخلَف تمثيلٌ لتأثيرِ قُدرتِه تعالى في المقدورات عند تعلُّقِ إرادتِه سبحانه بها، وتصويرٌ لسرعةِ ترتُّبِ المكوَّناتِ على تكوينِه من غير أن يكونَ هناك آمِرٌ ومأمورٌ. وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك.

والفاءُ الأولى للدَّلالةِ على أنَّ ما بعدَها من نتائجِ ما قبلَها من حيث إنَّه يقتضي قدرةً ذاتيةً غيرَ متوقِّفةٍ على العُدَدِ والموادِّ. وجوِّز فيها كونُها تفصيليَّةً وتعليليَّةً أيضاً، فتدبَّر.

---

(١) مجمع البيان ٢٤/ ٢١٣.

(٢) أي: ترجيح القول الثاني وهو وقت الموت، فإنه قال في الكشاف ٣/ ٤٣٦: وأما «ولتبلغوا أجلاً مسمًّى» فمعناه: ونفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى، وهو وقت الموت. وقيل: يوم القيامة. اهـ.

(٣) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٧.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝٦٩﴾ تعجيبٌ من أحوالِهم الشنيعةِ وآرائِهم الركيكةِ، وتمهيدٌ لِما يعقبه من بيان تكذيبهم بكلِّ القرآن وبسائر الكُتُبِ والشرائعِ وترتيبِ الوعيد على ذلك، كما أنَّ ما سبق من قولِه تعالى: «إن الذين يجادلون» إلخ، بيانٌ لابتناءِ جِدالِهم على مبنًى فاسدٍ لا يكاد يدخُلُ تحت الوجود، فلا تكريرَ فيه. كذا في «إرشاد العقل السليم»(١).

وقال القاضي: تكريرُ ذكرِ المجادَلةِ لتعدُّدِ المجادِل بأن يكونَ هناكَ قوماً وهنا قوماً آخَرين، أو المجادَل فيه بأن يُحمَل في كلٍّ على معنًى مناسبٍ، ففيما مرَّ في البعث، وهنا في التوحيد، أو هو للتأكيدِ اهتماماً بشأنِ ذلك(٢).

وأختارُ ما في «الإرشاد»، أي: انظُر إلى هؤلاء المكابرين المجادِلين في آياتِه تعالى الواضحةِ الموجِبةِ للإيمان بها الزاجرةِ عن الجدالِ فيها، كيف يُصْرَفُون عنها مع تعاضُدِ الدواعي إلى الإقبال عليها وانتفاءِ الصَّوارِف عنها بالكلية.

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ - أي: بكلِّ القرآن، أو بجنس الكُتُب السماوية، فإنَّ تكذيبَه تكذيبٌ لها - في محلِّ الجرِّ على أنه بدلٌ من الموصولِ الأوَّلِ، أو بيانٌ، أو صفةٌ له، أو في محلِّ النصب على الذمِّ، أو في محلِّ الرفع على أنَّه خبرُ محذوفٍ، أو مبتدأٌ خبرُه «فسوف يعلمون»، وإنما وُصِل الموصولُ الثاني بالتكذيبِ دونَ المجادَلةِ؛ لأنَّ المعتادَ وقوعُ المجادَلةِ في بعض الموادِّ، لا في الكلِّ. وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقيقِ، كما أنَّ صيغةَ المضارِع في الصلة الأولى للدلالة على تجدُّدِ المجادَلةِ وتكرُّرِها.

﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من سائرِ الكُتُب على الوجه الأول في تفسير «الكتاب»، أو مطلَقِ الوحْي والشرائعِ على الوجه الثاني فيه.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠﴾ كُنْهَ ما فعلوا من الجِدال والتكذيبِ عندَ مشاهَدتِهم لعقوباتِه.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ ظرفٌ لـ «يعلمون» والمعنى على الاستقبال، والتعبيرُ

---

(١) ٧/ ٢٨٤.

(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٨٢.

بلفظ المُضِيِّ للدلالة على تحقُّقِه حتى كأنَّه ماضٍ حقيقةً، فلا تنافُرَ بينَ «سوف» و«إذ».

﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عطفٌ على «الأغلال».

والجارُّ والمجرورُ في نية التأخير، كأنه قيل: إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم.

وقوله تعالى: ﴿يُسۡحَبُونَ ٧١﴾ أي: يُجَرُّون ﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾ حالٌ من ضميرِ «يعلمون»، أو ضميرِ «في أعناقهم»، أو جملةٌ مستأنَفةٌ لبيانِ حالِهم بعدَ ذلك.

وجوِّز كونُ «السلاسل» مبتدأً، وجملة «يسحبون» خبره، والعائدُ محذوفٌ، أي: يُسْحَبُون بها.

وجوِّز كونُ «الأغلال» مبتدأً «والسلاسلُ» عطفٌ عليه، والجملةُ خبرُ المبتدأ، و«في أعناقهم» في موضِع الحالِ، ولا يخفى حالُه.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس وزيد بن عليٍّ وابن وثاب: «والسلاسلَ يَسْحَبُون»، بنصب «السلاسلَ» وبناءِ «يَسْحَبُون» للفاعل[(١)]، فيكون «السلاسل» مفعولاً مقدَّماً لـ «يَسْحَبُون»، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها، ولا بأسَ بالتفاوُتِ اسميةً وفعليةً.

وقرأت فرقةٌ منهم ابن عباسٍ في رواية: «والسلاسلِ» بالجرِّ[(٢)]، وخَرَّج ذلك الزجَّاجُ[(٣)] على الجرِّ بخافضٍ محذوفٍ، كما في قوله:

أشـارَتْ كُـلَـيْـبٍ بـالأكُـفِّ الأصَـابِـعِ[(٤)]

أي: وبالسلاسلِ كما قرئ به، أو: وفي السلاسل كما في مصحف أُبَيٍّ[(٥)].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٣، والمحتسب ٢/ ٢٤٤، والبحر ٧/ ٤٧٤-٤٧٥.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٣٦، والبحر ٧/ ٤٧٥.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٨.

(٤) شطر بيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤٢٠، وقد سلف ٧/ ٤٦١، وتمامه:

إذا قِـيـلَ: أيُّ الـنـاسِ شـرٌّ قـبـيـلـةً   أشـارَتْ كُـلَـيْـبٍ بـالأكُـفِّ الأصـابِـعُ

(٥) قراءة: «وبالسلاسل» في الكشاف ٣/ ٤٣٦، والبحر ٧/ ٤٧٥. والأخرى في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٩.

والفراءُ على العطفِ بحسَبَ المعنى؛ إذ «الأغلالُ في أعناقهم»، بمعنى: أعناقُهم في الأغلال، ونظيرُه قولُه:

مشائيمُ ليسوا مُصْلِحين عشيرةً ولا ناعبٍ إلا بِبَيْنٍ غُرابُها[(١)]

ويُسمَّى في غير القرآن عطف التوهُّم، وذهب إلى هذا التخريجِ الزمخشريُّ وابن عطية[(٢)].

وابن الأنباري بعد أن ضعَّفَ تخريجَ الزجَّاج وخرَّجَ القراءةَ على ما قال الفراءُ قال: وهذا كما تقول: خاصَمَ عبدُ الله زيداً العاقِلَيْنِ، بنصب العاقِلَيْنِ ورَفعِه، لأنَّ أحدَهما إذا خاصم صاحبَه فقد خاصَمَه الآخَرُ[(٣)]. وهذه المسألةُ لا تجوز عند البصريين، ونُقِل جوازُها عن محمد بن سعدان الكوفيِّ قال: لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما فاعلٌ مفعولٌ[(٤)].

﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾ يُحرَقُون ظاهراً وباطناً، من سَجَر التنُّورَ: إذا ملأه إيقاداً، ويكونُ بمعنى: ملأه بالحَطَب ليحمِيَه، ومنه: السَّجِيْرُ، للصديق الخليل، كأنه سُجِر بالحبِّ، أي: مُلِئَ، ويُفْهَمُ من «القاموس» أنَّ السجْرَ من الأضداد[(٥)]، وكِلَا الاشتقاقَيْنِ مناسِبٌ في السَّجِيْر، أي: مُلِئَ من حُبِّك، أو فَرَغ من غيرِك إليك، والأولُ أظهرُ.

والمرادُ بهذا وما قبله أنَّهم معذَّبون بأنواع العذاب، سَحْبِهم على وجوههم في النار الموقَدةِ، ثم تسليطِ النارِ على باطِنهم، وأنهم يعذَّبون ظاهراً وباطناً، فلا استدراكَ في ذكر هذا بعدَ ما تقدَّم.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: يقال لهم ويقولون، وصيغةُ الماضي للدلالةِ على تحقُّقِ الوقوع، والسؤالُ للتوبيخِ،

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١١، والبيت قد سلف ١٢/ ١٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٣٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٦٩.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٧٤.

(٤) البحر ٧/ ٤٧٥.

(٥) قال في القاموس (سجر): المسجور: الموقَد، والساكن، ضِدٌّ.

وضلالُهم عنهم بمعنى غَيْبَتِهم، مِنْ: ضلَّت دابتُه: إذا لم يُعْرف مكانُها، وهذا لا ينافِي ما يُشْعِرُ بأنَّ آلهتَهم مقرُونُونَ بهم في النار، لأنَّ للنار طبقاتٍ ولهم فيها مواقفُ، فيجوز غَيبتُهم عنهم في بعضِها واقترانُهم بهم في بعضٍ آخَر.

ويجوز أن يكونَ ضلالُهم استعارةً لعدم النفعِ، فحضورُهم كالعَدَم، فذُكِر على حقيقته في موضعٍ وعلى مجازِه في آخَر.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: بل تبيَّنَ لنا اليومَ أنَّا لم نَكُن نعبُدُ في الدنيا شيئاً يُعتَدُّ به، وهو إضرابٌ عن كونِ الآلهةِ الباطلةِ ليست بموجودةٍ عندهم أو ليست بنافعةٍ إلى أنَّها ليست شيئاً يُعتَدُّ به. وفي ذلك اعترافٌ بخطئِهم وندمٌ على قبيحِ فعلِهم حيثُ لا ينفع ذلك.

وجعل الجلبي هذه الآيةَ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] يَفْزَعُون إلى الكَذِب لحيرَتِهم واضطرابِهم، ومعنى قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أنه تعالى يُحَيِّرُهم في أمرِهم حتى يَفْزَعُون إلى الكذِب مع علمهم بأنَّه لا ينفعهم. ولعلَّ ما تقدَّم هو المناسِبُ للسياق.

ومعنى هذا: مِثْلَ ذلك الإضلالِ يُضِلُّ الله تعالى في الدنيا الكافرين حتى إنَّهم يدَّعُون فيها ما يتبيَّنُ لهم أنَّه ليس بشيء، أو: مِثْلَ ضلالِ آلهتِهم عنهم في الآخرة نُضِلُّهم عن آلهتهم فيها حتى لو طَلَبُوا الآلهةَ وطَلَبَتْهم لم يلْقَ بعضُهم بعضاً، أو: مِثْلَ ذلك الضلالِ وعدمِ النفع يُضِلُّ اللهُ تعالى الكافرين حتى لا يهتدوا في الدنيا إلى ما ينفَعُهم في الآخرة.

وفي «المجمع»: كما أضَلَّ اللهُ تعالى أعمالَ هؤلاءِ وأبطَلَ ما كانوا يُؤَمِّلونه، كذلك يفعَلُ بأعمالِ جميعِ مَن يتديَّنُ بالكُفر فلا ينتفعون بشيء منها. فإضلالُ الكافرين على معنى إضلالِ أعمالِهم، أي: إبطالِها، ونقل ذلك عن الحسن(١).

وقيل في معناه غيرُ ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾ إشارةٌ إلى المذكورِ من سَحْبِهم في السلاسل والأغلال

(١) مجمع البيان ٢٤/ ٢١٥.

وتسجيرِهم في النار وتوبيخِهم بالسؤال. وجوّز على بعضِ الأَوْجُهِ أن يكونَ إشارةً إلى إضلال الله تعالى الكافرينَ، وإلى الأوّلِ ذهب ابنُ عطية[١]، أي: ذلكم العذابُ الذي أنتم فيه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تَبْطَرُون وتَأْشَرُون كما قال مجاهد[٢] ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الشركُ والمعاصي، أو بغيرِ استحقاقٍ لذلك، وفي ذكرِ «الأرض» زيادةُ تفظيعٍ للبَطَر. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ تتوسَّعُون في الفَرَح.

وقيل: المعنى: «بما كنتم تفرحون» بما يصيبُ أنبياءَ الله تعالى وأولياءَه من المكارِهِ، وبما تتوسَّعُون في الفَرَح بما أُوتِيتُم حتى نَسِيتم لذلك الآخرةَ، واشتَغَلْتم بالنعمة عن المُنْعِم. وفي الحديث: «الله تعالى يُبغِضُ البَذِخِين الفَرِحِين، ويُحِبُّ كلَّ قَلْبٍ حَزِين»[٣].

وبين الفَرَح والمَرَح تجنيسٌ حَسَنٌ، والعُدول إلى الخطابِ للمبالَغةِ في التوبيخ؛ لأنَّ ذمَّ المرء في وجهه تشهيرٌ له، ولذا قيل: النصحُ بين الملأ تقريعٌ.

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: الأبوابَ المقسومةَ لكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدّرين الخلودَ ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ عن الحقِّ جهنمُ، وكان مقتضى النظم الجليل حيثُ صُدِّر بـ «ادخلوا» أن يقال: فبئسَ مدخلُ المتكبرين، ليتجاوَبَ الصدرُ والعَجُزُ، لكنْ لَمَّا كان الدخولُ المقيَّدُ بالخلود سببَ الثواء عُبِّر بالمثوى وصحَّ التجاوُبُ معنًى.

وهذا الأمرُ على ما استظهره في «البحر» مَقُول لهم بعد المحاوَرةِ السابقةِ وهم في النار، ومطمحُ النظر فيه الخلودُ، فهو أمرٌ بقيدِ الخلود لا بمطلَقِ الدخول،

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٥٦٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٦٦.

(٣) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ ﷺ كما في فيض القدير للمناوي ٢/ ٢٨٤. وفيه ـ كما ذكر المناوي ـ إسماعيل بن أبي زياد الشامي، قال عنه الدارقطني: متروك يضع الحديث. وجزءه الثاني أخرجه البزار (٣٦٢٤ - كشف)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣١٥، والبيهقي في الشعب (٨٩٢) و(٨٩٣) من طريق ضمرة بن حبيب عن أبي الدرداء مرفوعاً. وهذا إسناد منقطع لأن ضمرة لم يَلْقَ أبا الدرداء.

ويجوز أن يقال: هم بعدَ الدخول فيها أُمِروا أن يدخُلوا الأبوابَ المقسومةَ لهم، فكان أمراً بالدخول بقيدِ التجزئة لكلِّ بابٍ(١).

وقال ابن عطية: يقال لهم قبلَ هذه المحاورة في أول الأمرِ: «ادخلوا»(٢).

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بتعذيبِ أعدائِك الكَفَرة ﴿حَقٌّ﴾ كائنٌ لا محالة.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصلُه: فإنْ نُرِكَ، فزِيدَت «ما» لتوكيدِ «إن» الشرطيةِ، ولذلك جازَ أن يلحَقَ الفعلَ نونُ التوكيد على ما قيل. وإلى التلازمِ بين «ما» ونونِ التوكيد بعدَ «إن» الشرطية ذهب المبرِّد والزجَّاجُ(٣)، فلا يجوز عندَهما زيادةُ «ما» بدون إلحاقِ نون، ولا إلحاقُ نون بدون زيادةِ «ما»، ورُدَّ بقوله:

فـإمَّـا تَـرَيْـنِـي ولـي لِـمَّـةٌ ... فـإنَّ الـحـوادثَ أَوْدَى بـهـا(٤)

ونَسَب أبو حيان - على كلام فيه - جوازَ الأمرَيْن إلى سيبويه(٥)، والغالبُ أنَّ «إن» إذا أكِّدت بـ «ما» يلحَقُ الفعلَ بعدها نونُ التوكيد على ما نصَّ عليه غيرُ واحد.

﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ وهو القتلُ والأسْرُ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبلَ ذلك ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ يومَ القيامة فنجازِيهم بأعمالِهم، وهو جوابُ «نَتوفَّينَّك»، وجوابُ «نرينك» محذوفٌ مثل: فذاك.

وجوِّز أن يكونَ جواباً لهما على معنى: إن نعذِّبْهم في حياتِك أو لم نعذِبْهم، فإنَّا نُعذِّبُهم في الآخرةِ أشدَّ العذاب، ويدلُّ على شدَّته الاقتصارُ على ذكر الرجوع في هذا المعرض.

والزمخشريُّ آثَرَ في الآية هنا ما ذُكر أولاً(٦)، وذَكَر في «الرعد» في نظيرِها

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٧٦، والنهر الماد بهامش البحر ٧/ ٤٧٤، وتصحف في البحر «بقيد» إلى «يفيد».

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٧٠.

(٣) سلف عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

(٤) البيت للأعشى ميمون، وقد سلف عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٤٧٧، والكتاب ٣/ ٥١٥.

(٦) الكشاف ٣/ ٤٣٧.

أعني قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الآية: ٤٠] ما يدلُّ على أنَّ الجملةَ المقرونةَ بالفاء جوابٌ على التقديرَيْن[١]. قال في «الكشف»: والفرقُ أنَّ قولَه تعالى: «فاصبر إن وعد الله حق» عِدَةٌ للإنجاز والنصرِ، وهو الذي همّه عليه الصلاة والسلام، وهَمُّ المؤمنين معقودٌ به لمقتضى هذا السياق، فينبغي أن يقدَّر: فذاك، هناك، ثم جيء بالتقدير الثاني ردًّا لشماتتِهم وأنّه منصورٌ على كلِّ حالٍ وإتماماً للتسلِّي، وأما مساقُ التي في «الرعد» فلإيْجابِ التبليغ وأنَّه ليس عليه غيرُ ذلك كيفما دارت القضيةُ، فَمَن ذهب إلى إلحاقِ ما هنا بما في «الرعدِ» ذَهَب عنه مغزَى الزمخشريِّ. انتهى، فتأمَّل ولا تغفلْ.

وقرأ أبو عبد الرحمن ويعقوب: «يَرجِعون» بفتح الياء[٢]، وطلحةُ بن مصرِّف ويعقوبُ في روايةِ الوليد بن حسان بفتح تاء الخطاب[٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ ذَوِي خَطَرٍ وكَثْرةٍ ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ من قبلِ إرسالِك ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا﴾ أوْرَدْنا أخبارَهم وآثارَهم ﴿عَلَيْكَ﴾ كنوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وهم أكثرُ الرسُل عليهم الصلاة والسلام؛ أخرج الإمام أحمد عن أبي ذرٍّ ﷺ قال: قلتُ: يا رسول الله، كم عِدَّةُ الأنبياء؟ قال: «مئة ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألفاً، الرُّسُلُ مِن ذلك ثلاث مئة وخمسةَ عشرَ، جمًّا غفيراً»[٤]. والظاهرُ أنَّ المراد بالرسول في الآية ما هو أخصُّ من النبيِّ، وربما يُوهِم صنيعُ القاضي أنَّ المراد به ما هو مساوٍ للنبيِّ[٥].

وأيًّا ما كان لا دلالةَ في الآية على عدم علمِه ﷺ بعدَدِ الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاةُ والسلامُ كما توهَّم بعضُ الناس، وردَّ لذلك خبرَ الإمام أحمد، وجَرَى بيننا وبينَه من النزاع ما جرى، وذلك لأنَّ المنفيَّ القصُّ، وقد علمتَ معناه،

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٣.
(٢) النشر ٢/ ٢٠٨ عن يعقوب، والكلام من البحر ٧/ ٤٧٧.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٧٠، والبحر ٧/ ٤٧٧.
(٤) مسند أحمد (٢٢٢٨٨)، وإسناده ضعيف جدًّا، وسلف ١٧/ ٣٥٩.
(٥) ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٣٨٤.

فلا يلزمُ مِن نفْي ذلك نفْيُ ذكرِ أسمائهم، ولو سُلِّم فلا يلزم من نفْي ذكر الأسماء نفْيُ ذكرِ أنَّ عدَّتَهم كذا من غير تعرُّضٍ لذكرِ أسمائهم، على أنَّ النفْيَ بـ «لم»، وهي على الصحيح تقلِبُ المضارعَ ماضياً، فالمنْفيُّ القصُّ في الماضي ولا يلزم من ذلك استمرارُ النفْي، فيجوزُ أن يكونَ قد قُصُّوا عليه عليه الصلاة والسلام جميعاً بعدَ ذلك ولم يَنْزِل ذلك قرآناً، وأظهرُ مِن ذلك في الدلالة على عدم استمرارِ النفْي قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] لتبادُرِ الذهن فيه إلى أنَّ المرادَ: لم نَقْصُصْهم عليك من قبلُ، لمكانِ: (قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ).

وبالجملة الاستدلالُ بالآية على أنَّه ﷺ لم يَعْلَم عدَّةَ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ولا عَلِمَها بعدُ = جهلٌ عظيمٌ بل خِذْلانٌ جسيمٌ، نعوذ بالله تعالى مِن ذلك.

وأخرج الطبرانيُّ في «الأوسط» وابنُ مردويه عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه في قوله تعالى: (وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)، قال: بعث الله تعالى عبداً حبشيًّا نبيًّا فهو ممن لم يَقصُصْ على محمدٍ ﷺ[(١)].

وعن ابن عباس بلفظِ: إنَّ الله تعالى بعث نبيًّا أسود في الحبش، فهو ممن لم يقصصْ عليه عليه الصلاة والسلام[(٢)].

والمرادُ بذلك على نحو ما مرَّ أنَّه لم تُذْكر له ﷺ قِصَصُه وآثارُه ولا أُورِدَت عليه أحوالُه وأخبارُه كما كان في شأن موسى وعيسى وغيرهما من المرسلين عليهم الصلاة والسلام، ولا يمكن أن يقال: المراد أنه لم يُذْكَر له ﷺ بعثةُ شخصٍ موصوفٍ بذلك، إذ لا يساعِدُ عليه اللفظ، وأيضاً لو أُرِيد ما ذُكر فمن أين عَلِم عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه أو ابنُ عباس ذلك؟ وهل يعوِّل[(٣)] بابُ مدينة العِلم

---

(١) المعجم الأوسط (٩٣١٥)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٥٧، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٣٦٨. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٠٢: فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف.

(٢) نقله المصنف من البحر ٧/ ٤٧٧-٤٧٨، وهو في المحرر الوجيز ٤/ ٥٧٠ بلفظ مختلف، ولم نقف عليه في مصدر آخر.

(٣) في (م): يقول. وهو تصحيف.

عَلى عِلْمٍ لم يُفَضْ عليه من تلك المدينة؟ حاشاه ثم حاشاه، وكذا ابنُ عمِّه العباسِ عبدُ الله.

واستشكل هذا الخبرُ بأنَّ فيه رسالةَ العبد، وقد قالوا: العبد لا يكون رسولاً. وأجيب بأنَّ العبدَ فيه ليس بمعنى المملوك، وهو الذي لا يكون رسولاً لنقصانِ تصرُّفِه ونفرةِ النفوس عن اتِّباعه، بل هو أحدُ العبيد بمعنى السودان عُرْفاً.

ولو قيل: إنَّ العبدَ بهذا المعنى لا يكونُ رسولاً أيضاً لنفْرةِ النفوس عن اتباعِه كنفرتها عن اتباعِ المملوك.

قلنا: على تقديرِ تسليم النفرة إنما هي فيما إذا كان الإرسالُ لغير السودان، وأما إذا كان الإرسال للسودان فليست هناك نفرةٌ أصلاً.

وظاهرُ لفظ ابن عباس أنَّ ذلك الأسود إنما بُعث في الحبش، والتزامُ أنه لا يكونُ رسولٌ من السودان أولادِ حام مما لا يُساعِد عليه الدليلُ؛ لأنَّه إن كانت النفرةُ مانعةً من الإرسال فهي لا تتحقَّقُ فيما إذا كان الإرسالُ إلى بني صِنْفه، وإن كان المانعُ أنه لا يوجَدُ متأهِّلٌ للإرسال في بني حام لنقصانِ عقولهم وقلَّةِ كَمالِهم، فدعوَى ذلك جهلٌ، والله تعالى أعلم حيثُ يجعل رسالته، وكم رأينا في أبناءِ حام مَن هو أعقلُ وأكملُ مِن كثيرٍ من أبناءِ سام ويافث، وإن كان قد ورَدَ قاطعٌ من نبيِّنا ﷺ أنه لا يكونُ من أولئك رسولٌ، فليُذْكَر، وأنَّى به، ثمَّ إنَّ أمرَ النبوَّةِ فيمن ذُكر أهونُ من أمر الرسالة كما لا يخفى، وكأنه لمجموعِ ما ذَكَرْنا قال الخفاجيُّ عليه الرحمة: في صحَّة الخبرِ نظرٌ[1].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ أي: وما صحَّ وما استقامَ لرسولٍ من أولئك الرسُل ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ بمعجزةٍ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فالمعجزاتُ على تشعُّبِ فنونِها عطايا من الله تعالى قَسَمها بينهم حسبَما اقتضَتْه مشيئتُه المبنيةُ على الحِكَم البالغةِ، كسائر القِسَم ليس لهم اختيارٌ في إيثارِ بعضِها والاستبدادِ بإتيانِ المقتَرَح بها.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٨٤.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بالعذابِ في الدنيا والآخرةِ ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ بإنجاءِ المحقِّ وإثابتِه وإهلاكِ المُبطِل وتعذيبِه ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقتَ مجيء أمرِ الله تعالى، اسمُ مكانٍ استُعِيرَ للزمان.

﴿ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ المتمسِّكُون بالباطل على الإطلاق فيدخُلُ فيهم المعانِدُون المقتَرِحُون دخولاً أوَّليًّا.

ومن المفسِّرين من فسَّر المبطلين بهم، وفسَّر أمرَ الله بالقيامة، ومنهم من فسَّره بالقتل يومَ بدر، وما ذكرنا أَولى.

وأبعَدُ ما رأينا في الآية أنَّ المعنى: فإذا أرادَ اللهُ تعالى إرسالَ رسولٍ وبعثةَ نبيٍّ قَضَى ذلك وأنفذَه بالحقِّ وخَسِرَ كلُّ مُبطِل وحَصَل على فَسادِ آخرتِه.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ المرادُ بها الإبلُ خاصَّةً كما حُكي عن الزجَّاج، واختاره صاحبُ «الكشاف»[1]، واللامُ للتعليل لا للاختصاص، فإنَّ ذلك هو المعروفُ في نظير الآية، أي: خَلَقَها لأجْلِكم ولمصلَحَتِكم.

وقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ إلخ، تفصيلٌ لِما دلَّ عليه الكلامُ إجمالاً، ومن هنا جَعَل ذلك بعضُهم بدَلاً مما قبلَه بدلَ مفصَّلٍ من مجمَلٍ بإعادةِ حرفِ الجرِّ، و«من» لابتداءِ الغاية، أي: ابتداء تعلّق الركوب بها، أو تبعيضيةٌ، وكذا «من» في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾. وليس المرادُ على إرادة التبعيض أنَّ كلًّا من الركوب والأكلِ مختصٌّ ببعضٍ معيَّنٍ منها بحيثُ لا يجوز تعلُّقُه بما تعلَّقَ به الآخَرُ، بل على أنَّ كلَّ بعضٍ منهما صالحٌ لكلٍّ منهما. نعم كثيراً ما يعدُّون النَجائِبَ من الإبِلِ للركوب.

والجملة على ما ذهب إليه الجلبي عطفٌ على المعنى، فإنَّ قولَه تعالى: «لتركبوا منها» في معنى: منها تركبون، أو أنَّ «منها تأكلون» في معنى: لتأكلوا منها، لكن لم يُؤْتَ به كذلك لنكتةٍ.

وقال العلَّامة التفتازاني: إنَّ هذه الجملةَ حاليةٌ، لكن يَرِدُ على ظاهرِه أنَّ فيه

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٣٧٨، والكشاف ٣/ ٤٣٨.

عطف الحال على المفعولِ له، ولا مَحِيصَ عنه سوى تقديرِ معطوفٍ، أي: خلق لكم الأنعامَ منها تأكلون، ليكونَ من عطفِ جملةٍ على جملةٍ.

وتعقَّبه الخفاجي[1] بقوله: لم يلُحْ لي وجهُ جعْلِ هذه الواو عاطفةً محتاجةً إلى التقديرِ المذكورِ، مع أنَّ الظاهرَ أنها واوٌ حاليةٌ سواءٌ قلنا: إنها حالٌ من الفاعل، أو المفعول.

والمنساقُ إلى ذهني العطفُ بحسب المعنى، ولعلَّ اعتبارَه في جانب المعطوف أيسرُ، فيُعْتَبر أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أي: غيرُ الركوب والأكلِ كالألبانِ والأوبارِ والجُلودِ، ويقال: إنه في معنى: ولتَنْتَفِعوا بمنافعَ فيها، أو نحو ذلك.

﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: أمراً ذا بالٍ تهتمُّون به، وذلك كحَمْلِ الأثقالِ من بلدٍ إلى بلدٍ، وهذا عطفٌ على «لتركبوا منها» جارٍ[2] على نمطه.

وكان الظاهرُ المزاوَجةَ بين الفوائدِ المحصَّلةِ من الأنعام، بأن يُؤْتى باللام في الجميعِ أو تُتْرَك فيه، لكن عُدِلَ إلى ما في النظم الجليل لنكتةٍ؛ قال صاحبُ «الكشف»: إنَّ الأنعام هاهنا لَمَّا أُرِيدَ بها الإبِلُ خاصَّةً جُعل الركوبُ وبلوغُ الحاجة من أتمِّ الغرض منها، لأنَّ جُلَّ منافعِها الركوبُ والحملُ عليها، وأما الأكلُ منها والانتفاعُ بأوبارِها وألبانِها بالنسبة إلى ذينكِ الأمرينِ فنَزرٌ قليلٌ، فأُدخِل اللامُ عليهما وجُعِلا مكتَنِفَينِ لِما بينهما تنبيهاً على أنَّه أيضاً مما يصلُح للتعليل ولكن قاصراً عنهما، وأما الاختصاصُ المستفادُ من قوله تعالى: «ومنها تأكلون» فلأنَّها من بين ما يُقصَد للركوبِ ويُعَدُّ للأكل، فلا ينتَقِضُ بالخيل على مذهبِ مَن أباحَ لَحمَها، ولا بالبقرِ.

وقال صاحبُ «الفرائد»: إنما قيل: «ومنها تأكلون ولكم فيها منافع» ولم يُقَل: لتأكلوا منها ولتصلوا إلى المنافع؛ لأنَّهم في الحال آكِلُون وآخذُون المنافعَ، وأما الركوبُ وبلوغُ الحاجةِ فأمران منتَظَران، فجيء فيهما بما يدلُّ على الاستقبالِ.

---

(١) في الحاشية ٧/ ٣٨٤، وما قبله منه.

(٢) في (م): جاء.

وتعقَّب بأنَّ الكلَّ مستقبَلٌ بالنسبة إلى زَمَنِ الخَلْق.

وقال القاضي: تَغْيِيرُ النظم في الأكل؛ لأنَّه في حيِّز الضرورة[1].

وقيل في توجيهه: يعني أنَّ مدخولَ الغرض لا يلزم أن يترتَّبَ على الفعلِ، فالتغييرُ إلى صورةِ الجملة الحاليةِ مع الإتيانِ بصيغةِ الاستمرار للتنبيهِ على امتيازِه عن الركوبِ في كونِه من ضرورياتِ الإنسان، ويطَّرِدُ هذا الوجهُ في قوله تعالى: «ولكم فيها منافع» لأنَّ المرادَ منفعةُ الشرب واللبس، وهذا مما يلْحَقُ بالضروريات وهو لا يضُرُّ. نعم فيه دغدغةٌ لا تخفى.

وقال الزمخشريُّ: إنَّ الركوبَ وبلوغَ الحاجةِ يصحُّ أن يكونا غرضَ الحكيم جلَّ شأنُه لِما فيهما من المنافع الدينية كإقامةِ دينٍ وطلبِ علمٍ واجبٍ أو مندوبٍ؛ فلذا جيء فيهما باللام، بخلافِ الأكلِ وإصابةِ المنافع فإنَّهما من جنس المباحات التي لا تكون غرضَ الحكيم[2].

وهو مبنيٌّ على مذهبِه من الربط بين الأمرِ والإرادةِ، ولا يصحُّ أيضاً لأنَّ المباحاتِ التي هي نعمةٌ تصِحُّ أن تكونَ غرضَ الحكيم جلَّ جلالُه عندهم، ويا ليت شعري ماذا يقول في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]؟!

نعم لو ذَكَر أنَّه لاشتماله على الغرضِ الدينيِّ كان أنسبَ بدخولِ اللام، لكان وجهاً إن تمَّ.

وقيل: تغييرُ النظمِ الجليلِ في الأكل لمُراعاةِ الفواصلِ كما أنَّ تقديمَ الجارِّ والمجرورِ لذلك، وأما قولُه تعالى: «ولكم فيها منافع» فكالتابع للأكل فأُجرِيَ مُجراه. وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ توطِئةٌ لقولِه سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ليجمَعَ بين سفائنِ البَرِّ وسفائن البحر، فكأنه قيل: وعليها في البرِّ وعلى الفُلك في البحرِ تحملون، فلا تكرارَ.

---

(١) تفسير البيضاوي ٧/ ٣٨٥.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٣٨-٤٣٩.

وفي «إرشاد العقل السليم»: لعلَّ المرادَ بهذا الحمل حملُ النساء والولدانِ عليها بالهودَج، وهو السرُّ في فصله عن الركوب[1].

وتقديم الجارِّ - قيل - لمراعاةِ الفواصل كتقديمه قبلُ. وقيل: التقديمُ هنا وفيما تقدَّم للاهتمام.

وقيل: «وعلى الفلك» دون: في الفلك كما في قوله تعالى: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] لأنَّ معنى الظرفيةِ والاستعلاءِ موجودٌ فيها فيصحُّ كلٌّ من العبارتين، والمرجِّحُ لـ «على» هنا المشاكلةُ.

وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّ المرادَ بالأنعام الأزواجُ الثمانية، فمعنى الركوبِ والأكل منها تعلُّقُهما بالكلِّ، لكنْ لا على أنَّ كلًّا منهما مختصٌّ ببعضٍ معيَّنٍ منها بحيثُ لا يجوز تعلُّقُه بما تعلَّق به الآخرُ، بل على أنَّ بعضَها يتعلَّقُ به الأكلُ فقط كالغنم، وبعضَها يتعلَّقُ به كِلاهما كالإبل.

ومنهم من عدَّ البقرَ أيضاً، وركوبُه معتادٌ عند بعضِ أهل الأخبية.

وأدرَجَ بعضُهم الخيلَ والبغالَ وسائرَ ما يُنتفَعُ به من البهائم في الأنعام، وهو ضعيفٌ.

ورجِّح القولُ بأنَّ المرادَ الأزواجُ الثمانية على القولِ المحكيِّ عن الزجَّاج من أنَّ المرادَ الإبلُ خاصَّةً[2] = بأنَّ المقامَ مقام امتنانٍ، وهو مقتضٍ للتعميم.

والظاهرُ ذاك[3]، وكون المقام مقامَ امتنانٍ غيرُ مسلَّم، بل هو مقامُ استدلالٍ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] كما يُشعِر به السياقُ، ولا يأباه ذكرُ المنافع فإنه استطراديٌّ.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: دلائلَه الدالَّةَ على كمالِ شؤونه جلَّ جلالُه ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: فأيَّ آيةٍ من من تلك الآياتِ الباهرةِ ﴿تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ فإنَّ كلًّا منها من

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ٢٨٦.
(٢) معاني القرآن ٤/ ٣٧٨.
(٣) أي: ما ذهب إليه الزجاج. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٣٧٤.

الظهور بحيث لا يكاد يَجتَرِئُ على إنكارِها مَن له عقلٌ في الجملة. فـ «أي» للاستفهامِ التوبيخيِّ وهي منصوبةٌ بـ «تنكرون»، وإضافةُ الآيات إلى الاسمِ الجليلِ لتربيةِ المهابة وتهويلِ إنكارِها، وتَذْكيرُ «أيّ» في مثلِ ما ذُكِر هو الشائعُ المستفيضُ، والتأنيث قليلٌ ومنه قوله:

بـأيِّ كـتـابٍ أم بـأيَّـةِ سُـنَّـةٍ ترى حبَّهم عاراً عليَّ وتَحْسِبُ[1]

قال الزمخشريُّ: لأنَّ التفرقةَ بين المذكَّر والمؤنَّثِ في الأسماء غيرِ الصفات نحو: حمارٍ وحمارةٍ، غريبٌ، وهي في «أيّ» أغربُ لإبهامه[2]؛ لأنَّه اسمُ استفهامٍ عمَّا هو مبهمٌ مجهولٌ عندَ السائلِ، والتفرقةُ مخالِفةٌ لِما ذُكر؛ لأنَّها تقتضي التمييْزَ بينَ ما هو مؤنَّثٌ ومذكَّرٌ، فيكونُ معلوماً له.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أي: أقَعَدُوا فلم يسيروا؟ على أحدِ الرأيين ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المهلَكِة، وقولُه تعالى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ إلخ استئنافٌ نظيرَ ما مرَّ في نظيره أوَّلَ السورة، بل أكثرُ الكلامِ هناك جارٍ هاهنا.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ «ما» الأولى نافيةٌ، أو استفهاميةٌ في معنى النفْي في محلِّ نصبٍ بـ «أغنى»، والثانيةُ موصولةٌ في موضعِ رفعٍ به، أو مصدريةٌ والمصدرُ الحاصلُ بالتأويلِ مرفوعٌ به أيضاً. أي: لم يُغنِ عنهم، أو: أيَّ شيء أغنَى عنهم، الذي كَسَبوه أو كَسْبُهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزاتِ، أو بالآيات الواضحاتِ الشاملةِ لذلك ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ذُكر فيه ستةُ أوجُهٍ:

الأول: أنَّ المرادَ بـ «العلم» عقائدهم الزائغة وشُبَههم الداحضة فيما يتعلَّقُ بالمبدأ والمعادِ وغيرهما، أو عقائدهم المتعلِّقة بأحوالِ الآخرة كما هو ظاهرُ كلام «الكشاف»[3]، والتعبيرُ عن ذلك بـ «العلم» على زعمِهم؛ للتهكُّم كما في قوله تعالى:

---

(١) البيت للكميت بن زيد الأسدي، وهو في ديوانه ص٥١٦.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٣٩، وما بعده من كلام الشهاب في الحاشية ٧/ ٣٨٥.
(٣) ٣/ ٤٣٩.

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النمل:٦٦] والمعنى أنَّهم كانوا يفرَحون بذلك ويستَحْقِرون له علمَ الرُّسُل عليهم السلام ويدفعون به البيِّناتِ.

الثاني: أنَّ المرادَ به علمُ الفلاسفة والدهريِّين من بني يونان[1] على اختلافِ أنواعِه، فكانوا إذا سمعوا بوحْي الله تعالى دفعوه وصغَّروا علمَ الأنبياء عليهم السلام إلى ما عندهم من ذلك. وعن سقراط أنَّه سمع بموسى عليه الصلاةِ والسلام، وقيل له: لو هاجرتَ إليه، فقال: نحن قومٌ مهذَّبون فلا حاجةَ لنا إلى مَن يهذِّبنا.

والزمانُ متشابهٌ فقَدْ رأينا مَن تَرَك متابَعةَ خاتم المرسَلين ﷺ واستنكَفَ عن الانتساب إلى شريعة أحدٍ منهم فَرَحاً بما لَحِسَ مِن فَضَلات الفلاسفة، وقال: إنَّ العلمَ هو ذاك دونَ ما جاءَ به الرسُلُ صلواتُ الله تعالى وسلامُه عليهم أجمعين.

الثالث: أنَّ أصلَ المعنى: فلمَّا جاءتهم رسلُهم بالبيناتِ لَمْ يفرَحُوا بما جاءهم من العلم، فوُضِع[2] موضعَه: فرحوا بما عندهم من الجهل، ثم سمِّي ذلك الجهلُ علماً لاغتباطهم به، ووَضْعِهم إياه مكانَ ما ينبغي لهم من الاغتباط بما جاءهم من العلم. وفيه التهكُّم بفرطِ جهلهم والمبالغةُ في خلوِّهم من العلم.

وضميرُ «فرحوا» و«عندهم» على هذه الأوجُهِ للكفَرة المحدَّثِ عنهم.

الرابع: أنْ يُجْعَل ضميرُ «فرحوا» للكَفَرة وضميرُ «عندهم» للرسُلِ عليهم السلام، والمرادُ بـ «العلم» الحقُّ الذي جاء المرسَلون به، أي: فرِحوا بما عندَ الرسل من العلم فَرَحَ ضَحِكٍ منه واستهزاءٍ به، وخلاصتُه أنَّهم استهزؤوا بالبيناتِ وبما جاء به الرسُلُ من عِلم الوحْي، ويؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٨٣﴾.

الخامس: أن يجعل الضميرانِ للرسُل عليهم السلام، والمعنى أنَّ الرسلَ لَمَّا رأوا جهْلَ الكَفَرةِ المتمادي واستهزاءَهم بالحقِّ، وعَلِموا سوْءَ عاقبتِهم وما يلحَقُهم من العقوبة على جهلِهم واستهزائِهم، فَرِحُوا بما أُوْتُوا من العلم وشَكَروا اللهَ تعالى، وحاق بالكافرين جزاءُ جهلِهم واستهزائِهم، وحُكي هذا عن الجُبائي[3].

---

(١) ورد في هامش الأصل: «يَونان» بفتح الياء.
(٢) وقع في الأصل و(م): فوضعوا، والمثبت هو الصواب، ينظر الكشاف ٣/ ٤٣٩.
(٣) مجمع البيان ٢٤/ ٢١٩.

السادس: أن يُجعلَ الضميران للكُفَّار، والمرادُ بـ «ما عندهم من العلم»: علمُهم بأمورِ الدنيا ومعرفتُهم بتدبيرِها كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠] فلمَّا جاءهم الرسُلُ بعلم الديانات وهي أبعدُ شيء من علمِهم ـ لبَعْثِها على رفضِ الدنيا والظلف عن الملاذِّ والشهواتِ ـ لم يلتفِتوا إليها وصغَّروها واستهزؤوا بها، واعتقدوا أنَّه لا علمَ أنفعُ وأجلبُ للفوائد من علمهم ففَرِحوا به.

قال صاحبُ «الكشف»: والأرجحُ من بينِ هذهِ الأوجُه الستة الثالثُ، ففيه التهكُّم والمبالغةُ في خلوِّهم من العلم، ومشتَمِلٌ على ما يشتَمِلُ عليه الأولُ وزيادةٍ، سالمٌ عن عدم الطِّباقِ للواقع كما في الثاني، وعن قُصُورِ العبارة عن الأداء كالرابع، وعن فكِّ الضمائر كما في الخامسِ، والسادسُ قريبٌ لكنَّه قاصِرٌ عن فوائدِ الثالث. انتهى، فتأمَّله جدًّا.

وأبو حيان استحسَنَ الوجهَ السادسَ، وتعقَّبَ الوجهَ الثالثَ بأنَّه لا يعبَّر بالجملة الظاهرِ كونُها مُثبَتةً عن الجملة المنفيةِ إلَّا في قليلٍ من الكلام، نحو: شرٌّ أهرَّ ذا نابٍ، على خلاف فيه، ولَمَّا آل أمرُه إلى الإثباتِ المحصورِ جاز، وأما الآية فينبغي أن لا تُحمَلَ على القليل لأنَّ في ذلك تخليطاً لمعاني الجُمَلِ المتباينةِ فلا يوثق بشيء منها(١).

وأنتَ تَعلم أنه لا تباينَ معنًى بينَ «لم يفرحوا بما جاءهم من العلم» و(فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ) على ما قرِّر.

نعم هذا الوجه عندي مع ما فيه من حُسن لا يخلو عن بُعد، وكلامُ صاحب «الكشف» لا يخلو عن دغْدَغَةٍ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ شدَّة عذابِنا، ومنه قولُه تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف: ١٦٥] ﴿قَالُوٓا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ يعنونَ الأصنامَ، أو سائرَ آلهتِهم الباطلةَ.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٧٩، وتحرف «الإثبات» في البحر إلى: «الإيثاء»، والمثبت من الدر اللقيط بهامش البحر.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عندَ رؤية عذابِنا؛ لأنَّ الحكمةَ الإلهيةَ قَضَتْ أن لا يُقْبلَ مثلُ ذلك الإيمان، و«إيمانهم» رُفِع بـ «يك» اسماً لها، أو فاعلُ «ينفعهم» وفي «يك» ضميرُ الشأن، على الخلافِ الذي في: كان يقومُ زيدٌ. ودخل حرفُ النفْي على الكون لا على النفع لإفادةِ معنَى نفْي الصحة، فكأنَّه لم يصحَّ ولم يستقم حكمةُ نفْعِ إيمانِهم إياهم عندَ رؤيةِ العذاب.

وهاهنا أربعة فاءات: فاءُ: «فما أغنى»، وفاءُ: «فلما جاءتهم»، وفاء: «فلمَّا رأوا»، وفاء: «فلم يك»، فالفاءُ الأولى مثلُها في نحو قولك: رُزق المالَ فمَنَع المعروفَ، فما بعدَها نتيجةٌ مآليةٌ لِما كانوا فيه من التكاثُر بالأموالِ والأولادِ والتمتُّعِ بالحُصون ونحوِها.

والثانية تفسيريةٌ مثلُها في قولك: فَلم يُحسِن إلى الفقراء، بعدَ: فمَنَعَ المعروف، في المثال، فما بعدها إلى قوله تعالى: (وَحَاقَ بِهِم) إيضاحٌ لذلك المجمَلِ، وأنه كيف انتهى بهم الأمرُ إلى عكس ما أمَّلوه، وأنَّهم كيف جَمَعوا واحتَشَدوا وأوسَعُوا في إطفاء نورِ الله، وكيف حاقَ المكرُ السيئُ بأهله، إذ كان في قوله سبحانه: (فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم) إيماءٌ بأنَّهم زَاوَلوا أن يجعلوها مُغْنِيةً.

والثالثةُ للتعقيب، وجَعْلِ ما بعدَها تابعاً لِما قبلَها واقعاً عقيبَه، فـ «لما رأوا بأسنا» مترتِّبٌ على قوله تعالى: «فلما جاءتهم» إلخ تابعٌ له؛ لأنَّه بمنزلةِ: فكَفَروا، إلا أنَّ «فلما جاءتهم» الآيةَ بيانُ كفرٍ مفصَّلٌ مشتملٌ على سوءِ معاملتِهم وكفرانِهم بنعمةِ الله تعالى العظمَى من الكتاب والرسول، فكأنه قيل: فكَفَروا، فلما رَأَوا بأسَنا آمنوا.

ومثلها الفاءُ الرابعةُ، فما بعدها عطفٌ على «آمنوا»؛ دلالةً على أنَّ عدمَ نفعِ إيمانِهم وردَّه عليهم تابعٌ للإيمان عند رؤيةِ العذاب، كأنه قيل: فلمَّا رأوا بأسَنا آمنوا، فلم ينفعْهم إيمانُهم، إذ النافعُ إيمانُ الاختيار.

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أي: سنَّ الله تعالى ذلك ـ أعني عدمَ نفع الإيمان عندَ رؤية البأسِ ـ سنةً ماضيةً في العباد، وهي من المصادرِ المؤكِّدة كـ :

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٦]، و: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، وجوِّز انتصابُها على التحذير، أي: احذروا يا أهلَ مكة سنةَ الله تعالى في أعداءِ الرُّسُل.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾ أي: وقتَ رؤيتهم البأسَ، على أنَّه اسمُ مكانٍ قد استُعِيرَ للزمان كما سلف آنفاً، وهذا الحكم خاصٌّ بإيمان البأس، وأمَّا توبةُ البأس فهي مقبولةٌ نافعةٌ بفضل الله تعالى وكرمِه، والفرقُ ظاهرٌ.

وعن بعض الأكابر أنَّ إيمانَ البأس مقبولٌ أيضاً، ومعنى «فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا» أنَّ نفسَ إيمانِهم لم ينفعْهم، وإنما نَفَعهم اللهُ تعالى حقيقةً به، ولا يخفى عليك حالُ هذا التأويل، وما كان من ذلك القبيل، والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

ومن باب الإشارة في بعض الآيات على ما أشار إليه بعضُ السادات: ﴿حمٓ﴾ إشارةٌ إلى ما أفيضَ على قلبِ محمد ﷺ من الرحمن، فإنَّ الحاءَ والميمَ من وَسَط الاسمَيْنِ الكريمَيْنِ، وفي ذلك أيضاً سرٌّ لا يجوز كشفُه، ولما صُدِّرت السورةُ بما أشارَ إلى الرحمة وأنها وصفُ المدعوِّ إليه والداعي، ذُكِر بعدُ مِن صفاتِ المدعوِّ إليه ـ وهو الله عزَّ وجلَّ ـ ما يدلُّ على عِظَم الرحمة وسَبْقِها، وفي ذلك من بِشارةِ المدعوِّ ما فيه.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ فيه إشارةٌ إلى شرفِ الإيمان وجلالةِ قَدْرِ المؤمنين، وإلى أنَّه ينبغي للمؤمنين(١) من بني آدم أن يستغْفِرَ بعضُهم لبعضٍ، وفي ذلك أيضاً من تأكيدِ الدلالة على عِظَم رحمة الله عزَّ وجلَّ ما لا يخفى.

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بأنْ يكونَ غيرَ مشوبٍ بشيءٍ من مقاصدِ الدنيا والآخرة.

---

(١) كلمة «للمؤمنين» سقطت من الأصل.

﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ قيل: في إطلاقِ «الروح» إشارةٌ إلى روح النبوة، وهو يُلقَى على الأنبياء، وروحِ الولاية ويُلقَى على العارفين، ورُوحِ الدِّراية ويُلقَى على المؤمنين الناسِكين.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ قيل: التلاقِي مع الله تعالى ولا وجودَ لغيره تعالى، وهو مقامُ الفناء المشارُ إليه بقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ من قبورِ وجودِهم ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ إذ ليس في الدار غيرُه ديَّارٌ.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من التجلِّي ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ في بذل الوجود للمعبودِ ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ فتنالُ كلُّ نفسٍ من التجلِّي بقَدْرِ بذلِها من الوجود لا أقلَّ من ذلك.

و﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ هذه قيامةُ العوامِّ المؤجَّلةُ، ويُشير إلى قيامةِ الخواصِّ المعجَّلةِ لهم، فقد قيل: إنَّ لهم في كل نفَسٍ قيامةٌ من العتابِ والعقابِ والثوابِ والبِعادِ والاقترابِ، وما لم يكن لهم في حسابٍ، وخَفَقانُ القلب يَنْطقُ، والنحولُ يُخبِر، واللونُ يُفْصِح، والمَشوقُ يستر، ولكنَّ البلاءَ يظهَر، وإذا أزِفَ فناءُ الصفات بلغت القلوبُ الحناجرَ، وشهدَت العيونُ بما تُخفي الضمائرُ.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ خائنةُ أعينِ المحبِّين استحسانُهم[1] تعمُّدَ النظرِ إلى غيرِ المحبوب باستحسانٍ واستلذاذٍ، وما تخفيه الصدور من متمنَّياتِ النفوس ومستحسَنات القلوب ومرغوباتِ الأرواح.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قيل: أي: اطلبوني مني أُجِبْكم فتجدوني، ومَن وَجَدني وجدَ كلَّ شيء، فالدعاءُ الذي لا يُرَدُّ هو هذا الدعاء، ففي بعض الأخبار: من طلبني وجدني[2].

---

(١) ليست في الأصل.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٩٣ من كلام سهل بن عبد الله، وذكره الغزالي في الإحياء ٤/ ٣٢٤ مرفوعاً من حديث أبي الدرداء ﷺ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ دعائي وطلبي ﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ الحرمانِ والبعدِ منِّي ﴿دَاخِرِينَ﴾ ذليلين مهينين.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ فيه إشارةٌ إلى ليلِ البشرية ونهارِ الروحانية، وذُكر أنَّ سكونَ الناسِ في الليل المعروفِ على أقسام: فأهلُ الغفلة يسكُنُون إلى استراحة النفوس والأبدان، وأهلُ الشهوةِ يسكُنون إلى أمثالهم وأشكالِهم من الرجال والنسوان، وأهلُ الطاعة يسكُنون إلى حلاوةِ أعمالِهم وقوَّة آمالهم، وأهلُ المحبة يسكُنون إلى أنينِ النفوس وحَنين القلوب وضَرَاعة الأسرار واشتعالِ الأرواح بالأشواق التي هي أحرُّ من النار.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا﴾ يُشير إلى أنَّه تعالى جعل أرضَ البشرية مقرًّا للروح ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: سماءَ الروحانية مبنيةً عليها ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ بأن جَعَلكم مرايا جمالِه وجلالِه، وفي الخبر: «خلق الله تعالى آدم على صورته»[(١)] وفي ذلك إشارةٌ إلى ردِّ: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] ولله تعالى مَن قال:

ما حطَّك الواشون عن رتبةٍ عندي ولا ضرَّك مغتابُ
كأنَّهم أثنَوا ولم يعلَموا عليك عندي بالذي عابوا[(٢)]

والكافرُ لسوء اختياره الْتَحَقَ بالشياطين وصار مظهراً لصفاتِ القهر من ربِّ العالمين، وما ظلمهم اللهُ ولكن كانوا هم الظالمين.

تم الكلامُ على سورة المؤمن، والحمدُ لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً.

---

(١) سلف ٢/ ٩٠.
(٢) سلف ١٠/ ٤٢٥.